التاريخ السياسي والاقتصادي

لإفريقيا

فيما وراء الصحراء

من نهاية القرن الخامس عشر إلى بداية القرن الثامن عشر

تأليف

الدكتور الهادي المبروك الدالي

الناشر

الدار المصرية اللبنانية

التاريخ السياسي والاقتصادي

لإفريقيا

فيما وراء الصحراء

من نهاية القرن الخامس عشر إلى بداية القرن الثامن عشر

الناشر : **الدار المصرية اللبنانية**
١٦ ش عبد الخالق ثروت ـ القاهرة
تليفون : ٣٩٢٣٥٢٥ ـ ٣٩٣٦٧٤٣
فاكس : ٣٩٠٩٦١٨ ـ برقياً . دار شادو
ص . ب : ٢٠٢٢ ـ القاهرة
رقم الإيداع : ١٠٦١٦ / ١٩٩٩
الترقيم الدولى : 5- 543 - 270 - 977
تجهيزات فنية : آو ـ تك
العنوان . ٤ ش بنى كعب ـ متفرع من السودان
تليفون : ٣١٤٣٦٣٢
طبع : آمون
العنوان : ٤ فيروز - متفرع من إسماعيل أباظة
تليفون . ٣٥٤٤٣٥٦ - ٣٥٤٤٥١٧
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة
الطبعة الأولى : ربع الثانى ١٤٢٠ هـ ـ أغسطس ١٩٩٩م

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى زوجتى التى تحملت معى الصعاب

إلى أبنائي

عبد المطلب

المعتصم

صهيب

أهدي هذا العمل

المقدمة

لم تكن اهتماماتي بتاريخ منطقة أفريقيا فيما وراء الصحراء وليدة اليوم، بل هى مخاض يعود إلى أكثر من سبع عشرة سنة منذ أن كنت طالباً بالدراسات العليا، بجامعة الفاتح، حين درست مادة عن غرب أفريقيا وعلاقاتها مع الشمال الأفريقي والشرق العربي، وماكنا نعانيه من ندرة فى المعلومات، فتأكد لى أن هذه المنطقة لم تدرس من قبل. . فبدأت أتلمس طريقي نحوها شيئا فشيئا، وسرعان ما أخذ تاريخها يسيطر على جل تفكيري واهتماماتي، فقمت بزيارات متكررة لها، فتوثقت علاقاتي مع شيوخ قبائلهم وعلمائهم وشبابهم، وأصبحت تمثل لي هاجسًا، أتفاعل مع أحداثه تفاعلي مع نفسي ووجدت أن هذه المنطقة تمثل عمقاً سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وفكرياً لم يجد اهتماماً من قبل الكتّاب العرب والأفارقة على السواء، وأن جل الذين كتبوا في هذا المجال أوروبيون، لم تتوفر فيهم نزاهة الباحثين، فكتبوا من وجهة نظر استعمارية محطة، ذلك بأن عملوا على تشويه ومسخ الشخصية الأفريقية، وإظهارها بمظهر التخلف والانحطاط، وبأن العرب هم السبب المباشر في تأخير وتخلف الأفارقة في الوقت، الذي أظهروا فيه دورهم الحضارى بكتابات مزيفة، لاتمت للحقيقة بصلة بأن زيفوا الوثائق والمخطوطات والنقوش بما يتماشى وتطلعاتهم الاستعمارية ولم يقفوا عند هذا الحد، بل أظهروا رغبتهم الجامحة فى إعادة استعمار المنطقة بالسيطرة على مقدرات شعوبها بتقديم تقارير لبلدانهم عن اقتصادها وخيراتها باستغلال كنوز أراضيها من ذهب ويورانيوم ونحاس ونفط ومياه وأخشاب وفواكه وطاقات بشرية، كل هذه الأمور مجتمعة كانت دافعاً لي على فضح مخططات الاستعمار، وإظهار الحقيقة على أكمل وجهها، وتبنى إعادة كتابة تاريخ أفريقيا فيما وراء الصحراء وبرؤية جديدة، تعتمد على المنهج العلمى التحليلى النقدي

الاستنباطي، معتمداً على تراثها الذي يضيع يوماً بعد يوم من مخطوطات ووثائق ونقوش .

وبذلك ركزت على التخصص في تاريخ هذه المنطقة فحضَّرت فيها درجتي الماجستير ودكتوراه الدولة، فقمت بدراسات ميدانية للمنطقة، جمعت خلالها كمـّا هائلاً من المخطوطات والوثائق، ووقفت على مدنها وقراها وآثارها ومعالمها التاريخية، وكتبت بعدها هذه الدراسة التي هى جزء من رسالة الدكتوراه وغيرها من الدراسات الأخرى التي تم نشرها، ومنها ماهو قيد الطبع، ومنها ماهو قيد الإنجاز . . وفى الحقيقة أن الدارس للتاريخ السياسى والاقتصادى لمنطقة أفريقيا فيما وراء الصحراء يجد نفسه أمام زخم سياسى، عبرت عنه الكيانات وأنظمة الحكم التى سادت فى المنطقة بتنظيمها الوزارى إلى وزارات، والوزارات إلى دواوين منظمة إلى حد كبير، وتقسيمها الإدارى إلى ولايات وأقاليم ومدن، وقرى، وادشار .

ومن بين هذه الكيانات والأنظمة، إمبراطورية «غانا الوثنية»، التي تأسست في أوائل القرن الحادي عشر الميلادي من قبل قبائل زنجية، التي حكمت من طرف برقاويين قدموا من ليبيا، فتولوا تسيير البلاد بتوليهم أرفع المناصب الوزارية في الإمبراطورية فقد كونوا عاصمة لهذه الإمبراطورية؛ عرفت بـ «كمبي صالح» أي مدينة صالح ، ومعنى ذلك أن العروبة أسبق من الإسلام في تلك المنطقة .

وهذه المنطقة دخلها الإسلام عن طريق الدعاة والفاتحين والتجار، وكان رائد الفاتحين عقبة بن نافع الفهري، ورائد الدعاة في هذه المنطقة علي بن يخلف النفوسي الليبي، الذي أسلم على يديه ملك غانا الوثقي «برو مند انه» وأطلق على نفسه «المسلماني»، وأسلم عدد من الرعية .

وقد شهدت البلاد حالة من الاستقرار الأمنى، انعكس على الحياة الاقتصادية، فقصدها التجار من الشمال الأفريقي وخاصة ليبيا والمغرب، وتونس فوفدوا من طرابلس وغدامس ومرزق وسلجماسة ومراكش وفاس والقيروان، عبر الصحراء الكبرى، التي لم تكن في يوم من الأيام حاجزاً بين أبناء الأمة

الواحدة، بل كانت جسر عبور وتلاحم حضاري، لقد حمل هؤلاء التجار التمر والملح وبضائع البحر المتوسط إلى تلك المناطق وكانوا يعودون بالذهب، حتى أن التجار المغاربة صكوا عملة مغربية ذهبية بالذهب الذي جلبوه من أفريقيا فيما وراء الصحراء.

إضافة إلى ذلك، شهدت المنطقة ازدهاراً في الزراعة، عبرت عنه كثرة مزروعاتها والذي سأتحدث عنها في هذه الدراسة .

واستمرت هذه الإمبراطورية اكثر من قرنين تناطح الزمن، إلى أن أسدل عليها الستار، بعد أن تعرضت لقبائل الصوصو القوية المراس، ففي أوائل القرن الثالث عشر الميلادي كان القدر ينتظر ميلاد أول مملكة إسلامية، ألا وهي مملكة مالي الإسلامية، التي قامت بها قبائل الماندنجو المسلمة القاطنة في مقاطعة كانجاب، والتي كان لها الدورالكبير والمؤثر في نشر الإسلام بأدغال افريقيا، فعملت على توسيع رقعة أراضيها وخاصة في عهد المصلح الملك منساموسي اليمني ـ الذي قدم أجداده عبر الهجرات العربية الأولى من اليمن ـ حتى وصلت حدودها إلى تخوم المغرب الأقصى وغرباً إلى المحيط الأطلسي وشرقاً إلى حدود برنو .

كما ارتبطت بعلاقات سياسية واقتصادية وحضارية مع الشمال الأفريقي، واستمر هذا الزخم إلى عام 1464 إفرنجي، عندما بدأ الوهن والضعف ينخر أوصالها .

فتزعمت قيادة المنطقة امبراطورية سنغاي على يد الملك سني علي بن ضياء الطرابلسي، إلا أن أهم ما يميز هذه الفترة اتساع نطاق سنغاي وثقل قبائلها البرابيش والطوارق والفلان والهوسا في المنطقة، والذي ستجدونه موثقًا في هذه الدراسة. والحقيقة التي يجب أن تبرز هي أن العرب جزء من أفريقيا، منذ أن كانت وكانوا وجوداً متكاملاً جغرافياً وبشرياً، فهما يجتمعان في الزمان والمكان، ولم يدخل العرب أفريقيا غازيين مستعمرين، وإنما تفاعلوا وامتزجوا وكونوا ممالك وإمبراطوريات مشتركة وصنعوا فكراً مشتركاً، وقد تبنت اللغات الأفريقية الحرف العربي، وأنتجت به في مختلف المعارف إنتاجاً عالي المستوى. هذا ولم يدخل الإسلام وينتشر فى أفريقيا فيما وراء الصحراء تحت القهر والتكبيل، ولا تحت

إغراء الخمور الأوروبية، ولكنه امتد وترعرع بالكلمة الطيبة والموعظة الحسنة في إخاء ومودة.

وقد ظلت اللغة العربية وهي أكبر اللغات الأفريقية، وأقدمها لغة العلم والثقافة لأكثر من ثمانية قرون حتى مطلع هذا القرن .

وهكذا.. فإن العلاقات الأفريقية العربية بقيت تقارع كل عمليات التزييف والتشويه لسبب واحد، هو أنها حقيقة تاريخية سطرتها الشعوب لاينسخها التجاهل، ولايغيرها التأويل ولايبدلها التفسير.

والجدير بالملاحظة أني قد انتهجت في هذا الدراسة المنهج التحليلي النقدي الاستنباطي وقسمتها إلى مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة .

الفصل الأول : التطور التاريخي للمنطقة : تناولت فيه تحديد المنطقة جغرافياً وتضاريسها، والممالك التي تعاقبت عليها غانا ومالي .

الفصل الثاني : الوضع السياسي في منطقة سنغاي فتحدثت عن القوى السياسية الأولى والانتماء السكاني ومراحل تكوينها، كما تناولت الحضور المغربي في المنطقة، وحالة المنطقة عند مجيئه، وتطرقت إلى قبائل الطوارق والفلان والبرابيش باعتبارها قوة سياسية في المنطقة.

الفصل الثالث : البنية الاقتصادية للمنطقة.

تعرضت فيه إلى الزراعة والثروة الحيوانية، والسمكية والمعادن والصناعة والحركة التجارية.

أما الخاتمة :

فقد تناولت فيها أهم النتائج التى توصلت إليها.

والجدير بالملاحظة أني أدرجت كافة المصادر والمراجع، التي اعتمدت عليها في إنجاز الدكتوراه من مخطوط ومطبوع، حتى التي لم تدخل في نطاق هذه الدراسة، وذلك لعدة أسباب، منها وأهمها:

أن هذه الدراسة هي رسالة دكتوراه قمت بتجزئتها إلى ثلاثة أجزاء فنشرت الجزء الأول على هيئة كتاب مستقل، والذي هو بين أيديكم؛ حتى لايحرم القارئ من الإطلاع على أكبر قدر ممكن من المصادر، التي لم تكن معروفة من قبل وأخص بذلك المخطوطات، رأيت أن أدرجها في هذه الدراسة، على أمل أن تخرج الدراسة الثانية، وهي التي تحمل عنوان :

«التاريخ الحضاري لمنطقة أفريقيا فيما وراء الصحراء من نهاية القرن الخامس عشر، وإلى بداية الثامن عشر، والدراسة الثالثة، والتي تحمل مختارات من وثائق تاريخ أفريقيا، فيما وراء الصحراء من نهاية القرن الخامس عشر وإلى بداية القرن الثامن عشر .

وفي الختام يغمرني الأمل في أن تساهم هذه الدراسة في التعريف بتاريخ المنطقة تعريفاً من شأنه أن يقرب إلى الدارسين والباحثين وغيرهم تاريخها، ويعكس رؤية واضحة عن ماضيها وحاضرها ومستقبلها، وحسبي أني كشفت معالم الطريق لمزيد من البحث والدراسة، ولا يسعنى إلا أن اتقدم بخالص شكري وعظيم تقديرى وامتناني إلى أستاذي الفاضل الدكتور محمد رزوق الذي منحنى كل جهده ووقته فى الإشراف على أطروحة دكتوراه الدولة. وليغفر لي الأخوة الدارسون والباحثون في تاريخ أفريقيا فيما وراء الصحراء، إذا كنت قد أخطأت أو نسيت، والله أسأل أن يعينني بنعمه على ذكره وأداء شكره، وأن يجنبني بفضله الخلل والزلل في القول والعمل، إنه سميع مجيب وهو حسبي ونعم الوكيل .

الهادي المبروك الدالي

طرابلس 1998/10/1 أفرنجي

□ الفصل الأول □

التطور التاريخى لمنطقة

السودان الغربى

1 - تحديد المنطقة جغرافياً.

2 - تضاريسها.

3 - الممالك التي قامت بها:

أ - غانا

ب - مالي

تحديد منطقة السودان الغربي :

كان العرب أول من أطلق كلمة السودان على الأقوام، التي تقطن جنوبي الصحراء الكبرى، إلا أنهم كانوا يطلقون هذا اللفظ أحياناً على كل السود الإفريقيين، الذين يسكنون في بعض المواقع، كما يتضح من الرسالة التي كتبها الجاحظ، وسماها «كتاب فخر السودان على البيضان»، أنهم يقصرون لفظ السودان على ذلك الجزء الواقع في غرب أفريقيا[1].

وذكر ابن عبد الحكم السودان عندما أشار إلى السوس، جنوب المغرب، بقوله: «وغزا عبيد الله الفهري السوس وأرض السودان»[2].

وقد أطلق البكري كلمة السودان في القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي على ذلك الجزء من غرب أفريقيا، الذي يمتد من المحيط الأطلسي غرباً إلى مشارف النوبة على النيل شرقاً، واعتبر مدينة سجلماسة مدخلاً إلى بلاد السودان[3].

وحدد بعض المؤرخين السودان، بالمنطقة التي تمتد من البحر المحيط إلى الواحات وتفصلها عن بلاد المغرب مغاور[4].

(1) عمر بن بحر الجاحظ، كتاب فخر السودان على البيضان، رسائل الجاحظ، القاهرة :1906م ص 64

(2) ابن عبد الحكم، فتوح البلدان والأندلس، نشر النص العربي والترجمة الفرنسية، البرت جابو 1948 ص 122 .

(3) أبو عبيد البكري، كتاب المسالك والممالك، حققه وقدم له أدريان فان ليؤفن، وأندري فيري، تونس : الدار العربية للكتاب 1992 م، ج2، ص 837.

(4) – محمد محمد المفتي (مرحباً)، فتح الحنان المنان بجمع تاريخ بلاد السودان، مخطوط مكتبة الباحث دون تصنيف، ورقة 20.

وذكر القلقشندي أن بلاد السودان يحدها من الغرب البحر المحيط، ومن الجنوب الخراب مما يلي خط الاستواء، ومن الشرق بحر القلزم[1] مما يقابل بلاد اليمن، ومن الشمال براري تمتد ما بين مصر، وبرقة، وبلاد عرب مغاربة من جنوبي المغرب إلى «البحر المحيط»[2] .

أما ابن حوقل فقد حدد منطقة السودان بقوله : «وأما جنوبي الأرض من بلاد السودان، فإن بلدهم في أقصى المغرب على البحر المحيط بلد ملتف . . . غير أن له [حداً][3] ينتهي إلى البحر المحيط، وحد له ينتهي إلى برية، بينه وبين أرض المغرب وحداً له إلى برية بينه وبين أرض مصر، على ظهر الواحات»[4] .

أما ابن خلدون فيقول : «والسودان أصناف شعوب وقبائل، أشهرهم بالمشرق الزنج والنوبة، يليهم الزغاوة، ويليهم، الكانم، ويليهم من غربهم كوكو وبعدهم التكرور ويتصلون بالبحر المحيط إلى غانية»[5] .

وأورد عثمان بن فودي عن طول أرض السودان ـ نقلاً عن القسطلاني في شرح البخاري ـ على أن عبد البرقي، في كتاب القصد والأمم إلى معرفة أنساب الأمم قال : « إن مقدار المعمور من الأرض، مائة وعشرون سنة تسعون ليأجوج ومأجوج، و[اثنتا عشرة][6] للسودان، وثمانية للروم،

---

(1) - يقصد به البحر الأحمر .

(2) أبو العباس أحمد القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، القاهرة : المؤسسة الوطنية للتأليف والنشر 1963 م، ج 5، ص275 .

(3) - وردت في النص «حدُ» ثلاث مرات والصحيح «حداً» .

(4) - ابو القاسم بن حوقل النصيبي، كتاب صورة الأرض، بيروت : دار مكتبة الحياة، 1979م ص 24 .

(5) - عبد الرحمن بن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، بيروت : مؤسسة جمال للطباعة والنشر 1979 م، ج5 ص234 .

(6) - وردت في النص واثنتا «عشر» والصحيح «عشرة» .

و[ثلاثة][1] للمغرب و[سبعة][2] لسائر الأمم»[3].

وبعد استقراء أقوال المؤرخين العرب ووقوف الباحث على جلها، نستطيع أن نصل إلى تحديد قريب، من الواقع، وهو أن المنطقة تطل غرباً وجنوباً على المحيط الأطلسي، وتحدها الصحراء الكبرى شمالاً، ومن الشرق تتاخم بحيرة تشاد[4]، وباختصار تشمل المنطقة ما يعرف اليوم بحوض السنغال وغمبيا وفولتا العليا والنيجر الأوسط[5].

تضاريسها :

منطقة السودان الغربي التي نحن بصدد الحديث عنها، تتخللها هضاب، وجبال، منها سلسلة الجبال عبر طريق سيقو جاو، وحجار، وأهير (ايراسبن) وجبال اورار الشرقية والغربية.

وترتفع بعض أماكن الصحراء، إلى ستة الآف قدم، فوق سطح البحر، وتنخفض أخرى إلى مائة قدم تحت سطح البحر ؛ تنتشر فيها كثبان الرمال، والواحات الكبيرة ؛ كما توجد بها الهضاب الصخرية، والمسالك الفسيحة، وسلاسل الجبال المتقطعة، وكذلك الوديان ؛ وتقدر مساحة جزء الصحراء التي تسيطر عليه الرمال بحوالي التسع[6].

---

(1) وردت في النص «وثلاثة» والصحيح «ثلاث» .

(2) وردت في النص «وسبعة» والصحيح سبع .

(3) عثمان بن فودي، تنبيه الإخوان على أحوال بلاد السودان، مخطوط مركز أبحاث النيجر، رقم 110 ورقة 4 .

(4) محمد محمد المفتي (مرحباً)، فتح الحنان المنان بجمع تاريخ بلاد السودان مخطوط ورقة 32 ونعيم قداح، أفريقيا الغربية في ظل الإسلام، مراجعة عمر الحكم، كوناكري 1969 ص 14 .

(5) عبد القادر زبادية، مملكة سنغاي في عهد الأسقيين، الجزائر : الشركة الوطنية للنشر، دون تاريخ، ص ص16-15، والشيخ الأمين عوض الله، العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان العربي، دار المجمع العلمي 1979 ص 41 انظر الملحق .

(6) أبو عبيد الله بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي الحسني، المعروف بالشريف الإدريسي، كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق بورسعيد : مكتبة الثقافة الدينية، دون تاريخ، ج 1ص 108

وقد أفاد الإدريسى بأن الأمطار قليلة، من صحراء نيسر، والتي يدخل عليها المسافرون إلى مدينة اودغست، وغانة، وهي صحراء قليلة البشر، والماء بها قليل، وشمسها قاتلة[1].

والجدير بالملاحظة أنه كلما بعدت المسافة عن الصحراء، زاد هطول الأمطار، وبذلك تزداد خصوبة التربة.

يجري في منطقة السودان الغربي نهران: نهر النيجر، والسنغال، وهما يجريان بمحاذاة حافة الصحراء الجنوبية[2].

❁ ❁ ❁

(1) - الإدريسي، المصدر السابق ج 1ص 107 وعبد الرحمن زكي، تاريخ الدول الإسلامية السودانية بأفريقيا الغربية، القاهرة: المؤسسة العربية الحديثة 1964 م ص9 .

(2) - عبد الرحمن زكي، تاريخ الدول الإسلامية السودانية، المرجع السابق، ص 7.

الممالك التي تعاقبت على المنطقة

أولاً : إمبراطورية غانا الوثنية :

لقد تعاقبت على منطقة السودان الغربي إمبراطوريات وممالك، لعبت دوراً في ازدهارها شملت إمبراطورية غانا الوثنية، أولى حلقات التاريخ القومي لغرب أفريقيا، فهي أول إمبراطورية، قامت بالسودان الغربي، ولعلها أول تجربة أو أقدم ما عرف من تجارب الحكم الوطني الناجح بتلك البلاد. وقد دل ازدهارها على بقائها، إلى القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي، وعلى قدرة الأفريقيين في تدبير شؤونهم بأنفسهم، وهذا ماحدا ببعض الكتاب الغربيين المنصفين إلى أن يقرروا بأن حضارة هذه البلاد في العصور الوسطى لم تكن دون حضارة البيض، بل فاقت حضارة بعض البلاد الأوربية.

وقد بلغت ذروة مجدها وعظمتها في الفترة ما بين القرن الثالث إلى منتصف القرن الخامس الهجري التاسع/ الحادي عشر الميلادي؛ وعندما اتسعت رقعتها امتدت من نهر النيجر إلى ساحل المحيط الأطلسي غرباً وشمالاً عند حافة الصحراء الكبرى، وقد أورد الإدريسي عن أرض غانا بأنها تتصل من جهة الغرب ببلاد مفزارة، ومن الشرق ببلاد ونقارة، ومن الشمال بالصحراء المتصلة التي بين أرض السودان وأرض العرب المغاربة، ومن الجنوب بأرض الكفر من اليميم[1]، ويقصد بهم أكلة لحوم البشر.

كما أورد القلقشندي قوله: «إن بلاد غانة تقع غربي بلاد صوصو وتجاور البحر المحيط الغربي وقاعدته ـ أي قاعدة هذا الإقليم ـ مدينة غانا وهي حمل

---

(1) الإدريسي، المصدر السابق ج 1 ص 24

سلطان غانا»[1] وأورد المسعودي بهذا الخصوص «وتحت يد ملك غانه عدة ملوك وممالك»[2] وذكر صاحب الاستبصار «بأن لملك غانة مملكة واسعة نحو الشهرين في مثلها»[3].

وقد عرفت غانا بهذا الاسم بالنسبة إلى عاصمتها، مدينة غانا GHANA[4] وذكرها البكري بقوله : «وغانة سمة لملوكهم واسم بلد أوكار»[5] أما ياقوت الحموي فقال: «وغانة كلمة أعجمية، لاأعرف لها مشاركاً من العربية وهي مدينة كبيرة، في جنوبي بلاد المغرب متصلة ببلاد السودان»[6].

ومن وجهة نظرى، فإن تسمية غانا أطلقها المؤسسون الأوائل لهذه الإمبراطورية، وهم المهاجرون من البرقاويين الليبيين، والتجار الواردين على المنطقة من الشمال الإفريقي، نظراً لأنها كانت غنية بالذهب.

أما عن أصول سكانها، فالروايات تختلف من راوٍ إلى آخر، وفي بعض الأحيان يتفق أكثر من راو، على رواية واحدة، حول أصول غانا، بأنهم يسمون أنفسهم (التورد) أو (التوروث)، وأن مقدمهم من وادي دجلة والفرات، أي أن لهم أصولاً أشورية، وبابلية قديمة[7].

(1) القلقشندي، المصدر السابق، ج 5، ص 284، وعبد الرحمن زكي، تاريخ الدول الإسلامية السودانية بأفريقيا الغربية، المرجع السابق، ص 71.

(2) ابو الحسن علي بن الحسن المسعودي : (ت 956 م) أخبار الزمان ومن أباده الحدثان وعجائب البلدان – مخطوط في مجلد 879 بالهيئة العامة للكتاب القاهرة، ورقة 39 .

(3) مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول، الدار البيضاء : دار النشر المغربية 1985م ص 221 .

(4) عبد الرحمن زكي، الإسلام والمسلمون في غرب أفريقيا، دمشق : مطبعة يوسف، دون تاريخ ص 16 .

(5) - البكري، المصدر السابق، ج 2، ص 871.

(6) شهاب الدين أبوعبد الله ياقوت الحموي، معجم البلدان، بيروت : دار صادر 1979 م، ج 3 ص 770 .

(7) أحمد بابير الأرواني، الجواهر الحسان في أخبار السودان، مخطوط مكتبة الباحث، دون تصنيف، رقم 1000، ورقة 2 .

أما محمد محمد المفتي. . فقد أورد أن أغلب سكان غانا، في العصور الوسطى من قبائل السوننك، وهـم فروع المانـد الأساسيـة، أي مجموعة القبائل المتكلمة بلغة الماند، وتختص مجموعة السوننك عن بقية الفروع الأخرى للماند، بصفات جسمانية، وتقاليد، وأعراف اجتماعية معينة[1].

وكان موطن السوننك على الحافة الجنوبية للصحراء الكبرى، بما يعرف بالساحل، وقد حدث امتزاج بينهم وبين البربر، والفلانيين. ونتيجة لهذا الامتزاج والاختلاط، حدث تغير في ألوانهم حتى أن الولوف يطلقون على السوننك اسم تشيركول أو سيراكول، وتعني في لغتهم الرجال الحمر أو الناس الحمر[2].

أول حكومة للإمبراطورية :

يمكن أن نقسم مرحلة الحكم في غانا إلى مرحلتين :

المرحلة الأولى : حكم البيضان.

المرحلة الثانية : حكم السوننك.

حكم البيضان :

أورد عدد من المؤرخين، أن أول حكومة حكمت غانا من البيض، كانت من مهاجرين من الشمال الأفريقي، وبالتحديد، من برقة بليبيا، ترجع إلى حوالي القرن الأول الميلادي، ثم استقرت في منطقة أوكار، وسط مجموعة من قبائل الزنوج، تتكلم لغة الماندي، وأغلب هـذه المجـموعة مـن السـوننك، ثم

(1) – محمد محمد المفتي (مرحباً)، فتح الحنان المنان بجمع تاريخ بلاد السودان، مخطوط ورقة 32 وإبراهيم علي طرخان، إمبراطورية غانة الإسلامية، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر 1970م ص 18 ودونالد وايدنر، تاريخ أفريقيا جنوب الصحراء، ترجمة علي فخري وشوقي عطا الله الجمل، القاهرة : مؤسسة سجل العرب 1976م، ج1، ص 32 - 40 .

(2) – محمد محمد المفتي (مرحباً)، فتح الحنان المنان بجمع تاريخ بلاد السودان، مخطوط ورقة 32 - 33 .

صارت ذات قـوة، خلال القرن الرابع الميلادي[1].

وذكر صاحب الجواهر الحسان : « أما مالي فإقليم كبير واسع جداً في المغرب، وقيمع هو الذي بدأ السلطنة في تلك الجهة، ودار إمارته غانة، وهي مدينة عظيمة في أرض باغب، قيل إن سلطاتهم، كانت قبل البعثة فتملك حينئذ اثنان وعشرون ملكاً، وهم بيضان في الأصل، ولكن لانعلم من ينتمي إليه في الأصل، وعندما انتهت مدتهم، وانقرضت دولتهم، خلفهم في السلطنة أهل مـالي»[2].

أما السعدي، فله رأي في ذلك؛ إذ يقول: «وهم بيضان في الأصل» غير أن الشك يدور حول أصولهم الغامضة، هل هم من اليهود أم من العرب المغاربة؟.

مع أن عبد الرحمن السعدى يرجح أن أصولهم من العرب المغاربة في قوله :«ولانعلم أصلهم، والراجح أنهم من العرب المغاربة الذين اختلطوا بالزنوج وصلة العرب المغاربة بقبائل السودان قديمة، ثم أن أهل غانا أنفسهم يقولون إن أسرة عربية مغربية كانت تحكم بلادهم منذ زمن بعيد».

كما أورد كذلك أن اول سلطان لها هو قيمع ومكان إمارته غانا، وهي مدينة عظيمة في أرض باغن، قيل إن حكمهم كان قبل البعثة النبوية، وهم بيضان في الأصل، ولانعلم أصلهم وخدامهم عكريون[3].

---

(1) - وفيق حسين الخشاب وإبراهيم عبد الجبار المشهداني، افريقيا جنوب الصحراء، بغداد : 1978 ص 25 - 26.

(2) - أحمد بن ابير الأرواني، الجواهر الحسان في أخبار السودان، مخطوط، ورقة 7 .

(3) - عبد الرحمن السعدى، تاريخ السودان، باريس: نشر هوداس وبنوه 1964م ص 9
Abdouulaziz Dialo, serie de conferences relatives aux relations entre le mali et le mond arabo islamique a partir du money àge. le centre cuturel isalamique
. Bamako - Mali premiere partie : Lempire Du Mali Septembre 1988 p : 5

اتسع نفوذ هذه الحكومة، حتى صارت تشمل المساحات، الممتدة بين أعالى نهر السنغال وأعالي نهر النيجر، وكانت هذه الإمبراطورية زراعية، إقطاعية، ولم يمنع ذلك الاستفادة من المعاملات التجارية، واستغلال الذهب.

وأرود كعت أنهم وعكري، وقيل (ونكرصوب) ثم لم يقطع بصحته، بل قال ضعيف هذا الاحتمال وهم (حم) في اصطلاح السودان لقبًا، والأصح أنهم ليسوا من السودان، وقيل من صنهاجة، وهو أقرب الاحتمالات.

وأطلق كعت على ملكهم كيمع، تعنى في لغة وعكري ملك الذهب كيهو الذهب، وهو من الملوك الأوائل، الذين حكموا غانا، وقد مات منهم عشرون ملكاً قبل ظهور الدعوة المحمدية، وتعرف مدينتهم باسم (قنب) وقد انتهت دولتهم من على مسرح الأحداث في القرن الأول من الهجرة النبوية. وكان آخر ملوكهم، كنسعي، وكان معاصراً لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وله بلد تدعى (كُرُنكِع) وهو المكان الذي تسكن فيه أمه، وإلى زمن كعت مازالت عامرة[1].

ومن خلال ما ذهب إليه الأرواني والسعدي، حول تنسيب حكام غانا على أنهم من البيضان وأنهم من البربر، الذين هم العرب الأصليون لشمال أفريقيا، فإني أميل للرأي الذي يقول إن حكامها من البيضان، قدموا من الشمال الأفريقي، وبالتحديد من برقة بليبيا، لعدة أسباب، منها :

1 - أن الصحراء لم تكن في يوم من الأيام حاجزاً بين جنوب الصحراء وشمالها، بل إن الهجرات بين كل المناطق موغلة في القدم.

2- تسمية عاصمة غانا بكمبي صالح نستشف أن مؤسسها عربي فكمبي في لغة الزنج تعنى مدينة، وصالح اسم عربي، والمعنى العام مدينة صالح.

3 - أن العروبة أسبق من الإسلام إلى تلك المناطق وعندما وصل الإسلام إليها وجد أمامه أرضية جاهزة للعمل.

(1) محمود كعت، تاريخ الفتاش فى اخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس، باريس: نشر هوادس وبنوده 1964م، ص 41.

حكم السوننك :

مع نهاية القرن الثامن الميلادي، تمكنت أسرة من السوننك، وهي أسرة سيسي من طرد أسرة البيض الحاكمة، أو دولة كيمع، وكانت الأسرة الجديدة تتحكم في منطقة (وجادوا)[1].

يقول كعت عن نهاية حكم الأسرة الأولى «ثم أفنى الله ملكهم وسلط أراذلهم على كبرائهم من قومهم واستئصالهم وقتلوا جميع أولاد ملوكهم حتى يبقروا بطون نسائهم، ويخرجوا الجنين ويقتلهم[*][2].

كان الحكام الجدد، أقوى من أسلافهم البيض، فاستطاعوا ضم بعض الأماكن الهامة، منها أودغست الإسلامية 990م التي كان سكانها، من العرب المغاربة وجعلوها عاصمةً لهم، وفرضوا على القادمين إليها إتاوة، وضموا ولاته، وأبنار، وكوغة، والوكن، وسامه[3]، وقد وصفها البكري بقوله: «والبكم لهم حذق بالرماية، وهم يرمون بالسهام المسمومة، ويورثون الابن الأكبر مال الأب كله»[4].

بلغت غانا، ذروة قوتها، واتساعها في القرن العاشر إلى أواخر القرن الحادى عشر الميلادي، وكانت ذات نفوذ واسع؛ حيث صارت تضم جميع المساحات الواقعة، بين النيجر والمحيط الأطلسي، وامتد نفوذها إلى الشمال وخضعت لها رقاب جل قبائل الصحراء الجنوبية، من الغرب إلى أعالي السنغال، وحدود مملكة التكاروره، ومن الشرق إلى قرب تنبكت.

(1) امن بن بوغنو، مجموعة تواريخ، مخطوط مكتبة الحاج عبد القادر التبيني، بأقدز، دون تصنيف، ورقة 13.

Fage , Altals of African History , London , 1958 : P :86

(2) – محمود كعت، المصدر السابق ص 42 .

* ويقتلونه

(3) – ابن خلدون، المصدر السابق ج 2 ص 199 وإبراهيم طرخان إمبراطورية غانة، المرجع السابق ص 42 .

(4) – البكري، المصدر السابق، ج 2 ص 876 .

عاصمة غانا :

تقع مدينة كومبي صالح إلى الجنوب الغربي من مدينة تنبكت، وتبعد عنها بحوالي خمسمائة كلم[1] اتخذتها إمبراطورية غانا حاضرة لها، ويرجع تأسيسها إلى عهد حكومة البيض الأولى، ويقال إنها بنيت عام 300م وظلت تنمو تدريجيـًّـا[2]. وتحدث البكري قائلاً: "غانة مدينتان سهليتان إحداهما المدينة التي يسكنها المسلمون، وهي مدينة كبيرة، فيها اثنا عشر مسجداً، بها الأئمة والمؤذنون، والفقهاء والعلماء، وتحيط بها الآبار العذبة منها يشربون، وعليها يزرعون الخضروات".

أما مدينة الملك فتبعد عن الأولى ستة أميال، وتعرف بالغابة نظراً لما يحيط بها من أحراش، وفي هذه المدينة المباني المتصلة ببعضها، والمبنية بالأحجار وخشب السنط. أما الملك فله قصر خاص به، وبمدينته مسجد على مقربة من القصر، يصلي فيه من يفد من المسلمين، وحولها قباب وغابات يسكن فيهـا، الـذين يمارسون مهنـة السحر، وهم الذين يقـومون، بأمر الدين، وفيهـا دكاكيـرهم، أي معبوداتهم، وقبور ملوكهم، وبالمدينة حـرس خاص، لايسمح لأحد بدخولها إلا بإذن الملك، وبها سجون وإذا ما سجن أحد فيها، انتهت أخباره[3].

(1) - لقد وقفت على آثار كومبي صالح عام 1985 برفقة الدكتور محمود الزبير مدير مركز أحمد بابا .

(2) - Thomossey (Paul) et R- Mauny (Raymand) : Compagne de Fouilles a ' Koumbi salah ; Bull de l`institue francaised` Afrique Noire, AXIII 195 No2 P :438 - 468

المسعودي، أخبار الزمان، مخطوط مجلد 879 ورقة 39.

(3) - البكري المصدر السابق ج 2 ص 872 وعصمت عبد اللطيف دندش، دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب أفريقيا 1038 - 1121م، بيروت: دار الغرب الإسلامي 1988 ص 111 وامين توفيق الطيبي، دراسات وبحوث في تاريخ المغرب العربي والأندلس، ليبيا - تونس، الـدار العربيـة للكتـاب 1984 ص 306 وفيـج جـي دي، تاريـخ غـرب أفريقيا، ترجمة وتقديـم وتعليق السيد يوسف نصر مراجعة بهجت رياض طليب، القاهرة: دار المعارف، 1982 ص 23 .

وقد بدأت الحفريات، في البحث عن آثار كومبي صالح، منذ عام 1907 م على يد العالم الفرنسي دبلاج L. Desplagues، الذي عثر على أطلال مدينة كانت مزدهرة، وتوصل إلى أن هذه هي أطلال حاضرة غانا، وأنها كانت تقع على جانبي بحيرة صغيرة ؛ وحدد مكانها على بعد حوالي مائتي ميل، غربي مدينة جنى، ونحو 40 ميلاً، شمال شرق مدينة كوليكور، الواقعة شمال باماكو. وتوالت الحفريات، ففي عام 1914 قام حاكم فرنسي لإحدى المقاطعات، يدعى (بونى ميزير B. Mezeres) بعملية حفر في منطقة مشهورة بالساحل. وتجددت الحفريات في عام 1939-1940-1950، حيث قام الفرنسيان توماسي وموني Thomassy and Mouny بإجراء حفريات في المواقع، وأوضح الباحثان أن الآثار التي عثر عليها، تكشف النقاب عن الحاضرة الإسلامية المزدهرة لغانا. تشغل هذه المدينة نحو ميل مربع، وسكانها لايقلون عن 30 ألف نسمة، وقد عثر على أسلحة من الحديد، ومسامير في غاية الدقة، وموازين مختلفة الأحجام لوزن الذهب، وصفائح نحاسية، وحديد مزخرف، بآيات قرآنية، ومقص، ومطارق حديدية، وخشبية. كما عثر على عدد من المنازل والمساجد، ومن بينها كشف توماسي وموني مبنيين كبيرين، طول الأول نحو 66 قدمًا، وعرضه نحو 42 قدماً، يحتوي على سبع غرف، تفتح على بعضها البعض وهذا المبنى يتكون من طابقين بينهما سلم، أما المبنى الثاني فهو أكبر من الأول، ويضم تسع غرف، ولاتزال جدرانه الداخلية تحمل آثار الطلاء الأصفر[1].

يدل العرض السابق على مكانة الإسلام والمسلمين في تلك الديار، وعلى أن جزءاً كبيراً من رعايا غانا كانوا يدينون بالإسلام، وأن حرية الأديان مكفولة، ولايستبعد أن الملك الغاني في تلك الفترة، كان يدين بالإسلام إلا أنه لايستطيع

(1) - Thomassy et. R. Mouny op cit, P : 438 - 468

ونعيم قداح، أفريقيا الغربية في ظل الإسلام، المرجع السابق ص ص 67 - 68 وإبراهيم طرخان، إمبراطورية غانا، المرجع السابق، ص 36 .

التصريح به، والذي يترجم ذلك وجود مسجد في مدينة الملك، وبالقرب من مقر حكمه، الشيء الذي يدل على أن الملك كان يتردد عليه، وإلا لكان المسجد في طرف من أطراف المدينة.

ويبدو أن المسلمين كانوا مستقرين في مدينتهم الغانية، الأمر الذي جعلهم يزرعون الخضروات التي يحتاجون إليها، ولهم معرفة بأمورها. كما أن مباني المدينة المبنية بالحجر، وخشب السنط، ونظام الطوابق والأدوات المختلفة، التي كشف عنها التنقيب، دليل على التقدم الحضارى الراقي في تلك الفترة، وعلى الثراء والاستقرار اللذين كانت عليهما هذه الإمبراطورية، التي عانقت المجد لفترة طويلة من الزمن وسبقت غريماتها في المنطقة.

غير أن مدينة كومبي صالح، لم تكن هي الوحيدة التي تمثل عمق واستراتيجية إمبراطورية غانا الوثنية، بل كانت هناك مدينة أودغست، التي تعتبر أيضًا حاضرة من حواضر الإمبراطورية، ومدينة من مدن الإسلام في تلك الديار[1].

مدينة أودغست إحدى حواضر غانا :

مدينة أودغست مدينة من مدن الإمبراطورية، ذكر الإدريسي بأن المسافة بينها وبين بريسى اثنتا عشر مرحلة[2]. وذكر البكري بأنها تقع بين الزنوج وسجلماسة على بعد إحدى وخمسين مرحلة من غانا، وتبعد أودغست عن القيروان بمائة وعشرين مرحلة[3].

ووصفها ابن حوقل بقوله : "أودغست مدينة لطيفة، أشبه بلاد الله بمكة، بين جبلين ذات شعاب"[4]، وذكر حسن إبراهيم حسن أنها على بعد مائتي ميل

(1) – مجهول، رسالة، في فضل التقوى ومضرة الفجور، مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر رقم 27 ب ورقة 8، وعبد الرحمن عمر الماحي الدعوة الإسلامية في أفريقيا الواقع والمستقبل، ط:5، الجزائر : ديوان المطبوعات الجامعية، 1989، ص 89 .

(2) – الادريسي المصدر السابق ج 1 ص 20 .

(3) – البكري المصدر السابق ج 2، ص 851 .

(4) – ابن حوقل المصدر السابق، ص 91 .

من كومبي صالح، وأنها تقع بين خطي عرض 18-19 شمال خط الاستواء وجنوب غرب تاجكه"[1].

أما عن التركيبة السكانية للمدينة. . فإنها خليط من العرب المغاربة والعرب المسلمين وقبائل السوننكى، وقبائل جداله ومسوفه، ولمتونة إحدى قبائل صنهاجة[2] التي تتمتع بحق السلطة.

وقد شهدت المدينة نهضة اقتصادية، عبر عنها البكري، حين ذكر بأن بالمدينة أرباب نعم كثيرة، وأموالاً جليلة، وسوقها يؤمه التجار بكثرة حتى أن الرجل لايسمع فيها جليسه، ويتبايعون بالتبر، وليس لديهم فضة[3].

وقد عرفت المدينة، حركة تجارية نشيطة، ساعد في تكوينها تجار من الشمال الإفريقي من سجلماسة، ودرعة، وغدامس فجلبوا إليها القمح والتمر، والزبيب، ووصل سعر قنطار القمح، عندهم في أغلب الأوقات ستة مثاقيل، وكذلك التمر والزبيب ويتجهز لها بالنحاس المصنوع، وبثياب مصبغة بالحمرة والزرقة، ويجلب منها العنبر لقربها من المحيط الأطلسي، والذهب والإبريز الخالص خيوطاً مفتولة. وذهب أودغست من أجود الذهب[4]. ومن التجار الذين ارتادوا اودغست من ليبيا، أبو رستم النفوس من جبل نفوس[5].

(1) – حسن إبراهيم حسن، انتشار الإسلام في القارة الأفريقية ط: 3 القاهرة : مكتبة النهضة المصرية، 1984، ص215، والهادي المبروك الدالي، العلاقات بين مملكة مالي الإسلامية وأهم المراكز بالشمال الأفريقي، من منشورات مركز دراسات وأبحاث شؤون الصحراء، بيروت، دار المحيط، 1991، ص 54 .

(2) – الحموي المصدر السابق، ج1 ص227، عماد الدين إسماعيل محمد بن عمر، تقويم البلدان باريس : دار الطباعة السلطانية 1850 ص 37 .

(3) – البكري، المصدر السابق، ج2 ص ص 848-849 .

Sehene mody cisoko et D. Dion: (Historie de l'Sfrique), Paris: Pressence Africaine 1973 P: 47.

(4) - البكري المصدر السابق ج 2، ص ص 848-849 .

(5) – مقرين بن محمد البغطوري، سيرة أهل نفوسة، مخطوط مكتبة الباحث، دون تصنيف، ورقة 56، والبكري، المصدر السابق، ج 2 ص ص 848-849 .

كما كانت البلد تتمتع بثروة حيوانية متمثلة في الغنم؛ حيث تشترى عشرة أكباش بمثقال، كما يوجد عندهم البقر والإبل، وحيوان يعمل منه الدرق يعرف باللمط[1].

نظام الحكم في الإمبراطورية:

كان نظام الحكم السائد في غانا نظاما ملكياً استبدادياً، شأنه شأن جميع النظم القائمة في باقي ممالك السودان الغربي والأوسط، سواء أكانت في عهدها الوثني أم في عهدها الإسلامي.

والنظام المتبع في وراثة عرش الإمبراطورية الغانية، هو توريث ابن الأخت، ويورد البكري شيئا عن ذلك حين يقول: « وسنتهم أن الملك لايكون إلا في ابن الأخت، لأنه لايشك فيه، أنه ابن أخته، وهو يشك في ابنه، ولايقطع على صحة اتصاله به»[2]. ويقول في مكان آخر «ولايلبس المخيط من أهل دين الملك غيره، وغير ولي عهده وهو ابن أخته»[3].

والملك تنكامين الذي تقلد أمر البلاد، حوالي عام 455هـ/ 1063م، كان قد ورث الملك عن خاله بسي Beci[4]، ويعلل البكري هذه الظاهرة، بأن المولود ابن أمه، وهذا أمر صحيح. لكن من المعروف أيضًا أن لهذه الظاهرة جذورها في التقاليد الوثنية القديمة، وهي التي ترفع من شأن المرأة عند أغلب القبائل الإفريقية الوثنية - كذلك عرفت هذه الظاهرة عند قبائل الطوارق، وصلة هؤلاء ببلاد السودان ترجع إلى أزمنة موغلة في القدم[5]. وعندما وصل الإسلام إلى غانا، أضعف من هذه الظاهرة، ولكنه لم يقض عليها قضاءً كاملاً في جميع المقاطعات

---

(1) البكري، المصدر السابق ج 2،ص ص 484- 489 .

(2) نفسه والصفحة .

(3) نفسه ج 2 ص 872 والاستبصار المصدر السابق ص 220 .

(4) موسى بن أحمد السعدي، زهور البساتين في تاريخ السوادين، مخطوط مكتبة الباحث دون تصنيف ورقة 142، والبكري المصدر السابق، ج 2، ص 872 .

(5) عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق ص ص 20 - 22 .

بالسودان الغربي، وقد شهد ذلك ابن بطوطة في القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي، في مدينة تكده، فلم ترقه هذه الظاهرة؛ مما حدا به إلى التعليق عليها بقوله : « وذلك أسوأ مارأيته في الدنيا، إلا عند الكفار الملبار من الهنود، وأما هؤلاء فهم مسلمون محافظون»[1].

ومنذ أواخر القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي، أي فترة تغلغل الإسلام، اختفت ظاهرة توريث العرش لابن الأخت، وصار الملوك يورثون الحكم لأبنائهم الذكور، ولم تتأثر مكانة المرأة الرفيعة في المجتمع السوداني الغربي، بالإسلام، وإنما نظمت، وظلت منزلتها كما هي، بدليل انتساب أعظم سلاطين مالي إلى أمهاتهم مثل كنكه موسى، والذي نسب إلى أمه (نانا كانجو)، وسيرد الحديث عنه فيما بعد.

التقسيم الإداري :

قسمت الإمبراطورية إلى ولايات أو ممالك، وكان لكل ولاية أو مملكة حاكم يسير أمورها، ومن أشهر الولايات أودغست وأوكار، وهي نواة إمبراطورية غانا، إضافة إلى (هوذ) في الوسط وممالك عرب المغاربة في الشمال، وديارا وتاكانت Taghant، وباسيكورو في الشرق ووأجادو، وكانياجا، وبغن Baghana في الجنوب، والجنوب الشرقي.

كان نظام الحكم يقوم على أساس المركزية، إلا في بعض المقاطعات؛ حيث ظل الحكم فيها وراثيًا في أسر معينة، حتى إذا ما أحست هذه المقاطعات الوراثية الخاضعة للحكم المركزي، في كومبي صالح، بضعف الحكومة المركزية، قامت بمحاولة الانفصال رغبة في الاستقلال، كما حدث عند دخول المرابطين

---

(1) ابو عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتي بن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، بيروت دار صادر، دون تاريخ، ص 698 .

والجدير بالملاحظة بأن استاذنا الكبير الدكتور عبد الهادي التازي، قام بتحقيق رحلة بن بطوطة بإضافات جديدة، لم تكن معروفة من قبل .

كومبي صالح عام 469 هـ/ 1076م، عندما وجدت كل من ديارا، وكانياجا، وجالام الفرصة سانحة للانفصال، ولم يعد نفوذ ملوك غانا السوننـك إلا في بعض المناطـق، مثل أوكـار، وباسيكورو[1]. وفي كومبي صالح كان كبار موظفي الملك ومستشاريه من المسلمين، حتى في عهدها الوثني، إذ كان المسلمون أكبر طبقة مثقفة، وينسحب هذا على المسلمين، من الوطنيين السوننك، وعلى من هاجر من العرب، واستقر في حاضرة غانا وولايتها[2].

وشجع على ذلك نشاط الحركة التجارية، وتوفر فرص العمل في الإمبرطورية، فضلاً عن استتباب الأمن، لمدة قرنين من الزمن، فقد كان لها فرقٌ تجوب الصحراء، مهمتها الحفاظ على الأمن، وتأديب المجرمين، ولهذا النظام مردوده الاقتصادي في ازدهار المنطقة، لأن الاقتصاد مربوط بالأمن. كما ازدهرت الحركة الثقافية، وارتاد المنطقة العلماء والمثقفون، وقامت مدارس عربية إسلامية.

ومن تقاليد الحكم في كومبي صالح، تلك المجالس التي يعقدها الملك للأبهة والنظر بنفسه في المظالم ؛ وقد أورد كعت عادة خروج الملك كيمع للرعية، فأورد بأنه يخرج إليهم بعد العشاء، ولايخرج حتى تجمع ألف حزمة، يضعوها في باب داره، وتشعل فيها النار، وتعطي إضاءة عالية، عندما يجلس على منصة الذهب الأحمر. كما أورد كعت أن بعض الناس، أخبروه بأنها ألف شقة من الكتان لا من الحطب !. وبعد جلوسه، يأمر بعشرة الآف من الموائد !. فيأكلون وهو لايأكل، وإذا انقضى الأكل دخل الملك ولاتقوم الرعية حتى تصبح الحزمات رماداً، واستمروا على هذه الوتيرة إلى انقراض دولتهم[3].

(1) موسى بن أحمد السعدي، زهور البساتين في تاريخ السوادين، مخطوط، ورقة 100 محمد محمد المفتي (مرحباً)، فتح الحنان المنان بجمع تاريخ السودان، مخطوط ورقة 134 .

(2) البكري، المصدر السابق ج 2، ص 872 وبوفيل، تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير، ط: 2 جامعة قاريونس 1988 ص 149 وحسين مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، القاهرة : الزهراء للإعلام العربي 1987 ص 372 .

(3) محمود كعت، المصدر السابق ص ص 41 - 42 .

وما أورده كعت حول خروج الملك كيمع للرعية أستبعده لعدة أسباب، منها :

1 - إن الكتان لايضئ إذا اشعلت فيه النار بالإضاءة نفسها، التى عليها الحطب، بل يحدث دخاناً أكثر من الإضاءة.

2 - إن الكتان لايصنع في غانا، بل يستورد من أوربا والشمال الإفريقي، والأمر لمستبعد أن تحمل كل ليلة ألف حزمة من الكتان لتحرق. ومهما كان من صحة الرواية السابقة، أو عدمها فإنها تكشف لنا عن الأبهة والثراء اللذين كان عليهما ملوك غانا.

- تكشف لنا الرواية عن طريقة جلوس الملك على المنصة المصنوعة من الذهب الأحمر، وهذا يعني أنه كان لديهم عدة أصناف من الذهب، الذي يمثل أهم سلعة تصدر خارج غانا.

- قد توحي لنا طريقة جلوس الملك والمائدة التي يقدمها لرعيته، بالترابط الاجتماعي بينه وبين رعيته.

ومما يحكى في هيئة جلوس ملوك غانا، للنظر في المظالم، أن الملك يجلس في القبة ويسبق جلوسه عادة عندهم. ومن طقوس القصر ضرب طبل كبير يطلقون عليه (دبا)، وإذا ما تناهى صوت الطبل إلى أسماع الناس هرعوا إلى قبة الملك، وعندما يقترب منه أهل مملكته من السودان، فإنهم يجلسون على ركبهم ويضعون التراب على رؤوسهم، وهي تحيتهم، أما المسلمون فتحيتهم عليه تصفيق اليدين، وأما الوزراء فيجلسون على الأرض تواضعاً له.

وأورد الإدريسي عن عدل ملك غانا قوله : «وهو أعدل الناس فيما يحكى عنه ومن سيرته، في قربه من الناس، وعدله فيهم أن له جملة قواد، يركبون إلى قصره في صباح كل يوم ولكل قائد منهم، طبل يضرب على رأسه، فإذا وصل إلى باب القصر، سكت، فإذا اجتمع إليه جميع قواده ركب وصار، يقدمهم ويمشى في أزقة المدينة ودائر البلد، فمن كانت له مظلمة، أو نابه أمر تصدى له فلا يزال حاضراً بين يديه حتى يقضي مظلمته، ثم يرجع إلى قصره، ويتفرق

قواده . فإذا كان بعد العصر وسكن حر الشمس، ركب مرة ثانية وخرج وحوله أجناده فلايقدر أحد على قربه، ولا على الوصول إليه، وركوبه في كل يوم مرتين ، سيرة معلومة»[1].

نستخلص من النص السابق ما يلي :

1 - أن لملوك غانا مكاناً مخصصاً للنظر في المظالم، وهي قبة السلطان، والقبة توحي لنا أن الطرز المعمارية في غانا طرز إسلامية.

2 - الطقوس التي كان عليها القصر، وهي عادة ضرب الطبل لغرض التجمع، مستمدة من الشمال الأفريقي.

3 - الطريقة التي يحيي بها أبناء المملكة ملكهم، تعبر عن الإذلال والخضوع.

4 - احترام ملوك غانا للمسلمين.

5 - التنظيم الإداري الذي كانت عليه الإمبراطورية نظام الوزارات.

6 - عدل ملوك غانا ونزولهم إلى شوارع المدينة للفصل في المنازعات، دليل على تأثرهم بنظم الحكم الإسلامي، وعلى تغلغل الإسلام في نفوسهم، حتى وإن لم يعتنقوه.

لقد كان لهذه الإمبراطورية سلطة تنفيذية، تمثلت في جهاز الشرطة والجيش المركزي المنوط به حماية الإمبراطورية، والمحافظة على الأمن العام بكل فروعه. ولدى جهاز الأمن طريقة لاستخلاص المعلومات من المجرمين، والذي يقوم على هذا الجهاز، يعرف بالأمين، فكل من ادعى عليه بمال، أو دم أو نحو ذلك ، شرع أمينهم إلى عود فيه حرفة (ومرارة ورقة)[2]، ويصب عليهم قدراً من

(1) الإدريسي، المصدر السابق ج 1، ص ص 23 - 24 .

(2) هناك نوع من الأعشاب إلى يومنا هذا موجود في مالي، والنيجر، ونيجيريا، والتشاد والمغرب وليبيا ورقة إبري إذا صب عليه الماء وبقي فترة من الزمن، فإنه يؤثر في الماء ويمنحه طعماً من المذاق، فربما هذا ما يقصده البكري (نبات الرتم) .

الماء، ويسقيه للمتهم، فإن رماه من جوفه، أيقن أنه بريء، وإن كان، غير ذلك أثبت عليه الدعوى[1]. ومن ضبط متلبساً بجريمة السرقة، يخير صاحب الحق بين بيعه، أو قتله عقاباً له على ما اقترفت يداه.

مما سبق يتضح لنا عدة أمور :

1 - أن لهذه الإمبراطورية أجهزة تقوم على تسيير أمورها، بشكل منظم يعمل على استتباب الأمن حتى يعم الرخاء.

2 - أن الذي يقوم بإصدار الأحكام وتنفيذها يدعى بالأمين، وهذااللفظ يدل على أن الذي يقوم بهذه الوظيفة، لابد أن يكون على درجة من الأمانة، والصدق، والعدل حتى لايظلم الآخرين.

ونواصل حديثنا عن الأجهزة التنفيذية بقوة جيش غانا وطريقة تنظيمه العسكري.

أورد البكري عن ذلك بأن لملك غانا جيشاً بلغ مائتي ألف، منهم رماة يزيدون عن أربعة آلاف، وتمتاز خيولهم بقصر قامتها. وأورد قداح نقلاً عن ابن الوردي أن لملك غانا جيشاً ضخماً، أغلبه يتألف من قبيلة الملك ومن المسترقين والمرتزقة، ووصل مقداره إلى ألف ومائتين وأربعين[2].

تسلح جيش غانا بالأسلحة الحديدية، التي ساعدت على تحقيق انتصارات عظيمة على جيرانه، تمثلت في النشاب والمزاريق الحديدية والسيوف والخناجر والسهام السامة، ولجيشها حذق في رميها[3].

---

(1) البكري، المصدر السابق ج 2، ص 877 .

(2) البكري، المصدر السابق، ج 2، ص 877، ونعيم قداح، أفريقيا الغربية في ظل الإسلام، المرجع السابق ص 70 .

(3) نفسه والصفحة، والإدريسي، المصدر السابق ج 1 ص 20 . وبازل دافدتسن، أفريقيا تحت أضواء جديدة، ترجمة جمال م . أحمد بيروت : دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، دون تاريخ ص 138 .

ثـرواتـهـا :

هذا الأمن المنظم ازدهرت به الحركة الاقتصادية، وأعطاها دفعاً قوياً، تمثل في حركة التجارة التي شهدتها البلاد، والتي كان عمودها الذهب والملـح، فقد شهدت غانا حركة تجارية داخلية وخارجية : ارتبطت الداخليـة.. منها مـع باقـي المنـاطـق التـابعـة للإمبراطوريـة، في تبادل السـلع. أمـا الخـارجيـة فقـد ارتبطـت بالشمال الأفريقي وخاصـة المغـرب، وهـذا مـا أكـده الإدريسـي، حينمـا قـال :«وإليها يقصد التجار المياسير من جميع البلاد المحيطة بها ومن سائر بلاد المغرب الأقصى، وأهلها مسلمـون، وملكهـم فيما يوصف من ذرية صـالـح »[1].

كما كان لمدينة التكرور، علاقات متميزة مع المغرب الأقصى، حيث يسافرون إليها بالصوف، والنحاس، والخرز، ويعودون منها بالتبر والخدم.

إضافة إلى ذلك شكلت أرض قمنورية جسرعبور لتجارة أغمات، وسجلماسة ودرعة والنول الأقصى، إلى بلاد غانا، وبذلك كانت حلقة الوصل بين هذه المناطق[2].

وأورد صاحب الاستقصاء، أن غانا ينتهي إليها تجار من المغرب، عن طريق سجلماسة، حيث يعود لها التجار من سجلماسة بالبضائع الكثيرة، فتبدل تلك البضائع في غانا بالتبر والخدم، والذي يسافر إليها بثلاثين حملاً يرجع بثلاثة أحمال أو حملين. ويقيم تجار المغرب في غانا عند أميرها، ويكرمهم غاية الكرم[3]. ويبرز هذا المكانة المرموقة التي يحظى بها تجار المغرب الأقصى، لما عرفوا به من الخلق الرفيع والمعاملة الحسنة والعلم الغزير والإسلام الصادق.

(1) الإدريسي المصدر السابق ج 1 ص 18 .

(2) الإدريسي، المصدر السابق ج 1 ص 20 .

(3) ابو العباس أحمد بن خالد الناصري، الدار البيضاء، دار الكتاب 1955، ج 5 ص ص 99 - 100، وزكريا بن محمد بن محمود القزويني، آثار البلاد فى أخبار العباد، بيروت : دار صادر، بدون تاريخ ص 42 .

إضافة إلى ذلك، كان تجار سجلماسة، وبلاد الزاب، وورقلان، يحملون الفواكه الرطبة والتمر إلى غانا[1].

وتجار المغرب يأخذون، الذهب من ونقارة، ويجعلونه دنانير؛ أي عملة يتعاملون بها في حياتهم اليومية، كما أن تجار ليبيا ارتبطوا بعلاقات وطيدة مع غانا، مثلتها مدينة أوجله، التي كان تجارها يحملون التمور[2] ونحوها إلى كوكو، والملح الذي يحمل من بلاد العرب المغاربة. ويتجهز التجار إلى مدينة كوغة، والتي يفصلها عن غانا مسيرة خمس عشرة مرحلة، بالملح والودع والنحاس، ويوجد بكوغة معدن التبر، وهي أكثر بلاد السودان ذهباً[3].

كما عرفت غانا نشاطاً زراعياً، كان عماده نهر النيجر، والذي كان ينمو على ضفتيه القصب الشوكي، وأشجار الإبنوس، والشمشار، والخلاف، والأثل التي يزرعونها مرتين في السنة. ويزرعون على النهر البصل، والقرع، والبطيخ الذي يكبر عندهم ؛ كما يزرعون الذرة، والأرز من صنف حبته كبيرة، ذات طعم لذيذ.

ويوجد لديهم شجر طويل الساق يسمى توزي، ينبت في الرمال، وله ثمر كبير منتفخ، داخله صوف أبيض، تصنع منه ملابسهم.

وفي بلدة أوغام، إحدى مقاطعات غانا، يزرع الأهالي الذرة، والبقول التي يستخدمونها في غذائهم اليومي. كما يوجد في بلدة طاقة شجر يسمى (تادمرت)، وهو يشبه شجر الأراك، إلا أن له ثمرة كالبطيخ داخله شئ، يشبه الفند تشوبه حلاوة وحموضة وهو نافع للمحمومين[4].

إضافة إلى الزراعة، كانت غانا تتمتع بثروة حيوانية، برية ومستأنسة،

(1) - الإدريسي المصدر السابق، ج 1 ص 20 .

(2) - نفسه ج 1 ص ص 24 - 25 .

(3) - البكري، المصدر السابق ج 2 ص ص 877 - 883 .

(4) - البكري، المصدر السابق ج 872 والإدريسي المصدر السابق ج 1 ص ص 20 - 21 .

فالمستأنسة تتمثل في البقر، والإبل، والغنم، والماعز. أما الحيوانات البرية فتشمل الأسود، والزرافات، والغزلان، والضباع، والفيلة، والأرانب، والقنافذ.

أما الحيوانات البحرية فتشمل الأسماك وحيوانًا مائيًا، قال عنه الإدريسي : إنه يشبه الفيل، وهو يقصد بذلك فرس النهر الذي يصطاد من النهر بضربه بالمزاريق، وتوجد لديهم الحيتان الكبيرة والصغيرة التي يصطادونها ويدخرونها[1].

أما المعادن.. فيعتبر الذهب أهم المعادن في غانا، ويوجد في بلاد ونقارة التي تنقسم إلى عدة مناطق وهي : ترقى، ومداسة، وسغمارة، وسمقندة، وغربيل. وبلاد ونقارة، جزء من غانا تبعد عنها بمسيرة ثمانية أيام، وهي جزيرة طولها ثلاثمائة ميل، وعرضها مائة وخمسون ميلاً، وفي شهر غشت، يغمر النهر الجزيرة، ويمكث فيها مدة، وإذا نقص ماؤها هرع الناس إليها، وجمعوا منها الذهب ؛ وسيرد ذكرها بالتفصيل في الفصل الثاني. ومن بين معادن البلاد معدن الشب، وهو رديء الجودة، إلا أن التجار يخلطونه بالشب الطيب ويبيعونه[2].

ومن بين الحرف التي كان يمارسها سكان غانا صناعة حفظ الأسماك[3]، وصناعة القوارب التي تستخدم في حمل أمتعتهم عبر نهر النيجر، كما كانت لديهم صناعة ملابس من صوف يستخرج من (شجر، يدعى تورزي)[4] ينمو ببلادهم ولاتؤثر فيه النار[5].

وفي خضم هذا التقدم الحضاري، كانت هناك نهضة اجتماعية في هذه

(1) نفسه ج 2 ص ص 874 - 879، الإدريسي المصدر السابق ج 1 ص 18 .

(2) الإدريسي المصدر السابق ج 1 ص 24 - 25 - 26 - 29 .

(3) الإدريسي، ج 1 ص ص 20 - 21 .

(4) لقد سألت عن هذا النوع من الأشجار في منطقة غرب أفريقيا، فيبدو أنه لم يعد له وجود، أو أنه من محظ الخيال .

(5) البكري، المصدر السابق ج 2 ص 878 .

الإمبراطورية، فبالنسبة إلى الزي، كان ينقسم إلى قسمين :

-زي الملوك.

-زي عامة الرعية.

بالنسبة لزي الملوك.. فان الملك يتزين بحلي النساء في عنقه وذراعيه، ويضع على رأسه طرطوراً مذهباً، ويضع عليه عمامة مصنوعة من القطن، ويقتصر المخيط على الملك وولي عهده، كما يلبس ملوك غانا إزارًا حريريًّـا يتوشحون به أو بردة يلتفون بها، وسراويل في وسطهم، ونعل شركى في أرجلهم، وفي الأعياد والمناسبات لهم زي خاص[1]. ويأتي زي الوزراء في المرتبة الثانية بعد زي الملك، فهم يلبسون ملابس فضفاضة ومآزر[2].

أما زي عامة الرعية فيختلف من منطقة لأخرى، ففي التكرور، يرتدي السكان الذين يخالطون البيض الجلود المدبوغة، ويضعون على رؤوسهم قبعات من الصوف، والقطن، والحرير، والديباج على قدر طاقتهم. أما عامة أهلها فيلبسون الجلود لستر عوراتهم ويلبسون القداوير، والأكسية، ويضعون على رؤوسهم الكرازين، وحليهم الذهب، وخواصهم يلبسون الأزر.

أما زي أهل سامة، إحدى مقاطعات غانا، وهي على مسيرة أربعة أيام من غانا، يعرف أهلها بالبكم، فيسيرون عراة، إلا أن المرأة تستر عورتها بسيور تضفرها ![3].

أما الزغاوه، فإنهم يلبسون الجلود المدبوغة ويتفننون في صناعتها[4]. وزي أهل ونقارة الأزر، والأكسية، والقداوير، وهم شديدو السواد. ولباس أهالي مدينة غربيل الصوف[5].

(1) الاستبصار، المصدر السابق ص 220، والإدريسي المصدر السابق ج 1، ص 24.
(2) البكري، المصدر السابق ج 2، ص ص 872 - 876، نفسه ج 2، ص 28 .
(3) البكري، المصدر السابق ج 2 ص 872 والادريسي، المصدر السابق ج 2، ص 28.
(4) الإدريسي، المصدر السابق، ج 1، ص ص30 - 111 .
(5) نفسه ص ص 25 - 26 .

ونساء غانا يرتدين حلياً مصنوعة من النحاس، والخرز، والنظم من الزجاج وغيرها[1]. وقد وصفهن صاحب الاستقصاء بقوله : «والإماء فيها قد جعل الله فيهن من الخصال الكريمة في خلقهن وخلقهن، فوق المراد من ملاسة الأبدان وتفتق السواد وحسن العينين واعتدال الأنوف، وبياض الأسنان وطيب الروائح»[2].

ديانتهم :

يوجد في غانا عدد من الديانات، وهي :

الإسلام ويدين به عدد من السكان وبعض حكام المقاطعات، منهم ملك بلدة ملل، الذي أسلم على يدي الداعيين الليبيين، أبي الحسن علي ابن يخلف النفوسي وأبي عيسى الفرسطائي وأطلق على نفسه المسلماني[3].

ومن الديانات التي يدين بها أهل غانا الوثنية، والمجوسية، وقد أكد ذلك البكري بقوله : «وهم الذين يقيمون دينهم وفيها دكاكيرهم». كما أن أهل صنغانة وسائر السودان على المجوسية وعبادة الدكاكير، والذكور عندهم صنم، وقد ظلوا إلى أن تولى عليهم وارجابي بن رابيس، فأسلم وأقام عندهم شرائع الإسلام، وحملهم عليه.

وتوفي وارجابي سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة 432 هـ/ 1040 وأهل التكرور في فترة البكرى على الإسلام[4].

---

(1) – الناصرى، المصدر السابق ج 5 .

(2) – الناصري، المصدر السابق، ج 5، ص 100 .

(3) – مقرين بن محمد البغطوري، مخطوط ورقة 52 والبكري المصدر السابق، ج 2، ص 875 أبو العباس أحمد بن سعيد بن عبد الواحد، الشماخي كتاب السير، طبعة حجرية، القاهرة : المطبعة البارونية 1889م، ورقة 459 - 457 . الجيب الجنحاني كتاب طبقات المشائخ لأبي العباس أحمد بن سعيد الدرجيني حوليات الجامعة التونسية، تونس : كلية الآداب والعلوم الإنسانية 1977، ع 15 ص 164 .

(4) - البكري المصدر السابق، ج 2، ص 868 - 872 - 873 .

بعد هذا المجد الذي شهدته غانا في كافة المجالات، بدأ الوهن ينخر أوصالها، وبدأت تدب فيها حركة الشيخوخة والهرم، نتيجة لعدة ظروف مرت بها، وكذلك انهارت من على مسرح الأحداث، ولم تستطع مقاومة التيار الجارف الذي أحاط بها[1].

انهيار غانا :

هناك عدة عوامل أدت الى انهيار غانا، منها عوامل طبيعية، ومنها تعرضها إلى جهاد المرابطين. وقد جاءت نهايتها من مسرح التاريخ السياسي في غرب أفريقيا على يد الصوصو في عام 600هـ/ 1203 م، بتدمير ماري جاطة لما بقى من حاضرة غانا وضمها إلى مملكة مالي الإسلامية.

وقد انتهت غانا من المنطقة في مطلع القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي، غير أن عوامل الانهيار كانت قد بدأت قبل ذلك بأمد طويل، وأولها عامل طبيعي بدأ قبل القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي، تمثل في الجفاف التدريجي الذي حل بالبلاد الواقعة شمال حوض السنغال؛ مما حمل الناس على الهجرة.

ويتمثل العامل الثاني في جهاد المرابطين بمنطقة السودان الغربي، قرب نهاية القرن الحادي عشر الميلادي. وإن كان جهاد المرابطين لم يؤد، إلى اختفائها غير أنه أدى إلى تحول حكومة غانا إلى الإسلام، وهذا ما سنتناوله فيما يأتي :

المرابطون ودورهم في إسقاط غانا:

قامت دولة المرابطين في الجهة الغربية من الصحراء الكبرى، وكان هدفها الأساسي الجهاد في سبيل نشر العقيدة الإسلامية وإزالة الشرك، والبدع، فبعد وفاة أبى عبد الله، تولى أمر صنهاجة ابنه «يحيى بن إبراهيم الجدالي» وفي عام سبع وعشرين وأربعمائة 427 هـ / 1035 م، استخلف على صنهاجة ابنه إبراهيم، وسافر يحيى إلى الأراضي المقدسة، لأداء فريضة الحج، وعند عودته من الحج مر بمدينة القيروان فلقى الشيخ أبا عمران الفاسي وحضر معه درساً من

دروسه الدينية، فتأثر به وبعلمه الفياض، وتناقش معه في عدة أمور، وأخبره عن وطنه ورغبته في تعليمه وتعليم رعيته أمور الدين الإسلامي على حقيقته، ولذلك طلب يحيى من الشيخ الفاسي أن يبعث معه معلماً الى بلاده، يعلمهم تعاليم الإسلام الصحيحة، فبعث إلى تلميذه «وجاج بن زلو اللمطي»[1]، الذي يطلق عليه صاحب الحلل الموشية، «وكال زلو»[2]، وعندما وصل يحيى بن إبراهيم الجدالي إلى بلاد السوس وقابل وجاج، وأخبره عما جرى بينه وبين الشيخ الفاسي، فما كان من وجاج، إلا أنه استجاب إلى طلب شيخه، وخصص له تلميذه عبد الله بن ياسين الجزولي لما كان يتمتع به من حسن خلق وورع، وحجة في الإقناع بالمذهب المالكي.

كما أنه اختاره لمهمة شاقة في الصحراء، لأنه كان كثير التردد على الصحراء وبذلك يستطيع أن يتكيف مع طبيعتها أكثر من غيره[3].

واصل يحيى بن إبراهيم، ومعه الفقيه المالكي عبد الله بن ياسين، رحلته الى قبيلة جداله، ثم باشر بعد وصوله مهمته التي جاء من أجلها، تاركاً أهله وأبناء جلدته من أجل نشر دين الله، واجتمع حوله نحو سبعين شيخاً من فقرائهم، يعلمهم أمور دينهم ويرشدهم الى قواعد الإسلام، ويحذرهم من العادات القبيحة التي لاتمت للإسلام بصلة، مثل الزنا الذي كان منتشراً بينهم، وقد وجد معارضة كبيرة من طرف قبيلة جداله، الأمر الذي جعله يقرر الرحيل عنهم إلى بلاد السودان، حيث سمع أن بها مسلمين، غير أن يحيى رفض مغادرته لهم،

(1) الناصري، المصدر السابق، ج 2 ص 5 وآدم عبد الله الألوري، الإسلام في نيجيريا، ط : 3 1972م، ص 22 ومحمد عبد الهادي شعيرة المرابطون تاريخهم السياسي، القاهرة : مكتبة القاهرة الحديثة 1969م ص 128 . والهادي المبروك الدالي وعمار هلال، الإسلام واللغة العربية في مواجهة التحديات الاستعمارية بغرب أفريقيا 1850 - 1914 اللجنة العلمية لدراسة جنوب الوطن العربي، بيروت : دار صنين للطباعة والنشر 1996 ص ص 29 - 30 .

(2) مجهول، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، الدار البيضاء : مطبعة دار الرشاد الحديثة 1979، ص 20 .

(3) الناصري، المصدر السابق، ج 2، ص ص 6 - 7 .

وقال له: لقد أتيت لتعليم أبناء جلدتي تعاليم الإسلام، واقترح عليه يحيى أن يذهبا معاً إلى جزيرة بالقرب من مضارب خيام قبيلة جداله، وتم ذلك، وبدأ عبد الله بن ياسين ومعه رفيقه يحيى بن إبراهيم، بعد انضمام أعداد كثيرة من أتباعهم يعدهم، للعمل العظيم، ويشرح لهم تعاليم الإسلام السمحة، ويرسخ في نفوسهم العقيدة الإسلامية. وعندما أحس منهم القوة والرغبة الصادقة في الجهاد أمرهم بغزو جداله، فغزوها ودانت لهم واستقام أمرها، ثم وجه أتباعه إلى قبيلة لمتونة، وبذلك ارتفعت كلمة لا إله إلا الله عالية خفاقة، واستطاع أن ينتزع من صدورهم البدع والشرك، ويجسد فيهم قواعد الإسلام السمحة.

وبعد ذلك واصل عبد الله بن ياسين ورفاقه سيرهم المقدس إلى مدينة سجلماسة، وكانت في تلك الفترة تحت حكم «مغراوة»، وأعلن الجهاد عليها وتم له النصر، ودخلت في دين الله أفواجا، ثم زحف على مدينة أودغست المدينة الثانية في إمبرطورية غانا الوثنية عام 446هـ/ 1054م وانتصر عليها.

وفي عام 448 هـ/ 1056م أصبح رباط أودغست، مركزًا من مراكز الجهاد ونقطة الانطلاق نحو القبائل، التي تحاول شق عصا الطاعة على العقيدة الإسلامية، غير أن يد المنية باغتت يحيى بن إبراهيم، بعد جهاد طويل وشاق مع إمامه الروحي عبد الله بن ياسين. وفي هذه الظروف الصعبة أشار عبد الله بن ياسين بتعيين أبي بكر ابن إبراهيم، وواصل هذا الأخير من بعده حركة الجهاد إلى أن توفي عبد الله بن ياسين عام 451هـ/ 1059م[1].

واصل أبو بكر بن إبراهيم مسيرته المقدسة في إعلاء كلمة لاإله إلا الله عالية، فتحرك صوب الجنوب، وجمع «الفلانيين» وقبيلة لمتونة، ودخل بهم في معركة ضد إمبراطورية غانا الوثنية، وقد كلل عمله بالنجاح؛ حيث استطاع تقريب

(1) علي بن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، الرباط: مطبعة دار المنصورة للطباعة والوراقة 1973، ص ص 122 - 125، والناصري، المصدر السابق، ج 2 ص ص 11 - 10 وأحمد شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1963، م ج 6 ص 108.

نهايتها والسيطرة على حاضرتها كومبي صالح، وصارت غانا تحت رحمة المرابطين عام 469هـ/ 1076م[1].

غير أن هذه الانتصارات لم تدم طويلاً في السودان الغربي، فوفاة أبي بكر عام 480 هـ/ 1087 م، واختلاف أتباعه فيمن يحكم بعده، وانشغال المرابطين بأمور المغرب الأقصى فرض على المرابطين التخلي عن الجهاد المقدس؛ لنشر مبادئ الإسلام فيما وراء الصحراء، إلاَّ أن أهم شيء تركه المرابطون بعد رحيلهم، هو تأكيد العقيدة الإسلامية في تلك البلاد، والتي لم تتأثر بالنصر أو الهزيمة، وهذا ما أكده الإدريسي في معرض حديثه عن غانا قائلاً : «غانا مدينتان على ضفتي البحر الحلو، وهي أكبر بلاد السودان قطراً وأكثرها خلقاً وأوسعها متجراً، وإليها يقصد التجار المياسير من جميع البلاد المحيطة بها، ومن سائر بلاد المغرب الأقصى وأهلها مسلمون»[2].

وخير ما نختم به حديثنا عن المرابطين ودورهم في السودان الغربي، وتقريبهم ليوم سقوط غانا، أن جهادهم كان السهم القوي الذي وُجه إلى الوثنية والشرك في هذه المنطقة، وهو الذي قرب من مصرعها في تلك الديار، وبذلك يعتبر تدخلهم حلقة من حلقات الجهاد ضد الوثنية. ولم يكن هدف جهادهم مادياً بحتاً، كما يدعي عدد من الأوربيين الذين يحاولون تشويه مسيرة الإسلام بقولهم : إن دخول المرابطين إلى منطقة السودان الغربي، ومحاولتهم إسقاط غانا كان سببه الذهب الأصفر الرنان.

إن هذا الإدعاء هو محض افتراء على حركة المرابطين والدين الإسلامي والمسلمين؛ فالإسلام لم يأت لنهب وسلب خيرات الشعوب، ولكن جاء إلى هذه البقاع لإخراجها من الظلمات إلى النور. وإذا كانت الشريعة الإسلامية

(1)- أحمدأحمد بابير الأرواني، الجواهر الحسان في أخبار السودان، مخطوط، ورقة 2 ونقولاى زيادة، أفريقيا دراسات في المغرب العربي والسودان الغربي، رياض الريس للكتب والنشر، 1991، ص 343.

(2) الإدريسي، المصدر السابق، ج 1 ص 23.

تعني تنظيم الاقتصاد فهذا لايؤخذ مأخذاً آخر، فالإسلام عندما يأتي إلى أي مكان فمن بين أهدافه تنظيم اقتصاده بتوزيع الأموال بالتساوي بين الأفراد، بحيث يعم الخير الفقير والغني، بل إنهم يتساوون في الحقوق والواجبات، والفرق بينهم هو الجد والاجتهاد فهو المعيار الوحيد الذي يميزهم عن بعضهم بعضًا، ومن هنا خدم الإسلام الاقتصاد ووجهه الوجهة الصحيحة، كما أنه نظم الجوانب السياسية والاجتماعية بدقة متناهية، لامثيل لها في أي نظرية من النظريات الوضعية السائدة في العالم.

ثانياً : قبائل الصوصو تتزعم حركة النضال فى المنطقة :

بعد خروج المرابطين من المنطقة تركوا فراغاً سياسياً، لقبائل الصوصو، فانتهزت الفرصة قبائل السوننكى، شعب إقليم «الصوصو»[1] التابع لغانا؛ لإعلان استقلالها في اوآخر القرن الخامس الهجري الحادى عشر الميلادي، عندما بدأت غانا تتأرجح تحت ضربات المرابطين الموجعة عام 469 هـ/ 1076م.

وكان يتزعم الصوصو، فرع من أسرة سركله، يعرف (بجرسو)، وفي عام 576 هـ/ 1180م، خلعها من على العرش «جوة كنته» من أصل السركله، الذي لعب دوراً بارزاً في توسيع رقعة الصوصو بضم وغدو، وبفنة اللتين كانتا تابعتين إلى كومبي صالح، وهي تقع على ضفتي نهر النيجر الأعلى[2].

والجدير بالملاحظة أن ملك صوصو سالف الذكر، ارتبط بعلاقات وطيدة مع أفلح بن عبد الوهاب أمير جبل نفوسه، بأن بعث للأخير وفدًا يحمل رسائل مؤزرة على انتصارات الصوصو، ويرأس الوفد محمد بن عرفه، وقد استقبل الوفد بكل حفاوة وتكريم من طرف ملك صوصو وقال ملك صوصو مادحاً

---

(1) – يطلق ابن خلدون على الصوصو أمة صوصو بقوله "وكانت تجاورهم من جانب الشرق أمة أخرى فيما يزعم الناقلون تعرف صوصو... ثم أمة أخرى تعرف مالى" ابن خلدون، المصدر السابق، ج 6 ص ص 199-200.

(2)-محمد السالك بن خى التنواجيوى، فوائد من غابر الأخبار في تاريخ الدول وأصول الأنساب، مخطوط، مكتبة الباحث ورقة 12-13، وعبد الرحمن زكى، الإسلام والمسلمون في غرب أفريقيا، المرجع السابق ص 30.

رئيس الوفد (بلهجة عرب المغاربة)[1] «أنت حسن الوجه حسن الهيئة والأفعال»[2] .

وهذا يدعونا إلى التساؤل الآتي :

هل كان ملك صوصو من أصل عربى مغاربى ؟ .

توجد عدة احتمالات للإجابة عن هذا التساؤل، من بينها :

1 - علاقة أبناء المنطقة الوطيدة بمناطق الشمال الأفريقي، حتى أنهم اكتسبوا هذه اللهجة .

2 - قد يكون ملك صوصو من عرب مغاربة الشمال الإفريقي، الذين وصلوا لتلك المناطق .

3 - وقد يكون لملك صوصو مترجمون عارفون بلهجة عرب المغاربة .

إضافة إلى الانتصارات السابقة، استطاع «سومانجورو» ذلك البطل المغوار، في بداية القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي، أن يستولي على قصبة غانا عام 600 هـ/ 1203م ؛ وأمام هذا النصر المؤزر الذي حققه سومانجورو أراد أن يوسع دائرة نفوذه، فهاجم قبائل الماندنجو في الجنوب، غير أن نتائج نشوة النصر كانت عكسية، فهزم في معركة كبرينا، حوالي سنة 633هـ/ 1235م، وبذلك استولى الماندنجو على بلاده، وعاد أغلب أهل الصوصو يجرون أذيال الخيبة والهزيمة بعد وفاة ملكهم برمح مسموم على أرض المعركة[3]، وفي هذا الخضم السياسي، والحسم العسكري اضطلعت مملكة مالي الإسلامية بدور الريادة في المنطقة .

---

(1)- مايطلق عليه عرب المغاربة في الحقيقة هي الهجرات العربية الأولى، التي استقرت في الشمال الإفريقي، وقد اطلق عليهم الرومان كلمة العرب المغاربة .

(2)- سليمان عبد الله البارونى، الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الأباظية، تونس : دار بو سلامة للطباعة والنشر والتوزيع، 1986، ص ص 184 - 223 .

(3) - محمد محمد المفتى (مرحبا) التاريخ الخاص بالتواتر مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف، مخطوط ورقة 50-52، وحسن إبراهيم حسن، انتشار الإسلام، المرجع السابق، ص 10 .

ثالثاً : مملكة مالي الإسلامية :

بعد تفكك إمبراطورية غانا الوثنية عام 460 هـ/ 1076م بفعل جهاد المرابطين، وانسحابهم من المنطقة، وُجد فَراغٌ سياسي، جعل عدداً من الأقاليم التابعة لغانا تنفصل عنها، وتكون دويلات مستقلة، وتمخض عن هذا الصراع من أجل السلطة أن آل الأمر أخيراً إلى قبائل الماندنجو المسلمة، القاطنة في مقاطعة (كانجاب)، والتي يرجع إليها الفضل في تكوين مملكة مالي الإسلامية بقيادة سندياتا كيتا، الذي سيرد ذكره فيما بعد.

الماندنجو : تحمل تسمية الماندنجو عدة مضامين متقاربة، والمتعارف عليه منها المانكا، أي الماندنكا، والماندي، أو مانـنـج، أو مانـنجـا، أو ما نـدنج[1] وهي كلها متقاربة في حروفها. وكلمة ماندي تتكون في لهجة قبائل السوننك، أحد فروع الماندنج، من مقطعين، هما: (ما) + (دي) وحرف الربط (ن) ويعنى المقطع (دي) في اللهجة السوننكية (في) أو (عند)، ويعني المقطع (ما) السيد أو الحاكم، ومن هنا فكلمة ماندى عند السوننك تعنى مركز إقامة السيد أو الحاكم، وبمعنى آخر العاصمة[2].

كما أن هناك تفسيراً آخر لكلمة "ماندنج"[3]. أما (ما) فتدل على معنى

---

(1) - مجهول، تاريخ أرواد في خبر البرابيش وحروبهم مع هكار وادنان مخطوط، مركز احمد بابا التنبكتي رقم1050، ورقة 10، وابراهيم علي طرخان، دولة مالي الإسلامية، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب 1973 ص 27 والهادى المبروك الدالي، مملكة مالى الاسلامية وعلاقاتها مع المغرب وليبيا، اللجنة العلمية لدراسة جنوب الوطن العربي، بيروت: دار صنين للطباعة والنشر1996، ص 23.

Triminghan L.A History of Islam in West Africa, Oksford 1967- P: 14.

(2) - موسى بن احمد السعدى، مخطوط، ورقة 69 والحسن القنصي "التطور التاريخي لمالى، بحث مقدم للمركز الثقافي الليبي باماكو 1985 ورقة 7، لم ينشر.

(3) - تنتشر لغة الماندنجو في وقتنا الحاضر في المناطق الجبلية بأعالي نهر السنغال، وتتركز القبائل الناطقة بها في أقاليم سانجاران، وجانجاران، وبامبوك ووادي غامبيا الأدنى، كذلك تنتشر هذه القبائل شمالا حتى الصحراء الكبرى.

الأم، وكلمـة (دنج) تـدل على معنـى الطفـل، أو الابن، والكـلمـة مجتمعـة تكـون بمعنى (ابن الأم) ؛ وهذا يدل على أهمية النسب إلى الأم، وهو أمر مألوف عند الماندنجو.

أما السعدي فيقول : إن مؤسس هذه السلطنة شعب زنجي أصيل[1].

والباحث المالي الحسن القنصي له قولٌ آخر في ذلك،فقد أورد «أن هذه التسميات أخذ بها عدد من الشعوب، احتكوا بهذه القبائل، فأطلقت قبائل الفولانيين والتكاره لفظ المالنك، وقبائل موسى هي الأخرى، أعطتهم لفظ ونقارة، وكانت تقصد بذلك الماندنج، وخاصة فرعيه السوننكي والجولاء»[2].

كما أن قبائل البامبارة أحد فروع الماندنجو، تستخدم كلمة (مانى) ؛ للدلالة على مجموعة قبائل الماندنجو[3].

وعلى العموم .. فإن كلمة (ماندي) ماهي إلا اصطلاح لغوي، أكثر منه جنسي يقصد به مجموعة القبائل الناطقة بلغة الماند.

وقد امتدح عدد من المؤرخين القدامى والمحدثين قبائل الماندنجو، واعتبروهم من أرقى أجناس أفريقيا، وأكثرهم ذكاءً، وفطنة، وأجدرهم بالاحترام والتقدير، وهم الذين حملوا لواء الإسلام، في تلك المناطق[4].

وبخصوص تسمية «مالي» أو «مل» فقد تناولها عدد من المؤرخين منهم

---

(1) – عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق ص 9.

(2) – الحسن القنصي، التطور التاريخي لمالي، المرجع السابق ورقة 2

(3) – موسى بن أحمد السعدي، مخطوط، ورقة 70 وإبراهيم طرخان، دولة مالي الإسلامية، المرجع السابق ص 27.

(4) – الحسن الوزان، وصف أفريقيا، ط : 2 ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر بيروت الرباط : دار الغرب الإسلامي والشركة المغربية للناشرين المتحدين 1983 ص 165، وتوماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ط : 3 ترجمة حسن إبراهيم حسن وعبد المجيد عابدين، القاهرة : دار مكتبة النهضة المصرية 1970 ص 356 وأحمد شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، المرجع السابق، ج 6 ص 222.

البكري، وأبو حامد الغرناطي، والإدريسي، والعمري، وابن بطوطة، وابن خلدون، والقلقشندي، والحسن الوزان، والسعدي، وصاحب الفتاش، فالبكري يطلق عليها "ملل"[1] وابن بطوطة مالي، حينما قال : "ثم سرنا من كارسخو فوصلنا إلى نهر صنصرة، وهو على نحو عشرة أميال من مالي"[2].

أما السعدي فيعرفها "ملي"[3]، وكعت يطلق عليها "مل "[4] والحسن الوزان يسميها "مالي"[5]. وقد عرفت دولة مالي كذلك ببلاد التكرور، واشتهر ملكها باسم ملك التكرور، والصحيح أن التكرور أحد الأقاليم، التي خضعت لسيادة دولة مالي.

ويقول القلقشندى : "مالي المعروفة عند العامة ببلاد التكرور"[6].

حدودها :

تغطى مملكة مالي الإسلامية مساحة شاسعة من الأرض، فهي تمتد شمالاً إلى تخوم المغرب الأقصى، وغرباً إلى المحيط الاطلسي، وشرقاً إلى حدود بلاد برنو.

وأورد القلقشندي نقلاً عن سعيد الدوكالي قائلاً : "إن هذه المملكة مربعة طولها أربعة أشهر أو تزيد وعرضها مثل ذلك وجميعها مسكونة إلا ماقل، وهذه المملكة هي أعظم ممالك السودان المسلمين " وأضاف لأنه يحدها من الغرب البحر المحيط وبلاد برنو من الشرق، ومن الشمال جبال البربر، و من الجنوب الهمج . . . "[7].

---

(1) البكري، المصدر السابق، ص 875 .

(2) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 681.

(3) عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق ص 9.

(4) محمود كعت، المصدر السابق ص 38

(5) الحسن الوزان، المصدر السابق، ج 1 ص 164.

(6) القلقشندي، المصدر السابق، ج 5 ص 282.

(7) نفسه، ج 5 ص ص 212-282 ومحمد بن عمر التونسي، تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان، تحقيق خليل عساكرومصطفى محمد سعيد، مراجعة مصطفى زيادة، الدار =

أما العمري فقد أورد بأن طولها نحو سنة[1]. كما أورد حسن الوزان، أيضاً أن هذه المملكة تمتد على طول أحد فروع النيجر في مساحة نحو ثلاثمائة ميل متاخمة للمملكة السابقة (جني) من جهة الشمال، وقفار، وجبال وعرة من جهة الجنوب، وتحدها من الغرب غابات مهجورة تمتد إلى المحيط الأطلسي، وشرقاً إقليم كاغو. وفي هذه البلاد قرية عظيمة تضم نحو ستة آلاف كانون تسمى مالي[2].

ويرى زباديه أن مالي تشمل مالي الحالية وأعالي السنغال الشرقي، وشمال كل من فولتا العليا والداهومي، والجنوب الأقصى من جمهورية موريتانيا[3].

ومن خلال هذه الآراء التي تتناول حدود مملكة مالي، نستنتج أنها كانت مملكة مترامية الأطراف، وبهذه المساحة الشاسعة تمكنت من النهوض اقتصادياً، كما سيأتي فيما بعد.

ملوكها :

لم تكن أسرة كيتا هي الأسرة الأولى التي حكمت مالي، بل سبقتها إلى ذلك أسر لم تكن ذات شهرة كبيرة، ومن هذه الأسر : أسرة (باكابوكو)، وأسرة تراوري، وأسرة (كوفاتى) والكوناتين، والكاماروين[4].

= المصرية للتأليف والنشر، 1965 م، ص 134، وبازل دافدسن، أفريقيا تحت أضواء جديدة، المرجع السابق ص 147 والهادي المبروك الدالي، العلاقات بين مملكة مالي الإسلامية وأهم المراكز بالشمال الأفريقي، المرجع السابق ص 61.

(1) – أحمد بن يحي بن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق وتعليق مصطفى أبو ضيف أحمد، الدار البيضاء : مطبعة النجاح الجديدة، 1988، ص 74.

(2) – الحسن الوزان المصدر السابق، ج 1 ص 164.

(3)- عبد القادر زباديه، مملكة سنغاى في عهد الأسقيين، المرجع السابق، ص 21.

(4) - Joseph Ki-zerbo : "Histoire de l'Afrique Noire" Paris : Hatier, 1978, p - 130.

والحسن القنصي المرجع السابق، ورقة 7 وإبراهيم طرخان، دولة مالي الإسلامية، المرجع السابق، ص33.

وهذه الأسر حكمت مالي، وهي مقاطعة من مقاطعات إمبراطورية غانا في إقليم كالمجاب. وقد أورد ابن خلدون أن برمندان حكم مالي وحج واقتفى سنته الملوك من بعده[1].

ومن خلال استقراء الأحداث، فإني أرجح رأي طرخان، ولكنني لا أعتبر هذه الأسر هي المؤسس الحقيقي للمملكة، ولكن في حد ذاتها ماهي إلا إرهاصات أولية لقيامها.

أما المؤسس الحقيقي لها فهو سندياتاكيتا.

يرجع سندياتاكيتا إلى ابن ناري فامغان بن ناري فامغان بن موسى كيتا، المعروف بموسى الأكوري، وقد اشتهر سندياتا بلقب ماري جاطة، وأعطى ابن خلدون تفسيراً لماري جاطة. فماري بمعنى الأمير، الذي يكون من نسل السلطان وجاطة الأسد[2]. والكلمتان تعنيان الأمير الأسد. وقد خالفه في هذا الرأي محمد محمد المفتي (مرحبًا)، الذي أورد أن ماري اللقب ومدلوله تحريف لكلمة محمود أي محمد، وأن اختلاف نطق الكلمة يرجع إلى اختلاف لهجات القبائل[3].

وبالنظر إلى هذين الرأيين.. فإني أرجح رأي ابن خلدون لأن ماري في لغة الزنج تعنى أمير، وجاطة تعنى اسم الأسد إلى اليوم.

كما ان المصادر والمراجع لم تسعفنا إلا بالشيء اليسير عن حياته، فقد أفاد بعضها أنه كان معتل الصحة! وله إخوة هو أصغرهم[4].

ومن وجهة نظري أستبعد هذه المعلومة؛ لأنه لا يعقل أن رجلا معتل الصحة يدبر أمر البلاد ويخطط عسكريًا، ويهاجم، ويستولي على خصمه، ويؤسس

(1) ابن خلدون، المصدر السابق، ج 6 ص 200.

(2) نفسه والصفحه.

(3) محمد محمد المفتي (مرحبا)، التاريخ الخاص بالتواتر، مخطوط، ورقة 32.

(4) ابن خلدون، المصدر السابق ج 6 ص 200.

مملكة مترامية الأطراف. والمهم في الأمر أن سنديات أخذ على عاتقه أمر بلاده، واستطاع الانتصار، على قبائل الصوصو، وتوطيد أركان دولته الناشئة. وقد قام بتنظيمات إدارية، وبذلك قسم البلاد إلى أقاليم، يحكم كل إقليم حاكم من العائلة المالكة، على أساس وراثي[1] . كما قام بتوسيع رقعة مملكته بأن استولى على الأماكن المهمة، فسيطر على مناجم الذهب، وعلى جانجاران وبامبوك، وبوندي، واتجه نحو الغرب متوغلاً إلى أن وصل وادي نهر غمبيا، وبلاد التكرور، وبلاد الجلف[2].

لقد قضى في حكم البلاد قرابة عشرين سنة إلى أن توفي عام 653 هـ/ 1255م؛ وعند وفاته كانت مملكة مالي قد اتسعت في حدودها، إلى بلاد الولوف غرباً عند المحيط الأطلسي، وإلى أواسط النيجر شرقاً، ومن فوتاجالون إلى كومبي صالح، عاصمة غانا السابقة شمالا[3].

واتصفت فترة حكمه بالأمن والرخاء الاقتصادي، وسار أتباعه الذين جاءوا من بعده على نهجه، متبعين سياسته الحكيمة، التي ترمي إلى التعاون مع زعماء القبائل التي تقع ضمن نفوذهم بإنشاء صداقات ومصاهرات، ومنحهم إدارة الأقاليم مقابل ولائهم له، وأخذ أبنائهم رهائن في قصر الملك طوال فترة إدارتهم للأقاليم.

وقد تولى بعده ابنه منسا ولي، ومعنى ذلك السلطان علي وهو الابن الأكبر لسندياتاكيتا، وعرف منسا ولي لدى أهالي مالي بالملك الأحمر؛ نظراً لأنه كان شديد البياض[4] ، وربما يعود الأمر إلى ما ذهب إليه محمد محمد المفتي (مرحبًا) من أن أسرة كيتا قد جاءت من اليمن فيه نوع من الصحة. كما أن والده قد يكون

(1) موسى بن أحمد السعدي، مخطوط، ورقة 70

(2) محمد محمد المفتي (مرحبًا) فتح الحنان المنان بجمع تاريخ بلاد السودان، مخطوط، ورقة 28-27

(3) ابن خلدون، المصدر السابق، ج 6 ص 200

(4) - Sckene Mody cissoko, op cit, p. 52

تزوج من امرأة عربيـة[1]، وهو الأقرب في نظري إلى الحقيقة. نهج الملك منسا ولي سياسة والده بأن اعتمد على قواد أبيه ومستشاريه وقد شدوا من أزره، وساعدوه في حركة التوسع، فقد قام سفكرو ماسيوكو بأخذ بانبوك (وماكيتا)، وسيطر على (كونكو دوجو)، (وساني نيانجا) (وسانجاران)[2].

وبعد أن ذاع صيته وأحكم سيطرته على البلاد، قام برحلة إلى الأراضي المقدسة في عهد الظاهـر بيبرس سلطان مصر المملوكي. وكانت ترافقه في هذه الرحلة قافلة ضخمة كان خط سيرها الطريق الصحراوي، مارة بليبيا عبر غات، واتجهت نحو مصر، ومنها إلى الحجاز. واشتهرت هذه الرحلة بصداها البالغ لما حملته من ذهب وعبيد، وخيرات أفريقيا؛ حيث تعتبر عملاً من أعماله المهمة، وهي تعريف بالمنطقة أكثر من أي شيء آخر[3].

ومن بين الأعمال التي تحسب في ميزانه البطولي، غزو جنجرا، وونقاره، المنطقتين الهامتين اللتين يوجد بهما معدن الذهب. كما أنه اتجه صوب سنغي واقتطع جزءاً منها، واستولى على رهائن لملك سنغي، وهي دويلة ناشئة في تلك الفترة، وكان أحدهم ابن الملك ذا ياسين؛ حتى يضمن بذلك ولاءهم له.

ومن خلال ما تمت الإشارة إليه، ندرك بأن مملكة مالي في فتراتها الأولى، لم تكن قد وضعت يدها على كل أراضي دولة غانا السابقة، بل كانت هناك دويلات استطاعت تنغيص حياة مملكة مالي بالاستقلال عنها، وتكوين قوى مناوئة لها.

استمر منسا ولي يحكم البلاد قرابة خمس وعشرين سنة، شهدت خلالها نوعاً

(1) في علم الجنات، الرجل الأسود والمرأة البيضاء في الأغلب الأعم، يخرج المولود الأول يحمل جنات والده أي أسود، أما الثاني والثالث فعادة جنات أمه. هذا ما أورد علماء الجنات.

(2) تقي الدين أحمد علي المقريزي، الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، تحقيق وتعليق جمال الدين الشيال، القاهرة؛ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر 1955 ص110 وطرخان، دولة مالي إسلامية المرجع السابق، ص 94.

(3) المقريزي، المصدر السابق ص 111، وآدم عبد الله الألوري موجز تاريخ نيجيريا، بيروت: دار مكتبة الحياة، 1965، ص 155 وعبد الرحمن زكي، تاريخ الدول الإسلامية السودانية، المرجع السابق ص 111.

من الرخاء والأمن. ويذهب بعض المؤرخين إلى تحديد فترته من 653 - 669 هـ / 1255 - 1270م[1]، إلا أني أخالفهم الرأي بأن فترته كانت من 653- 674 هـ/ 1255 - 1275 أو يزيد لعدة أسباب، منها :

1- أنه قد تولى بعده أمر البلاد سبعة ملوك ضعاف.

2- أن البلاد لا يمكن لها أن تستمر فترة من الفوضى إلى أزيد من خمس سنوات. إن لم نقل أن الملوك السبعة كانت فترتهم ربما سنة فقط؛ لأن هذه المنطقة بها نهضة سياسية، واقتصادية، واجتماعية، لايمكن أن تستمر في ظل هذه الفوضى لفترة طويلة من الزمن، والدليل على ذلك.

3 - خروج ساكورة من دائرة وضعه الاجتماعي، وانتزاع الحكم من أولئك الملوك الضعاف.

وعلى الرغم من أن هذا الملك لم يكن من البيت الحاكم.. فإنه قد استطاع انتزاع أمر البلاد على إثر انقلاب، قتل فيه السلطان الشرعي عام 684 -700 هـ/ 1285-1300 م[2].

وقد استطاع ساكورة أن يخطو بشعبه خطوات ثابتة، برهنت على أن الذي يتولى أمر البلاد ويصل بها إلى مدارج العلا، لا يشترط أن يكون من أبناء السادة والملوك، وإنما هو الإنسان المدبر ذو العقل الثاقب والتخطيط المحكم.

كانت أول أهداف وطموحات الملك ساكورة هي إخضاع المناطق المتمردة على مملكة مالي الإسلامية، وضمها إلى دائرة حكمه؛ فوجه قواته الضاربة إلى بلاد كوكو، والتكرور، وونقاره، وجاو في الغرب، واستطاع هزيمتها، وضم هذه البلاد إلى مملكته.[3] ومن مهامه الناجحة رحلته إلى الأراضي المقدسة أيام

---

(1) - جبريل ن. نياني، مالي والتوسع الثاني للماند، تاريخ أفريقيا العام، اليونسكو، بيروت : المطبعة الكاثوليكية 1982 المجلد الرابع، ص 159 .

(2)- ابن خلدون، المصدر السابق، ج 6 ص200 .

(3) - تقي الدين أحمد علي المقريزي، الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، المصدر السابق، ص111 ونعيم قداح، أفريقيا الغربية في ظل الإسلام، المرجع السابق ص 51 وعبدالرحمن زكي، تاريخ الدول الإسلامية السودانية المرجع السابق ص ص 103-104.

الملك الناصر محمد بن قلاوون، التي سلك فيها طريق أكسوم في الحبشة، وذلك بأن توجه إلى السودان الشرقي عن طريق البحر الأحمر، وعند وصوله لساحل تاجورة بالصومال[1]، هجمت عليه قبائل الدناكل، وقتلته عام 700 هـ / 1300 م، وبذلك انتهت فترة حكمه التي دامت زهاء خمس عشرة سنة من الكفاح المتواصل[2]. وقد ازدهر عهده بنهضة سياسية، تمثلت في توسيع رقعة بلاده واستتباب الأمن فيها، ونشاط اقتصادها المتمثل في ورود تجار الشمال الأفريقي إلى بلاده.

بعد وفاة ساكورة، رجع حكم مملكة مالي إلى أسرة كيتا، فتولى أمر البلاد الملك منسا موسى الذي يعتبر أقوى ملك حكَم مالي على الإطلاق . وقد اختلف كثير من المؤرخين حول تاريخ تولي الملك منسا موسى أمر البلاد، ولكن أقرب الفرضيات هي التي تقول : إنه بدأ في تسيير الحكم ما بين عامي 707 - 733 هـ/ 1312 - 1337 م[3].

وقد اختلف عدد من المؤرخين في اسمه، فمنهم من أطلق عليه موسى ابن أبي بكر الأسود[4]، وجعله صاحب الجواهر الحسان منساموسى[5] وصاحب السعادة الأبدية يدعوه موسى بن أبي بكر[6]. ويتفق ابن كثير، وابن خلدون،

---

(1)- وقع الباحث خالد الشكري في لبس، فأورد في دراسته السالفة الذكر بأن المدينة التي قتل فيها ساكورة مدينة تاجورة بليبيا، وهي في الحقيقة تاجورة الصومال .

(2) - ابن خلدون، المصدر السابق، ج 6 ص200، وعبد الرحمن زكي، تاريخ الدول الإسلامية السودانية، المرجع السابق، ص104.

Skene Mody cissoko; Tonbouctou L'Empire Songhai ; Dakar les nouvelles Editions 1975 p: 104.

(3) - الهادي المبروك الدالي العلاقات بين مملكة مالي الإسلامية وأهم المراكز بالشمال الأفريقي، المرجع السابق، ص ص 32-33.

(4) - أبو محمد عبد الله بن أسعد علي بن سليمان عفيف الدين اليافعي اليمني الملكي، مرآة الجنان، وعبر اليقضان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، حيدر آباد الدكن، 1331 هـ ح4 ص271.

(5) - أحمد بابير الأرواني، الجواهر الحسان في أخبار السودان، مخطوط ورقة 5.

(6) - أحمد بابير الأرواني، السعادة الأبدية في التعريف بعلماء تنبكت البهية، مخطوط مكتبة الشريف مولاى زيدان، دون تصنيف، ورقة 11.

والقلقشندي فيسمونه منسا موسى بن أبي بكر[1]، غير أن صاحب كتاب بدائع الزهور أطلق عليه موسى ابن أبي سالم التكروري[2]. ويبدو أن محمد الحنفي تأثر بما أطلقه عليه حكام مصر بملك التكرور، وأخذ التسمية على علاتها دون تمحيصها.

ويتضح من هذه الاختلافات، أن ما اشتهر به هو الملك منسا موسى أو كنكه موسى. ومنسا في لغة الزنج تعني ملك وموسى اسمه. أما لقبه كنكه موسى فكنكه اسم أمه، وهو ما درج عليه أهالي السودان الغربي من نسبة الابن إلى أمه؛ نظراً لأن الأم في تلك الفترة تتزوج أكثر من رجل، ولذلك ينسب الأبناء إليها، ومنهم من يرى أن كنكه موسى تعني حاكم موسى بمعنى كي حاكم مل[3]، ولكن ما أوردناه من أن كنكه اسم أم منسا موسى هو أقرب إلى الحقيقة من غيره.

أما عن مسيرته السياسية.. فقد وجد البلاد في حالة من عدم الاستقرار الأمني، الذي جره مقتل ساكوره، وتولي ملوك ضعاف، لم تسعفهم الظروف بتسيير دفة الأمور، وخلق نوع من الفوضى وتدهور في الاقتصاد، بكساد التجارة وتمرد بعض أمراء المقاطعات بالانفصال، وبذلك وجه جهوده منذ تقلده أمور الحكم لصيانة النظام، والأمن، وتوطيد علاقاته مع جيرانه من الشمال الأفريقي، وبلغت شهرتها الأندلس، وأوربا، والشرق العربي، والشمال الأفريقي، فأخلاقه وورعه أكسبه حب الرعية، وتفانيهم في طاعته واحترامه، فكان يعتق كل يوم ألفي شخص من الرق[4].

---

(1) أبو الفداء الحافظ بن كثير، البداية والنهاية، بيروت مكتبة المعارف 1966 م ج 4 ص 200، وابن خلدون، المصدر السابق، ج 6 ص 200، والقلقشندي، المصدر السابق ج 5 ص 294.

(2) - محمد بن أحمد الحنفي، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، ط: القاهرة : 1963، ج 1، ص163

(3) - مجهول، أصل سلطنه برنوح، مخطوط مكتبة عبد القادر التبين بأقدز، دون تصنيف، ورة وإبراهيم زكي وخورشيد وآخرون، دائرة المعارف الإسلامية مادة تنبكت ط : 3، القاهرة : الشعب 1969 المجلد العاشر ص 13.

(4) أحمد بابير الأرواني، الجواهر الحسان، مخطوط ورقة2.

وقد وصفه ابن خلدون بأنه «كان رجلاً صالحاً وملكاً عظيماً، له في العدل أخبار تؤثر عنه»[1] كما ذكر عبد الرحمن السعدي بأنه : «صالح عادل لم يكن فيهم مثله في الصلاح والعدل»[2] . ومدحه أحمد بابير الأرواني بقوله: «وكان ملك مالي هو السلطان منسا موسى ابن أبي بكر من أعظم الملوك في عصره، وهو أول من ملك السودان ملكا حقيقيا، وكان قبل ذلك تتقاسم الملوك أرض التكرور، ولما تملك مالي عم ملكه عليهم، وصارت دولة مالي متصلة فيما بين غانة في الغرب وأرضي التكرور في الشرق ... وأصله يمني»[3] كما أثنى عليه صاحب الجواهر الحسان، فقال إنه أول من ملك سنغاي من سلاطين مالي، وقد عرف بالصلاح والعدل، ولم يكن أحد من الملوك الذين سبقوه أو الذين تولوا بعده في مرتبته[4] .

وأورد ابن بطوطة بعض مآثره، فذكر بأن السلطان منسا موسى، عرف بالعطف والسخاء، والكرم، وتبجيل العلماء البيضان، وجزل العطايا لهم، وقد منح أبا إسحاق الساحلي مبلغًا ضخمًا، قدّر بأربعة آلاف مثقال. ومن شمائله أنه لا ينسى من قدم له يد المعونة في صغره، وهذا ما حدا به أن منح ابن شيخ اللبن سبعمائة مثقال وكسوة وعبيداً وخدماً، وأوصاه بالتردد عليه باستمرار[5].

وجرى السلطان منسا موسى منذ توليه على عادة أسلافه في توسيع رقعة بلاده، فاستولى على ما تبقى من أرض غانا وعلى إقليم (زاغا)[6] .

كما أورد حسن إبراهيم حسن، ونقل عنه الشيخ الأمين عوض الله أن السلطان منسا موسى سيطر على خمسة أقاليم، كانت خارج مناطق دائرة حكمه !

(1) ابن خلدون المصدر السابق ح 6 ص200.

(2) عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق ص7.

(3) أحمد بابير الأرواني، السعادة الأبدية، مخطوط ورقة 11.

(4) أحمد بابير الأرواني، الجواهر الحسان في أخبار السودان، مخطوط ورقة 6.

(5) ابن بطوطة، المصدر السابق ص 690.

(6) أحمد بابير الأرواني، الجواهر الحسان في أخبار السودان، مخطوط ورقة 2.

من بينها إقليم مالي الذي يتوسط المملكة، وإقليم صوصو، ويقع إلى الغرب من مالي، ومن خلال المعطيات، استبعد هذه المعلومة التي اعتبرها تفخيمًا للموضوع فقط لعدة أسباب، منها :

1- أن الملك سندياتا كيتا كان جهاده الأول طرد الصوصو، وانتزاع الحكم منهم وضم إقليمهم، وفعلاً استطاع أن يحقق ذلك، وسار ابنه منسا ولي على النهج نفسه، على ما تبقى من الأقاليم المنفصلة .

2 - إقليم مالي هو الإقليم الذي انطلق منه سندياتا كيتا، وكوّن به مملكة مالي الإسلامية، فكيف يبقى هذا الإقليم لفترة منسا موسى خارج نطاق حكم مالي؟ الأمر الذي قد يستبعده العقل .

لقد استطاع هذا الرجل السيطرة على مقاليد الأمور مجتمعة، بأن أخذ زعماء سنغاي، اللذين كانا يشكلان نوعاً من الخطورة، رهائن في قصره، وهما : علي كلن، وسلمن نار، والعادة عند ملوك السودان بأنهم يأخذون أبناء خصومهم ويربونهم في قصورهم، فمنهم من يرجع بعد مدة، ومنهم من يبقى في خدمة الملك إلى أن يفارق الحياة، وبذلك يضمن ولاء سنغاى لملكه[1].

وبعد أن وطد أركان حكمه عزم على الحج، وهو ماتحدث عنه عدد من المؤرخين، مبرزين هذه الرحلة والأبهة، التي كانت عليها؛ الأمر الذي يقتضي التحدث عنها بشيء من الإيجاز.

أشهر ملوكها ورحلته للحج :

قام السلطان منسا موسى برحلة إلى الحج عام 725 هـ / 1324 م[2]، بعد أن استغرق التجهيز لها مدة خمس سنوات. وتضاربت آراء المؤرخين في كمية الذهب

(1) أحمد بابير الأرواني، الجواهر الحسان في أخبار السودان، ورقة 5. وعبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص7.

(2) الهادي المبروك الدالي، العلاقات بين ملكة مالي وأحد المراكز بالشمال الأفريقي، المرجع السابق، ص34 .

التي حملها معه وعدد العبيد الذين رافقوه؛ فمنهم من ذهب إلى حد القول : بأن أول رأس قافلته بتنبكت، وهو لازال بداره في مل[1] .

أما عن عدد العبيد . . فقد قال عنه صاحب الجواهر الحسان بأنه : «حج إلى البيت الحرام، وكان ذلك في أوائل القرن الثامن في موكب عظيم وجماعته كثيرون، وكان عدد الجند الذين يتبعونه ستين ألف رجل، ويسعى بين يديه؛ إذ ركب خمسمائة عبد، وفي يد كل واحد منهم عصا من الذهب، في كل منها خمسمائة مثقال ذهب !»[2].

ومنهم من ذهب إلى أن عدد عبيده سبعمائة ألف، وحمل أربعين بغلة من الذهب، ومنهم من قال كان يتبعه سبعمائة ألف رجل وخمسمائة عبد، وبيد كل واحد منهم عصا من الذهب تزن كل عصا خمسمائة مثقال[3].

وأورد ابن خلدون معلومات عن رحلة حج السلطان منسا موسى، تحكي الأبهة بأن قال : كان معه مائة حمل من التبر، في كل حمل ثلاثة قناطير، وجاء في مكان آخر من سرده لأحداث الرحلة بأن ما حمله ثمانون حملاً من التبر في كل حملٍ ثلاثة قناطير .

وأمام هذه الآراء التي تصور عدد الرجال الذين رافقوا السلطان وكمية الذهب، التي حملوها معهم، علينا أن نطرح عدة تساؤلات:

1 - ما الذي يكفي هذا العدد الهائل من البشر، الذي رأسه في تنبكت وقاعدته عند ملك مل من مركوب وغذاء وماء وكساء، طوال هذه الرحلة الشاقة والطويلة، والتي تقدر بحوالي خمسة عشر ألف كيلو متر تقريباً؟

2- إن المسافة بين مل قاعدة المملكة ومدينة تنبكت، ألف وثلاثمائة كلم، قطعتها

(1) محمد كعت، المصدر السابق ص33

(2) أحمد بابير الأرواني، الجواهر الحسان، مخطوط ورقة 5

(3) عبد الرحمن السعدي المصدر السابق ص7، وبوفيل الممالك الإسلامية في غرب أفريقيا وأثرها في تجارة الذهب، المرجع السابق ص117 .

سيارتي في ثلاثة أيام. فكيف له أن يكون رأس قافلته بتنبكت وهو بداره في مل ؟ وافترض جدلاً التصديق بهذا العدد الهائل من البشر، الذي رافقه في رحلته، ولو وضعناهم في قافلة منتظمة، فإنهم لا يصلون حتى إلى مدينة سيقو، التي تبعد عن قاعدة مالي بحوالي مائتين وخمسين كلم.

3- إن كمية الذهب التي حملت في هذه الرحلة، تعتبر نهكاً للاقتصاد الوطني، فكيف لرجل مثل الملك منسا موسى، أن ينهك خزينة بلاده، التي هو في أمس الحاجة إليها لبناء جيش قوي يفتح به الأمصار، ويرد به كيد الطامعين؟ وما عرف عن الملك منسا موسى إلا الورع والصلاح وسداد الرأي. فمن أين له أن يفعل مثل هذه الأفعال؟ ومن وجهة نظري، أن هذه الهالة التي عبر عنها عدد من المؤرخين القدامى والمحدثين مردها إلى الخيال الزائد، الذي ينسج على الأبطال دائمًا من قبل رعيتهم، والدليل على ذلك قصة زوجة السلطان منسا موسى، وطلبها من زوجها أن يصنع لها بحيرة تستحم فيها، وهي في أعماق الصحراء، ولبى زوجها طلبها، وأمر رئيس العبيد وعبيده، فصنعوا لها بحيرة، وأفرغوا فيها كافة قرب الماء واستحمت فيها!.

هل يعقل أن يستنفذ السلطان منسا موسى القائد المحنك كمية الماء، التي يحملها معه، وهو في أعماق الصحراء، في سبيل تلبية طلب زوجته؟

هذه الأمور تكشف بجلاء الخيال الواسع الذي دُرجت عليه الرواية الشفوية. ولكن في الوقت نفسه لا ننكر الثراء، الذي كانت عليه مملكة مالي الإسلامية.

أما الطريق الذي سلك إلى الأراضي المقدسة.. فقد أورد صاحب الجواهر الحسان والسعدي أنه سلك طريق ولاته مروراً بتوات، وقد تخلف جمعٌ من رجاله، لمرض أصابهم في أرجلهم في مدينة (توات)[1]، وبذلك سميت هذه المدينة على تلك العلة[2].

(1)- مدينة توات قبل قيام مملكة مالي الإسلامية.

(2) أحمد بابير الأرواني، الجواهر الحسان، مخطوط ورقة 6 وعبد الرحمن السعدى، المصدر السابق ص7.

وعند وصوله إلى القاهرة، استقبل استقبالاً رسمياً وشعبياً. وكان حاكم مصر في تلك الفترة محمد بن قلاوون، الذي أوعز إلى العباس أحمد بن علي الخاقاني بمرافقته، وقد أحاطه برعاية خاصة، وأنزله قصراً عند القرافة الكبرى، بل أهدا له وأجزل حاكم مصر العطايا، من حرير وخيل وإبل وتموين إلى ضيفه المالي وفي المقابل منح السلطان المالي إلى حاكم مصر بعيراً محملاً ذهباً قدر بحوالي خمسة آلاف مثقال، إضافة لذلك فقد وزع سلطان مالي الذهب والعطايا على م قدم له خدمة بمن فيهم موظفو الدولة المصرية[1].

مكث السلطان منسا موسى في مصر، وعندما حان موعد الحج ذهب إلى الأراضي المقدسة وأدى فريضة الحج، وتصدق بمبلغ قدر بعشرين ألف م الذهب، ورافقه في رحلة العودة أربعة من الموالي، والمهندس أبو إسحا الساحلي، الذي عرض خدماته المعمارية على السلطان منسا موسى. وفي طري العودة ضل ركب السلطان المالي في الطريق بين الحجاز ومصر، الأمر الذي جع جزءاً كبيراً من الزاد ينفذ من ركبه وعند وصوله لمصر، أصبح ما بيده من الز قليلاً لايكفيه لمواصلة رحلته الى بلاده، فباع القصر، واقترض من سراج الدين أحد تجار مصر الكبار خمسين ألف دينار[2].

كما سلك السلطان المالي طريق العودة عبر الأراضي الليبية، حيث مر عا مدينة غدامس، واصطحب معه المهندس الليبي عبد الله الكومي الموحد الغدامسي، الذي طور بناء جامعة سنكري، وقصره مع المهندس أبي إسح الساحلي، وأصبح فيما بعد مستشاره[3].

---

(1) ابن خلدون المصدر السابق، ج 6 ص200، والقلقشندى، المصدر السابق، ج 5 ص 95 والعمرى، المصدر السابق ص ص 70-71.

(2) -ابن خلدون المصدر السابق ج6 ص200، والقلقشندى، المرجع السابق، ج 5 ص295، و بطوطة المصدر السابق، ص 694، وعبد الرحمن السعدى المصدر السابق ص 7.

(3) ابن خلدون المصدر السابق ج6 ص ص200 -201، ونعيم قداح، أفريقيا في ظل الإسلا المرجع السابق، ص 54.

وعند رجوعه تناهى إلى مسامعه نبأ استقلال إقليم سنغاي عن حاضرة الدولة، فغير طريق مسيره واتجه صوب جاو حاضرة الإقليم السابق. ولما علم ملك الإقليم بمقدمه، استقبله استقبالاً يليق بمقامه العالي، وقدم له فروض الطاعة والولاء، كما مر ركب السلطان بمدينة تنبكت ذات الحضارة الزاهرة، وقد شيد بها المسجد الكبير وقصراً له ومساجد أخرى(1).

بلغت البلاد في عهده عنفوان مجدها وقوتها، باستيلاء قواته على حاضرة سنغاي، جاو، وتنبكت، التي تمثل عمقاً حضارياً متميزاً. ووجه جيوشه صوب الجنوب، مخترقاً الفيافى إلى فو تاجا لون، على حدود نيجيريا الحالية، ومن بعد تحرك إلى مناجم الملح في منطقة تغازا، والنحاس في بلدة تكدا، ووصلت سيطرته إلى المحيط الأطلسي(2). إلا أن يد المنية سارعت بأخذه، وهو يبنى المملكة لبنة لبنة عام 738 هـ/ 1337م، بعد حكم دام خمس وعشرين سنة(3).

تولى بعده ابنه مغا أمر البلاد من 738-742هـ/1337-1341م، وكان ضعيف الشخصية، حدثت في عهده اضطرابات وقلاقل(4)، وانتشل البلاد من الفوضى عمه منسا سليمان من 742-762/1341-1360م، الذي عمل على إصلاح مافسد، بأن شجع العلم والعلماء، وجلب الفقهاء من مذهب الإمام مالك

(1) – محمود بغيع، جواهر الإحسان في دعوة الإخوان، مخطوط، مكتبة الباحث بدون تصنيف، ورقة 1-2 وعبد الرحمن زكى، تاريخ الدول الإسلامية السودانية، المرجع السابق ص 109

(2) – مجهول، فقهاء تنبكت، مخطوط، مكتبة الباحث، ورقة 1-2، وأحمد شلبى، موسوعة التاريخ الإسلامي، المرجع السابق، ج 6 ص 246.

(3) – وأحمد بابير الأروانى، الجواهر الحسان في أخبار السودان، مخطوط ورقة 22، ابن خلدون المصدر السابق، ج 6 ص 200.

(4) – محمود بغيع، جواهر الإحسان في دعوة الإخوان، مخطوط ورقة 5.
Levtzion, N. , The Early States of the Western Sudan to 1500, History of West Africa, ed Ajayi J.F.A., Vol I Great Britain, 1976, P : 137.

للمملكة، وشيد المدارس والمساجد، وانتهج جانب العدل في حكمه وعطفه على رعيته، وعلى الغرباء. وقد زار ابن بطوطة مالي في عهده، وذكر شيئاً عن عدله بأن تاجرًا من مسوفه يسمى أبا حفص، وقع عليه ظلم من حاكم ولاته، التي كانت تابعة لمملكة مالي الإسلامية، فشكاه إلى الملك منسا سليمان على أنه استلف منه ستمائة مثقال، ولم يدفع له إلا مائة مثقال، فما كان من الملك المالي إلا أن أوكل أمرهما إلى القاضي، وعندما ثبتت الإدانة على حاكم ولاته، أخذ منه حق التاجر المسوفي وعُزل حاكم الولاية من طرف السلطان منسا سليمان.

وهو الذي أكرم ابن بطوطة ومنحه ثلاثة وثلاثين مثقالاً وثلثاً، وأعطاه مائة مثقال عندما غادر مالي. وهذا يدل على احترام الملك منسا سليمان للغرباء وعطفه عليهم[1].

قام السلطان منسا سليمان برحلة إلى الحج بعد أن وطد أركان بلاده، وقد عرف لدى أهالي مصر بملك التكرور، وعلق موسى بن أحمد السعدي على هذه التسمية بأن السلطان المالي لو سمعها لاستهجنها، ويفضل أن يقال له صاحب مالي[2].

بعد هذا الإصلاح السياسي والثقافي، الذي قدمه السلطان منسا سليمان، لم تمهله الأيام لمزيد من رفع مقام دولته. فما هي إلا تسع عشرة سنة قضاها في الحكم حتى توفي عام 761 هـ 1359م، وتولى بعده ابنه (قنبتا) الذي لم تكن له شخصية الحاكم. وبعد تسعة أشهر مكثها في الحكم لم يخلف أي أعمال تذكر. وخلفه في الحكم الملك (ماري جاطة الثاني) 762-776/1360- 1374م، وعرف عنه بأنه الملك الأهوج المبذر، الذي لايعرف للحكمة طريقاً، فقد أنهك

(1) ابن بطوطة المصدر السابق، ص 688 العمرى، المصدر السابق ص 69، وعبد الرحمن زكى، تاريخ الدول الإسلامية السودانية، المرجع السابق ص 113، وأحمد شلبى، موسوعة التاريخ الإسلامي، المرجع السابق، ج6 ص 246.

(2) موسى بن أحمد السعدى، مخطوط ورقة 170 .

خزانة بلاده بمصروفاته الزائدة على ملذاته طيلة أربع عشرة سنة، فقد باع حجر الذهب غير معالج يزن عشرين قنطاراً، لتجار مصر بثمن زهيد. وقد نعته ابن خلدون بقوله : " وكان أشر والٍ عليهم بما سامهم من النكال والعسف وإفساد الحرم "(1).

وفي ظل هذه الظروف المؤلمة من تاريخ المملكة، توفي مارى جاطة الثاني بمرض النوم، الذي تمكن منه، وكان ذلك عام776 هـ/1374م. فتولى ملوك أضعف منه بعده كان أولهم ابنه موسى الثاني 776-789هـ 1374/-1387م، الذي كان ضعيف الشخصية أمام وزيره ماري جاطة، الذي صب جل اهتماماته في توسيع رقعة البلاد على حساب مواطنيه، الذين يعانون الفاقة بسبب ندرة الأمطار وكساد التجارة، ومرد ذلك للفوضى التي اجتاحت البلاد. وماهي إلا ثلاث عشرة سنة حتى توفي تاركاً البلاد لأخيه منسا مغا، الذي قتل بعد سنة من توليه؛ بسبب الفتن التي أصبحت عليها البلاد.

تولى أمر البلاد بعد منسا مغا صندكي زوج أم موسى 791-793هـ/ 1388-1390م، وكان هو الآخر شخصية ضعيفة لم يقـدر لها النجاح، ووصلت البلاد في عهده إلى قمة الفوضى(2).

نهض بأمر الدولة بعد صندكي رجل من أسرة كيتا، كان في المنفى، يدعى محمود، انتزع عرش البلاد وهي في قمة الفوضى والمهانة، وعلى الرغم من أن معلوماتنا قليلة عنه، إلا أنه جاء لإنقاذ المملكة مما لحقها من جهل وتخلف، وعلى ما يبدو أنه لم يعمر طويلاً. جاء بعده ثلاثة ملوك ضعاف، لم يكن لهم دور يذكر في التاريخ ؛ كان أولهم ملك يدعى محمد، عاش في أواخر القرن التاسع الهجرى الخامس عشر الميلادي؛ أي حوالى 886هـ/ 1481م(3) واستمر قابعاً في دويلته، التي أصبحت منذ عام 869هـ/ 1464م تابعة

(1) ابن خلدون، المصدر السابق ج 6، ص ص 201 -202،

(2) نفسه ص 202 والقلقشندي، المصدر السابق، ج5، ص 298.

(3) ابن خلدون، المصدر السابق ج2، ص 202، والقلقشندي، المصدر السابق، ج5، ص298.

لإمبراطورية سنغاي التي أسسها الملك سني علي، وسوف يرد ذلك بتفصيل في الفصل الأول.

كانت هذه المملكة تتمتع بنهضة سياسية واقتصادية وثقافية واجتماعية في أغلب فتراتها، أي من عام 636- 894هـ / 1238-1488م .

التنظيم السياسى والاقتصادى والثقافى :

تمتعت المملكة برقعة ترابية شاسعة، ونظام حكم ملكي وراثي في الأغلب الأعم. وكان نظام تولي عرش المملكة لايقتصر على أبناء الملك، بل حتى إخوة الملك قد يكون لهم نصيب في العرش ومنسا سليمان خير دليل على ذلك. وقد يولي الملك أبناء الأخت، أو بنات البنت، فهو أمر مألوف عندهم، وما يبرهن على ذلك تولي أبي بكر عام 1275/674م أمر البلاد، وهو ينتسب إلى ماري جاطة على أنه ابن بنته[1]، والشواهد على ذلك كثيرة.

لقد أكد القلقشندى ذلك بقوله : "على قاعدة العجم في تمليك البنت وابن البنت"[2] وأورد ابن بطوطة معلومات في هذا المضمار، بأنه رأى في مدينة تكدا أبناء أخت سلطانها يرثونه في الحكم، وفي مدينة ولاته التابعة لمملكة مالي الإسلامية "لايرث الرجل إلا أبناء أخته دون بنيه"[3].

وقد ينفلت الأمر من الأسرة الحاكمة في المملكة، ويصل الحكم إلى يد رجل خارج الدائرة، وهذا ما نجده متمثلاً في ساكوره، الذي لاينتسب إلى الأسرة المالكة، بل هو مولى من الموالي، انتزع عرش البلاد وقد سبق ذكر ذلك.

كان نمط الحكم في مملكة مالي الإسلامية إسلامياً في الأغلب الأعم، وقد

---

(1) محمد محمد المفتي (مرحبا)، فتح الحنان المنان بمجمع تاريخ بلاد السودان مخطوط ورقة 20، وفاي منصور علي، دولة مالي الإسلامية في عصرها الذهبي على عهد السلطان منسا موسى، رسالة ماجستير، جامعة الازهر، كلية اللغة العربية، 1984م، لم تنشر ورقة 120 - 121.

(2) القلشندي، المصدر السابق ج5 ص194.

(3) ابن بطوطة، المصدر السابق ص 698.

يمارس حكامها حكماً استبدادياً في بعض الأحيان، وقد تصل هيبة ملوك مالي عند رعيتهم إلى درجة التقديس فيحلفون بملوكهم يقولون : "منسا سليمان كي" .

لقد انتهجت مملكة مالي الإسلامية في نظام حكمها نهج بعض الممالك الاسلامية المعاصرة لها، وكان نظام الحكم تسند فيه السلطة إلى الملك بالدرجة الأولى. ويسير دفة الحكم مع الملك ونائبه، مجلس الوزراء وموظفون يسيرون دواوين المملكة، وقد يصدر الملك أوامره شفهياً أو يأمر صاحب الديوان بكتابتها باللغة العربية أو الخط المغربي[1]، ويعقد اجتماعات دورية، في فناء قصره للمشورة ومتابعة توجيهاته السابقة إلى حكام الأقاليم في المملكة والتأكد من تنفيذه[2].

ويأتي في الأهمية بعد الملك نائبه ويطلق عليه (قنجا)[3]، وعادة ما يكون ابن الملك من يتولى هذه الوظيفة وينوب عن الملك، وإذا خرج الملك خارج البلاد يترك أمر تسيير الدولة إلى ابنه، وهذا ما فعله منسا موسى عند ذهابه في رحلة الحج؛ حيث ترك ابنه محمد نائباً عنه[4].

أما الوزارات فعادة ما تسند إلى عرب الشمال الأفريقي المتواجدين هناك؛ فقد تولوا الخزانة، والقضاء، والترجمة، وكتاب الملك، والاستشارة. وقد أسند الملك منسا موسى منصب الاستشارة إلى المهندس الليبي عبد الله الكومي الموحدي الغدامسي. ومن الوزارات الرئيسية: وزارة الثقافة، والأملاك، وشؤون مياه نهر النيجر، والملاحة النهرية، والصيد، والغابات، والجزية[5].

---

(1) القلقشندي المصدر السابق 52 ص 298 والعمري، المصدر السابق ص ص 67 - 74، ومجهول «إمبراطوريات السودان الغربي»، مجلة الدراسات الأفريقية، جامعة القاهرة: معهد البحوث والدرسات الأفريقية 1972م ع الأول ص 21.

(2) القلقشندي المصدر السابق، ج 5 ص 301، والهادي الدالي، مملكة مالي الإسلامية وعلاقاتها مع المغرب وليبيا، المرجع السابق ص 63.

(3) ابن بطوطة المصدر السابق، ج 5 ص 301، نفسه 127.

(4) القلقشندي المصدر السابق، ج 5 ص 298 وإبراهيم طرخان، دولة مالى الإسلامية، المرجع السابق 128.

(5) محمود بغيع، جواهر الإحسان في دعوة الإخوان، مخطوط، ورقة 1-2، وآدم عبد الله الآلوري، الإسلام في نيجيريا، المرجع السابق ص 54.

وكانت المملكة مقسمة إلى عدد من الأقاليم وهي غانا، وزافون، وترنكا وتكرور، وسنغانة، وبانبغو وزار فيرطا، وتنبرا، ودرمودا، وزاغا وكابر ويراغوري وكوكو وإقليم مالي[1].

وأورد صاحب الجواهر الحسان "بأن أهل مالى سودان في الأصل ... وفيها ثلاث مناطق كل وبندكُ وسبرُدكُ، وفي كل منطقة من المناطق الثلاث اثنا عشر سلطانا"[2].

أما سلاطين (كل) التي تجاور مدينة (جنى) ثمانية، وهي: ورُن كُمي ونتركُبي وكمي لمي وفدكُ كي وكركُ كي وكوكُي وفرماكي وزن كي.

وأربعة من هؤلاء السلاطين يحكمون وراء النهر من جهة الشمال.

أولهم كُوكركُي من أهل زاغ وقدم أهله من المغرب وياركُى وسن كُى وسام كي وسنبنب. أما رئيسهم فيدعى فرن وهو الذي يتقدمهم عند سلطان مالي، إذا اجتمعوا للمشورة[3].

أما سلاطين بنْدك فكلهم يقطنون وراء النهر من جهة اليمين، وهم كوكُى وكعن كي وسْم كي، وّتركُي وداع كُي وأم كُي وتعب كُي[4].

وقد اعتذر صاحب الجواهر الحسان بأنه نسى خمسة منهم ؛ بمعنى أن مجموعهم أحد عشر سلطاناً.

ومن خلال استقراء لأسمائهم.. فإننا نجد أن كل سلطان يلقب بكي وكي سلطان. وليس كما أورد السعدى بمعنى نائب السلطان، إلا إذا قصد بذلك سلطان مالي.

(1) ابن خلدون المصدر السابق، ج 6 ص ص 199-200 والقلقشندي المصدر السابق، ج 5 ص 286، والعمري، المصدر السابق ص 60.

(2) -أحمد بابير الأرواني، الجواهر الحسان في أخبار السودان، مخطوط، ورقة 8-9.

(3) -نفسه والورقة.

(4) أحمد بابيير الأرواني، الجواهر الحسان في أخبار السودان، مخطوط ورقة 8-9 .

والمعلومات السابقة حول أسماء القبائل والسلاطين، لم تتطرق لها المصادر القديمة، فهذه المخطوطة كشفت لنا عن جوانب خفية، أعطت لنا بعداً جديداً، يضاف إلى تاريخ منطقة السودان الغربي.

أما عن التنظيم الإداري، والمصطلحات التي يطلقونها على إدراتهم وأقاليمهم، فتعبير القرية يطلقون عليه اسم الدجوDugu، وتعتبر نواة الوحدة الإدارية، وتأتي بعدها في المرتبة الثانية المدينة، وهي تتألف من مجموعة قرى، ويطلق عليها الكافو Kafo، كما أطلق على مجموعة من المدن، الكافوات اسم الديامانا بمعنى الولاية أو المملكة. وعلى ما يبدو أن هذا التنظيم تأثر بالنظام القبلي، الذي كانت عليه قبائل الماندنجو المؤسس الحقيقي لمملكة مالى الإسلامية[1].

كما يطلق لقب مانسا أو ماسا على حكام الولايات ورؤساء القرى.

وكان حاكم الولاية يدعى كُي Koi، بمعنى ملك تابع لسلطان مالي، وهو يعتبر أرفع لقب، يلقب به حكام الولايات في المملكة[2].

أما الذي يتحكم في أمور الولاية، فيأتي الفربةFarba بعد الكى مباشرة، وقد يحكم نيابة عنه. وهذا ما أكده ابن بطوطة الذي أفاد أن الوزير كان يسير فى إحدى القرى الواقعة على نهر النيجر في فترة السلطان موسى[3].

وقد أورد عبد الرحمن السعدي بأن ستة وثلاثين ملكاً حملوا لقب كي[4].

ومن جوانب النهضة السياسية، التي شهدتها مملكة مالي الإسلامية، توطيد علاقاتها مع جيرانها، وخاصة المغرب الأقصى، فقد ارتبطت بعلاقات وطيدة مع المغرب، وتبادلت الوفود، ورسائل المؤازرة، وخاصة في عهد السلطان المرينى

---

(1) -عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق ص 9 ، Joseph. Ki-Zerbo op cit : P : 160

(2) -نفسه، ص 8 وفاي منصور علي، المرجع السابق، ورقة 125-126.

(3) ابن بطوطة، المصدر السابق ص 692.

(4) - عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق ص 10.

أبو الحسن بن عثمان المرينى 732-752هـ/ 1331-1351م ؛ ونظيره السلطان منسا موسى سلطان مالي، وتوج ذلك عندما انتصر أبو الحسن المريني على تلمسان، وضمها إليه عام 735هـ/ 1334م[1]. فما كان من السلطان منسا موسى إلا أن أرسل وفد تهنئة ومؤازرة برئاسة فرافقيس إلى السلطان المريني، واستقبل الوفد بكل حفاوة وتكريم، وفي فترة تواجد الوفد المالي في المغرب حمل نبأ وفاة السلطان منسا موسى إلى المغرب، فحزن السلطان المريني لفقد صديق حميم، وبعث وفداً برئاسة كاتب الديوان أبي طالب ابن محمد بن أبى مدين، محملا بأصناف الهدايا من خزائن دار السلطان. واستقبل الوفد من طرف السلطان منسا سليمان استقبالاً يليق بمقامه، وتقبل منهم التعازي وهدايا السلطان المريني، وحفهم برعاية خاصة[2].

ودعماً لروابط الأخوة والمحبة، أرسل السلطان المالي مع وفد التعزية عند رجوعه إلى المغرب الأقصى سفارة برئاسة الحاج الونجرتي إلى السلطان المغربي أبي الحسن المريني، يؤكد له فيها استمرار العلاقات الحميمة بين البلدين. وعلى الرغم من الظروف السيئة التي تعرضت لها مملكة مالي بعد وفاة السلطان منسا سليمان، إلا أن السلطان منسا زاطة واصل مدَّ أواصر الصداقة مع المغرب الأقصى، بأن أرسل هدية وهي عبارة عن زرافة، عندما تولى أمر البلاد السلطان أبو سالم المرينى، عام 762 هـ/ 1360م، وقد قابل أبو سالم الوفد المالي بترحيب بالغ، وكان حاضراً هذا الجمع ابن خلدون[3] أما عن تنصيب الملك في عهد مالي وسنغاي، فسيرد مفصلاً في الفصل القادم.

(1) - الناصري، المصدر السابق، ج 3، ص 124-125-126.

(2) - ابن خلدون، المصدر السابق، ج 7 ص 266 والناصري، المصدر السابق، ج 3، ص 151-152.

(3) - محمد السالك بن خيي التنواجيوي، فوائد من غابر الأخبار في تاريخ الدول وأصول الأنساب، مخطوط ورقة 39 وابن خلدون المصدر السابق، ج 7 ص 300 وعبد الهادي التازي الموجز في تاريخ العلاقات الدولية للمملكة المغربية، الرباط : مطبعة المعارف الجديدة 1973 ص 77.

وكان لـمملكة مالي مؤسسات تعمل على تسيير أمور المملكة.

يأتي في مقدمتها نظام القضاء الذي يعتبر مهمة القضاء مهمة رفيعة وصعبة في آن واحـد، وتحت إشراف السلطان، ومن يتولى هذا المنصب لابد أن تتوفر فيه عدة شروط، منها: النزاهة والصدق والأمانة، وحسن تدبير الرأي، والورع، ويطلق على القاضي لقب بانفارفم[1].

والقضاة نوعان : قاضي العاصمة، وهو القاضي الأعلى، وقضاة آخرون وهـم يمارسون مهمة القضاء خارج العاصمة، وقاضي العاصمة أرفع من قرينه، ويعتبر مستشار الملك. ويختص القاضي بمصافحة الملك، ويتصدر الحاضرين في المناسبات ويصدق السلطان القاضي، ومن مهام القاضي الفصل في المشاكل، التي قد تحدث بين سكان المملكة، وكذلك المشاكل التي تحدث بين ولاة الأقاليم.

وقد أفادنا ابن بطوطة عند زيارته لمدينة تكدا قائلاً : "وفي أيام إقامتي بهـا، توجـه القاضي أبـو إبراهيـم والخطيـب محمد والمـدرس أبو حفـص والشيـخ سعيـد بن علي إلى سلطان تكدا وهو يسمى إزار، وكان على مسيـرة يـوم منها، وقعت بينـه وبين التكريري، وهو من سلاطين العرب المغاربة أيضًا منازعة فذهبوا إليه للإصلاح بينهما "[2].

ومن خلال النص السابق، تتضح قيمة القاضي، وما يتمتع به من صلاحيات على حكام الولايات، الأمر الذي يوضح الدرجة التي كانت عليها العدالة، إضافة إلى ذلك قيمة المدرس، والخطيب والشيوخ، في نفوس أبناء وحكام مالي، كما يؤكد ذلك احترام أبناء ملوك مالي لأهل العلم.

ويقف أمام القاضي الحاكم والرجل العادي على السواء، وهذا ما أورده لنا ابن بطوطة، من أن تاجراً من تجار ولاته، اشتكى لدى السلطان منسا سليمان من

(1) - محمود كعت، المصدر السابق ص 35.

(2) - ابن بطوطة، المصدر السابق ص 686-698 ومحمود كعت المصدر السابق ص 35، عبد الله حشيمة، في أفريقيا السوداء، بيروت : المطبعة الكاثوليكية 1962 ص 25.

حاكم إحدى ولاياته بأنه أخذ منه ستمائة مثقال، وأراد أن يرد له مائة مثقال، فما كان من السلطان المالي إلا أن أرسل إلى القاضي، وأمره بالتحقيق في الموضوع، وعندما تبين صحة الدعوة التي رفعها التاجر الولاتي، أمر السلطان منسا سليمان برد الأموال للتاجر من حاكم الولاية وعزل حاكم ولاته[1].

وهذا ينم عن مكانة القاضي وعدل السلطان منسا سليمان.

كما أن نظام المحاكم في مملكة مالي الإسلامية يتكون من محكمتين :

الأولى المحكمة الملكية : يرأسها الملك وتختص في جرائم الخيانة العظمى.

والثانية محكمة القاضي : ويتم تعيين القاضي من طرف الملك، ويوكل إليها النظر في الجرائم العامة، والمنازعات بين الأهالي.

أما عن إعلان الحكم، فيتم بعد أن يفصل فيه القاضي، إذا كان الحكم يخص بعض أفراد المجتمع، وقرار المحكمة يعلن أمام الحاضرين، أما العقوبة فحسب الجرم المقترف، فهي تتراوح مابين السجن، والجلد والموت أو مصادرة الأملاك[2]. أما الطريقة المتبعة في استخلاص المعلومات من المتهم.. فإنها لاتستند إلى احترام، فوسيلة العنف هي المتبعة في ذلك، وقد يكون من وجهت له التهمة بريئًا إلا أنه يذهب ضحية التعذيب[3].

وقد اتخذت مملكة مالي الإسلامية منذ قيامها على عاتقها، بناء قوة ضاربة في منطقة السودان الغربي يحسب حسابها، فاجتهد ملوكها منذ عهد سندياتا وإلى

---

(1) - القلقشندي، المصدر السابق، ج 5 ص 299، وعبد القادر زبادية، مملكة سنغاى، المرجع السابق ص 23.

(2) - محمد الغربي، بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، بغداد : دار الرشيد للنشر 1982 ص 47 وعبد الرحمن زكي، الإسلام والمسلمون في غرب أفريقيا، المرجع السابق ص 33.

(3) - أحمد بابير الأرواني، الجواهر الحسان في أخبار السودان، مخطوط، ورقة 7-8، وإبراهيم طرخان، دولة مالي الإسلامية، المرجع السابق ص 133.

عهد السلطان منسا سليمان في تكوين جيش قوي بلغ عظمته، في عهد السلطان منسا موسى. وقد أورد القلقشندي معلومات عن قوة الجيش المالي في قوله : "مقدار عسكره مائة ألف نفر، عشرة آلاف فارس، فرسان خيالة وسائرهم، رجالة لاخيل ولامركب"[1].

وتفيدنا المعلومة السابقة بضخامة الجيش وتقسيماته ومهامه، وكان الجيش في مملكة مالي يتألف من عناصر قبائل الماندنجو، والعرب المتوطنين هناك، وفروع أخرى. ويشرف الملك بنفسه على إعداد الخطط العسكرية، وفي أغلب الأحيان يقود الجيوش بنفسه، ويحافظ على أمن البلاد من أي اعتداء خارجي أو داخلي، ويمتاز قادة الجيش في المملكة، باحترام خاص لدى الملك والرعية إلى درجة وصول بعضهم إلى السلطة، مثلما فعل ساكورة 684-700هـ/1285-1300م[2].

وقد عرف عن الجيش المالي بأنه جيش منظم فكان مقسماً إلى قسمين :

القسم الأول : جيش الشمال، ويلقب قائده باسم (مارن سور)، ويعني هذا اللقب قائد المسلمين، ومكانه مدينة ديارا، في إقليم كانياجا.

القسم الثاني : جيش الجنوب، ويقطن في مقاطعة سانجاران، ويدعى قائده ديوان صندكي[3].

---

(1) - ابن بطوطة، المصدر السابق ص ص 686-698 ، ومحمود كعت المصدر السابق ص 35، عبد الله حشيمة، في أفريقيا السوداء، بيروت : المطبعة الكاثوليكية 1962 ص 25.

(2) - ابن بطوطة، المصدر السابق ص ص 686-698 ونعيم قداح، أفريقيا الغربية في ظل الإسلام، المرجع السابق، ص ص 110-117 .

(3) - مجهول، حديقة البستان على تواريخ أهل اروان، مخطوط، مكتبة احمد سالم الشود، دون تصنيف، ورقة 80 وفاي منصور المرجع السابق ورقة 130.

وعلى ما يبدو، فإن هذا التقسيم له ما يبرره؛ فجيش الشمال يتكون من المسلمين، وله عاداته وأخلاقياته في السلم والحرب، وخطط مستمدة من تاريخ الإسلام. وجيش الجنوب، وهو الذي يتألف عادة من قبائل، لم تدخل بعد في الإسلام ولها وضعها وأنماط حياتها.

وينم هذا التقسيم عن القيادات الحكيمة، وتبحر ملوكها في علم النفس العسكري، بحيث لم يدمج الجيش مع بعضه نظراً لاختلاف عقائده واتجاهاته، الأمر الذي ينعكس على وضعه العسكري، وإلى يومنا هذا يراعى تجانس الجيوش.

كانت أسلحة الجيش المالي تتكون من الحراب، والسيوف، والعصي، والنشاب، والرماح، والدبابيس المصنوعة من شجر الأبنوس، فضلاً عن الدروع التي تصنع من جلد حيوان اللمط، وهو قوي يقاوم وخزات الرماح، وطعنات السيوف، ورشقات النشاب[1].

ولأهل مالي طقوس ومراسيم معينة، عند تنصيب الفارس، تعني أنه وصل إلى عمر الرجولة، ويشرف حاكم الإقليم، وهو ينوب عن السلطان. ويؤخذ الفارس المنصَّب ويوضع على درع خصص لهذا الغرض، ثم بعد ذلك يؤخذ الدرع الذي جلس عليه، ويوضع على رؤوس الجنود إعلاماً بدخول دم جديد إلى الجيش[2]. هذه الطقوس درجت عليها قبائل الطوارق، في تنصيب الفتى، الذي وصل إلى الحكم، وتكاد تكون المراسيم نفسها، التي تتبع في مملكة مالي الإسلامية.

---

(1) ابن بطوطة، المصدر السابق ص ص 686 - 698 ومحمود كعب المصدر السابق ص 35، عبد الله حشيمة، في أفريقيا السوداء، بيروت المطبعة الكاثوليكية 1962 ص 25.

(2) ابن بطوطة، المصدر السابق ص ص 686 - 698 ونعيم قداح، أفريقيا الغربية فى ظل الإسلام، المرجع السابق، ص ص 110 - 117.

والسؤال الذي يطرح الآن هو :

من الذي تأثر بالآخر ؟ .

لقد وصلت هذه المملكة إلى درجة من الرفعة والتنظيم المحكم، وكانت لها راية تمثل هيبة الدولة، وهي عبارة عن قطعة من القماش الأصفر في أرض حمراء تنتشر عليه الأعلام من كافة جهاته[1]. ويرمز هذا الشعار إلى الكفاح المسلح الذي خاضه أبناء الشعب ضد الطامعين، وأما الأعلام التي تري تحيط بها فهي أعلام الانتصارات، التي حققتها البلاد في كافة الاتجاهات، ولذلك أحيطت الراية من جميع جوانبها بالأعلام .

وقد تزامن الازدهار السياسي مع الاقتصادي، وكان مرده إلى الاستقرار الأمني الذي شهدته البلاد؛ مما شجع التجار من الشمال الأفريقي على ارتياد تلك المناطق في حركة دؤوبة، ومن جهة أخرى سيطرت المملكة على مقدراتها الاقتصادية، مثل مناجم الملح في تغازا، والذهب في ونقاره، والنحاس في تكدا، التي وفرت مردوداً اقتصادياً، أدى دوراً في ازدهار المنطقة .

وكان عماد الاقتصاد المالي، التجارة التي ربطت بينها وبين مدن الشمال الأفريقي، عبر شبكة من الطرق التجارية، وهي :

1- طريق من المغرب الأقصى يمر بسجلماسة وتوات إلى مدينة تنبكت .

2- طريق من جهة الغرب، يبدأ من مراكش، ويتجه إلى المنحنى الشمالي من النيجر .

3- طريق غانا – موجادور – فاس عن طريق أودغست .

---

(1) مجهول، حديقة البستان على تواريخ أهل أروان، مخطوط، مكتبة أحمد سالم الشود، دون تصنيف ورقة 80، وفاي منصور المرجع السابق ورقة 130.

4- طريق تنبكت - موجادور - فاس عن طريق منجم تغازا[1].

وكانت شبكة الطرق السالفة الذكر تسير عليها قوافل التجار بين مالي ونظيراتها من الشمال الأفريقي، فارتبطت بعلاقات تجارية مع مدن ليبية في مقدمتها مدينة غدامس وطرابلس، وكانت السلع المتبادلة بين الجانبين متمثلة في القماش، والحرير، والعقيق، والملح، والجلود، والتوابل، والكولا[2].

كما ارتبطت بعض المدن المغربية بعلاقات تجارية مع مالي، كان في مقدمتها سجلماسة، وفاس، ومراكش، وبلغت هذه المدن درجة من الاتصال التجاري بتسييرها لمواكب القوافل، عبر الصحراء إلى منطقة السودان الغربي، وكانت القوافل تحمل الأمتعة، والقماش، والعقيق، والحرير، والملح، وترجع محملة بالذهب والتوابل والكولا والعبيد[3].

وكان التجار يسيرون في قوافل كثيرة، تصل في بعض الأحيان إلى ألفي جمل، يحمل جزء من الإبل البضائع والجزء الآخر يحمل الماء والزاد، والباقي لا يحمل هذا ولا ذاك، بل يستخدم خزاناً للمياه فقط، ويسير مع هذه القوافل حراس مهمتهم حراسة القافلة من قطاع الطرق، وأدلاء يسيرون بها من أقصر الطرق، وفي فترة زمنية أقل، ولذلك مثلت الإبل جسر التلاقي والمحبة بين شمال الصحراء وجنوبها .

وكانت البلاد تتربع على ثروة معدنية تمثل ركيزة الاقتصاد المالي، أهمها:

(1) - البكري، المصدر السابق، ج 1 ص 171، وابن بطوطة المصدر السابق ص 695، وعبد الرحمن السعدي، المصدر السابق ص 10، والقلقشندي المصدر السابق، ج 5 ص 300 ومجهول، تذكرة النسيان، باريس : نشره هوداس 1966 م ص 20.

(2) - مجهول، حديقة البستان على تواريخ أهل أروان، مخطوط ورقة 5-6، والهادي المبروك الدالي، العلاقات بين مملكة مالي الإسلامية وأهم المراكز بالشمال الأفريقي، المرجع السابق ص 71.

(3) - القلقشندي المصدر السابق، ج 5 ص 301، والعمري، المصدر السابق ص 68، وفاي منصور علي، المرجع السابق، ورقة 135.

الذهب، والملح، والنحاس، ويتركز الذهب في المناطق الجنوبية من المملكة في منطقة وانقاره، كما كان منجم بمبوك من المناجم المهمة .

وقد أفاد القلقشندي في هذا المضمار أن السلطان منسا موسى عند زيارته لمصر طلب منه استفساراً عن معدن الذهب، فقال :

إن هناك نوعاً من الذهب في فصل الربيع، ينبت في الصحراء له ورق، شبيه بورق النخل أصوله التبر، والثاني يكون على ضفاف مجاري النيجر، تحفر حفر ويستخرج منها الذهب كالحجارة والحصى، وكلاهما يطلق عليه التبر ، والأول أجود في العيار والقيمة . والنوع الثاني يكون موجوداً على طول السنة، ونبات الذهب بالبلاد يبدأ في شهر (أغشت)؛ حيث ترتفع الحرارة، ويأخذ النهر في الارتفاع والزيادة فيوجد ما هو نبات مثل النخيل، ومنه ما يوجد كالحصى في مكان النيل[1] (نهر النيجر)

إن ما ذهب إليه منسا موسى، في كيفية الحصول على الذهب بزراعته مردود على صاحبه شكلاً ومضموناً، وأعتقد أن السلطان منسا موسى لا يقول مثل هذا الكلام، على الرغم من أن الذي أورد هذه المعلومة قريب من فترته، ولكن نظراً لارتباط هذه المنطقة بالثراء الزائد، لعب فيها الخيال لعبته .

هذا من جهة. . أما من وجهة ثانية، فإن ما أورده منسا موسى حول الحصول على الذهب، ربما كان هو إبعاد الأنظار عن بلاده، خوفًا من سرقة مواردها، أو أنه يريد من ذلك عدم ذكر مواقع مناجم الذهب في بلاده، وبما أنهم ليسوا على دراية بالمناطق فقد يصدقون ذلك، وفعلاً فالقلقشندي ذكر تلك المعلومة دون أن يعلق عليها، إذاً فهو مصدق لها .

ومن المعادن المهمة معدن النحاس، وكان يستخرج من تكدا، ويباع قضباناً غليظة، ورقيقة؛ فالرقيقة يشتري بها أهالي تكدا القمح والسمن والذرة،

---

(1) – جمال زكريا قاسم، الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية، مطبعة الجبلاوي 1975 ص 20.

والغليظة يشترون بها الخدم والعبيد[1]. ويوزع النحاس من تكدا إلى باقي مناطق المملكة؛ حيث يستفاد منه في صناعة بعض أدوات البيت .

أما معدن الملح فيعتبر من المعادن الهامة في حياة السكان، وإنتاجهم منه لايكفي استهلاكهم، فيستوردون كميات كبيرة من الشمال الأفريقي؛ الأمر الذي جعل ثمنه غالياً يقدر بوزنه ذهباً، وأهم مناجم البلاد تقع شمالاً قريبة من تخوم المغرب الأقصى في تغازا وتاودني وأبوجبيل .

لقد مثلت عدة مراكز محور التجارة، بين مالي والشمال الأفريقي، فنياني، التي كانت عاصمة المملكة وبها حركة تجارية واسعة، ثم تأتي بعد ذلك مدينة جاو وتنبكت، وغيرها من المراكز الهامة، التي سيرد ذكرها بالتفصيل في الفصل الثاني.

لقد استطاع أهل مالي ضرب عملة ذهبية نقدية محلية، وهي تزن ما بين 4 - 6 غرام من الذهب، إلى جانب ذلك استعملت العملة المغربية في التعامل التجاري[2]. وبالإضافة إلى الحركة التجارية النشيطة، والثروة المعدنية الهائلة، شهدت البلاد حركة زراعية على ضفاف نهر النيجر، تمثلت في زراعة الخضروات، كالبصل، والبطيخ، كما يزرع في مدينة كوكو الفقوس العنابي، والذي وصفه ابن بطوطة بأنه لا مثيل له في الطعم، ويزرعون الملوخية، والثوم والقرعة التي تستخدم في غذائهم، وفي صنع صحونهم التي يأكلون فيها، ومازالت إلى يومنا هذا . كما يزرعون الذرة، والقمح، بكميات قليلة، ويزرعون الكرنب، والباذنجان، بكميات قليلة، ويزرعون القطن، والحنطة، إلا أنها ليست على نطاق واسع[1].

---

(1) ابو الحسن علي بن سعيد المغربي كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل المغربي، بيروت، مطبعة المكتب التجاري للطباعة والنشر 1970 ص91، وابن بطوطة، المصدر السابق ص ص679ـ 680 ، والعمرى، المصدر السابق ص 62.

(2) لقد شهدت هذه الأشجار في مزرعة أحمد بوبو، بالعاصمة نيامي عام 1994.

كما تنتشر على مساحات شاسعة، من أراضي المملكة، غابات كثيفة، بها أشجار مثمرة، وغير مثمرة، وأفاد ابن بطوطة بأن قافلة كاملة تستظل بظل شجرة واحدة . ومن بين هذه الأشجار : أشجار مثمرة، أشبه بالتفاح، والمشمش، والخوخ، كما يوجد بالغابة أشجار فاكهة مثل الجميز . ولديهم أشجار[1] يستخرج من ثمارها نوع من الدقيق، يطحنونه ويستخدمونه في غذائهم، ولديهم أشجار برية، تعرف باسم تادموت، لها ثمار حلوة المذاق، وبداخل الثمرة دقيق لونه أبيض، يستخدم بعد تجفيفه بدل الحناء . كما يوجد بهذه الغابات نوع من الشجر يعرف بالزيزور، ثماره تشبه دقيق الترمس، ويوجد لديهم شجر يعرف بالفقوص، له شبه بالسفرجل، يستخدمونه في غذائهم .

لقد شهدت الزراعة نشاطاً كبيراً في عديد من أقاليم المملكة لما امتازت به من تربة خصبة، ومياه عذبة، وكثافة سكانية، اتجهت أغلبها لزراعة الأرض وهذا ما أكده كعت حين قال : «إن مل تشتمل على نحو أربعمائة مدينة وأرضها كثيرة الخير »[2].

وبالإضافة إلى الثروة الزراعية التي كانت عليها البلاد، كانت هناك ثروة حيوانية هائلة منها الحيوانات المستأنسة والبرية، فالحيوانات المستأنسة هي التي تربى في البيوت ومنها الأغنام، والماعز، والبقر، والإبل، يستخدمون لحومها في غذائهم، وصوفها ووبرها في صناعة ملابسهم[2].

أما الحيوانات البرية، فتشمل الغزلان، والأسود، والنمور، والزرافات، وحمار الوحش، والفيلة، والجاموس البري، (وحيوان اللمط).

ومن الطيور المستأنسة الحمام، والوز، والدجاج. والطيور البرية، التي يصطادونها، وتتمثل في النعام الذي يستخدم ريشه في التبادل التجاري، كما كانت توجد في مدينة تكدا العقارب السامة.

(1) لقد شهدت هذه الأشجار في مزرعة أحمد بوبو، بالعاصمة نيامي عام 1994.

(2) محمود كعت، المصدر السابق ص 38

أما الحيوانات البحرية فتشمل الأسماك وفرس النهر والتماسيح الضخمة التي يصل طولها إلى عشرة أذرع، وكانوا يأخذون مرارتها السامة، ويضعونها في خزانة الملك فلربما يستخدمونها في علاج بعض الأمراض[1].

كما عرفت مملكة مالي الإسلامية ازدهاراً علمياً، وخاصة في عهد السلطان منسا موسى، وأخيه منسا سليمان، ويبرهن على هذا الازدهار، جامعة سنكرى، ومساجد تنبكت التي كانت عامرة بأرباب العلم، وما احتوته من مناهج علمية في مختلف التخصصات [1].

درس هذه المؤلفات علماء من مالي من أمثال أحمد بابا التنبكتي، ومحمود بغيغ وغيرهم لايسعنا ذكرهم الآن، كما درس هذه المؤلفات علماء من الشمال الأفريقي، من المغرب، وليبيا ؛ فكانت كتب عياض، والونشريسي، والمقري وأحمد زرُّوق، والخروبي، والحسن بن علي، وغيرهم تعج بهم مراكز العلم في تنبكت، وغيرها من مدن المملكة، كما ارتبطت المراكز السودانية بما يناظرها بالشمال الأفريقي، متمثلة في جامعة القرويين، التي كانت تتصدر مراكز العلم في المنطقة. وتبادلت المناهج والأساتذة معها، وأرسلت للتدريس في مملكة مالي من علماء المغرب، على سبيل المثال لا الحصر، محمد بن وانسول من مدينة سجلماسة، وفي المقابل كان هناك طلاب يدرسون من المغرب الأقصى في مالي. وبعد أن تطرقنا إلى الجانب العلمي في المجتمع المالي، نتحدث بإيجاز عن الجانب الاجتماعي.

المجتمع في مملكة مالي عبارة عن أسر، وعشائر، وقبائل، يقطنون قرى وأقاليم، يمارسون حياتهم العادية، وفق أعراف وأنماط معينة اعتادوها، وكان يهيمن عليه نظام الطبقات، ويلتزم أفراد كل طبقة بطقوس وأعراف وأنماط معينة لايخرجون عنها. وقد قسم عدد من المؤرخين المجتمع المالي إلى ثلاث طبقات، ولكن في الحقيقة يجب تقسيمه إلى أربع طبقات بما فيها طبقة العبيد.

(1) محمود كعت، المصدر السابق ص 38.

وهذه الطبقات هي :

1 – **طبقة الملك وأفراد أسرته**، ولهم نظامهم الخاص بهم في العيش، وزيهم مميز. فالملك يرتدي سراويل واسعة، طولها عشرون نصفيه ؛ لايجرؤ أحد على لباس هذا الزي من الطبقات الباقية. ويركب الملك الجياد العربية الأصيلة التي تجلب له من الشمال الأفريقي، وأثمانها مرتفعة، وللملك مراسيم معينة في المناسبات والأعياد الدينية، ففي يوم العيد يخرج لأداء الصلاة، مرتدياً طيلساناً على رأسه، يقتصر لبسه عليه شخصياً. وفي الأعياد، وبعد صلاة العصر من يوم العيد يجلس السلطان على مصطبة معدة له، ويأتي كبار موظفي الدولة اللحدارية، بتراكش الذهب، والفضة، ودبابيس البلور، ويقف بمحاذاة رأسه أربعة من الأمراء، في أيديهم حلية من فضة يطردون بها الذباب عن السلطان. ويحضر مترجم الملك، ومعه نساؤه الأربع، وجواريه المائة إلى مكان الاحتفال، مرتدين ملابس فاخرة، ومتزينين بالذهب، ويعزف المترجم على آلة مصنوعة من نبات القصبة (يطلق عليها اليوم الناي). كما يحضر الاحتفال الشعراء الذين يعزفون بالجلاد، مرتدين أزياء مضحكة(1).

وذكر ابن بطوطة أن هذه الأفعال كانت قبل مجيء الإسلام، واستمرت بعده(2)

2 – **طبقة الفرسان**، وتتألف من الفرسان والمنضمين إليها؛ نتيجة لما يبديه الفارس من مهارة في ركوب الخيل، ومقارعة الأعداء، وفروسيته تحدد نوع لباسه، فالفارس يرتدي أساور ذهبية، وإذا زادت شهرته وفاق أقرانه. . فإنه يلبس معها أطواقًا من ذهب، تميزه عن غيره من الفرسان، وكلما ازدادت فروسيته، ارتدى معها خلاخل ذهبية. وإذا أبدع أكثر في الفروسية، ألبسه الملك سراويل واسعة من فوق وضيقة عند الساقين(3). ويبدو أن هذا الزي أخذه حكام

(1)- إلى يومنا هذا يوجد مضحك لعدد من حكام دول غرب أفريقيا مالي والنيجر والسنغال وغيرهم، حيث. يرتدي المضحك للسلطان لباس، يثير الانتباه، ويتكلم بعبارات تضحك الحاكم، ويبدو أن العادة امتداد لما كان في مالي.

(2) ابن بطوطة، المصدر السابق ص ص 686-687.

(3)-نفسه والصفحة.

مملكة مالي من قبائل صنهاجة، وفي مقدمتهم قبائل الطوارق ؛ ومن هنا ندرك أن هناك تأثيراً وتأثراً.

يمثل هذا التكريم للفارس ما يعرف عندنا اليوم بالأنواط، والنياشين، والأوسمة العسكرية، التي تمنح للجندي، والضابط، الذي ظهر منه عملٌ يميزه عن أقرانه.

3 - **الطبقة العامة** وتمثل أغلب المجتمع المالي وهي الطبقة العريضة من طبقات عامة الشعب، وتتميز عن الطبقتين السابقتين في طريقة عيشها وزيها، فهي ترتدي ملابس تشبه إلى حد كبير الزي العربي المغربي، والذي يتألف من عمائم، وجبات، ودراريع، بدون تخريج، وعادة ما تكون مصنوعة من القطن ولونها أبيض، ولهم مهارة في نسج الملابس التي تعرف عندهم بالكميصا.

4 - **طبقة العبيد** وهي الطبقة المسحوقة، التي تعمل دائمًا على التفاني في خدمة السادة والخضوع لهم.

وقبل أن نختم حديثنا عن البيئة الاجتماعية لمملكة مالي الإسلامية، علينا أن نتحدث عن دور الإسلام في المجتمع المالي.

لقد جاء الإسلام إلى الزنوج، وهم سادة في بلدانهم، يتمتعون بكامل الحرية والسيادة والقوة، ويمارسون حكم بلادهم، وينظمون شؤونهم الخاصة في مجتمعاتهم، فلم يكن لدعاة الإسلام من العرب أو غيرهم من ناشريه أدنى قسط من السيطرة، وإن كان نفوذهم الروحي عظيماً، لكنه مقبول عن رضىً وقناعة تامة.

وكان الدعاة من المسلمين يمتزجون بالزنوج عن طريق المصاهرة، ويذوبون في المجتمع الأفريقي دون قهر؛ ولذلك تقبل السود الإسلام، وعملوا على نشره بين مواطنيهم، ولا أدل على ذلك من دعاة الماندنجو الذين أثبتوا في جميع بلاد غربي إفريقية تحمسهم لنشر الإسلام، وكذلك قبائل الفلان الذين حملوا على عاتقهم لواء الدعوة، ولذلك لم يؤد الإسلام إلى تحطيم النظم المحلية القائمة، بقدر

ماهذّب منها وفق شريعته السمحة بل المؤمنون الأفارقة أنفسهم، اختاروا الصورة الجديدة للحياة.

ولعل من أبرز خصائص وعوامل انتشار الإسلام في مالي، وحسن قبوله، أن البلاد التي قدم منها -الجزيرة العربية ومصر والمغرب- لم يكن لها أي نوع من الإشراف أو السيادة، أو الحماية، فالإسلام في مالي، ترك الوطنيين سادة على أنفسهم وعلى بلادهم، على عكس مما فعلته المسيحية. يقول بليدن [1] عن الديانة المسيحية.

لقد جاءت المسيحية إلى الإفريقي باعتباره عبدا، أو على الأقل بوصفه خاضعاً محكوماً، فتعلم الزنجي وبنوه من بعده بجانب تعاليم المسيحية أنه جنس منحط، عديم الأهلية والكفاءة، وأنه دون معلميه وحكامه البيض[2].

بينما يشعر الإفريقي المسلم، أن الإسلام لم يقطعه عن ماضيه، وعن مجتمعه، فقد جعل الاستعمار الأوربي الأفريقي حائراً، فلا هو قريب منه، ولاهو مقبول عنده لكي ينتسب إلى الحضارة الأوربية، فحرمه الأوربي من الثقافة المعقولة، والحقوق الإنسانية الطبيعية المتاحة للمسيحي الأبيض، وذلك على عكس الإسلام الذي رسخ منذ فجر بزوغه، في أفريقيا المساواة التامة وكفل للمسلمين جميع حقوقهم، دون النظر إلى لون، أو جنس. وبسبب هذه العوامل مجتمعة كان الإسلام أسبق من المسيحية في الوصول إلى غربي أفريقية الرغم من أن ظهور الإسلام جاء بعد ظهور المسيحية بحوالي خمسة قرون. ومن

---

(1)- الدكتور ولموت بليدن E. W Blyden ليبيري، تعرض للاضطهاد في الولايات المتحدة في القرن الماضي بسبب لونه، فلم يستطع أن يكمل دراسته، ونصح بالذهاب إلى ليبيريا والتحق بإحدى مدارس الكنيسة، وتخرج منها. تولى عدة مناصب ثقافية وسياسية، وقام برحلة إلى الشرق لدراسة اللغة العربية وجمع المخطوطات العربية عام 1869م، زار في رحلته مصر وسوريا، وكتب عدة مقالات عن المسيحية ونشرها في كتاب طبع عام 1888م بلندن.

(2) : Blyden, E. W. : Christianity, Islam & The Negro Race (London 1881) P - 12-13

العجيب أن عدد المسلمين لم يزد بسرعة كبيرة في بلاد غرب إفريقيا، إلا زمن المستعمرين على الرغم من نشاط البعثات التبشيرية المسيحية التي يساندها المستعمرون في تحقيق أغراضها[1].

انهيار مالي :

واستخلاصاً للأحداث عن مملكة مالي الإسلامية، فقد أورد عدد من الباحثين أسباباً قربت نهايتها من مسرح الأحداث، وقد حاولت ترتيبها حسب استقراء الأحداث لها، وهي :

1 - سيطرة الطوارق على مدينة تنبكت وجني وولاته.

2 - خروج بعض المناجم الهامة، والتي تمثل ثقلاً اقتصادياً مهماً في البلاد، من أيدي الحكومة، مثل منجم النحاس في تكدا وغيره؛ الأمر الذي جعل البلاد في حالة اقتصادية متدهورة.

3 - التنازع على العرش بين أفراد الأسرة الحاكمة قرّب زمن زوال مالي، وهذا الصراع كلف خزينة الدولة أكثر من الأموال، التي كان يجب عليها أن تنفقها في شؤون أخرى.

4 - هجوم قبائل الموسي الوثنية من الجنوب أدى إلى تدهورها.

5 - انغماس حكامها في الترف والشهوات؛ الأمر الذي شغلهم عن الاهتمام بشؤون المملكة، بأن استقل عدد من الأقاليم عنها وبذلك تقلصت حدودها، وتوالت عليها عوامل الضعف حتى سقطت.

6 - هجوم قبائل الولوف، والتوكولور، من الجنوب الغربي، وتسديد الضربات المؤلمة لها أدى إلى التعجيل بموعد سقوطها.

7 - اهتمام حكام مالي في القرن الثامن الهجري الخامس عشر الميلادي بالمناطق الغربية على الأطلسي، فهذا العامل له مغزاه البعيد، على أنهم يريدون

(1)- للمزيد، انظر الهادي المبروك الدالي، وعمار هلال، الإسلام واللغة العربية في مواجهة التحديات الاستعمارية بغرب أفريقيا 1850-1914، المرجع السابق ص 82.

من وراء ذلك تقوية علاقاتهم مع البرتغال، الذي بدأت له موطن قدم في المنطقة، على هيئة مراكز لتجارة العبيد على شواطئ أفريقيا الغربية.

8 - الصراع الذي شكلته سنغاي وكانم، من جهة الشرق، على مملكة مالي الإسلامية، عمل على إنهاك قوتها، وبدأ يظهر نجم سنغاي إلى الوجود، في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي، متمثلة في شخصية سني علي الذي جاء إلى سدة الحكم عام 889هـ/ 1464م.

كل هذه الأمور مجتمعة أثرت بشكل أو بآخر على مملكة مالي الإسلامية وعجلت بسقوطها، وقيام قوة جديدة، أخذت مكانها في منطقة السودان الغربي، والتي سنتعرض لها في الفصل القادم كقوة سياسية في المنطقة.

❁ ❁ ❁

□ الفصل الثاني □

الوضع السياسي في منطقة السودان الغربي

1 ـ سنغاي القوى السياسية الأولى والانتماء السكاني ومراحل تكوينها

2 ـ الحضور المغربي بالسودان الغربي، وحالة المنطقة عند مجيئه.

3 ـ الطوارق كقوة سياسية في المنطقة.

4 ـ قبائل الفلان وثقلها السياسي في المنطقة.

5 ـ قبائل البرابيش وثقلها في المنطقة.

الوضع السياسي في منطقة السودان الغربي :

يحاول هذا الفصل أن يأتي بشيء جديد، من خلال توظيف بعض المخطوطات التي لم تر النور وهذا الطرح هو :

أن سنغاي لم تكن القوة الوحيدة التي كانت تهيمن على المنطقة، بل هناك قوى أخرى كان لها نصيب فعال ومؤثر في تسيير دفة أمور المنطقة، والمتمثلة في القبائل الضاربة، من طوارق، وفلان، وبرابيش، الذين كانوا كثيراً ما يحسب لهم حساب.

ويمكن أن نقسم القوى السياسية إلى قسمين : القوى الأولى سنغاي، والثانية قبائل الطوارق والفلان والبرابيش.

سنغاي القوة السياسية الأولى والانتماء السكاني:

بلغت إمبراطورية غانا ومملكة مالي الإسلامية شأناً عظيماً، واستطاعتا السيطرة على بطاح شاسعة، من مناطق غربي إفريقيا، ولكن أياً من هاتين القوتين لم تبلغ ما بلغته، إمبراطورية سنغاي من القوة، والسيطرة خلال القرنين التاسع والعاشر الهجريين/ الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين[1].

أما عن أصل سنغاي.. فقد أورد صاحب مخطوطة زهور البساتين، معلومات مفادها أن جد سنغاي، وجد ونكر كانا أخوين شقيقين، وأن أباهما كان ملكاً من ملوك اليمن اسمه (تراس بن هارون)، وعندما مات الأب خلفه على المُلك أخوه (يسرف بن هارون)، فضيق الخناق على أبناء أخيه أشد التضييق، فهاجروا من

(1) - الحاج محمد محمد مرحبا، فتح الحنان المنان بجمع تاريخ بلاد السودان، مخطوط ورقة 27.

اليمن إلى ساحل البحر المحيط [المحيط الأطلسي] التكرور، ومعهم زوجاتهم ووجدوا هنالك عفريتاً من الجن، فسألوه عن اسمه فقال (سار) فقالوا : ماجاء بك إلى هذا المكان، فقال (تك)، فقالوا وماسم هذا المحل؟ فقال : لا أعلم، فقالوا ؛ يحق لهذا المكان أن يقال له تكرور، إلى أن أورد اسم كبير الرجال، المذكورين ويدعى (وعكري ذا بن براس) وزوجته ـ (امنة بنت يخت) وهو جد قبيلة وعكري، والرجل الثاني : (سغُى بن براس) وزوجته (سارة بنت وهب) وهو جد قبيلة (سغُى). والرجل الثالث اسمه (ونكر) وهو أصغرهم، وليس له زوجة، ولكن له أمتان أحداهما تدعى (سكرى) والأخرى (كسري). فاتخذ ونكر سكرياً سرية له، وكان جد قبيلة (ونكر) عبد يدعى (بمنيك) فزوجه (كسري) وهو جد قبيلة (منيكُ) وإلى آبائهم نسبوا، ثم تفرقوا في الارض، وكان كبيرهم وعكرى سلطانهم، وسموه (كيمع)، وتعني في كلامهم مال الإرث.

وخلص في النهاية إلى أن سغى بن تراس كان أبوهم ملكاً من ملوك اليمن، واسمه تراس بن هارون[1].

وعلي الرغم من أن هذه الرواية لم تكن معروفة، في مصادر تاريخ المنطقة على حد علمي، إلا أن ورودها في هذه المخطوطة، له اعتباره وأهميته؛ لأن المؤرخ من المنطقة، والمخطوط قديم.

ومهما كانت صحتها من عدمها فإنها تلقي الضوء على عدة جوانب، ولكن قبل أن نستطرد في ذكر جوانب الرواية، نريد أن نطرح سؤالاً :

لماذا نسب صاحب المخطوط أصل سنغاي إلى اليمن؟

صاحب المخطوط وعكري الأصل، والانتساب إلى العرب وقتذاك، يعتبر شرفاً ؛ زد على ذلك أنه يعيش بين طبقات عدة، في المجتمع السوداني، يرى نفسه أرقى منها شرفاً وحضارة، ولذلك كان من الطبيعي، أن يحيط نفسه بشيء من القداسة ؛ وخاصة أنه عالم، وله عدة مؤلفات، في شتى فنون العلم.

(1) - موسى بن أحمد السعدي، مخطوط ورقة 105-106.

جوانب الرواية :

1 - ذكرت الرواية أن أصل سنغاي من اليمن، وأبوهم ملك من ملوك اليمن، ربما يقصد بذلك ملوك الحبشة؛ لأن سودان الحبشة كانوا ملوك اليمن في ذلك الزمان.

2 - أورد صاحب المخطوط أن أباهم ملك من ملوك اليمن، وذكر اسمه دليل على دقة المعلومات، وأن هؤلاء كانوا في اليمن أيضاً من أرفع الطبقات الاجتماعية، وهذا يضفي عليهم شرعية أكثر.

3 - كان لدى هذه القبائل نظام وراثة الحكم بدليل تولّي برن بن هارون شقيق تران أمر البلاد من بعده.

4 - الصراع بين الأسرة الحاكمة، يؤكد خروجهم من اليمن إلى الشمال الأفريقي، ومنه إلى غرب أفريقيا (السودان الغربي).

5 - توضح لنا الرواية نظام الطبقات، في المجتمع السوداني، فهناك قبائل عبيد، مثل قبيلة منيك وجدها عبد ونكر، وهذه القبائل في السودان الغربي، هي التي تختص بالرق، وتعتبر أدنى الدرجات الاجتماعية.

6 - ومن الدلائل التي تؤيد نزوحهم من اليمن، وجود بعض الأسماء العربية هنالك، مثل : آمنة وسارة بنت وهب... إلخ.

هناك رواية ثانية، أوردها صاحب مخطوطة فتح الحنان المنان، عن أصل سكان سنغاي تقول : إنهم ينتسبون إلى قبيلة سنغاي، التي كانت تقطن على ضفاف نهر النيجر الأوسط، في الفترة، ما بين القرن السابع، والقرن التاسع الميلاديين، حين غزت قبيلة (ضياء)، وهي إحدى القبائل العربية، وأسست أسرة حاكمة، عرفت بأسرة ضياء، والتي نزحت من طرابلس الغرب، وحدث تصاهر بينها وبين السكان الأصليين، وارتبطت بعلاقات وطيدة مع غانا وتونس وطرابلس وبرقه ومصر، عن طريق القوافل التجارية المارة بتادمكة[1]. واستطرد صاحب

(1) - محمد مرحبا، فتح الحنان المنان بجمع تاريخ بلاد السوادن، مخطوط، ورقة 27-28،

المخطوطة قائلاً : "وإذا ألقينا نظرة عامة على المجموعات التي تتألف منها المنطقة في القرن الأول الهجري، لوجدنا مجموعات التكولور، والسيرو والولوف، الذين يقطنون على ضفاف السنغال، في حوضه الأدنى، ويمتهنون صيد الأسماك والزراعة"[1].

وذهب بعض المؤرخين المحدثين إلى أن سكان غرب أفريقيا مزيج من الشعوب الثلاثة: - الأقزام - والزنوج - والحاميين، مع ملاحظة أن شعوب غرب أفريقيا، اختلطت منذ زمن بعيد بشعوب بيضاء، من بينها العرب والعرب المغاربة[2].

كما أن هناك رأياً يقول : إن معظم شعب سنغاي، أصله من دندي، شمال الداهومي، ثم سار مع مجرى نهر النيجر، حتى وصل إلى منطقة كوكيا، ذات الخيرات الوفيرة، فاستقر بها. وهناك خضع لأمره زا الذي كان ملكاً على تلك المنطقة، وأصبح يسير وراءه في حروبه، ولكنه طمح بعد ذلك إلى المُلك، فقلب له ظهر المجن، وخضعت له شعوب مثل العرب المغاربة[3].

أماالأصول العرقية للطبقة الحاكمة.. فقد أورد صاحب مخطوطة زهور البساتين، بأن عدد ملوك سنغاي أربعة عشر، ماتوا جميعاً في الجاهلية، وأول من تقلد أمر الملك زاء الأيمن، ثم زازكى، وزانكى، وزااكى، وزاكو، ثم زا علي ثم وزابى كمى، وزابى، وزاكري، وزايم كروى وزايم ويم دنك كيبع، وزاكوكرى، وزاكنكن، والذي أسلم منهم (زاكُسى) [4]، وكان ذلك في سنة أربعمائة هجري[5].

(1) محمد مرحبا، فتح الحنان المنان بجمع تاريخ بلاد السوادن مخطوط ورقة 28 .

(2) نعيم قداح، حضارة الإسلام وحضارة أوربا في أفريقيا الغربية، الجزائر، 1975ص 17.

(3) نقولاى زيادة، المغرب والسودان في أيام المنصور الذهبى، بيروت 1967 م ص 30.

(4) زاكسي : معناه في كلامهم مسلم دم، أي الذي أسلم طوعاً وبلا إكراه (موسى بن أحمد السعدي) مخطوط ورقة 108.

(5)- موسى بن أحمد السعدي، مخطوط ورقة 108، وعبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص 3.

Conale, J.S : Africa Noire (Pis 1954) P - 160.

أورد السعدى الأربعة عشر ملكاً من ملوك سنغاي، الذين أوردهم صاحب زهور البساتين، وأضاف عليهم عدداً من الملوك، نوردهم بالنص قال : "ثم زاكُسى داربي، ثم زاهن كُزونك دم، ثم زابي كي كيم، ثم زانتناسني، ثم زابير فلك رحمه الله تعالى ثم زايابسي، ثم زادور، ثم زازنك بار، ثم زابدا، ثم سن الأول على كلن، ... سلمن نار، ... ثم سن إبراهيم كَبي، ثم سن عثمان كنف، ثم سنّ باركي انكبي، ثم سنّ موسى، ثم سن بكر زنك، ثم سن بكردل بيُنب، ثم سن ماركري، ثم سنّ محمد داع، ثم سنّ محمد كوكيا، ثم سنّ محمد فار، ثم سنّ كربيف، ثم سن مار في كُل جُم، ثم سن مازاركن، ثم سن مارارندن، ثم سن سليمن دام، ثم سنّ على سن بار اسمه بكر داع، ثم بعده أسكيا محمد"[1].

وأورد صاحب زهور البساتين، وعبد الرحمن السعدي معلومات عن خروج زاء الأيمن، من اليمن بمعية إخوته، وأنهم وصلوا أرض مدينة كوكيا، بأرض سغي، وأنهم تعرضوا إلى حالة من الفقر، والبؤس، وشظف العيش، لدرجة أن أجسادهم لايغطيها إلا طرف من الجلد، وأنهم نزلوا عند أهالي المدينة الذين سألوهم عن مواطنهم، وأن زاء أجابهم بأنهم من اليمن، وأن أهل المدينة بقوا لايقولون إلا زاء الأيمن عوضاً عن اليمن، لثقل نطقها على لسانهم[2].

وعندما استقر زاء الأيمن بأرض كوكيا، وجدهم على الوثنية، يعبدون سمكة تطفو فوق ماء النهر، وفي أنفها حلقة، وتخرج لهم في أوقات معينة، فيجتمعون حولها للعبادة فتأمرهم وتنهاهم ! فيتفرقون على ذلك، ويمتثلون لأوامرها ويجتنبون نواهيها!.

وكان زاء يحضر معهم، فايقن أنهم على ضلالة، فقتل السمكة، ومنذ ذلك التاريخ بايعوه على أن يكون ملكاً عليهم[3].

---

(1) عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق ص 4.

(2) -موسى بن احمد السعدي مخطوط ورقة 108، وعبد الرحمن السعدي المصدر السابق ص 4.

(3) عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق ص 4.

لقد تلقب ملوك سنغاي الأوائل بعد وصولهم إلى أرض السودان الغربي بلقب سن[1].

أما ما ذهب إليه المؤرخان، بخصوص مجئ زاء الأيمن، وشقيقه من اليمن، فيغلب على المعلومة، طابع الخيال أكثر من الحقيقة، وخاصة أنهما استقيا تلك المعلومات، من أفواه الناس بالتواتر، وأن الفترة بعيدة عنهما بحوالي خمسة قرون، ولذلك لابد أن تُخالطها الزيادة والنقصان، وهذه الرواية لاتؤخذ كحقيقة؛ وخاصة أن فيها ما يبرهن على شطحات الخيال، مثل السمكة التي كانوا يعبدونها.... إلخ، وإضافة لذلك كيف لرجلين أن يخرجا من اليمن، ويقطعا هذه المسافات الشاسعة لوحدهما وجسدهما عاريان.

فمن المؤكد أنهما خرجا من اليمن، في أعداد هائلة، من أبناء جلدتهم، واستقر بهم المقام، بأرض السودان الغربي، وأن زعامة الركب كانت لهما.

أما عن وصول زا للحكم في السودان الغربي فلم يكن لقتله السمكة، وإنما لمجيئه من بيئة متحضرة وحمله معه المؤثرات الحضارية من تلك البيئة وتوظيفه لها.

وبالنسبة إلى قصة السمكة.. فإننا نستخلص منها الآتي :

1 - الهجرات العربية من اليمن إلى منطقة غرب أفريقيا.

2 - قيادات وملوك السودان الغربي من أصول عربية مثل زاء الأيمن وغيره.

3 – العقلية السودانية المتخلفة، والتي تهيمن عليها الخرافة.

4 - العقلية العربية المتطورة التي لاتؤمن بالخرافات.

5 - الديانات التي كان عليها أهالي المنطقة مثل الوثنية وغيرها.

6 - الثروة السمكية التي كانت تنعم بها البلاد.

---

(1) -سن : هو لقب له عدة مدلولات، من بينها: السير على الطريق أو على النهج أو حماية السنة إلخ ويقولون مثلا، سن باركي أي الملك.

مراحل تكوينها :

المرحلة الاولى :

بدأت المرحلة الهامة، في تاريخ سنغاي، خلال منتصف القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي حين اعتنق ملوكها الإسلام، وبدأ يتسرب بين سكانها، وقد تم ذلك قبل مجيء المرابطين، وفي سنة 401هـ/ 1010م استولت على جاو بمؤازرة العرب المغاربة فى كوكيا(1).

لقد انتهت المرحلة الأولى في حياة هذه الدولة مع ظهور وسيطرة مملكة مالي الإسلامية على جميع المدن، الواقعة على نهر النيجر، ومن بينها مدينة جاو، ولكن أمراء سنغاي ظلوا يحتفظون بطموحهم، كما كانت شعوبهم تمنحهم المحبة والولاء. وتعاقب على حكم سنغاي، أكثر من أربعين أميراً، كان حكمهم اسمياً، ولم ينلهم أي تعسف، أو اضطهاد، من ملوك مالي؛ لأنهم كانوا يدينون بالإسلام، ولأن تجار سنغاي كانوا قادة التجار، بفضل امتيازات سوقي جاو وكوكيا، اللذين ذاعت شهرتهما في تلك الفترة ببيع العبيد، مقابل المصنوعات، الوافدة عليهما من البحر الأبيض المتوسط(2).

خضعت سنغاي للسيطرة المالية، في عهد منسا علي 653- 669هـ/ 1255-1270م، باستثناء العاصمة جاو، التي امتنعت على جيوشه، وأخذ منسا علي ولدى ملك سنغاي زايابسى. وهما علي كولن وسلمن نار، كرهائن ليضمن ولاءه وانقياده لطاعته، هذا وقد أورد السعدي، بأن عادة ملوك السودان استخدام أولاد الملوك الذين في طاعتهم، ومنهم من يرجع بعد الخدمة إلى بلاده، ومنهم من يستمر فيها إلى أن يفارق الدنيا(2).

---

(1) بازل دفدسن المرجع السابق ص 157.

(2)- Grand larousse Incyclopidi 1962-p504 .

(3) موسى بن أحمد السعدي، مخطوط ورقة 108، وعبد الرحمن السعدي ، المصدر السابق، ص 5.

أما عن علي كولن وسلمن نار، فهما أبناء زاياسبي[1]، وقد أنجبهما من امرأتين شقيقتين، حيث إن أم علي كولن، تدعى (أما) وهي أكبر أخواتها، وقد استمر زواجهما، لفترة من الزمن، دون أن تنجب له ولداً، ولذلك طلبت من زوجها أن يتزوج أختها، على عادتهم لعله يجد منها عقباً ؛ فتزوجها وشاءت قدرة الله أن تحمل زوجته بولدين ذكرين. وعند الولادة طرح المولودان على التراب في بيت مظلم، دون غسل إلا في الغد، وهي عادة عندهم في المولود بالليل، فابتدأ بغسل علي كولن، ولذلك اعتبر الأكبر ثم غُسل سلمن نار فكان الأصغر، فلما بلغا مبلغ الاستخدام، أخذهما سلطان ملى، لأن أباهما تحت طاعته حينئذ إلى ذلك للخدمة على عادتهم، وتلك العادة جارية عندهم، كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

دبر الاثنان فكرة الفرار، من قبضة سلاطين مالي، فعلي كولن كان يغيب في بعض الأحيان لطلب المنفعة، ثم بعد ذلك يرجع، وقد عرف عنه أنه لبيب عاقل فطن، كيس، وأخذ يزيد في الغيبة، إلى أن عرف دروب سنغاي، فأضمر الخلاف والهروب إلى بلده، واستعد لذلك بما يكفي من المؤن والأسلحة، وأطلع أخاه على السر، وأخذا جواديهما وتوجها إلى سنغاي، وعندما فطن بهما صاحب ملى، أرسل في طلبهما رجالاً ليقتلوهما، إلا أن الأخوين استطاعا النجاة بجلديهما، من قبضة الرجال واللحاق ببلدهما. وقد تولى علي كلن أمر سنغاي، إلى أن توفى فخلفه أخوه سلمن نار[2]، إلا أن هذا الأمر لم يدم طويلاً، فعندما تولى ساكوره أمر مملكة مالي الإسلامية 684-700هـ / 1285-1300م، قاد جيشه لإعادة السيطرة على سنغاي، وقد استطاع الاستيلاء على عاصمتها جاو[3]. وقد توالت الحملات بعد ذلك على سنغاي، ففي عهد

(1) - زاياسبى أصل اللفظ سلمان فتغير لأجل عجمة لسانهم.

(2) - موسى بن أحمد السعدي مخطوط ورقة 109-110.

(3) Rouch, J. Les Songhay, Paris, 1954, p-8, levtzion, N. op. cit. P : 137 -

منسا موسى، أرسل حملة، وسيطرت على العاصمة، وقد زار جاو واستقبله ملك سنغاي، وقدم له فروض الولاء والطاعة وبنى مسجداً[1].

وفي فترة منسا موسى، عادت سنغاي إلى حاضرة مالي، وأرجع الأخوين[2] كرهائن، وأحكمت الرقابة عليهما، فهدأت الأمور، وانتظمت سنغاي في دفع الجزية لمالي، الأمر الذي جعل عبد الرحمن السعدي، يعتبر أن الملك منسا موسى هو أول من ملك سنغاي، وفي ذلك يقول : "هو أول من ملك سنغي من سلاطين مالي... ودخل أهل سنغي في طاعته بعد جوازه إلى الحج"[3].

من هنا ندرك أن سنغاي بقيت لفترة من الزمن بين محكومة ومستقلة تارة تخرج عن نطاق مملكة مالي وتارة أخرى تابعة لها، ويحكم هذا الأمر قوة وضعف حكام مملكة مالي الإسلامية.

والسؤال الذي يطرح هو : لماذا كان التركيز على العاصمة في اجتياح سنغاي؟،

للإجابة عن هذا السؤال حسب وجهة نظرنا، نورد الآتي :

نظراً لأن العاصمة تمثل ثقلاً سياسياً، واقتصادياً، واجتماعياً، فهي التي تمثل قلعة المواجهة، وبها الزعماء، وأصحاب رؤوس الأموال، وبذلك كان التركيز عليها أكثر من غيرها.

بوفاة منسا موسى عام738هـ/ 1337م، وحدوث اضطربات بالمملكة،

---

(1) - عبد الرحمن السعدي المصدر السابق، ص 7، وابن خلدون، المصدر السابق، ج 6، ص 200

(2) - يلاحظ أن بعض المراجع قد خلطت بين استيلاء مالي على سنغاي في عهد منسا علي وبين الاستيلاء عليها في فترة منسا موسى، واعتبرت أن علي كولن وسلمن نار هما من رهائن منسا موسى، انظر على سبيل المثال إبراهيم طرخان، دولة مالي الإسلامية، المرجع السابق ص 106، وهو يتعارض مع ما ذكره المرجع نفسه، ص 64-66، انظر أيضًا بوفيل، المرجع السابق، ص 89.

(3) - عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص 7.

تنفست سنغاي الصعداء، وأخذت تشق عصا الطاعة على سلاطين مالي، بل تجرأت على مهاجمة الحدود الشرقية للمملكة والسيطرة عليها؛ الأمر الذي أجبر ماري جاطة، وزير الملك المالي موسى الثاني عام 776-789هـ/ 1374 -1387م، على تجريد حملة عسكرية لإسقاط جاو، إلا أن الحملة باءت بالفشل، ولم تحقق أغراضها، ومنذ ذلك التاريخ، تخلصت سنغاي نهائياً من سيطرة مالي[1].

أما **المرحلة الثانية** بدأت عندما صارت سنغاي، تحت زعامة سلالة سن علي كلن، في بناء قوتها العسكرية، وفي حوالي 823هـ/ 1420م، تمكن سن محمد داع، وهو السلطان العاشر في سلسلة ملوك أسرة سن، من أن يخرب معظم بلاد مالي، وخاصة عاصمتها، وأن يأسر الكثير من عبيدها[2]، وقد جاء بعد سن محمد داع، سن محمد لوكيا، وسن محمد فار، وازدهرت في عهد سن سليمان دام الذي توفي سنة 869هـ/ 1464م والذي ضم إلى سنغاي بلاد ميم، وهي من أقاليم مالي الشمالية[3]. وتولى بعده ابنه سني علي، الذي يعتبر المؤسس الحقيقي للإمبراطورية.

المرحلة الثالثة مرحلة تولى سني علي مقاليد الامور :

هو سني علي بن سليمان دام، ينتسب إلى أسرة ضياء، التي نزحت من طرابلس الغرب ، واستقرت في تلك الأماكن، وهو أب لابن يدعى أبو بكر داعو، وعدد من البنات[4].

---

(1) ابن خلدون ، المصدر السابق، ج 6 ، ص200. Levtsion : op -cit - p -137

(2) موسى بن أحمد السعدي، مخطوط ، ورقة 108 ، ومحمود كعت، المصدر السابق ، ص 42، وعبد الرحمن السعدى، المصدرالسابق، ص 4.

(3) Hunwick J.O/: Songhay, Borno and Hausa land In Sixteen century, His- - tory

J.F.A, VOl.I, Great Britain 1976. p-287 (3) of Africa, ed. Ajayl,

(4) - عبد الرحمن السعدى، المصدر السابق، ص 72، وزباديه مملكة سنغاي ، المرجع السابق، ص 26، ونعيم قداح أفريقيا الغربية في ظل الإسلام، المرجع السابق، ص 67.

Trimngham J.s O P, cit : 93.

تربى سني على في بيت أخواله، في بلدة فار، بعد أن فارق والده أمه، وقد اهتمت به أمه وأخواله، ورجوا فيه الخير، فكانت له شخصية مستقلة منذ نعومة أظافره، تعلم الفروسية، وفنون الحرب، وظهرت شخصيته القيادية منذ صباه، وتفوق على أقرانه، وهذا ليس غريباً عنه، لأنه من بيت توارث الحكم، وله وزنه في المجتمع السوداني.

تولى سني علي أمر البلاد عام 869هـ/ 1464م[1]، عقب وفاة والده، وكانت أول أعماله بعد توليه، التخلص من خصومه، ثم اتجه نحو البلاد، وما كانت تعانيه من عدم التخطيط المحكم، والقدرة على القيادة، فانتزعها من مخالب مملكة مالي الإسلامية، وأخذ يعمل منذ أن استلم أمرها، على تكوينها والصعود بها إلى مصاف الإمبراطوريات المتقدمة، والمترامية الأطراف، وتحويلها من دولة صغيرة قابعة تحت سيطـرة الآخريــن إلى إمبراطـورية عظيـمة الاتساع، تســود منطقـة شاسعة، من غرب أفريقيا.

ولذلك، اتخذ لنفسه فلسفة معينة في تسيير نظام الحكم، اتسمت بالجدية والصرامة والحزم، جرت عليه هذه السياسة السخط والتذمر من قبل جل شخصيات المنطقة وعلمائها، الذين لم يترك لهم مجالاً للهيمنة على سياسة الدولة، مثلما كان في السابق. ومن هذا المنطلق ناصبوه العداء. وشنوا عليه حرباً دعائية محاولة منهم تشويه شخصيته القيادية الفذة، ونعتوه بعدة نعوت، منها الظالم والفاسق والكافر والمتسلط، والقاتل... إلخ

وقد وصفه، السعدي قائلا : "كان ذا قوة عظيمة ومتانة جسيمة ظالما فاسقاً متعدياً متسلطاً سفاكاً للدماء قتل من الخلق مالا يحصيه إلا الله تعالى، وتسلط على العلماء والصالحين بالقتل والإهانة والإذلال"[2].

---

(1) موسى بن أحمد السعدي، مخطوط ورقة 110 , وعبد الرحمن السعدي، المصدر السابق ص 65 ومحمود كعت، المصدر السابق ص44.

(2) - عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق ، ص 64.

وفي المقابل امتدحه عدد من المؤرخين القدامى من أمثال حسن الوزان، الذي قال في حقه "سني علي كان رجلاً عظيماً"[1].

وقبل أن نعلق على ماوصفت به هذه الشخصية، من صفات ذميمة، نتتبع ما قام به من تنظيمات إدارية وفتوحات، فهي الكفيلة بالرد على تلك الاتهامات.

تنظيماته الإدارية وفتوحاته :

بمجرد تولى سني علي مقاليد الأمور، أخذ على عاتقه توسيع رقعة بلاده، بتكوين جيش قوي، من مختلف شرائح المجتمع السوداني، وأمر عليه قواداً من ذوي الكفاءة العالية في القيادة، كان على رأسهم ابنه أبو بكر داعو، وابن خالته أبو بكر التوري (أسكيا الحاج محمد)، كما كان من بين قواده المختار محمد ابن نض[2].

ومن بين التنظيمات التي اتخذها سني علي، لبناء هيكلية إمبراطوريته الناشئة، إنشاء محكمة كان يحكم فيها على الخارجين عن طاعته، وقد حكم فيها بالفعل على عدد من أهل بلدة باغرم بالقتل[3].

ومن بين الدواوين التي أنشأها : بيت المال، الذي جعل عليه أميناً وحارساً، مهمتهما المحافظة عليه، وكان الأمين يدعى الخطيب عمر، أما القضاء فقلد أموره إلى القاضي حبيب[4]. وأما وظيفة الكاتب والقارئ فأسندها إلى إبراهيم الخضر، الذي كانت مهمته قراءة الرسائل الواردة من فاس والرد عليها[5].

(1) - الحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص 162.

(2) - أحمد بابير الأرواني، الجواهر الحسان في اخبار السودان، مخطوطة، ورقة 11، وعبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص 70-71-72.

(3) - مجهول، تراجم علماء باغرام، مخطوطة، دار معمر القذافي لجمع التراث العربي الأفريقي بمدينة جاو، دون تصنيف، ورقة 30.

(4) - عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص 73.

(5) - نفسه، ص68.

مما سبق نستنتج ما يلي :

1 - المكانة العـالية التي تبـوأتها فاس خاصة، والمغرب الأقصى عامة عند سني علي.

2 - المكانة العلمية التي عرف بها المغرب الأقصى بين أقرانه من الشمال الأفريقي.

3 - الثقة والأمانة التي اتصف بها أبناء المغرب الأقصى؛ حتى اتخذهم ملوك السودان الغربي كُتاباً لهم. وكذلك سيادة الخط المغربي في الكتابة وهكذا، بعد أن رتب الملك سني علي أمور إمبراطوريته، بدأ بفتح المدن التي كانت خارج نطاق الإمبراطورية، فكانت أول غزواته نحو مدينة جني.

وقد وردت عدّة أقوال، في الطريقة والفترة التي مكثها سني علي محاصراً لها.

أورد صاحب الجواهر الحسان أن سني علي حاصر المدينة بجيشه سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام، وأنه اجتاحها، في فترة حكم السلطان آدم سلطان جني[1]، ثم جاء في موضع آخر، وذكر أن الملك سني علي حاصر مدينة جني أربع سنين دون أن يقْدر عليها في شيء، ولكنه عاد ودخلها نتيجة للخلافات الداخلية التي حدثت بين جيشها ومواطنيها، وحكامها. ومكث جيشه فيها خمساً وعشرين سنة، أما هو فقد استقر بها ثلاثة عشر شهراً[2].

وورد في مخطوطة نبذة من تاريخ جني أن سنغاي امتلكت جني، ووقعت حرب بينها، وبين قبيلة مرك، وانتصرت سنغاي، وكانت مرك على الإسلام، وترك لها سني علي تسيير أمر البلاد، بل قدم لها المساعدة، في بناء المساجد، وقد بقيت جني تابعة لسنغاي مائتي سنة[3].

(1) - أحمد بابير الأرواني، الجواهر الحسان، مخطوط ورقة 11.

(2) - نفسه والورقة.

(3) - مجهول نبذة من تاريخ جني، مخطوط، المكتبة الوطنية نيجيريا، 1120، ورقة 3.

وذكر عبد الرحمن السعدي نقلاً عن "الذيل" لأحمد بابا أن سني علي دخل مدينة جني، واستولى عليها، وأقام بها سنة وشهراً [1].

وأورد السعدي رأياً آخر عن سقوط جني، مفاده أن حصار جني، استمر سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام، وهو في ذلك يتفق مع صاحب "الجواهر الحسان"، ولكنه أورد في موضع آخر، وأفاد نقلاً عن ولي الله الفقيه محمد عريان الراس، أن سني علي حاصر المدينة أربع سنين، فما نال من أهلها نيلاً[2].

وفي موضع آخر استطرد قائلاً: دون تحديد مصدر الرواية: "ورأيت في خط بعض المعتبرين من الطلبة أن سني علي أقام بجني عاماً واحداً وشهراً واحداً، ولم يبين من أنه من هذه المرة، أو من مرة أخرى" [3].

وأورد كعت بأن سني علي خرج لمحاربة (جنكي) بمدينة جني فوصل إلى قرية (شيطي)[4]، وقبل وصوله إلى جني، تقابل مع (كُرن) أحد أتباع جنكي، وكان النصر حليف سني علي. وقد واصل سني سيره في تجاه خصمه جنكي،، وعند وصوله بلدة (بكُونا)، اعترضه (تُنكي)، أحد أتباع جنكي بجيش جرار، غير أن سني علي، انتصر عليه، ووصل إلى جني، وتقابل مع حاكم المدينة جنكي، وكان حاكمها في بداية الأمر لايقيم أهمية كبيرة لسني علي، ولكن بعد ما تبينت له خطورته، جمع له جيشاً كبيراً، وعزز تحصينات مدينته، ثم تقاتلا ستة أشهر، وكان النصر حليفاً لسني علي، لقوة آلياته، وضخامة إمكاناته؛ إذ بلغ عدد سفنه أربعمائة؛ ودخل سني علي قصر السلطان، ولكنه لم يرقه، فانتقل إلى دار لجنكي بالقرب من الجامع الكبير[5].

وأمام هذه الآراء المختلفة عن فتح مدينة جني، والمدة التي مكثها سني علي

---

(1) - عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص 64.

(2) - نفسه ص 15.

(3) - نفسه والصفحة.

(4) - لاتبعد كثيراً عن مدينة جني تعرف اليوم بشيطا.

(5) - محمود كعت، المصدر السابق ص 52.

لفتحها. . . فإن الباحث له رأي مغاير لتلك الآراء جميعها:

1 - لايعقل أن يستمر قائد مثل سني علي، غائباً عن أمور إمبراطوريته التي انتزعها بالقوة في حصار مدينة، مثل جني سبع سنوات، أو حتى سنة أو نصفها، فمدينة جني ليست بالمدينة الكبيرة، التي تحتاج إلى مثل هذا الجهد، فسني علي قادر على فتحها في أيام قليلة، نظراً لأن جيشه في قمة عنفوانه، وكذلك لعبقريته القيادية.

2 - الجيش الذي جرده لفتح المدينة، يحتاج إلى تكاليف عالية، وبذلك إذا استمر هذه المدة الطويلة، لايستطيع تلبية متطلبات الجند، إضافة إلى ذلك من جانب التكتيك العسكري، لايعقل أن يترك قائد فذ، مثل سني علي جيشه طوال هذه المدة، في حصار مدينة، وأعين الأعداء متربصة به من كل جانب. وكذلك من الجانب التعبوي، لايترك القائد الناجح جيشه، في مكان واحد، مدة طويلة؛ لأن طول المكوث يثير عند الجندي روح التمرد، وإثارة القلاقل، وهي أمور قد تغيب عن القادة الفاشلين.

ومن وجهة نظرنا. . فإن سني علي فتح المدينة في مدة قصيرة، وتزوج أم جنكي، وترك مجموعة من الجند في جني، وتوجه إلى مدينة أخرى لفتحها.

وفي سياق الحديث عن فتح سنى علي لمدينة جني، نطرح السؤال الآتي :

لماذا ركزت جّل المصادر السودانية من مخطوط ومطبوع على قصة فتح الملك سني علي لمدينة جني؟.

نعتقد أن هناك جانبين مهمين لمدينة جني، لهما وقعهما عند أبناء السودان الغربي : **الجانب الروحي**، باعتبار مدينة جني من أقدم مدن السودان الغربي، حيث كان تأسيسها في القرن الثاني الهجرى، 623م وهي مدينة العلم، والصلاح، وقد ذكر أن بها أربعة آلاف ومائتي عالم، وعدداً من المساجد، فهي إذاً لها هالة روحية تميزها عن غيرها.

والجانب الاقتصادي: ويرجع إلى تمتع المدينة بمكانة اقتصادية، فهي ملتقى طرق القوافل، وسوق لأهم معدنين في السودان الغربي: الذهب والملح. وقد ذكر السعدي بأن لمدينة جنى سوقاً عظيماً يلتقى فيه تجار الملح من مناجم تغازا، وتجار الذهب من مناجم بيط[1].

لقد واصل الملك سني علي فتوحاته، لتوسيع رقعة إمبراطوريته، ففتح جنج وير، وأراضي صنهاجة، ونونو، وكان أميرهم في تلك الفترة الملكة (بيكن كاب).

ودخل تنبكت عام 873 هـ/ 1468م مابين رابع وخامس الفرد، أي بعد توليه بأربع أو خمس سنوات، وسيطر عليها وعلى الجبال كلها، باستثناء دم التي لم تدن له، إضافة إلى ذلك فتح أراضي كنت، واتجه صوب أرض (بَرِكُ)، فلم يستطع دخولها، كما استولى على قبيلة سنقير من قبائل الفلان، وسبى رجالهم ونساهم، وكانت آخر غزواته غزوة (كُرم)، وحارب فيها الزغرانيين، والفلانيين، ودفع فيها حياته[2].

أورد صاحب مخطوطة "الحقوق الاجتماعية للعبيد" عن فتوحات سني علي قوله" وتغلب على مابين توات ومل ووغد وأكدز ودند، وهو سني علي الذي حفر راس الماء"[3].

سني علي يختفي من مسرح الأحداث:

وردت وفاة سني علي في عدد من المصادر بروايات مختلفة:

فقد ذكر صاحب " السعادة الأبدية "، أن الملك سني علي، قد توفي أثناء

---

(1) - عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص 71.

(2) - أحمد بابير الأرواني ، الجواهر الحسان، مخطوط، ورقة 23، وعبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص71.

(3) - سيدي مولاي محمد الهادي، الحقوق الاجتماعية للعبيد، مخطوط مكتبة الباحث، دون تصنيف ، ورقة 9.

رجوعه من موقعه كرم، بعد ماحارب الزغرانيين، والفلانيين، وبالتحديد في موضع يسمى (كُني)[1]، في خامس عشر من المحرم فاتح 898 هـ/ 1492م، بسبب انطلاق سيل عليه ثم شق ابناءه بطنه، وأخرجوا أحشاءه وملأوها عسلا، لئلا ينتن[2].

وأورد كعت معلومات عن وفاته، تخالف الرواية السابقة، مفادها أن سني علي مات في بلدة (قن)، من بلد الحجر، بداء الفجاة، وعندما تحقق جنده، من موته دفنوه هناك؛ ولم يعلم أحد من أهالي تلك البلدة بموته[3].

وقد اختلف عدد من المؤرخين في تاريخ وفاته، فمنهم من قال إن موته كان في شهر المحرم، فاتح السنة الثامنة والتسعين بعد ثمانماية 898هـ/ 1492م[4]، ومنهم من قال إن موته كان سنة 899هـ/ 1493م[5]، بعد أن مكث في الحكم سبعاً وعشرين سنة وأربعة أشهر، وخمسة عشر يومًا[6].

أما عن وجهة نظرنا الخاصة.. فإننا نستبعد كل هذه الروايات السابقة، ونرى أن ظروف وفاة سني علي، لم تكن طبيعية، وإنما كانت نتيجة لمؤامرة حاك خيوطها ونفذها قائده محمد توري (أسكيا الحاج محمد)، بالتعاون مع أخيه (عمر كمزاغ)، عند وصوله كني، ويؤيد هذا الرأي الممارسات الخاطئة، والتطلع المستمر لأسكيا محمد إلى الإطاحة بسني علي، فما حكم سني علي على أسكيا

---

(1) كني مدينة تقع اليوم ضمن نطاق جمهورية النيجر، وتقع إلى الشمال الشرقي من العاصمة نيامي، وتبعد عنها بحوالي أربعمائة وخمسين كيلو متراً.

(2) أحمد بابير الأرواني، السعادة الأبدية مخطوط، ورقة 12، وموسى بن أحمد السعدي، مخطوط، ورقة 110-111.

(3) أحمد بابير الأرواني، السعادة الأبدية، مخطوط ورقة 12.

(4) احمد بابير الأرواني، السعادة الأبدية، مخطوط ورقة 12، ومحمود كعت، المصدر السابق، ص52.

(5) مجهول، درر الحسان في أخبار السودان، مخطوط، مكتبة الحاج عبد القادر التبين، دون تصنيف، بجاو، ورقة 111.

(6) محمود كعت، المصدر السابق، ص 52.

محمد أكثر من مرة بالإعدام إلا دليل على كبر الجرم؟ وهي الخيانة العظمى، فلا يصدر حكم بالإعدام، إلا على من يتآمر ضد أمن الدولة. أما عن احتفاظه به قائداً لجيشه، فربما يعود لكفاءة محمد توري، وحرص سني علي على البر بصلة الرحم.

وتؤيد وجهة نظرنا هذه أيضاً محاولة، محمد توري تشويه شخصية سني علي، بعد موته وتسخيره (قلم المغيلي)، لإصدار فتوى، مفادها تبرير ما أقدم عليه من اغتيال لسني علي ووصفه بالعمل الجهادي، ومن العبارات التي وصف بها محمد بن عبد الكريم المغيلي الملك سني علي في هذا : الصدد العبارة الآتية:

"إن سني علي وجميع أعوانه وأتباعه وأنصاره ،لاشك أنهم من أظلم الظالمين الفاسقين، الذين يقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض، فجهاد الأمير أسكيا فيهم، وأخذه السلطنة من أيديهم من أفضل الجهاد وأهمه "(1).

ومما يؤكد أن فتوى المغيلي، ضد سني علي، لم تكن نابعة من قناعة منه، وإنما كانت بضغط من أسكيا محمد مخاطبته له قائلاً : "وإذا علمتم ذلك تبين لكم أن ذكر تردده من حال سني علي على الكفر بلا شك، فإن كان الأمر، كما ذكرتم فهو كافر"(2).

من هنا ندرك أن الحكم الذي أصدره المغيلي، في حق سني علي، باطل، لأنه اعتمد فيه على طرف واحد غير محايد، وعبارته "وإن ثبت عليهم" تؤكد عدم تحققه من الفعل.

ويبقى السؤال مطروحاً:

---

(1)- محمد بن عبد الكريم المغيلي، أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي، تحقيق عبد القادر زبادية، الجزائر العاصمة، دون تاريخ، ص 40.

(2)- نفسه والصفحة.

لماذا ينزلق عالم مثل المغيلي، يخشى الله هذا المنزلق، ويسير في ركب أسكيا محمد لتحقيق أغراضه؟ وهو يعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "من كَفَّرَ مسلماً فقد كَفَرَ".

كمحاولة للإجابة عن هذا السؤال، نورد الآتي :

1 - على الرغم من أن المغيلي عالم متبحر، إلا أنه من محبي التقرب إلى أعتاب الحكام، ومما يؤكد ذلك قول أسكيا محمد له إن علماء بلاده لايفقهون من العربية إلا القليل-وهذا الكلام مردود.[1] لأن بلاده مليئة بالعلماء المتبحرين في اللغة العربية، مثل والد أحمد بابا التنبكتي، وأحمد بابا وغيرهما.

2 - عرف المغيلي بعدائه المفرط لليهود، وخاصة بعد أن قتلوا ابنه في مدينة توات، ولهذا تقرب من أسكيا الحاج محمد حتى ينصره عليهم، وفعلاً تعاطف معه أسكيا، وأخذ له بثأره.

وكان المغيلي على علاقة وطيدة بأسكيا، حتى قبل مقتل يهود توات لابنه[2].

وإذا كان سني علي فاسقاً ظالماً قاتلاً، فكيف يسمح أسكيا محمد أن يكون على رأس جيشه، الذي ينفذ تعليمات سني علي مدة سبع وعشرين سنة، وأسكيا محمد الرجل الثاني في الإمبراطورية، إذاً فإن الاثنين مشتركان في الأفعال الذميمة.

ومهما قيل عن تصرفات سني علي المتشددة والقوية، فإن ماذكر حول التشكيك في إسلامه يحتاج إلى إعادة النظر، لأنه لم يثبت أحد من المتشككين بالدليل القاطع صحة ذلك، وبالعكس، فإن عبد الرحمن السعدي، أفاد بميل سني علي لبعض العلماء، وخاصة المأمون بن عم قاضي تنبكت حبيب[3]، إضافة

(1) - محمد بن عبد الكريم المغيلي، اجوبة الاسكيا، المصدر السابق ص 22 .

(2) -نفسه والصفحه.

(3) - عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص 66.

إلى ذلك أرسل إلى علماء تنبكت جواري في شكل هدايا، بعد غزوه لقبيلة فولاي الوثنية[1].

كما خصص سني علي مساحات، لأداء الصلاة في شهر رمضان المبارك[2].

وإضافة إلى ذلك هناك مزاعم أخرى لعدد من مؤرخي السودان الغربي حول شخصية سني علي، منها التي أوردها محمود كعت في قوله: " وهو سلطان جبار قاسي القلب يأمر بإلقاء الطفل في المهراس، ويأمر أمه أن تدقه، وتدقه الأم وهو حي ويطعمه للخيول!... وهو ينطق الشهادة ! "[3] وأضاف المغيلي أن سني علي ينطق الشهادتين، ويصلي على الرسول، ويصوم رمضان، ويتصدق على الفقراء عند المساجد[4].

نريد أن نطرح السؤال: هل يعقل أن تأكل الخيل اللحم؟

لم يثبت لا في القديم ولا الحديث أن سمعنا أن الخيل تأكل اللحم بصنفيه البشري وغير البشري.

وهل يعقل أن مسلماً ينطق بالشهادة، يفعل مثل هذه الأعمال الذميمة التي ليست من طبيعة البشر السوي؟.

لنطرح سؤالاً آخر :

مالذي جعل محمود كعت، يتحامل على الملك سني علي، وينعته بنعوت ذميمة؟ للإجابة عن هذا السؤال، نورد الآتي :

1 - محمود كعت كان معاصراً للملك سني علي، وكان عالما، ويبدو أنه لم يحظ برعايته، مما أوغل صدره فوجد الفرصة سانحة للتهجم عليه.

---

(1) - عبد الرحمن السعدى، المصدر السابق ص 67.

(2) Elias-N-Saad, Social History of Timbuktu : The Role of Muslim Scholars- and Notables 1400-1900. combridge, 1983, p : 11.

(3) - محمود كعت ، المصدر السابق، ص 43.

(4) - المغيلي، أسئلة الأسقيا، المصدر السابق، ص36 .

2 - تقربه من أسكيا محمد الذي بعثه رسولاً إلى خصومه.

3 - إنعام أسكيا محمد على محمود كعت، بمرافقته في رحلة الحج.

أما عبد الرحمن السعدي فقد استقى معلوماته ممن سبقه، دون أن يمحصها ولذلك انجرف في التيار نفسه.

وكلمة أخيرة نقولها، في حق الملك سني، أن الرجال العظام أمثال سني علي، الذي أسس إمبراطورية مترامية الأطراف، ومكث ثماني وعشرين سنة على صهوة جواده يفتح الأمصار، لابد أن ينعت بنعوت واهية من قبل أعدائه وحساده، ومن على شاكلتهم، لأن هذا الرجل ديدنه الحق، والجد والصرامة. والحق صعب على غير السائرين عليه.

المرحلة الرابعة فى تاريخ سنغاي، وتولي أسكيا محمد توري الحكم :

- الصراع على السلطة بين إبراهيم داعو بن سني علي وأسكيا محمد :

استلم شي بار أمر سنغاي بعد وفاة والده، وكان سني بار شخصية ضعيفة على الرغم من محاولة والده، توليته أرفع المناصب، في قيادة الجيش، محاولاً أن يخلق منه قائداً محارباً، إلا أنه لم يستفد من هذه التجربة، علي الرغم من طول مدتها، وبذلك كان أسكيا محمد على علم بضعف خصمه، لكونه من المقربين من سني علي، بل يعتبر الرجل الثاني في المملكة[1].

انتهز أسكيا محمد ضعف شخصية خصمه، وحرض الجند عليه، فانقسم الجيش إلى مجموعتين : مجموعة تناصر شي بار، وكان معه من كبار القواد شي دند وفار افُنب، الذي يعتبر من أشجع رجاله، ودرم كي سندى، وترتنكي، وبنكي وكركي، وجند كي وغيرهم، وكل قائد من هؤلاء القواد له جيش يقوده[2].

(1) - موسى بن أحمد السعدي، مخطوطة، ورقة 117.

(2)- محمود كعت، المصدر السابق، ص 53.

أما أسكيا محمد، فقد انضم إليه من القواد منسى كور، وبركي منسى كور فقط وأورد عبد الرحمن السعدي عن أسكيا محمد : "فلما بلغه ذلك الخبر، أضمر في نفسه الخلافة، واحتال في ذلك بأمور كثيرة، فلما فرغ من إبرام حبل تلك الحيل، توجه إليه فيمن كان معه من خواصه، وأغار عليه في البلد المذكور في ثاني ليلة من جمادى الأول في العام المذكور فانهزم جيشه، وولى هارباً حتى وصل قرية يقال لها انكع"[1].

وفي يوم 24 من جمادى الآخر، كان أول اصدام مسلح بينهما، انتصر فيه أسكيا محمد، وفر شي بار إلى بلدة زاغ، فبعث أسكيا له محمد رسوله يطلب منه التسليم، إلا أن هذا الأخير رفض كل رسله بمن فيهم آخرهم محمود كعت، الذي أغلظ له شي بار القول، وأخبره بأن الحل بينه وبين أسكيا محمد الحرب، وبذلك أخذ يجهز في نفسه، وأيقن أسكيا محمد، أن عملية الوساطة باءت بالفشل ؛ فجهز جيشه، وكان الحل العسكري آخر ورقة، لعب بها، واستمر ينتظر اثنين وخمسين يوماً.

وفي يوم الاثنين رابع وعشرين من جمادى الآخر، دارت بينهما معركة حامية الوطيس، انهزم على آثرها شي بار، وفر بنفسه إلى (اين)، واستقر بها إلى أن توفي عام 899 هـ/ 1493م . وكان المناصرون لشي بار أكثر من خصمه، واعتبروه هو الملك الشرعي، وأن ما أقدم عليه أسكيا محمد اغتصاب للحكم بغير وجه حق[2].

الأسكيا محمد الكبير يتولى عرش سنغاي 899 / 935هـ / 1493-1528م :

برزت أسرة الأساكي الجديدة، التي قفزت إلى حكم المملكة، بعد أن سقطت أسرة السني، التي استمر حكمها مدة تسعة قرون، في مدينة جاو؛ أما أسرة

---

(1) - عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص 71.

(2) - موسى بن أحمد السعدي، مخطوطة ورقة 117، وأحمد بابير الأرواني السعادة الأبدية، مخطوطة، ورقة 12-13، وعبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص 72.

الأساكي فدام حكمها لمملكة سنغاي، زهاء قرن من الزمن (899 إلى 1000هـ/ 1493-1591م).

وقد ورد اختلاف في اسم أسكيا الحاج محمد، فقد ذكرت رسالة موجهة إلى نوح بن الطاهر أن "أسكيا الحاج محمد بن أبي بكر التور ودعى الكوكوي داراً ومسكناً"[1].

كما أطلق كعت عليه أسكيا الحاج محمد بن التوردي أصلا الكوكوي داراً ومسكنا[2].

أما السعدي فقد أطلق عليه محمد بن أبي بكر الطوري وقيل السكنلي[3].

رغم الاختلافات الطفيفة في اللقب، إلا أنه يكاد أن يكون واحداً.

الانتماء العرقي لأسكيا الحاج محمد :

أورد صاحب مخطوطة نبذة من تاريخ جني أن أسكيا محمد، ينتسب إلى فوتي طوري، لأن والده من هناك، أما أمه فمن سنغي[4].

كما أورد المغيلي أنه من أصل سراكولي، قدم أجداده من الجنوب الموريتاني في الفترة، التي حدثت فيها اضطرابات مملكة غانا مع نهاية القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي، ونـزلت عائلته حول النيجر الأوسط، واختلطت مع قبيلة سنغاي :[5].

أما كعت.. فقد ذكر أنه من طور، وأمه كسى بنت كُركي بكر، وتنسب أمه إلى سبط جابر بن عبد الله الأنصاري[6].

(1) - نوح بن الطاهر بن أبي بكر بن موسى، مخطوط يتحدث عن تاريخ أسقيا تاريخها ، مركز أبحاث النيجر، رقم 220 ورقة 1.

(2) - محمود كعت، المصدر السابق، ص 16.

(3) - عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص 71.

(4) - مجهول، نبذة من تاريخ جني ، مخطوطة ، ورقة3 .

(5) - المغيلي، أسئلة أسقيا وأجوبة المغيلي، المصدر السابق، ص 10.

(6)- محمود كعت ، المصدر السابق، ص 59.

وذكر الوفراني : "أن آل أسكية أصلهم من صنهاجة، وملكوا كثيراً من بلاد السودان، وأول ملوكها الحاج محمد سكية"[1].

وأمام هذه الآراء فإني أميل إلى الرأي الأخير:

تولى أسكيا محمد أمر البلاد، في أواخر القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي، وكان من بين المناصرين له موسى الأموي، الذي يقال إنه كفله بعد وفاة والده، وعندما وصل أسكيا محمد إلى مرتبة كبار ضباط سني علي، كان هو المخطط له إلى أن انتهى به الأمر بانقلابه العسكري على ابن سني علي[2]. وقد ذكر الحاج محمد محمد المفتي قائلاً: " استطاع مولاي الأموي تطويع الأعناق إلى أسكيا محمد، عندما تولى زمام الملك"[3].

وحسب حد علمي أن هذه المعلومة جديدة في تاريخ سنغاي، وبالتحديد وجود مخطط ومستشار لأسكيا محمد، قبل توليه الحكم.

تلقبه بأسكيا وسيرته الذاتيه:

جاء لقب أسكيا بعد انهزام شي بار، علي يد أسكيا محمد، وتناهى الخبر إلى بنات سني علي بهزيمة شقيقهن أمام خصمه ؛ وقولهن أسكيا "اشكيا"، التي تعنى في لغة سنغي لاتكون إياه، أي لايكون ملك، وسماع أسكيا محمد بمقولتهن وإصراره على أن يكون هذه المقولة : "أشكيا"، لقباً له وللملوك سنغاي من بعده تحدياً لهن[4]، وبعد رجوعه من الحج، أصبح يعرف بأمير المؤمنين

(1) - محمد الصغير الوفراني، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، الرباط: ط: 2 دون تاريخ، ص 89.

(2) - جلال الدين محمد بن الهماد ، كتاب نصيحة الأمة في إثبات حكم الرخصة، ، مكتبة الباحث، دون تصنيف، مخطوط ورقة 33.

(3) – الحاج محمد مرحبًا، التاريخ الخاص بالتواتر لممالك السودان الغربي، مخطوطة ورقة 37.

(4) – مجهول، رسالة موجهة إلى نوح بن الطاهر بن أبي بكر بن موسى، مخطوطة مكتبة عبد القادر التبين، دون تصنيف، بأقدز ورقة 1، وموسى بن أحمد السعدي، مخطوطة، ورقة 111، وعبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص 72.

أسكيا الحاج محمد، كما ورد عند أحمد بن بابا الأرواني بأسكي محمد[1].

أما عن سيرته الذاتيه فقد امتدحت جّل المصادر، التي تمكنت من الإطلاع عليها - بين مخطوط ومطبوع - أسكيا الحاج محمد.

وقد امتدحه نوح بن الطاهر بقوله: "هذا الخليفة العادل والسلطان الغالب المنصور القائم أسكيا الحاج محمد بن أبي بكر التورُ"[2]، ووصفه كعت بالإمام الصالح، والخليفة العادل، والسلطان الغالب المنصور القائم أسكيا الحاج محمد بن أبي بكر التوردي، أصلا الكوكوي داراً ومسكناً [3].

ونعته عبد الرحمن السعدي بالمنقذ، ومفرج الكروب، وميزه بإصلاح الأمور، كما أفرد له بابا طويلاً ووصفه فيه بأنه : "الأسعد الأرشد أمير المؤمنين، وخليفة المسلمين الذي فرج الله به عن المسلمين الكروب، وأزال به عنهم البلاء والخطوب، واجتهد بإقامة أمور الإسلام، وإصلاح أمور الأنام وصاحب العلماء"[4].

عرف أسكيا محمد بمناقبة الجميلة، من حسن تدبير السياسة، والعطف والإحسان على المساكين ، والرفق بالرعية، وحبه للعلم وأهله، والتذلل للصالحين، وكثرة العطايا لهم، وكان ملتزماً بأداء الصلاة والنوافل. كما عرف عنه العقل والدهاء، والاهتمام بالرعية، وتقريب العلماء، من أمثال محمد ابن عبد الكريم المغيلي الذي أصبح مستشاره الأول، في الأمور الدينية والسياسية.

كما أقام ملة الإسلام، على أحسن وجه، وأصلح الجبهة الداخلية، بإطلاقه سراح عدد من المساجين منهم المختار بن محمد نقي، الذي يعتبر من كبار

(1) - أحمد بابير الأرواني، الجواهر الحسان في أخبار السودان، مخطوط، ورقة 24.

(2) - مجهول، رسالة نوح بن الطاهر بن أبي بكر بن موسى، مخطوط، ورقة 3.

(3) - كعت ، المصدر السابق، ص 16.

(4) - عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص 71-81، ومحمود كعت ، المصدر السابق، ص 59.

Lugard, L : Tropical : Dependency PP : 171-173.

العلماء، وإرجاع أخيه الأكبر عمر إلى سابق عمله[1].

كل هذه الإجراءات اتخذها؛ من أجل تهدئة الأجواء السياسية، حتى يتنسى له العمل دون أية مشاكل.

تطبيقه السياسة الدينيةوتنظيماته الإدارية :

كانت أول أعمال أسكيا الحاج محمد، لتنظيم دولته، إعادة بناء الجيش، لأنه عدته في السلم والحرب، وقد استخدم تكتيكًا عسكرياً متميزاً، حيث أدخل فرقًا من فرسان العرب المغاربة، ومن قبيلة الطوارق، وجعلها في سلاح المشاة، وأنشأ أسطولاً من سفن التموين[2].

وهذ التكتيك له مدلول بعيد المدى، وهو :

1 - تكوين جيش من مختلف العناصر، يظهر الوحدة الترابية وتقوية اللحمة.

2 - اختياره عناصر من قبيلة الطوارق، في سلاح المشاة اختيارًا، ينم عن إطلاع وخبرة ، من قبل أسكيا الحاج محمد، لأن الطوارق يمتازون عن غيرهم من قبائل وسكان الصحراء، بالخفة والرشاقة، وسرعة العدو، ودقة التصويب بالنشاب والرماح.

ومن بين التنظيمات: إنشاء نيابة للملك، في تندرم التي أسندها إلى أحد إخوته، وهو عمر كمزاغ. وقد وقع اختياره على تندرم، لموقعها الإستراتيجي.

كما استحدث إدارة لجباية الضرائب، في جاو، وجعل الدفع عيناً ؛ وأنشأ الدواوين، العسكرية والسياسية والإدراية، وحدد اختصاصاتها تحديداً دقيقاً، ثم أقام حكومات إقليمية، ونصب القضاة، وعين الشرطة[3].

(1) - كعت، المصدر السابق، ص ص 16-59 ، وعبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص 72.

(2) - حسن أحمد محمود، الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، القاهرة : 1962، ص 249.

(3) أحمد بابير الأرواني، الجواهر الحسان بجمع تاريخ السودان، مخطوط، ورقة 3.

كما قام بتنظيم البلاد، على المستوى الإقليمي، فألغى الطريقة القديمة، في توكيل رؤساء القبائل، مقابل الاحتفاظ بأولادهم كرهائن[1].

إضافة إلى ذلك اتخذ كاتباً يكتب له رسائله (والبراءة)[2]، يدعى علي بن عبد الله، وهو الذي أمره أن يكتب له براءة لخليفته[3].

ومن تنظيماته اتخاذ الخدام، وإسناد وظيفة محددة لكل واحد منهم :

فرجل كان يبعثه للعلماء والصالحين، وقد بعث في رحلته للحج فقيه ألفا صالح جور، ليدعو له ربه، ويتوسل برسول الله صلى الله عليه وسلم في أمر العطش الذي أصابهم، ونستنتج من النص السابق أن المجتمع السوداني عرف النظام الطبقي.

ومن أعماله الإدارية تقسيم المملكة إلى عدة ولايات، تدين جمعيها بالولاء لجاو العاصمة، وقد أسند كل ولاية إلى والٍ، واختار الولاة، من بين أقرانه وعبيده المخلصين، وبقيت تلك السنة سائدة في تعيين الولاة واختيارهم، طيلة أيام خلفائه من الأساكي[4]، وهذه الولايات هي :

1 - ولاية كورما :

تقع إلى الغرب من نهر النيجر. كان وليها في بداية الأمر يقيم في جاو، ثم انتقل بعد ذلك إلى نند برماء، وهو يعتبر ممثل الحكومة في الغرب كله، ولذلك كانت له صفة الامتياز عن غيره من حكام الولايات.

2 - ولاية بالاما :

تقع على حدود بلاد الموسى، في الجنوب الغربي من مملكة سنغي. وعلى ما يبدو أن من أسباب إنشائها، على حدود مملكة الموسى، تلك الصراعات المستمرة

(1) نفسه والورقة ، زبادية ، مملكة سنغاي، المرجع السابق، ص 34.
(2) البراءة هي أن يكتب الخليفة إلى من يأتي بعده بتنصيبه أمير المؤمنين من بعده.
(3) محمد كعت ، المصدر السابق ص 15.
(4) زباديه ، مملكة سنغاي، المرجع السابق، ص 134.

بين المملكتين، منذ زمن مملكة مالي الإسلامية، وإلى مملكة سنغاي؛ لأنها كانت تشكل باستمرار خطورة، الأمر الذي جعل أسكيا محمد، يقيم ولاية على أطراف حدود الموسى.

3 - ولاية دندي :

تقع إلى الجنوب الغربي من جاو، وكانت قصبتها مدينة جوجيا، وحاكمها زمن أسكيا داوود، موسى سفنار، وعند موته آلت ممتلكاته إلى السلطان أسكيا داوود[1].

4 - ولاية بانجو اوبانكو :

تقع حول بحيرة ديبوبين جاو وتنبكت، وكانت لها مكانة خاصة، عند حكام سنغاي، لأنها تمثل مركزاً تجاريـاً هامـاً، فواليها الوحيد الذي يدخل حاضرة سنغاي بفرقته الخاصة من ضاربي الطنابير.

5 - ولاية هاربي ندا :

تقع على ضفة نهر النيجر، من الجهة اليمنى المواجهة للعاصمة جاو.

6 - ولاية نهر النيجر :

كان يشرف عليها قائد الأسطول ،وتسمى وظيفته إدارية كوي[2].

7 - ولاية فر :

كان حاكمها كسور بن موسى، وهو أحد أعوان أسكيا الحاج محمد[3].

---

(1) - موسى بن أحمد السعدي، مخطوط ورقة 166عبد الرحمن عبد الله الشيخ، دول الإسلام وحضارته في أفريقيا، الرياض : دار اللواء 1983، ص ص 74-75.

(2) - محمود كعت، المصدر السابق، ص 103، زبادية، مملكة سنغاي، المرجع السابق، ص ص 31-54، والشيخ الأمين عوض الله ، المرجع السابق ، ص 70، وأمين إسبر، أفريقيا والعرب، بيروت : دار الحقائق 1980، ص 22.

(3) - محمود كعت ، المصدر السابق، ص 65.

8 - ولاية تنبكت:

تقع على الحافة الجنوبية للصحراء الكبرى، بما يعرف اليوم بمنحنى نهر النيجر، اشتهرت كمدينة علمية، ارتادها العلماء من الشمال الأفريقي، وأنجبت علماءً أفذاذاً أمثال أحمد بابا التنبكتي، وخضعت تنبكت لأسكيا الحاج محمد، وعلق عليها آماله، وزادت من شهرة المملكة، احتضانها جامعة سنكري، التي كانت تضاهي الأزهر والزيتونة، وغيرهما من مراكز العلم، إضافة الى ذلك أنها كانت مركزاً تجارياً، يرتاده التجار من الشمال الأفريقي والشرق الغربي. قال عنها أحمد بابير الأرواني، وعبد الرحمن السعدي، مادنستها عبادة الأوثان ولاسجد على أديمها قط لغير الرحمن، مأوى العلماء والعابدين"[1].

9 - ولاية قندام:

تقع ولاية قندام إلى الغرب من مدينة تنبكت. وكانت ذات مركز اقتصادي وثقافي، كان قاضيها أيام أسكيا موسى القاضي بوجمة الطرابلسي[2].

10 - ولاية راس الماء :

تقع إلى الشمال الغربي من مدينة تنبكت، بحوالي ستمائة كم، وقد استحدثها أسكيا الحاج محمد، في بداية حكمه، وحفر فيها الآبار، فكثر الناس بها، وعمرت وأصبحت ولاية[3].

---

(1) - أحمد بابير الأرواني، السعادة الأبدية، مخطوط ورقة 10 وعبد الرحمن السعدي، المصدر السابق ص 21، رولاند أوليفر وجون فيج، موجز تاريخ أفريقيا، ترجمة دولت وأحمد صادق، مراجعة محمد السيد غلاب، مطابع كوستا لوس وشركاه 1965م. ص 102.

(2) - على بوجمعة الطرابلسي، يبعث برسالة إلى أحمد بابا التنبكتي، مركز أحمد بابا التنبكتي، تحت رقم 1760 ورقتين.

(3) - جلال الدين محمد بن الهماد، كتاب نصيحة الأمة في إثبات حكم الرخصة، مخطوطة، ورقة 9.

11 - **ولاية أقدز-أكدز :**

تأسست في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي على يدي قبائل الغوبيروا، وعرفت هذه المدينة صناعة الجلود، وعندما سيطرت عليها سنغاي، وارتادها تجار وعلماء من المغرب وليبيا.

وقد بنى بها كل من محمد الفزاني، ومحمد بن عبد الكريم المغيلي، في القرن التاسع الهجرى الخامس عشر الميلادي الخامس عشر الميلادي مسجدين مازالا قائمين إلى يومنا هذا[1]. وأخذت أقدز في الاضمحلال بعد انهيار مملكة سنغاي[2].

12 - **ولاية جنى :**

تقع إلى الجنوب الغربي من مدينة تنبكت، وتبعد عنها بحوالي سبعمائة كم، واختلف المؤرخون في تاريخ تأسيسها، فمنهم من أرجعها إلى 494هـ / 1100م[3]، ومنهم من رأى غير ذلك؛ إلا أن عبد الرحمن السعدي أورد أنها: "بدأت في الكفر في أواسط القرن الثاني الهجري 623م". وكان أول بناء بها سورها وسداً لحفظ المياه، وبعض المباني، وكان أول ملوكها جنور، الذي ينتسب إلى قبيلة مرك، وبعد وفاته تولى أخوه بعده، ثم تولى بعد الملك كيكمبر، الذي أعلن إسلامه في القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي، واستمرت المدينة في حالة ازدهار، إلى أن دخلها الملك سني علي، ثم دخلها بعده أسكيا الحاج محمد، وكان لها وزنها في السودان الغربي[4].

---

(1) انظر الملف ص

(2) مجهول، تاريخ أكدز، مخطوطة، مركز أبحاث النيجر، رقم 120، ورقة 2، وزكاري مايكور بما ويوبي كادو يوبي جادو وآخرون، الحضارة الإسلامية في النيجر، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة-ايسيسكو الرباط: مطبعة اليت 1994 ص 57-58-59.

(3) موسى بن أحمد السعدي، مخطوط ورقة 220، حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، ص 217.

(4) مجهول، نبذة من تاريخ جني، مخطوطة، ورقة 2-3 ، وعبد الرحمن السعدي، المصدر السابق ، ص 35. انظر الملحق.

هذا عن الولايات، أما الأقاليم، فمنها :

1- إقليم غوار :

ويقع على أطراف مملكة البرنو، من جهة الغرب، وينقسم بدوره إلى سبعة أقاليم، يتكلم سكانها لهجة واحدة، وعلى كل إقليم أمير.

وكان لكل إقليم خاصية يختص بها، فأضيقها كاشنه، وأوسعها زكزل، وأجدبها غوبر وأبركها كسنوا، وطبيعة أرض هذه الأقاليم جبلية ورمال بها أودية وأشجار. يقطنها السودان من مماليك العرب المغاربة من أهل برنو، والفلانيين، والطوارق، وذكر موسى السعدي أن أصل سكان كاشنه، وكنو وزكزك، ودورونه وبرييم كلهم من ولد باو، الذي هو مملوك سلطان برنو.

ومن وجهة نظري أستبعد هذه المعلومة، لأن فترة برنو وفترة سنغاي تكاد أن تكونا متزامنتين ؛ فمن المستبعد أن يكون شخص واحد قد أنجب هذه الأعداد كلها.

أما أصل غوبر، فهم أحرار خرجوا من مصر، وهم بقايا القبط. وهذه الأقاليم السبعة استقرت بها آمنة بنت أمير زكزك، بعد أن غزتها، واستولت عليها قهراً، واستحوذت على خيراتها، ثم فتحت باقي الأقاليم ، ولهذا كانت زكزك أوسع الأقاليم؛ لأنها توسعت على حساب جيرانها[1].

وأورد موسى بن أحمد السعدي، في هذا المجال أنَّ : "الإقليم الأول والثاني والسادس والسابع فأهلها أبعد عن الاعتدال في جميع أحوالهم وبنائهم بالطين والقصب وأقواتهم من الذرة والعشب... إلخ"[2].

2 - إقليم باوش :

يأتي بعد إقليم غوار، ويعمره أجلاف السوادان، انتشر فيه الإسلام زمن سني علي ومن جاء بعده[3].

(1) موسى بن أحمد الرحمن السعدي، مخطوط، ورقة 131.

(2) نفسه ورقة 130.

(3) -نفسه، ورقة 132.

3 - إقليم اتاغر:

يقع بالقرب من الأقاليم السالفة الذكر، وهو إقليم واسع به مرسى للسفن، وأصل سكانه من إقليم زكزك، وصله الإسلام في زمن دولة مالي، وبهذا الإقليم عدة معادن منها الشب، وكدور، وسكو وكتو، وكردوف.

4 - إقليم كُرمزُف :

يشتمل هذا الإقليم على نحو عشرين قرية صغيرة سلطانها واحد، وهو سلطان كرمزف، وقد غزا كنوا وبرنوا، وبهذا الإقليم عدة معادن كالملح والذهب والكحل.

5 - إقليم كبير :

يقع إلى الشرق من جاو، وأصل سكانه من كشنه، وأبوهم كشناوى، وأمهم غوبرية هاجروا إليه بعد ضعف شوكة كب، وكان حاكم الأقاليم، يدعى يعقوب بن تب، غزا إقليم كب، واستولى على أغلب أراضيه، ثم زحف على كشنه، واستولى على بعضها ؛ وقد ضعفت شوكته، فزحف عليه حاكم غوبر المدعو (باباري)، فخرب دياره ونصب عليه ابنه علي كبير.

6 - إقليم كب :

يقع في دائرة ولاية أقدز، يقال : إن أصل سكانه من سنغي، لان أباهم منها، وأمهم كشناونية. وقد حكمهم في آخر أيامهم عبد فلاني، استولى على الإقليم. أما طبيعة هذا الإقليم فتغلب عليها الرمال.

7 - إقليم سكسو :

يقع إلى الجنوب الغربي مدينة سقو من العاصمة باماكو، ويبعد عنها بحوالي مائتين وعشرين كم وجزء من طبيعته جبلية، وأصل سكانه من السودان البنباره، ويمتهن سكانه التجارة، وخاصة تجارة العبيد، التي كانوا يلعبون فيها دور الوسيط

بين أفريقيا، والشمال الأفريقي، وأوربا حيث يقومون بغزو القبائل القاطنة خلف ديارهم، ويبيعونهم إلى التجار[1]. ويدين سكانه إلى اليوم بالوثنية[2].

8 - إقليم برغ :

وهو من ضمن نطاق ولاية جني، غزاه أسكيا الحاج محمد واستولى عليه. سكانه سودان، ويقال إنهم عبيد الفلان، الذين تركوهم وراء النور حين جاوزوه إلى المناطق الأخرى، وقد عرف عن هؤلاء السودان التجبر والتعامل بالسحر، ويمتاز إقليمهم بكثرة الأشجار، التي كانوا يصنعون منها السفن، ويصدرون جزءاً منها إلى باقي المناطق.

9 - إقليم غرم :

يلي إقليم برغ، ويمتاز بأنه أوسع من الإقليم السابق، كما أنه من ضمن ولاية بالاما، وتجاور مملكة موشى، وبه جبال، ورمال، وأشجار، ويمتهن جزء من أهله السرقة، والتعدي على التجار[3].

10 - إقليم كستينة :

يقع شرق الإقليم السابق، وتغلب عليه الطبيعة الجبلية،[4] كما توجد به السهول، وينقسم الإقليم من الداخل إلى عدة "كوانيين"[5]، ويمتهن أهله الزراعة حيث يزرعون الشعير والذرة، وقد غزاهم أحد ملوك سنغاي زمن الأسكيين، وفرض عليهم أداء الخراج إلى خزينة المملكة[6].

---

(1) مجهول، تاريخ أكدز، مخطوط، ورقة 2-3-4.

(2) زرته عام 1987، والتقيت بشيخ الإقليم.

(3) مجهول، تاريخ أقدز ، مخطوط، ورقة 2.

(4) موسى بن أحمد السعدي ، مخطوط ورقة 66 .

(5) بالكونيين عبارة عن مناطق صغيرة منخفضة.

(6) مارمول، كربخال، أفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد زنيبر وآخرين، الرباط: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع 1984، ج 3، ص 303.

11 - إقليم تغاز :

يقع إلى الشمال من مدينة تنبكت، وهو مصدر ملح السودان الغربي، عملت كل الممالك التي قامت بالسودان الغربي على السيطرة عليه، وكانت آخرها مملكة سنغاي، وذلك لقيمته الاقتصادية. وقد حكمه محمد أكما خديم أسكيا داوود، الذي قتل في تغاز عام أربعة وستين وتسعمائة 964 هـ/ 1556م، بواسطة الفلالي الزبيري والد يعيش بن الفلالي، بإيعاز من مولاي محمد الشيخ الكبير سلطان مراكش، وقتل معه الطوارق، الذين يستخرجون ملح ظلي. وكان آخر من استغل ملحها المغاربة في أواخر دولة سنغاي[1].

12 - إقليم كياك :

يقع إلى الشرق من جاو، وهو إقليم واسع كان يحكمه أمير يدعى كيال فرن، يتبع لسنغاي، كان كثير الحروب مع جيرانه؛ نظراً لأنه أقوى منهم عدداً وعدة ؛ وكان له جيش قدر عدده بألفي فارس. ومن مدنه مدينة قديمة تعرف (بسائن دنب)، وأصل سكانها من جفنة، وهم بقايا من زمن كيمع. خربت عند انتهاء دولة كيمع، ثم أُعيد بناؤها زمن (زار)، وانتقل بعض سكانها إلى (كُساب)، وهم الذين يطلق عليهم (بكُسن)، وبعضهم انتقل إلى (زار) وقد حاربهم كيال فرن، وانتصر عليهم، ونهب ملكهم، وشتت شملهم، وكان أمراؤهم لايلبسون العمائم، ،ولايجلسون على الفرش، وإنما يجلسون على (القلابيش)[2]. أما ملوكهم فكانوا على درجة من التواضع، بحيث لاتستطيع أن تفرق بينهم وبين جلسائهم[3].

---

(1) عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص 106.

(2) هي نوع من الحصر تصنع من نبات يشبه الديس، يكثر بالسودان الغربي، ينسجون منه هذا النوع من الحصر يعرف، لقلانيش.

(3) محمود كعت، المصدر السابق، ص 39، وإلى اليوم يعرف بهذا الاسم.

أما عن شخصية كيال فإنها عدوانية، ويحكى أن أحد ملوك سنغاي مر عليه، ورأى منه القوة والجبروت، فظن أنه بهذه القوة يريد تحطيم مملكته، ولذلك بدأ يتلطف إليه، ويرسل الهدايا، ليكسب وده، ويأمن جانبه.

وقد وقع خلاف ومشاجرة بين أكيال، ونائب سلطان سنغاي (كر من فار)، فاستنجد الأول بكنفار عمر علي كر من فار، الذي خرج إلى تأديب الأمير تنيض لاغتصابه لحق تاجر زغراني؛ وقد كان خروجه من تندرم، التي تبعد عن خصمه مسيرة شهر كامل، بجيش عرمرم فدمره وغنم منه الكثير، وكان ذلك عام ثامن عشر بعد تسعمائة 918هـ/1512م[1]

تقودنا هذه الأحداث إلى عدة مضامين، ومنها :

1 - التحالفات القبلية بين رؤس القبائل.

2 - خروج أمير مثل كنفار عمر بهذا الجيش الجرار؛ من أجل تثبيت حق تاجر زغراني ينم عن حبه للحق.

3 - تمرد وعدم رجوع بعض الأمراء، للسلطة المركزية، المتمثلة في سلطان مملكة سنغاي، يعود إلى ضعف السلطة، وعدم مقدرتها على الإمساك بزمام الأمور، ومايؤكد ذلك ما أورده كعت من أن كر من فار، السالف الذكر، كان يأخذ في (القرامات)[2]، على زنجيات الشريف الحسني على بن مولاي أحمد بن عبد الرحمن، صاحب مراكش، ويدعي أن أسكيا هو الذي أصدر له الأوامر بذلك، إلى أن اشتكى الشريف الحسني إلى القاضي العاقب على هذا التصرف، وعندما علم أسكيا الحاج محمد بهذا التصرف، قال : لاعلم لي بذلك، ويعث برسله إلى كر من فار وإخوته يعاتبهم[3].

(1) محمود كعت، المصدر السابق ص ص 39-40.

(2) - القرمات : هي معونة من الشعير والقمح، كان يقدمها المستعمر إلى أبناء البلد، يقصد بها هنا ضريبة.

(3)-محمود كعت، المصدر السابق ص132 ، ص 133

بعد أن خطا أسكيا الحاج محمد خطوات ثابتة في تنظيم المملكة، على المستوى الإقليمي، ركز مجهوداته من أجل إيجاد مراقبين ومفتشين للإشراف على العمل، وقد عهد بهذه الوظائف إلى رجال أكفاء، اختارهم من أقرب مساعديه، كما حدد لكل منهم اختصاصات عمله بكل دقة.

ومن هذه المناصب:

1 - تفتيش الضرائب العام، ويرأسه مفتش الضرائب، وله أعوان منتشرون في جميع أسواق البلاد، وعلى الحدود؛ حيث يهتم باستقبال القوافل القادمة للبلاد، من الشمال الأفريقي، أي من المغرب وتونس وليبيا ومصر، ويأخذون على البضائع رسوماً، وكانت وضيفة مفتش الضرائب الإدارية تسمى (موندي).

2 - وظيفة المشرف على الشؤون القبلية (كوري فاريما)، وهو الذي يذهب إلى رؤساء القبائل، ليعرف مشاكلهم، وكانت هذه الوظيفة موجودة عند الأتراك في الفترة نفسها.

3 - وظيفة المشرف على الغابات (ساوفاريما)، وهو المسؤول عن قطع الاخشاب، لبناء السفن، ومراقبة الصيادين.

4 - وظيفة حاكم عام العاصمة، وهو يتعامل مع الأهالي، وحل مشاكل المدينة، ومراقبة الأسواق، باعتبارها العاصمة، وتنفرد مدينة جاو بهذه الوظيفة، عن باقي المدن الأخرى، نظراً لأهميتها[1].

نتبين من الإصلاحات الإدارية التي أقامها الأسكيا الحاج محمد، قدرته على التنظيم المحكم، الأمر الذي جعله يحافظ على مملكة مترامية الأطراف، أشاد بها عدد من المؤرخين إشادة عظيمة.

وقد قال عنه كعت: "إن الأسكيا محمد يصلح حتى لحكم دولة بني العباس، وكل دولة أخرى غيرها"[2].

(1) موسى بن أحمد السعدي، مخطوط ورقة 222، عبد القادر زبادية، مملكة سنغاي، المرجع السابق، ص 35، والشيخ الأمين عوض الله، المرجع السابق، ص 71.

(1) محمود كعت، المصدر السابق، ص22.

وكان لهذه التنظيمات المقتدرة التي أقامها دورٌ كبيرٌ في استمرار المملكة، حتى بعد إقصائه عن الحكم.

رحلة أسكيا الحاج محمد إلي للحج، تتوج بلقب أمير المؤمنيين، وفلسفة جديدة فى نظام الحكم :

ما سرُّ رحلة أسكيا الحاج محمد، إلى الأراضي المقدسة؟

نجيب عن هذا السؤال في آخر الحديث عن رحلة الحج.

على الرغم من أني غير موافق على هذه المعلومة بتسبيق رحلة الحج على فتوحاته للمناطق لسبب واحد، وهو :

لايعقل لرجل وصف بصفات القيادة، والحنكة، والدراية أن يذهب في رحلة إلى الحج، قد تستغرق سنة أو أكثر، وأعداؤه يتحرشون به بين الفينة والأخرى، وأن يصطحب معه كبار معاونيه!.

ولكن لم أجد بُداً من ذكر ذلك على علاته لعدم وجود ما يؤيد وجهة نظري، فمحمود كعت الذي كان معه في الرحلة أي شاهد عيان، رغم أني آخذ معلوماته بشيء من الحذر لعدم مصداقيته في كثير من الأحيان، عندما قارنتها مع مؤرخين كانوا معاصرين له ومنهم من جاء بعده، فبعض معلوماته تسيطر عليها شطحات الخيال.

بعد أن أكمل أسكيا الحاج محمد، رأب الصدع في الداخل، وأمن جزءاً من بلاده بالسيطرة على (زاغ)، على يد أخيه (كرمني فاري عمر كمزاغ)، وقاتل (بكرمغ) كان ذلك أوآخر تسع وتسعين وثمانمائة 899هـ/ 1493م، وفي السنة الثانية من القرن العاشر 902هـ/ 1469م، توجه للأراضي المقدسة، أخذ مرافقيه من كافة قبائل المملكة بأن اصطحب معه من كل قبيلة أعيانها، وكان موكب الحج يتألف من ألف وخمسمائة رَجل، وخمسمائة فارس، وألف راجل، (منهم ابن أسكيا الحاج محمد) موسى، و(هُك كُرى وكُرى علي فلن)، والفقيه

ألف صالح جور و(الفا محمد تل)، و(محمود كعت) صاحب تاريخ الفتاش. وأورد كعت بأنه كان مع أسكيا الحاج محمد ثمانمائة عبد، وحمل معه ثلاثمائة ألف ذهباً، أخذها من عند الخطيب عمر من مال سني علي[1].

شق ركب أسكيا الحاج محمد طريقه، عبر الأراضي الليبية، مروراً بمدينة غدامس، وطرابلس، والمنطقة الشرقية من ليبيا، إلى أن دخل الأراضي المصرية؛ مروراً بالإسكندرية والقاهرة، ومنها إلى الأراضي المقدسة، وهو الخط المعتاد نفسه، الذي سلكه الملك الراحل منسا موسى ملك مالي.

كان ركب أسكيا الحاج محمد يستريح من عناء السفر، كلما دعت الحاجة، وخاصة في الليل؛ حيث ينام الركب استعداداً ليوم جديد.

وقد أورد كعت قصة مفادها أنه عندما نزل ركب أسكيا الحاج محمد بأرض الإسكندرية، وناموا هناك استيقظ الفقيه (الفا صالح جور) في آخر الليل لصلاة النافلة، فسمع نفراً من الجن فقصدهم وإذ به شمهروش وطلابه، كانوا راجعين من الحج يقرأون الكتاب، فسلم عليهم ولحق به (الفا محمد تل) وابنه (موسى الفا صالح)، ودار حديث بين الفقيهين وشمهروش، وقد سألهم شمهروش: من أنتما؟، فأخبراه بأنهما من قوم أمير المؤمنين أسكي محمد، خرج وخرجنا معه حجاً فكبّر شمهروش، وقال إن أسكي محمد رجل صالح سمعت النبي صلى الله عليه وسلم، يقول :« الخلفاء اثنا عشر» خليفة، كلهم من قريش، وأظن أنه منهم، مضى عشرة منهم، وبقى اثنان، فلعله الحادي عشر، وسيأتي آخرهم في القرن الثالث عشر! وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم إنما أعيش إلى تاسع القرون، وأوافق الحادي عشر من الخلفاء، ثم يحكم بين الجن والإنس، وحينئذ أتوقع الموت ! فقالوا : هل رأيت النبي صلى الله عليه وسلم ؟ فقال نعم وقرأت عليه واستبشروا بذلك، وبينما هم كذلك؛ إذ حضر له عبد جني، وقال لهم : إن رعاياكم ضربوا غلامنا حتى أغمي عليه، فإنا دعوناكم إلى الشريعة، فسأله

---

(1) - آمن بن بوعتو، جوامع التواريخ، مخطوط، ورقة 10.

الفقيه الفا صالح جور، كيف ضرب غلامنا رعاياكم ونحن لانراكم!؟ وقال العبد: إن الغلام تبدل في صورة حية، قال: شمهروش أميرهم من تبدل عن صورته دمه مهدور، ثم قاموا يودعونهم، ورجعوا إلى رفاقهم، ومكثوا هناك ليلتين [1].

على الرغم من أن هذه القصة من محض الخيال.. إلا أن الباحث أوردها؛ ليصل من خلالها إلى إجابة عن السؤال المطروح آنفاً.

جاء المؤرخ السوداني محمود كعت بهذه القصة، ليصل من خلالها، الى أن أسكيا الحاج محمد خليفة، في أرض السودان الغربي، وقد أوردها كعت بكل ثقة، وليس لنا ما نقول عنه إلا أنه من زبانية السلطان المروجين لأوهامه، وأمانيه، وهو مستعد أن يأتي بأغرب من هذه القصة، في سبيل إرضاء السلطان أسكيا الحاج محمد عليه.

وعندما نناقش أحداث القصة، لاننكر وجود الجن؛ فالجن قد ورد في القرآن الكريم في قوله تعالى: «وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُون»[2] صدق الله العظيم، وجاء في موضع آخر من القرآن الكريم: «قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا» [3].

ولم أسمع حسب حد علمي، أن الجن روى حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم!.

من خلال القصة نجد تناقضاً واضحاً، يبرهن على عدم مصداقيتها؛ فالحديث الذي دار بين الجني شمهروش وألفا صالح جور وجهاً لوجه، وبين قصة الجني الذي قدم إلى ألفا صالح جور وزملائه، وهم مع شمهروش، وطلب الجني منهم التحاكم إلى الشريعة الإسلامية بسبب ضربهم للغلام الجنى حتى أغمي عليه،

(1) - محمود كعت، المصدر السابق، ص ص 66ـ 67.

(2) - سورة الذاريات، الآية: 56.

(3) - سورة الجن، الآية: 1.

وأن ألفا صالح جور رد على الجني قائلاً : كيف ضرب رعايانا غلامكم، ونحن لانراكم؟ .

نريد أن نتساءل :

كيف شاهد الفا صالح جور وابنه موسى والفقيه محمد تل الجني شمهروش وطلابه، والجني الذي أبلغهم عن الحادثة، وألفا صالح جور يسأل الجني كيف ضرب رعايانا غلامكم ونحن لا نراكم؟ . إذًا كيف شاهدوا الجني. من هنا ندرك أن هذه القصة أريد منها التأكيد على أن أسكيا الحاج محمد، هو الخليفة ماقبل الأخير للمسلمين في أرض السودان.

إلا أننا نستفيد من هذه القصة الآتي :

1 - الطريق التي سلكها ركب أسكيا الحاج محمد، حيث ذكرت القصة مدينة الإسكندرية عبر الأراضي المصرية.

2 - روح الشعوذة والخيال الذي كان مسيطرًا على المنطقة، ولا يتحرج منه حتى مؤرخ معتبر مثل محمود كعت.

وقد أورد كعت أن هذه الرحلة كانت محفوفة بالمخاطر بأن بعضًا من الرفقة ماتوا مثل (محمد كي اج)، والظروف الطبيعة أرهقت الركب، حيث هبت عليهم رياح عاتية، في اليوم الثالث من تحركهم. وقد ذكر كعت "فلما ارتحلنا من هناك سرنا ثلاثة أيام مجدِّين، فلَّما كان اليوم الثالث، هبَّت ريح شديدة حارة حتى يئس من في الرفقة من الحياة إلا قويُّ الإيمان، و[نشفت][1] ما في القِرب من الماء جميعاً. . . فأمر أمير المؤمنين أسكي محمد غلاماً له يقال له فرجل، أن يذهب إلى هذا العالم ألفا صالح جور. . . وطلب أن منه يدعو الله بحرمة النبي صلى الله عليه وسلم أن يسقينا، فزجر الغلام بأشد زجر، وقال له : إن حرمة النبي صلى الله عليه وسلم أعظم من أن تُطلب بها الحوائج الدنيوية، أطلب مني أن نطلب بحرمتنا المذنبين، فقام ساعتئذ وتوجه إلى القبلة أنا عطشنا وأنت أعلم

(1)- الصحيح نشف .

[بحالي][1] منا... حتى سمعنا رعداً فمطرنا فصار الماء نهراً طوله مائة رمح، ثم أخذ الأمير أسكي يوزع التمر، ونسى العالم ألفا محمد تل... فجاء الأمير أسكي محمد، فأكب بين يديه يقبل يديه ورجليه، ويعتذر إليه النسيان..."[2].

إذا ما دققنا في المعلومة السابقة، نجد أنها ملفقة، وبعيدة عن الصحة، لأنه لايعقل أن يصاب ركب أسكيا محمد في اليوم الثالث من انطلاقه بالعطش، وهو مازال لم يتجاوز حدود بلاده.

ولكن مهما كانت صحتها من عدمها.. فإننا نستخلص منها عدة أمور، هي :

1 - صعوبة الطريق والموسم الذي انطلقت فيه الرحلة حيث تكثر به الرياح.

2 - استخدام القرب في حمل الماء يوحيَ بكثرة الثروة الحيوانية، خاصة الماعز، وكثرة الألبان والسمن.

3 - الرياح العاتية التي كانت تهب على المنطقة.

4 - عدم وجود آبار لمياه الشرب في الطريق.

5 - إن كل خادم من خدم السلطان متخصص في أمر معين.

6 - وجود علماء وصلحاء في هذه الرحلة.

7 - سقوط المطر في تلك الفترة، على الرغم من أنه ليس بفصل الشتاء.

8 - الأطوال التي تقاس بها الأنهار، وهو الرمح.

9 - الزاد الذي استخدمه أسكيا محمد في الرحلة، وهو التمر، وكيف أنه المسؤول على توزيع المؤن على الركب؛ الأمر الذي يدل على قلته.

10- تقاس كمية التمر بالحمل.

11 - احترام وتذلل الملك أسكيا الحاج محمد للعلماء والصالحين بتقبيله يدي، وركبتي ألفا محمد تل، واعتذراه له.

(1)- بحالنا.

(2) - محمود كعت، المصدر السابق، ص ص 67-68.

توجه الركب إلى الأراضي المقدسة، وعند وصوله أدى فريضة الحج وزار وتصدق اسكيا محمد في الحرمين من ذلك المال بمائة ألف ذهبا، واشترى جناناً في المدينة المشرفة وحبسها على أهل التكرور.

كما أنفق مائة الف، واشترى بضائع من هناك؟[1].

لم يورد عبد الرحمن السعدي وصاحب نبذة من تاريخ جني أن أسكيا الحاج محمد حبس الجنان على أهل سنغي، وإنما قال حبسها على أهل التكرور؛ لأن مدلول التكرور أعرق وأعرف، وهو الذي نعت بها أسكيا الحاج محمد في رحلته إلى الحج.

وتوجت الرحلة بتنصيب أسكيا الحاج محمد خليفة للمسلمين، في أرض السودان، وأكد ذلك عبد الرحمن السعدي، وكعت من أن شريف مكة قام بتقليد ومبايعة الأسكيا محمد خليفة بلاد التكرور، وقد قال عبد الرحمن السعدي "فطلب منه أن يجعله خليفته في أرض سنغي فرضي له بذلك... وجعله خليفته، وجعل على رأسه قلنسوة وعمامة من عنده فكان خليفة صحيحاً في الإسلام"[2].

أما محمود كعت: فقال: "وأما الشريف الحسني مولاي العباس، فكان مع أمير المؤمنين وخليفة المسلمين أسكي الحاج محمد جالساً بحذاء الكعبة يتحادثان، فقال له الشريف مولاي العباس: ياهذا أنت الحادي عشر من الخلفاء، والذين ذكرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكنك جئتنا ملكاً والملك والخلافة لايتفقان، فقال له كيف ذلك ياسيدي؟ فقال له مولاي العباس: لاسبيل إلى ذلك إلا أن تخرج عما أنت فيه، فأذعن له أسكي طوعاً، وطرد جميع الوزراء عنه، وجميع آلات السلطنة وأموالها، وجعل ذلك كله بيد العباس وقعد عازلاً

(1) – مجهول، نبذة من تاريخ جني مخطوط ورقة 3، وعبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص73

(2) - عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص 73.

لنفسه، ودخل مولاي العباس في الخلوة ثلاثة أيام، ثم خرج يوم الجمعة، ونادى أسكي الحاج محمد، وأجلسه بمسجد البلدة الشريفة، وجعل على رأسه قلنسوة خضراء وعمامة بيضاء، وأعطاه سيفاً، وأشهد الجماعة الحاضرين أنه خليفة بأرض التكرور، وأن كل من خالفه في تلك الأرض.. فقد خالف الله تعالى ورسوله "[1].

من خلال استقراء النص السابق وبقية نصوص المؤرخين، نعتقد أن أسكيا الحاج محمد، أراد أن يضفي الشرعية الروحية على ملكه لعرش سنغاي.

غادر ركب أسكيا الحاج محمد الأراضي المقدسة، فمر على القاهرة، والتقى بالشيخ عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، وقد دار بينهما حديث مفاده أن أسكيا الحاج محمد سأل السيوطي عن الخلفاء، الذين ذكرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأجابه اثنان بمصر، وواحد بالشام واثنان بالعراق، وقد انتهوا جمعيهم، وبقى اثنان بأرض التكرور، أنت أحدهما، ويأتي بعدك الثاني، وسأل أسكيا الحاج : هل يخرج من صلبه من يقيم الدين ويصلح أمره؟ فأجابه بأنه يأتي رجل صالح يدعى أحمد، يظهر العدل، والصلاح والجود، والتقى، والزهد، والنصرة، في بعض جزائر (ماسنة)، يسبقك بكونه متبحراً في العلوم، وأنت لاتعلم إلا الأحكام، والصلاة، والزكاة، والاعتقادات، وهو أخر الخلافاء المذكورين، ثم سأل أسكيا : هل هذا الخليفة يجد الدين خامداً فيوقده؟ فأجابه بأنه كشرارة حجر؛ فينصره الله على جميع الكفار[2]. وعند عودته ألف له علماء مصر بما فيهم السيوطي، كتابًا اسمه تواليف ووصايا[3].

أعتقد أن تقليد أسكيا الحاج محمد بالخلافة أمر مستبعد، فأمير مكة طبقاً لرواية كعت، لا يملك هذا الأمر، كما أنه من المستبعد أن الخليفة العباسي

---

(1) - موسى بن أحمد السعدي، مخطوط، ورقة 175-176 ، وأبو عبد الله أحمد بابا بن الأمين التنبكتي المنح الحميدة في شرح الفريدة، مخطوط، المكتبة الوطنية الجزائر، 151، ورقة 3.

(2) - آمن بن بوعتو، مخطوط، ورقة 10.

(3) - محمود كعت، المصدر السابق، ص 12.

بالقاهرة، يقلد شخصا آخر الخلافة حتى ولو كان بالسودان الغربي، وأعتقد أن الأمر لايخرج عن كونه مجرد اعتراف من خليفة القاهرة، أو من أمير مكة، بولاية أسكيا محمد لحكم سنغاي.

يؤكد هذا الرأي ماذكره كعت في مناسبة أخرى، على لسان أسكيا الحاج محمد لابنه اسماعيل الذي أعاد أباه من منفاه إذ قال أسكيا الحاج محمد، أن شريف مكة الذي هو أميرها قال له "أنت أميري ونائبي وخليفتي في إقليمك" فرد عليه أسكيا الحاج محمد "وأنت أمير المؤمنين وأنا خليفته وأميره ونائبه" فكلمة خليفة بمعنى نائب (1).

عاد أسكيا الحاج محمد وركبه، بعد أن قضى فترة من الزمن بمصر، قابل فيها رجال الدولة والعلم، منهم العالم جلال الدين السيوطي، الذي أحضر أسكيا الحاج محمد أحد أفراد أسرته، قصد التبرك به (2).

وفي طريق عودة أسكيا الحاج محمد، مَرَّ على مدينة تيجدا غرب الأيار، حيث يقيم العالم (محمد بن عبد الكريم المغيلي)(3)، وقد دعاه أسكيا الحاج محمد إلى مدينة جاو ولبى الطلب(4). رجع أسكيا محمد إلى بلاده وكله حماس لنشر الدين الإسلامي، فوسَّع رقعة مملكته، التي شملت جل أقاليم السودان الغربي(5).

وأورد الوفراني عن رواية نصيحة أهل السودان « . . . فرجع إلى السودان، فنصر السنة، وأحيى طريق العدل، وجرى على منهاج الخليفة العباسي في

---

(1) - محمود كعت، المصدر السابق، ص 86.

(2) - التقي الباحث مع عبد الرحمن السيوطي، أحد أفراد أسرة السيوطي، التى تقيم في مدينة تنبكت يوم، 15-8-1985، بمدينة تنبكت.

(3) – للمزيد عن شخصية محمد بن عبد الكريم المغيلي، انظر الفصل الثانى.

(4) - زاكاري مايكوربما وبوبي كادو وبوبي جادو وآخرون، المرجع السابق ص 89.

(5) – محمد بن عبد الكريم المغيلي، أسئلة أسكيا وأجوبة المغيلي، المصدر السابق، ص 12.

مقعده، وملبسه، وسائر أموره، ومال للسيرة العربية وعدل عن سيرة العجم فصلحت الأحوال»[1].

وهذا الشاهد يعطي صورة جلية عن مدى تجاوب الأسكيا الحاج محمد الكبير، مع التعاليم الإسلامية والحث على تطبيقها.

نرجع إلى السؤال الذي طرح في بداية الحديث عن الرحلة.

وللإجابة نورد الآتي :

أولا : رحلة الحج عند ملوك السودان الغربي، لا يقوم بها إلا السلطان القوي، وبذلك فهي نوع من إبراز القوة، أمام ملوك وحكام المناطق الأخرى .

ثانيا : محاولة حصول أسكيا محمد على لقب أمير المومنين من شريف مكة، وتزكيتها من القاهرة، حتى يضفي على نفسه الشرعية الروحية، ويكون أمره مطاعاً، وقد بدأ في هذا البرنامج من بداية الرحلة، والقصة التي أوردها محمود كعت مع الجني شمهروش، والفقيه ألفا صالح جور، كفيلة بإسناد هذه المعلومة.

ثالثاً : إطلاع شمال أفريقيا، والشرق العربي على السودان الغربي، وما هو عليه من الثراء، حتى أنه وزع جزءاً من الأموال على أهل الحجاز والقاهرة.

رابعاً : محاولة أسكيا الحاج محمد الاستفادة من تجارب الحكم في القاهرة؛ فقلد السلطان العباسي في مقعده وملبسه وسائر أموره.

خامساً: زيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم .

والجدير بالملاحظة أن الأسكيا الحاج محمد، قد استن سُنَّةً حميدة، أصبحت لزاماً على من جاء بعده، حيث أعطى الحجاج السودانيين من أهل سنغاي مكانة خاصة، في مراسيم البلاط الملكي، فكان يستقبل بنفسه الحجاج العائدين، خارج العاصمة جاو، ولا يدخلون إليها إلا بعد مشاورة الأسكيا واستئذانه، وبعدها يخرج إليهم الأسكيا لملاقاتهم، ويقدم لهم الهدايا ويتلقى منهم الدعاء[2].

(1) - الوفراني، المصدر السابق، ص90.

(2) محمود كعت، المصدر السابق. ص111.

القضاء

كان منصب القضاء منصباً صعباً، يرفضه أهل التقوى والورع، خوفاً من إصدار حكم جائر عن غير قصد، فينالهم العقاب الرباني، ويعتبرون تولي القضاء كارثة عليهم، وقد يجبر السلطان الفقيه على تولى أمر القضاء؛ وهذا ماحدث للفقيه محمود بن أبي بكر بغيع على تولي مهمة القضاء بأمر من أسكيا إسحاق، على الرغم من رفضه القاطع لهذا المنصب ، وكذلك لرفض أهل بيته له، وقد قالت له زوجته، لو قتلوك أفضل من تولي هذا الأمر. إلا أن القاضي محمود أخذ على حين غرة، وألبسوه قميص السلطان أسكيا إسحاق وعمموه، وهو يبكي بكاء الصبي، وقدموه جبراً وقرؤوا عليه كتاب أسكيا إسحاق، وحمل على فرس ، ونقل إلى داره، ومن شدة رفضه لهذا المنصب، دعا على السلطان أسكيا إسحاق بقوله: «إسحاق نفي عن عيني الكرى وألزمني السهر، كدر الله عليه عيشه، وأنزل عليه ما يشغله »، فرجع أصحاب أسكيا الذين أرسلهم ليولوا ذلك القاضي، فوجدوه قد مات، وهو الذي ولى القاضي عثمان درم قضاء تندرم[1].

وفي عهد الباشا محمود لنك، نصب أمر القضاء للولي الصالح محمد ابن أندغمحمد بن أحمد يرى عام سبعة عشربعد الألف 1017هـ / 1698 م ، وفي يوم السبت ثاني عشر شوال عام عشرين بعد الألف 1020/ 1611م تولى القضاء الفقيه العالم سيدي أحمد بن أندغمحمد بن أحمد بُرى، شقيق الفقيه محمد سالف الذكر بأمر من الباشا محمود لنك[2].

لقد كانت مكانة القاضي مرموقة، عند سلاطين السودان الغربي، وكان القاضي صريحاً أمام الخاصة والعامة بمن فيهم السلطان، وإذا شاهد خطأ من

(1) – عثمان بن فوديه، ضياء الحكام فيما لهم وعليهم من الأذكار، مخطوط، مركز أبحاث النيجر، رقم 263، ورقة 108 محمود كعت، المصدر السابق ص90.

(2) - عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص219.

السلطان يزجره ولا يعبأ بمنصبه، والشواهد كثيرة في هذا المضمار، نورد حدثين منها على سبيل المثال لا الحصر ، فقد وجه شيخ الإسلام (أبو البركات) إهانة إلى أسكيا موسى، الذي تولى أمر البلاد، بعد اغتصاب الحكم من والده أسكيا الحاج محمد، عند مجيء الأول إلى مدينة تنبكت، بقصد زيارة القاضي أبي البركات، فلم يقابله القاضي بوجهه، وعندما سأله أسكيا موسى عن سبب ذلك، قال له: لا أستقبل وجهاً خلع أمير المؤمنين أسكيا الحاج محمد، فقال له: ما فعلت ذلك إلا خوفاً على نفسي[1].

أما الحادثة الثانية، والتي سبق الحديث عنها، ونوردها الآن بشيء من الإيجاز للتدليل هي عند زيارة أسكيا إسحاق إلى مدينة جني، طلب من البراح أن يجمع له أهالي المدينة، خاصتهم وعامتهم، وعندما تجمعوا قال لهم أسكيا: إذا كان هناك أحد، اقتطع حق أحد ظلماً، نأخذه الآن منه بالقوة، فقام له الفقيه محمود ابن أبي بكر بغيع وقال: هل ما تقوله حقاً، قال: نعم، قال : إذاً أنت أكبر الظلمة فما رد عليه أسكيا إسحاق شيئاً، بل رجع إلى بيته وهو يبكي)[2].

ونتيجة للحظوة التي كان عليها القضاة، كانوا يطلبون الشفاعة للخارجين عن طوع السلطان، فقد طلب الشفاعة القاضي أبو حفصي عمر بن محمد، حينما أرسل رسالة مع الشيخ سيدي عبد الله بن امبارك الغاني، ومعه الفع محمد ولد درر والفع كنبعلي، يطلب لهم الصفح من الأمير مولاي أحمد الذهبي على ما صدر منهم من معارضة، للقائد المصطفى التركي، وأنهم في طاعة الله ورسوله وطاعته، وذهب الرسول من تنبكت إلى مراكش، حاملاً الشفاعة إلى الأمير، وقبل شفاعة القاضي عمر، وأكرمهم غاية الإكرام ، ومكثوا عنده سنة، ثم سفرهم مع القائد (بوا خيار) إلى تنبكت[3].

---

(1) - محمود كعت، المصدر السابق، ص83، وعبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص86.

(2) - نفسه ص90.

(3) - عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص167.

«. . . ومن مهام القاضي الفصل في الأمور التي تتصل بحياة الناس اليومية، فيحكم في الخلافات الشخصية، من طلاق وزواج وإرث وديون وقروض، وتجارة وعقارات وماشاكلها[1]، وقد أورد صاحب مخطوط جامع فروع العلم عن مهمة القاضي بقوله : «وأما القاضي فهو نائب الإمام في تنفيذ الأحكام الشرعية، فإن كانت الأرض سائبة، كما في تنبكت وما حولها أو في حكم السائبة . . . فعلى القاضي أن يفصل في هذه المسائل. . . »[2].

توضح لنا هذه المخطوطة، أن مهام القاضي، لا تقتصر على الأحكام الشرعية بل لديه مهام أخرى منوطة به، وهي مراقبة التسيب في الزراعة أو نحوها، فهو الذي يرشد ويزجر، والقاضي في مجتمع السودان الغربي يمثل كل جوانب الخير، والعدالة، والعطف، والصدق والإخلاص، له المشورة والملجأ ، وكان الناس يقصدونه لحل كل أمورهم، وحتى التي تحتاج إلى مشورة السلطان، تأتي عن طريق القاضي، وللقاضي أعوان يرسلهم إلى السلطان كما كانت من الأعباء، التي تقع على عاتقه مراقبة الأحوال المدنية، ومدى سيرها على الطريق المستقيم، ويتولى القاضي الإشراف على أرزاق اليتامى فهو وليهم، يأخذ لهم الحق، وإذا ما توفي غريب، فإن ماله يحفظه له إلى أن ياتي وكيله، أو وريثه الشرعي، وكان بيت القاضي مأوى وملجأ، يلتجئ إليه الفارون من جور السلطان، والسجون، والخائفون ، ولا يجوز لأتباع السلطان الدخول إلى بيت القاضي.

من مهام القاضي الإشراف على بناء المساجد، وتوسيعها، وترميمها، وبناء المدارس، وسير العملية التعليمية، فهو الذي يعين المدرسين، ويحصى الطلبة ويقدم لهم يد العون، وقد تصل مهام القاضي إلى التحريض على الثورة إذا ما شعر بالظلم.

---

(1) - مجهول، نوازل، علماء السودان، مخطوط، مكتبة الحاج عبد القادرالتبينى بأقدز، دون تصنيف، ورقة 18.

(2) - محمد بن محمد بن الحسن، جامع فروع العلم مخطوط، مركز أحمد بابا التنبكتي، رقم المخطوط، 100، ورقة 93.

وكان منصب القضاء يتفاوت من مدينة إلى أخرى، فكان قاضي تنبكت له صلاحيات أكثر من زملائه، في المناطق الأخرى، في إقالة أي قاض، دون الرجوع للسلطان، إذا ما رأى منه عدم الاستقامة في تصرفاته أو أحكامه(1).

معنى هذا أن لقاضي تنبكت ميزات، تختلف عن بقية قضاة المدن الأخرى، وربما يرجع ذلك إلى الجانب الروحي الذي تختص به تنبكت، عن غيرها من مدن السودان الغربي، والذي قال فيها صاحب السعادة الأبدية : "مقامها من السودان مقام الوجه من الإنسان(2) " .

وكان القاضي مراقباً في إصدار أحكامه من طرف الرعية، فعندما يشعر أحد الناس عدم عدل القاضي وعدم تطبيقه للشريعة الإسلامية، يبعث برسالة إلى السلطان يشرح له الحالة التي شاهدها، وهذه الرسالة التي نورد فقرات منها، تبين ذلك : «الحمد لله الذي شرع الأحكام للعباد، وكفهم تنفيذها عن الظلم والفساد، وأتحف الحكام بالشرائع الإسلامية... وأغناهم عن السياسية الكسروية، وعصمهم باتباع المنقول... عن حكيم تخمير العقول...

أما بعد، فالسلام التام والتحية والإكرام، إلي أمير المؤمنين الشيخ أحمد ابن الشيخ أحمد بن محمد بن أبي بكر، ومن معه من الإخوان الخلصان من العرب والفلان، ليكن في كريم علمكم أن ماحكم به الأخ الإرض، والحبيب المرتضى القاضي أحمد بن الفا عمر بين الصالح ويحي أولا ورجع عنه لما هو أصوب...(3).

أما عن رواتب القضاة والفقها، فيدفعها الملك من الخزينة، وهي رواتب محترمة، وقد تدفع رواتب القضاة من أموال الأوقاف(4).

(1) محمود كعت المصدر السابق ص260 .

(2) أحمد بابير الأرواني، السعادة الأبدية، مخطوط ورقة 10.

(3) مجهول، يبعث برسالة إلى أمير المؤمنين أحمد بن أحمد بن محمد بن أبي بكر سعيد، في حرص العلماء على تتبع أحكام بعضهم، مخطوط، مركز أحمد بابا التنبكتى رقم 2500 ورقة 1.

(4) حسن الوزان المصدر السابق ج2 ص167 .

فقد أورد صاحب مخطوط جامع العلم بأنه «يقدم للقاضي رزقه من الأوقاف المطلقة . . . فإن لم توجد فمن أوقاف المساجد، وإما إعطاؤه من غيره"[(1)].

أما تمويل الأعمال الخيرية من بناء المساجد، وتوسيعها، وبناء المدارس، فكانت تأتي من الملك، ومن ذوي البر والإحسان، وكذلك من أموال الأحباس[(2)] .

وعادة ما يكون المسجد المقر الرئيسي للقاضي، لإصدار الأحكام، وقد يصدر أحكامه، في بعض الأحيان، حتى تحت الأشجار، بأن تنصب له كنبة خاصة به ويفصل بين الرعية، وهذا ماحدث لكاتب موسى، الذي كان يفصل في مسائل القضاء، في بعض الأحيان تحت الأشجار[(3)].

أما إذا تغيب القاضي، أو سافر إلى بلاد بعيدة، مثل الأراضي المقدسة ونحوها، فإنه يُخلف بدله قاضياً يختاره هو، وما يؤكد ذلك أنه في العام الخامس عشر، حج القاضي محمود بن عمر، وولى القضاء بعده القاضي عبد الرحمن، ومن بعد رجوع القاضي محمود من الأراضي المقدسة، مكث في تنبكت، دون أن يسلم له الأخير أمر القضاء، الذي استنابه فيه، فسكت القاضي محمود إلى أن حكم القاضي عبد الرحمن، في نازلة مخالفة للكتاب والسنة، فأرسل له القاضي محمود ينقض ذلك الحكم لمخالفتة لنص الكتاب والسنة، والإجماع فأبى إلا أن ينفذ حكمه، فأُبلغ الخبر إلى أسكيا محمد، فأمر رسله بعزل القاضي عبد الرحمان، وإرجاع القاضي محمود إلى مكانه، فجمع رسل أسكيا محمد علماء وفقهاء تنبكت في مسجد سيدي يحيى، وطلبوا منه تسليم القضاء لسيدي محمود باعتباره نائبه، والنائب يبطل عمله بحضور المعنى[(4)].

أما عن إذا توفي القاضي، فإذا كان له ولد وعُرف عنه الصلاح، فإنه يقدم

(1) محمد بن محمد بن الحسن، جامع فروع العلم، مخطوط، ورقة 23 .

(2) عبد الرحمن المقدسي، السعادة لمن أراد الحسنة والزيادة، مخطوط، مركز أبحاث النيجر، رقم 161، ورقة 37 ـ38 .

(3) عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص 57.

(4) محمود كعت، المصدر السابق، ص 76.

لهذه المهمة، فقد تولى أمر القضاء ألفع محمود بن عمر بن الفقيه القاضي محمود بن عمر بن محمد اقيت(1).

أما أنواع العقاب تتفاوت، بحسب الجرم الذي يقترفه الشخص، فالقاضي له حق تطبيق عقوبة السجن وغيرها، وقد أورد عبد الرحمن السعدي أن القاضي محمود عندما جاء له بعض الأهالي من تنبكت، يطلبون منه عزل أحمد والد (ننا سرك)، وتعيين ابن (أبو القاسم التواتي)، رفض القاضي وقال : لهم إذا لم تخرجوا سجنتكم(2).

أما عقاب الرجل الذي يمشي بالنميمة بين الناس، فينقشونه بالحمرة والسواد والبياض ويركبونه على حمار، ويطوفون به البلدة بالنداء والبريح، ويقولون هذا جزاء من يسعى بالنميمة(3)، كما كان بعض قضاة السودان الغربي، لديهم أحكام غريبة عن الشريعة الإسلامية، وهي قطع الأذن حسب نوع الجرم، فالذي يسرق مثلاً، فإذا كانت السرقة بسيطة تخرم أذنه، وإذا زاد الجرم تقطع ثلث الأذن، وإذا زاد أكثر تقطع الأذن بالكامل وإذا كان أكبر من ذلك تقطع الأذنان، وهذا ما أورده أحمد بن أبي بكر في رسالته إبطال قطع الأذن حينما قال: "... وحكم النافذة في الأذن والجرم فإن انقطعت الأذن من أصلها فخمسماية دينار، فإن انقطعت بعضها، وبقي البعض فحساب ذلك!! فإن انقطع أذنيين..."(4).

وهذه المعلومة جديدة، على تاريخ السودان الغربي، لم يتعرض لها كعت، ولا السعدي، ولا أحمد بابا في كتاباته عن حد علمي، ولكن هذه الرسالة تذكر شيئاً جديداً في تاريخ المنطقة، فهي تورد أن الدية كان يتعامل بها، في إصدار أحكامهم الشرعية، فإذا ما قتل شخص شخصاً آخر، فتؤخذ منه الدية، وهذه

(1) محمود كعت، المصدر السابق ص 93.

(2) عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص 60.

(3) نفسة، ص 90.

(4) أحمد بن أبي بكر، رسالة إلى جماعة أبناء محمد بن يوسف، بإبطال قطع الأذن، مخطوط، مركز أحمد بابا التنبكتي، رقم n/145 ، ورقة 2.

الشهادة تؤكد ذلك، والتي يرجع تاريخها إلى عام ألف ومائة وثمانين 1180هـ / 1766م، ونورد مقتطفات منها تقول : «هذه نسخة صحيحة منقولة من أصل صحيح ونصها؛ ليعلم الواقف عليه من قاضٍ وغيره، أن الشرفاء أعني بني سيدي حم بن الحاج سيدي محمد بن مولاي عبد القادر، وسيدي محمد ابن عبد الهادي، وبينهم مولاي الشريف، وأخاه المرحوم مولاي عبد الوثيق وسيدي محمد بن مولاي صالح أعطوا دية مولاي أحمد بن مولاي الزين، لمّا جاءهم أخوه مولاي محمد بن معروف عندنا، ولم يبق عليهم من تلك الدية قليل، ولا كثير . . . لتسع خلون من المحرم افتتاح العام الموفي الثمانين ومائة والف عمر بن محمد بن أبي بكر بن محمد بن عمر، غفر الله عن الجميع آمين. . .»[1].

هذا عن اختصاصات قاضي المدينة، أما الأمور التي تتعلق بأمن الدولة، من سرقة السلطة، أو عدم تقديم الولاء والطاعة؛ فالفصل فيها للسلطان، حسبما يشير عليه مستشاروه.

تتفاوت أنواع العقاب وأقصاها القتل، فكل من لا يدعو السلطان باسمه أسكيا، ومن لا يحمل التراب على رأسه، ومن لا يركب وراءه، يعتبر خارجاً عن حكمه، فيقتل بطريقة بشعة تنم عن أنها أقصى العقوبات التي اخترعتها أمهات أفكار السلطان، فطريقة القتل بأن تحفر له حفرة عميقة، توضع فيها حيات ويردم عليه التراب، وهذا ما حدث (لأبي بنك) مع السلطان أسكيا موسى، حينما خرج عن نطاق حكمه[2]. الأمر الذي جر عليه المشاكل، كما يوجد لديهم نوع آخر من العقاب، وهو لايختلف كثيراً عن النوع الأول، ويطبق على الجرم السابق نفسه. بأن يوضع المراد قتله في (سنكوُر)[3] ويخاط عليه جلد

(1) عمر بن محمد بن أبي بكر بن محمد ، شهادة على دفع دية، مخطوط، مركز أحمد بابا التنبكتي، رقم 120ورقة 1

(2) عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص84.

(3) سنكور في لغة سنغاي نوع من الطين شديد التماسك، إذا خلط بالماء، يبنون به أعمدة منازلهم لقوته . والمتهم يسربل به حتى يضغط على جسمه ضغطة قوية، فيزداد في أله، وكأنهم يريدون أن يعذبوه عذاب القبر، قبل أن يوضع فيه على رأى المثل.

بقرة، ويردم في حفرة عميقة، تصل إلى مترين حياً، وقد حكم بهذا العقاب أسكيا إسحاق على هنبركي[1].

والنوع الثاني من العقاب النفي إلى مكان ناء مليء بالقاذورات؛ فقد نفى أسكيا موسى والده أسكيا الحاج محمد إثر الانقلاب عليه إلى جزيرة نائية، تكثر بها الحشرات، والناموس، والضفادع. وقد يودع المتهم السجن، وسجون السودان الغربي، أكبرها سجن تنبكت، وجاو وجني، ودند ، فقد سجن أسكيا (محمد بان) به خصومه، الذين دبروا ضده المحاولة الانقلابية الفاشلة[2] .

ومن أنواع العقاب الأخرى، التعزير بأن يوجه السلطان للمتهم إهانة بتعييره بما هو فيه؛ فقد استخدم هذا الأمر أسكيا إسحاق مع (ببكر بن القف دنكُ)، عندما قبض عليه رجاله، وكان ببكر رأسه شيباً، قال أسكيا (هاتواكرزي)، وأعطوه ببكر ليستر شيبه[3].

ومن أنواع التعزير والتشهير، التي استخدمها حكام السودان الغربي، ضد مقترفي الجرائم جرم من يمشي بالنميمة، بين الناس فيحكم عليه القاضي، أو السلطان على السواء فيضرب مرتكبها ، بسير مفتول ثقيل، وقد يموت تحت الضرب مثل محمد (كي أجى). وقد تقدم له الإهانة أمام الناس، وهو نوع من العقاب، وهذا ما حدث (لسعيد مار) عند ما اتهمه أسكيا إسحاق، بأنه يأكل في أعراض الناس، فقال أسكيا فيه : إذا جلس على طرف قضيب جلس ، وإذا غرز لسانه في حجر ثقبه، وأمر براح المنطقة، بأن يوثق سعيد بحبل، ويربط في (قربوس)[4] الجواد، ويلف به البلدة من أولها إلى آخرها، وهو يقول من يمسك هذا الرجل في أول الليل أو آخره بجوار بيته، أو في الطريق فليقتله فدمه مهدور، ومن تركه فقد ترك عدو الله ورسوله وعدوي.

(1) عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص ص 128_ 129 .

(2) عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص 65-89-122، ومحمود كعت، المصدر السابق، ص143.

(3) نفسه ص129..

(4) مؤخرة السرج.

من خلال استقراء نظام القضاء في السودان الغربي.. فإنه يترجم لنا عدة جوانب، وهي:

1- صعوبة مهمة القضاء، ودرجة التقوى التي كان عليها هؤلاء القضاة، وفرارهم من تولي هذا المنصب، وتأثرهم بصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وتذكرنا مواقفهم بالفاروق عمر، الذي عندما ولي القضاء، قال قولته المشهورة: هلك بيت عمر.

2 - حب كثير من سلاطين سنغاي للعدالة، وقول كلمة الحق، حتى ولو كانت موجهة لهم شخصياً.

3 - تطبيق القضاة في أحكامهم مبدأ الشريعة الإسلامية، في كثير من أحكامهم مثل الدية.

4 - حالة الاستقرار التي شهدتها المنطقة، والنظام وقلة المخالفات ، وصرامة العقاب، من قتل، وسجن وتعزير، ونحوه، جعلت المنطقة تشهد حالة من الاستقرار السياسي، والرخاء الاقتصادي؛ فالأمن صمام الأمان، وبالتأكيد طالما هناك أمن، كان هناك استقرار في السياسة، وازدهار في الاقتصاد، ونهضة اجتماعية، وثقافية، وإذا اختل الأمن والعدل، تعطل كل شيء.

نظام الحكم ومراسم تنصيب الملك :

القاعدة العامة لنظام الحكم في الأغلب الأعم الوراثة، إلا أن إرادة شعب سنغاي، في بعض الأحيان، تتجاوز هذا التنظيم، وتفرض نفسها، فقد عين السلطان أسكيا إسحاق ابنه وليًا لعهده، إلا أن أهالي سنغاي، رفضوه بعد موت أبيه، ونصبوا أسكيا داوود[1].

أما عن مراسيم تنصيب الملك. . فقد كان تنصيب الملك، وهو السلطة العليا في البلاد بطقوس معينة، تترجم الواقع المعيش لنظام الحكم في تلك الفترة.

---

(1) - محمود كعت، المصدر السابق، ص 93 .

عند تنصيب الملك، هناك شخص يعرف بضارب طبل السلطان، يضرب الطبل إعلاناً بتنصيب السلطان، وهذا ما فعله أهل سنغاي، بعد موت أسكيا محمد، بأن ضربوا طبل السلطان على أسكيا إسحاق الزغراني، وحلفوا على المصحف بأنهم لايخونونه أبداً.

يكون التنصيب عادة في القصر الملكي، بأن يجلس المنصب على كرسي الحكم، يحيط به الزمارون، وضارب الطبل يضرب أمامه، وحوله بطانته ودخلاؤه، وفي هذا الحفل يمنح إشارات السلطنة، متمثلة في قميص مزركش، وغطاء على الرأس، يشبه في شكله التاج، بالإضافة إلى العمامة الخضراء، والسيف والبردة. وقد أخذوا هذا التقليد عن الدولة العباسية، وابتداءً من أسكيا الحاج محمد، الذي قلده الخليفة العباسي في رحلة الحج، عام في 901هـ/ 1495م[1].

بعد إتمام مراسيم التنصيب، يستقبل الملك رؤساء الولايات، والأقاليم، وقادة الجيش ؛ وبعد صلاة الظهر في المسجد، ويقسمون قسم الولاء والطاعة. وطيلة يوم التنصيب تضرب الطبول، ويخرج أهالي جاو العاصمة إلى الشوارع، يرقصون إلى ساعة متأخرة من الليل، وفي اليوم الثاني من التنصيب، يبدأ الملك الجديد عمله بالخير، والبركة بأن يوزع الصدقات على الفقراء والمساكين، المحتشدين خارج القصر[2]. كما يقوم بتعيين نواب عنه في الأقاليم، والمقاطعات والمواني البعيدة، ومن ينوب عنه في استقبال الوفود، والناس كما يعين قضاة المقاطعات، والوزراء، وتسبق هذه التعيينات صلاة الاستخارة، إلا أنها شكلية - إلى حد كبير - إذ لا تأثير لها على التعيين، وقد عين السلطان أسكيا داوود، (بكر على دود) تحت ضغط ابنه فاري[3].

(1) - محمود كعت، المصدر السابق ص1، وزبادية، مملكة سنغاي المرجع السابق ص63.
(2) - محمد محمد المفتي التاريخ الخاص بالتواتر مخطوط ورقة 200 ، زبادية، مملكة سنغاي، المرجع السابق، ص63.
(3) - عبد الرحمان السعدي، المصدر السابق، ص ص97-101، وحسن الوزان ، المصدر السابق، ج 2 ص168.

أما القصر الذي يجري فيه التنصيب، وهو مقر الملك، فعادة ما يكون كبيراً، ومقسماً من الداخل إلى عدة غرف: غرفة للنوم، بها سرير مفروش، عليه عدد من أنواع الحرير. وكان قصر أسكيا إسحاق على هذا النحو، كما يوجد بالقصر عدد من الأبواب، وأول ما يواجه الداخل إليه عند المدخل، الباب الذي عليه صاحب السلطان الذي مهمته تنظيم الدخول ومقابلته، وكان من حقه سؤال الزائر، عن سبب الزيارة، حتى ولو كان ابن السلطان. كما كان للسلطان رجل يعرف (بلونذُ) مهمته أن يعيد ما قاله السلطــان للناس[1].

وبالإضافة إلى الحاجب، كان هناك عدد من الصفوة، الذين يقومون على خدمة السلطان في قصره، وخارجه، فهناك رجل يسير أمام السلطان، عند خروجه، وعند ركوبه، ويشد له السرج بالمناوبة، ويعرف عندهم برب الطريق؛ وكان من بين خدامه من يشرح له أي شيء يصادفه السلطان يدعي (ونْدعُ)، وهو الذي أخبر أسكيا داوود بالحاج الكنتوي بأن أصل أجداده عبيد. ويقوم بخدمة السلطان، عند ركوبه رجلان واحد عن يمينه، والآخر عن شماله يمسكون قربوص السرج، ويقوم السلطان بوضع يديه عليهما[2].

وهناك من يختص بشد السرج، من الرجال يضع السلطان يده على رأسه، ويكون محاذياً له، وقد يغلظ ذلك الخديم القول للسلطان، ويرفع عليه صوته، إذا رأى ما ينكره قائلاً: « جعلناك حاكمًا في الأرض ولا ترعاها»[3].

وعلى ما يبدو أن مهمة هذا الخديم، تكمن في تنبيه السلطان إلى ما يقع فيه من أخطاء، وربما كان سماح السلطان، بهذا التجاسر عليه إحياء سنة الخلفاء الراشدين.

ومن خدام سنغاي المترجم، ومهمته تجميع الناس للسلطان، لإبلاغهم

---

(1) - محمود كعت، المصدر السابق، ص98، وعبد الرحمان السعدي، المصدر السابق، ص 101.

(2) - نفسه، ص101- 111 - 114 - 116نفسه ، ص105.

(3) - عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص105.

الأخبار السلطانية، والترجمة له، وقد استخدم أسكيا الحاج محمد المترجم، عندما أراد مخاطبة أهل مدينة جني[1]، كما كان لهم كُتاب خاصون بهم، فأسكيا محمد بان مثلاً، كان له كاتب يدعى بكر لنبار. بالإضافة إلى ذلك كان لسلاطين سنغاي خدامٌ يعرفون بوكلاء الأعمال، مهمتهم الإشراف على أموال ومزارع السلطان، وقد كان لأسكيا داوود، وكيل أعمال يدعى «مسك كل الله»كان يتصرف في كثير من الأمور، دون الرجوع إليه، وقد يصل من الثراء حداً غير معقول[2]. ولسلاطين سنغاي مغنٍ خاص، يرافق السلطان عند خروجه للحرب، ومهمته حشد الهمم، وقد كان لأغاني هذا المغني آثارها القوية، بحيث أن السلطان في بعض الأحيان، يتخذ قراره بالحرب، على الرغم من عدم استعداده لها من قبل[3]. من خلال الفقرة السابقة يتضح أن هناك تأثيراً وتأثراً بما هو في إفريقيا، جنوب الصحراء، وشمالها، فهذا المغني موجود في ليبيا، وعادة ما يكون أسمر اللون، ويوضع في رقبته طبل، يدق عليه، ويغني بكلمات فيها الحماس والإقدام على الحرب.

كما أن لخيل سلاطين سنغاي خدامًا، من قبيلة (جندك)، يقومون على رعايتها ويحمل أبناؤهم لها الغذاء[4].

من خلال العرض السابق، . . . يتضح أن هناك نظاماً طبقياً تختص فيه بعض القبائل بوظائف وضيعة، يتوارثها أبناؤها صغيراً عن كبير.

طريقة جلوس الملوك فى قصورهم واستقبالهم للرعية:

يجلس السلطان على مكان يطلق عليه السرير[5]، وكلما أراد شخص أن يخاطبه جثا على ركبتيه، آخذاً التراب وواضعاً له على رأسه، وكتفيه، وهو سلوك ينم عن الخضوع، والتذلل، وقسوة، وجبروت السلطان.

(1) - محمودكعت، المصدر السابق، ص88.
(2) - نفسه، ص98-108-134، حسن الوزان، المصدر السابق، ج 2 ص ص171-172.
(3) - عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص92.
(4) - محمود كعت، المصدر السابق، ص57.
(5) - محمود كعت، المصدر السابق، ص 88.

وقد ورد أن هذا السلوك، لا يقوم به إلا من لم يسبق له أن خاطب الملك من قبل[1].

والسؤال الذى أطرحه هو:

ما الفلسفة من وراء هذه الطقوس؟ هل هي نتيجة للخوف من السلطان؟ أم هي نوع من الطاعة والتكريم؟ أم ماذا؟ لقد سألت عدداً من علماء ومؤرخي السودان الغربي، خلال زيارتي المتكررة للمنطقة حول هذا الموضوع، فأجابوني إجابات متقاربة، فحواها بأنه ليس كل الرعية تستطيع مقابلة السلطان، بل الذي يقابله يكون من المحظوظين، وعادة ما يكون من المتميزين في شيء ما. كما أضافوا بأن الذي يدخل على السلطان، لا يغسل جسده، ولا يده عند عودته إلى بيته، لمدة من الزمن ليتبرك به أهله وأحبابه؛ نظراً لأن رائحة السلطان ما تزال عليه. إضافة إلى ذلك، فإنه يأخذ من تحت نعل السلطان قليلاً من التراب، ويضعه في قطعة قماش خضراء، ويعلقها في بيته تبركاً به ودليلاً على مقابلته للسلطان[2].

أما استعمال التراب دون غيره من المواد، فهو ينم عن جانب روحي، إذ تعني عندهم منه خلق وإليه يعود.

لكن في المقابل هناك أفراد مقربون من السلطان، لا تنسحب عليهم هذه الطقوس، عند مقابلتهم له، مثل كرمن فار وجنكي، الذي كان يدخل على السلطان أسكيا الحاج محمد، دون أن يخلع قبعته، بل إن السلطان يحمل له دقيق الطعام.

كل الرعية لا تناقش، ما يقوله السلطان أسكيا الحاج محمد، بل يثنون عليه،

(1) - حسن الوزان، المصدر السابق ج 2 ص ص 166-187 ، وعبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص82، ومحمودكعت، المصدر السابق، ص 101.

(2) محمود الزبير، جبريل دكوري، وأحمد سالم الشود، وأبو بكر جبريل، ومولاي زيدان شريف.

إلا (دن فار)، فإنه لا يتحرج في مخاطبة السلطان، إذا حاد عن الحقيقة. وكذلك كل الرعية يدخلون على السلطان سيراً على الأقدام. إلا درمكُى، فإنه يدخل لدار السلطان راكباً، وينادي عبده ويرسله لأموره دون خوف من السلطان. ومن الخصوصيات ألا ينادي أحد من الرعية السلطان باسمه، إلا شخص واحد وهو (كُسُر دنك)[1].

من خلال العرض السابق، يتضح أن هذه الخصوصيات، التي خص بها أسكيا الحاج محمد بعضاً من رعيته دون غيرهم، هي في الحقيقة بقدر ما هي احترام وتقدير لهم، هي نوع من طقوس القصر، فهو أراد بهذا العمل أن يكون من بين الرعية من يخالف الرعية في سلـــوكها أمامـه، والدلـــيل على ذلك توزيعه الأدوار علـى عدد من أتباعه.

ومن طقوس سلاطين سنغاي عند جلوسهم على سرير الحكم، أن لا يجلس معهم إلا الشرفاء والعلماء، وقد تميز بهذه الميزة السلطان أسكيا الحاج محمد، فكان ينبسط لمقدم العلماء إليه بأن يأمر بفرش حصير الصلاة لهم، فهو لايقوم إلا للعلماء والحجاج القادمين من مكة، ولا يتناول الطعام مع أحد كائنًا من كان إلا مع العلماء والشرفاء وأولادهم، ولو كانوا صغاراً في السن[2].

خزائن بيت المال :

تنقسم خزائن بيت المال عند ملوك سنغاي إلى نوعين:

-خزانة للمال والأمتعة، وخزانة للكتب[3].

- خزانة المال: وهي تمثل بيت المال وتحتوي على الذهب والفضة، والخيول، والعمائم، والسيوف. وما يؤكد ذلك أن السلطان أسكيا إسحاق عندما عزله أسكيا محمد كاغ، أخذ من بيت المال الذهـب والفضة ونحوها، وفرَّ بها خارج كاغ[4].

(1) محمودكعت، المصدر السابق، ص ص11 ـ12 .

(2) نفسه والصفحة.

(3) نفسه، ص 94 .

(4) نفسه، ص 153.

وقد اختصت دار الخطيب، عند بعض ملوك سنغاي بالتخزين نظراً للثقة العالية، التي يتمتع بها صاحبها، فعند رحلة حج أسكيا الحاج محمد، أخذ من دار الخطيب عمر الذهب، الذي كان قد خزنه عنده (شيء عال)، كما كان بعض الذهب يخزن في الحفر والتوابيت[1].

أما ممتلكات السلطان، من ذهب، ونقود، وفضة.. فقد كانت توضع في أماكن خاصة، ويشرف عليها أحد من عبيده المخصيين المقربين إليه[2].

أما خزانة الكتب، فتوضع فيها الكتب النفيسة، ويكون عليها خازن من أهل العلم والمعرفة[3].

طريقة خروجهم للغزو :

يسبق خروج سلاطين سنغاي للحرب عيونهم، ليرصدوا عدوهم، ويتعرفوا أماكن ضعفه، وتحركاته قبل الاصطدام به، وكان لأسكيا محمد بان عيون من الفرسان بلغ عددهم مائة فارس، لرصد تحركات أخيه بلمع الصادق الزاحف عليه من مدينة تنبكت[4].

وحكام سنغاي عند خروجهم للحرب تصحبهم زوجاتهم وأولادهم[5]، ويبدو أن ذلك راجع إلى أن المرأة تحمس الرجل، ويعتبر نفسه يدافع عن زوجته وأخته، وإذا ما انهزم أو تراجع، أصبحت زوجته عبدة لعدوه، وبذلك يتفانى في الدفاع.

وقد قال السعدي في هذا المضمار : «وفي هذا الطريق حملت بابنه هارون الرشيد أمه وأخوه الكبير (فارى منذ محمد بنكن) بن أسكيا داوود هو صاحب

(1) - محمود كعت، المصدر السابق، ص 65.

(2) - نفس، ص144 ، وحسن الوزان، المصدر السابق، ج 2 ، ص166.

(3) - مجهول، حديقة البستان في تاريخ أهل أروان، مخطوط، ورقة 10.

(4) - محمود كعت، المصدر السابق، ص131.

(5) - عبد الرحمان السعدي، المصدر السابق، ص110.

هذا العزو»[1] وولد لأسكيا الحاج محمد عند خروجه من غزوه (زلن) ولد بقرية (تتفرن) سماه عثمان تتفرن[2].

ومن المرافقين للسطان، نسوة من الحداديات الزمارات، اللاتي كن يحملن على الإبل ويعتبرن من نفائسهم، إضافة لذلك الخياطين الذين يقومون بخياطة القمصان والقفاطين للجيش[3].

كما يخرج مع السلطان عند مقابلته لضيف، أو زائر هام أرباب البوق، والطبول، وآلات الطرب، عازفين بأهازيج الفرح، كتعبير عن فرحة السلطان، وترحيبه بضيفه : كما يستخدم أيضاً ضرب الطبل، والعزف على البوق، كوسيلة إعلامية لعزل السلطان أحد ولاته من الحكم[4].

وفي الحالة الأخيرة تكون قيادة الموكب للملك، وهو الآمر والناهي، ويختص بخدمته غلامان مخصيان، ينصبان خيامه ويحضران طعامه[5].

ولكن ما الفلسفة وراء هذه الهالة؟

في الحقيقة إن هذه الهالة التي اعتادها ملوك سنغاي، القصد منها إظهار قوتهم أمام عدوهم، ونشر الرعب على المناطق التي يمر بها الركب، وهي بمثابة إنذار، لمن توسوس له نفسه المساس بأمن المملكة، إضافة إلى ذلك التفاني في الدفاع عن هذه المكتسبات التي يحملونها؛ لأنها في حالة هزيمتهم تصبح كل المتاع ملكاً لغيرهم بما فيهم نساؤهم .

هذا عن مملكة سنغاي، وتنظيمها الإداري، والتي هي إحدى قوى السودان الغربي وأبرزها.

(1) - عبد الرحمن السعدى، المصدر السابق، ص ص 109 ـ 110 .
(2) - نفسه، ص75.
(3) - محمود كعت ، المصدر السابق، ص131.
(4) - عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص ص104ـ105ـ119.
(5) - محمود كعت ، المصدر السابق، ص131.

أما عن القوى الأخرى، والتي كانت تشكل ثقلاً في السودان الغربي، فهناك ثلاث قبائل، كان لها دور كبير في استقرار المنطقة، أو زعزعتها، وهي: البرابيش، والفلان، والطوارق، بالإضافة الى مملكة الموسي، وقوة المغاربة.

أما عن أعداد الجيش. . فقد عرفت منطقة السودان الغربي الجيش وأهميته منذ قيام أول إمبراطورية بها، وزادت في عهد مملكة مالي الإسلامية ، وحظى مرفق الجيش بعناية جل سلاطين البلاد، في مختلف فترات تاريخها، وقد تحدث المؤرخ القلقشندى عن عساكر الدولة في عهد السلطان موسى بن أبي بكر، فذكر أن مقدار عسكره مائة ألف نفر، منهم خيالة نحو عشرة آلاف فارس، والبقية الباقية رجال لاخيل لهم[1].

وما كانت عليه مملكة مالي الإسلامية، من تنظيم في الجيش، وإعداده، ينسحب على مملكة سنغاي، التي زادت في تطويره، والاعتماد عليه، وقد تمتع الجيش بحظوة مرموقة في البلاد منذ تكوينه، وقد مر ذلك بمرحلتين :

الأولى في عهد الملك سني علي.

والثانية في عهد الأسكيا الحاج محمد وخلفائه .

وقبل أن نتحدث عن الجيش، في عهد الملك سني علي، علينا أن نطرح السؤال الآتي:

ما الفلسفة من وراء تكوين جيش سنغاي ودعمه، وتخصيص ميزانية له؟

الإجابة عن هذا السؤال في آخر الحديث عنه.

ففي عهد الملك سني علي، كانت أولى سياسته توسيع نطاق حكمه بتكوين جيش قوي من مختلف شرائح المجتمع السوداني، بأن اختط نظاماً جديداً للتجنيد الإجباري، على أن كل فرد قادر على حمل السلاح، يدخل الى سلك الجندية، ويعرض على الملك لكي تتم الموافقة عليه أو العكس[2].

(1) القلقشندى، المصدر السابق، ج5، ص299، وعبد الرحمن زكي، الإسلام والمسلمون في غرب أفريقيا، المصدر السابق، ص42.

(2) عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص64 ، وزبادية، مملكة سنغاي، المرجع السابق، ص65.

اهتم سني علي بالجيش اهتماماً خاصاً، فتسابق أبناء السودان الغربي للانخراط فيه، نظراً لمكانته وكثرة الغنائم التي يتحصلون عليها في الغزوات؛ ولذا لم يجد الملك سني علي مشاكل في توفيره. وقد اختار له قواداً من أقاربه الموالين له، وكان على رأسه ابنه أبو بكر داعو، وابن خالته أبو بكر التوري (أسكيا الحاج محمد) كما كان من بين قواده المختار محمد بن نض[1].

أما في عهد أسكيا الحاج محمد، وبعض خلفائه، فقد تطور الجيش، وأصبح أكثر تنظيماً، وثباتاً، واستمر التجنيد الإجباري ساري المفعول، إلى آخر سلاطينهم . واعتبر الأسكيا الحاج محمد القائد الأعلى للجيش، فضلاً عن أنه رئيس السلطة المدنية، فهو رئيس للسلطة العسكرية أيضاً. وقد أوضح الأسكيا محمد الحدود بين الوظيفة المدنية والعسكرية، حينما قال: «. . . وميز الأسكيا الأول الخلق بعدما كان الكل في أيام الخارجي جندياً بين الرعية والجند»[2] وفي حالة الحروب والأخطار التي تمر بها المملكة، كان الحاكم يجمع القواد والمستشارين لأخذ رأيهم، في دفع الخطر، ويقول السعدي في هذا المضمار : «جمع . . . قيادة وكبراء مملكته في المشاورة في الرأي والتدبير»[3].

لقد نظم أسكيا الحاج محمدالجيش تنظيماً جديداً، بأن قسمه لعدة فرق حسب الأسلحة التي كان يستعملها، وهذه الفرق هي:

1- فرقة المشاة :

وهي الفرقة الراجلة، وتعتبر من أقوى الفرق، وأساس الجيش، وتتميز بكثرة عددها وعدتها، وكانت تتقدم الصفوف عن الفرق الأخرى[4].

(1) -أحمد بن بابير الأرواني، الجواهر الحسان في أخبار السودان، مخطوط، ورقة 11.

(2) - عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص 72.

(3) - نفسه، ص139.

(4) - زبادية، مملكة سنغاي، المرجع السابق، ص66.

2 - فرقة الفرسان :

تأتي في المرتبة الثانية في العدد، والترتيب، والأهمية، ويقاتلون على ظهور الخيل، والمهاري، وفي عهد (أسكيا محمد بان) بلغ عددها أربعة آلاف وستمائة فارس[1].

3- فرقة سلاح «الخيالة»

هذه الفرقة صغيرة العدد، وينخرط فيها أفراد الطبقة النبيلة، ويسند إليها أمر المشورة، وتكون قريبة من القيادة[2].

4 - فرقة الطوارق :

اعتمد حكام سنغاي على فرقة خاصة من الطوارق، وهم الذين سيرد الحديث عليهم فيما بعد، من أصلب الأجناس قوة ومهارة في الحروب، ولذلك، اعتمد عليهم في المهام الصعبة. وقد بعثهم أسكيا داوود إلى أراضي المغرب، عندما تعرض لتهديد سلطان مراكش، بقصد إظهار قوة سنغاي[3].

5- فرقة العبيد :

انخرطت طبقة العبيد في الجندية، وكان منهم ضباطاً أكثر ولاء من غيرهم[4].

وقد كانت أسلحة جيش مملكة سنغاي، تتمثل في الرماح، والسيوف، والنبال، والنشاب، والتروس الكبيرة، المصنوعة من جلد الغزال[5].

---

(1) - محمود كعت، المصدر السابق، ص 137 وعبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص120، وزبادية، مملكة سنغاي، المرجع السابق، ص68.

(2) - أحمد بابير الأرواني، الجواهر الحسان في أخبار السودان، ورقة 14 زبادية، مملكة سنغاي، المرجع السابق، ص ص67-68.

(3) - عبد الرحمان السعدي، المصدر السابق، ص109.

(4)- محمد محمد المفتي (مرحبا) التاريخ الخاص بالتواتر، مخطوط، ورقة 106، والشيخ عبد الرحمن عبد الله، المرجع السابق، ص75.

(5) - لامن بن أحمد كنو، تاريخ أقدز، مخطوط، ورقة 11 ، وموسى أحمد السعدي ورقة 10، وعبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص176.

كما كانت من أدوات الحرب السهام المسمومة، والقوس الذي يصنع من جذوع شجر البسباس البري[1]، والقسي المصنوعة من خشب الفنوى البري، تمرق منه سهام مسمومة[2]، إضافة إلى ذلك كان لديهم سلاح الحرشان الصغار، ويستخدمه الملوك، وأبناؤهم كسلاح شخصي،[3] ولديهم سلاح المنجل، فقد قطع (فكومكي) رأس (شاع فرم) وقدمه لأسكيا بنكن[4]، وقد انفرد صاحب مخطوطة تراجم علماء باغرم عن غيره فذكر، بأن هناك نوعاً من السلاح في عهد مملكة سنغاي يعرف (بالسنان)[5] يشبه الرمح، وقد استخدمه أهل السودان الغربي عام 1001هـ/ 1592م، وكان أول المستخدمين، والمصنعين له الشيخ (الوالي ابن الجرمي التاركي)[6]، كما انفرد محمد محمد المفتى مرحبا بإيراد معلومة، مفادها أن من بين أسلحة مملكة سنغاي البنادق[7].

وحسب وجهة نظري. . فإن أهالي سنغاي، لم يعرفوا الأسلحة النارية، إلا بعد مجيء المغاربة إلى هناك، وربما استخدم جيش سنغاي الأسلحة النارية، بعد أن تحصلوا عليها من المغاربة.

كما اعتبر الطبل نوعاً من الأسلحة المهمة والمؤثرة، فهو يمثل الحرب الإعلامية، ومهمته حشد الهمم، وقد استخدم منذ زمن سني علي، واستخدمه شي بار بن سني علي، في حربه مع أسكيا محمد، واستخدمه أسكيا محمد في

---

(1) - مارمول، كرنجال، أفريقيا، المصدر السابق، ج 3 ص203.

(2) - الحسن الوزان، المصدر السابق، ج 2، ص !!

(3) - محمود كعت، المصدر السابق ص 102، وعبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص86 الناصري، الاستقصاء المصدر السابق، ج 5 ، ص122.

(4) - عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص 87 .

(5) - سألت عن هذا النوع من السلاح البدائي عند أهل السودان الغربي، وأفادوني بأن هذا الرمح عادة مايكون قصيراً، طوله حوالي متر أو يزيد، وفي راسه، وعلى جوانبه، تركب فيه رؤوس من الحديد قصيرة، فإذا ما أصاب فريسته فإنه يؤثر فيها.

(6) - مجهول ، تراجم علماء باغرم، مخطوط، ورقة 4.

(7) - محمد محمد مرحبا ، التاريخ الخاص بالتوتر، مخطوط، ورقة 52.

حربه مع شي بار. كما استخدمت الدفوف في حشد الهمم، وما يؤكد ذلك أن مجموعة من فرسان أسكيا إسحاق، استعملت الدفوف في مطاردتهم لبلمع الصادق في منطقة (كيم)[1] .

لقد استخدم جيش سنغاي، في تحركاته فرقة الفرسان، التي تمتطي الخيول المسرجة، والخيل عندهم نوعان : نوع يطلق عليه (برّ)، والثاني (الحمدية)[2].

ويبدو أن لكل نوع من هذه الأنواع خاصية يمتاز بها عن الآخر، فأحدهما سريعا العدو، والآخر يتحمل الثقل.

ومن بين الحيوانات التي استخدمت في القتال، علي الرغم من ثبوت فشلها البقر، وقد دفع أسكيا إسحاق بألف بقرة في وجه جيش جودر، لكي يجعل منها ستاراً بينه وبين خصمه[3] .

أما عن زى الجيش فقد كان الفرسان يرتدون العمائم السود، ويتحزمون على قفاطين سود ويمتطون الجياد، ومنهم من يلبس البرانيس، فأبناء محمد بنكي كانوا يرتدونها[4] .

تقودنا هذه المعلومة، إلى أن هذا اللباس، أخذ عن المغاربة والليبيين، وبذلك كان تأثيرهم قوياً في منطقة السودان الغربي.

أما لباس العمائم السود، فهو شعار العباسيين، فتأثروا بالخلافة العباسية خاصة زمن أسكيا الحاج محمد، الذي توجه أمير مكة خليفته في أرض السودان.

كما يرتدي الجندي المغفر على الرأس، وهي عادة ما تكون من الحديد، مثل الخوذة العسكرية اليوم، إضافة إلى ذلك يلبس الدرع المصنوع من الحديد، ليحميه من ضربات السيوف، وطعنات الرماح[5].

---

(1) - محمود كعت، المصدر السابق ، ص49- 54- 55- 131-138.

(2) - نفسه، ص49.

(3) - محمود كعت، المصدر السابق، ص ص147-148.

(4) - عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص 116.

(5) - مجهول، حديقة البستان على تواريخ أهل أروان، مخطوط، ورقة 15، وعبد الرحمن السعدي، ص ص119-128.

أما لباس القادة، فيختلف عن عامة الجنود والضباط، فكان الزي العسكري لبلمع محمد الصادق بن أسكيا داوود درعاً حديدياً، وهو شعاره وفوقه قميص سوسي أخضر، وشار وسيفاه في عنقه وحزامه في وسطه (وخرجان)[1] يوضع على الرقبة[2].

تنظيم الجيش و تموينه :

كان الجيش مقسماً إلى كتائب عسكرية، وما يؤكد ذلك أن أسكيا إسحاق عند مطاردته لبلمع محمد الصادق ، كانت هناك كتيبة من الطوارق تطارده[3]، كما كان عندهم نظام الراية، وقد بعث (هيكي) علي دادُ إلى كشن سرية زمن أسكيا داوود[4].

أما عن عدد الجيش فيختلف من منطقة لأخرى، فقد كان جيش ملك ونكارة وحده عشرة آلاف من النبالة والمشاة، وستمائة من الفرسان الأجانب، وبهذا الجيش استطاع المحافظة على استقلاله[5].

وكان لهذا الجيش تنظيم داخلي يختلف من منطقة لأخرى، ففي بلدة (سبردُك) كان جيشها له نظام خاص، فملكها له قائدان صاحب اليمين يدعى (سنفرزومع)، وصاحب الشمال يسمى (فرن سُرا)، وتحت إمرة كل واحد منهم عدد من القادة والجيش[6] واعتمد هذا الجيش، على السرية في كل تحركاته؛ حتى لا تتسرب أخبار وجهته، ولكي يباغت خصمه[7]، كما كان قادة الجيش، يرسلون الجواسيس[8] لمعرفة أماكن ضعف العدو، قبل الشروع في الهجوم عليه.

(1) – يصنع من صوف الاغنام ويزركش، وهو عبارة عن فتحتين، يوضع على العنق أو فوق الدابة، يستخدم في حمل الحرشان ونحوهم .
(2) - محمود كعت، المصدر السابق، ص128.
(3) – عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص127.
(4) - عبد الرحمن السعدي ، المصدر السابق ، ص 103.
(5) – مارمول، المصدر السابق، ج2 ، ص209.
(6) – عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص11.
(7) - نفسه، ص107.
(8) – محمود كعت، ص131.

وكان الذي يقوم برسم الخطط السلطان، والقادة، وتوضع الخطة حسب طبيعة المعركة، ففي عهد السلطان أسكيا إسحاق كانت خطته العسكرية التي واجه بها جيش جودر باشا، بأن دفع بألف بقرة باتجاه خصمه، حتى يجعل منهم ستاراً، وحشد ثمانية عشر ألف فارس، ومعه من خيرة قواده (بنكفرم) و(كنفار) و(بلمع)، كما كانت تصحبه فرقة، تتألف من تسعة وتسعين شخصًا تعرف (بالسُونه)، والفرقة لا تغادر موقعها، مهما كانت الظروف، أما إن تهزم العدو أو تنتهي[1].

هذه الفرقة تعرف في التنظيم العسكري اليوم، بالفرقة الانتحارية، ويكون الدخول إليها بالرغبة، ويدخلها من عرف بالشجاعة وقوة الجأش ، والإقدام، أما بخصوص عددها فلم يكن من محض الصدفة حسب وجهة نظري، فقد وضعت على عدد أسماء الله الحسنى، وهذا نوع من التبرك وتأثير الدين الإسلامي عليهم، وقد ورد أن كل فرد من هؤلاء لابد ان يكون على درجة من التقوى[2].

ومن عادة جيش سنغاي عند خروجه للغزو أن تسدى له النصائح من قواده قبل خروجه لساحة المعركة، فعند خروج جيش كرمن فاري بن أسكيا داوود لحرب أهل (جبل دُم) أسدى النصائح للقائد (هك كرى كُرى ياسى)، بأن لايدخل بجيشه في خطر، وأكد عليه بتطبيق الأوامر[3].

ومن خلال هذا النص نلمس بأن سلاطين وقادة جيش سنغاي يحاولون السير على نهج قادة الإسلام العظام، وعلى رأسهم سيد الكائنات سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، عندما كانوا يأمرون بعدم قتل الأطفال والنساء والشيوخ وعدم الإفساد في الأرض.

ومن تنظيمهم العسكري، أن لكل مدينة حارساً لها، يتحسس أماكن الخطر،

(1) - محمود كعت، المصدر السابق، ص ص147 -148.

(2) - الهادي المبروك الدالي، تاريخ أفريقيا فيما وراء الصحراء، من خلال الرواية الشفوية مرقون، تحت الطبع ورقة 70.

(3) - عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص112

وإذا ما شعر بخطر سوف يداهمها. . فإنه يرسل إلى مركز القيادة، يشعره بالأمر، وكان لمدينة تنبكت حارسها أحمد بن عبد الله الودادي، الذي أرسل إلى البكاي يعلمه بالخطر الداهم، الذي سوف تتعرض إليه تنبكت، ويطلب منه المدد، وهذه مقتطفات من الرسالة.

«وأنه من أحمد بن عبد الله الودادي إلى الفارس المبيد والبطل الصنديد السيد سيدي كخالد بن الوليد. بعد السلام التام والتحية والإكرام، موجبه يا سيدي طال تشوق أهل تنبكت إلى أن يأتي من جهتهم، من إغاثة بجيش جرار، يقوده كل بطل كرار، حتى يهشم كل دجال هناك من الطوارق وغيرهم، ويكذبون من تشتيت الدجاجلة خالي اللب، وغيره يقولون لو كان سيدي وجد مراده هناك، لما يترك خبز تنبكت الحار مع عسله ودهنه. . . ولكن هو في الحرب إلى الآن، وأهلك الذين في أزواد، والذين في تنبكت كلهم ينتظرون الفرج من جهتك بدخول جيش في تنبكت، وتسهيل الطرقين في البحر والبر، ولا يشغلك عن هذا شاغل، وهو الأهم أن الله يحب معالي الأمور وأشرفها، ويكره أرذلها وسفاسفها، وأنت جعلك الله مفتاحاً لهذا الأمر ببركة آبائك الكرام، حين فتح الله عليك بفتح تلك الجهة، فوجه همتك إلى هذه الجهة تنفتح ببركتكم، لأنك جعلك الله منصوراً مشكوراً مظفوراً مجبوراً، بعض يرحبك وبعض يرغبك . . . . إلخ»[1].

نستخلص من النص السابق عدة معطيات:

1- الديباجة التي تكتب بها رسائل المدد العسكري، وهي تبدأ بالتبجيل والتفخيم.

2- الأسلوب التي تكتب به، وعادة ما يتخللها السجع: جيش جرار. . . بطل كرار. . . إلخ، وكذلك الخط التي كتبت به الخط المغربي.

---

(1) أحمد بن عبد الله الوداوي، يبعث برسالة إلى البكاي، يذكره بأمر إرسال جيش إلى تنبكت، مخطوط ، المكتبة الوطنية بالجزائر، رقم 660 ، ورقة واحدة .

3 - تعرفنا على أن الطوارق وغيرهم من القبائل، كانوا يثيرون القلاقل، في محاولة منهم السيطرة على تنبكت وأزواد.

4 - تعرفنا الرسالة على مكونات غذاء أهل تنبكت.

5 - أنواع الجيش في منطقة السودان الغربي برى وبحري.

6 - حالة الخوف التي تسيطر على صاحب الرسالة، نتيجة للأوضاع التي تمر بها المدينة، ومحاولة الضغط على البكاي بإرسال جيش، عندما يذكره بأن الله يحب معالي الأمور وأشرفها، ويكره أرذلها وسفاسفها، ويخاطبه لدر العواطف بأن الله جعله مفتاحاً لهذا الأمر ببركة آبائه الكرماء.

7- كما تُبين لنا كيف أن منطقة السودان الغربي متصلة ببعضها، البعض فإذا ما تعرضت منطقة ما لأي خطر، سارت إليها الجيوش من منطقة أخرى لنجدتها.

أما بالنسبة للتموين.. فقد أورد كعت أن مصلحة التموين، كانت معدومة لدى جيش سنغاي، وأن القبائل التي يمر بها الجيش هي التي تتكفل بتزويده بالمؤن.

وعلى الرغم من أن المؤرخ محمود كعت من أبناء منطقة السودان الغربي، ومن معاصرى الفترة التي نكتب عنها، إلا أن الباحث لا يرى تحرجًا من الإدلاء بوجهة نظره وفق المصادر المخطوطة التي سبقت كعت، ووفق كتاب كعت ووفق المنطق العلمي.

يقول مخطوط نبذة من تاريخ جني: إن سني علي حاصر جني فترة من الزمن تصل إلى سنة كاملة، ويورد عبد الرحمان السعدي أنه حاصرها سنة وستة أشهر، وكعت يورد نحو ذلك.

والسؤال المطروح هو:

من الذي كان يمول الجيش؟ هل أهالي مدينة جني المحاصرين، الذين أغلقوا

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية

الأبواب في وجه جيش سني علي؟ أم القبائل التي تزودهم؟ وكيف تمول قبائل جيش جرار، قدرت حمولته بأربعمائة سفينة؟ فالقبائل لا تستطيع تمويل المسافة بين جاو العاصمة، ومدينة تنبكت، والتي تبلغ خمسمائة كم مربع، والتي قطعتها سيارتي في يومين كاملين، لم نر في ثمانين في المائة منها إنساناً، فما بالك بمن يسير على قدميه أو على جواد في جيش جرار؟ فكم يستغرق من الزمن حتى يصل إلى هدفه، بتموين من القبائل التي لم تكن موجودة أصلاً؟

في الحقيقة لابد أن يكون هناك في الجيش جهاز خاص بالتموين، وقد تصاحب الجيش مجموعة من الإبل، تحمل الزاد والماء، وهذا يعتبر من الإستراتيجية العسكرية التي لايغفلها قائد ناجح قط.

كانت البلاد تتمتع بأسطول بحري منذ زمن الملك سني علي، وهو أول من وضع النواة الأولى للأسطول البحري، فشرع في صناعة السفن، وقد استخدمها في حصاره لمدينة جني، حيث طوقها بأربعمائة قارب، وكان يحكمها آنذاك الملك (جنكي كنبر)[1]، وكانت تستخدم السفن والقوارب في نقل الجنود والعتاد الحربي، عبر نهر النيجر، وروافده لمختلف مراكز الجيش[2]، وكانت أغلبية الأسلحة تتمثل في النبال والحراب ؛ وتمتاز سفنهم بطولها، ولكنها ليست عريضة، وأغلب أفراد هذا الأسطول يتكون من العبيد، فهم الذين يقومـون بعملية التجديف، وخدمة الجيش الذي على ظهر السفن[3].

لقد ظل الأسطول دعماً قوياً لقدرات جيش سنغاي الحربية، ويرجع الفضل إلى النظام، الذي اتبعه الأسكيا الحاج محمد بالنسبة إلى تقسيم أسلحة الجيش،

---

(1) - محمود كعت، المصدر السابق، ص50، وأحمد فؤاد بليغ، «عبد الرحمان السعدي، عصره وكتابه» المجلة التاريخية المصرية ، منشورات الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، القاهرة 1973م، ع20 ، ص90.

(2) - عبد الرحمان السعدي، المصدر السابق، ص82.

(3) - محمد محمد المفتي (مرحبا) فتح الحنان المنان بجمع تاريخ بلاد السودان، مخطوط، ورقة 150 وزبادية، مملكة سنغاي، المرجع السابق، ص ص105.70.

وقيام كل قسم باختصاصه على أكمل وجه، حيث كانت هذه الأقسام مكملة لبعضها البعض، وقد أثبت جيش سنغاي، جدارته عند خروجه في الغزوات والحروب، ورجوعه منتصراً مظفراً في أغلبها.

لقب أمير المؤمنين، ودوره فى مخطط أسكيا الحاج محمد التوسعي:

لقد عاد أسكيا الحاج محمد من رحلة الحج متوجاً بلقب أمير المؤمنين، وأعطته هذه الميزة هيبة، ودفعاً قوياً، إلى توسيع رقعة بلاده وتأديب الخارجين على نطاق حكمه، والرفع من ميزانية مملكته، وضمه عدداً من المناطق بالقوة.

وكانت له غزوات، وهي :

1- مدينة كاغ:

دخل الأسكيا محمد في ذي الحجة مكمل السنة بلاد كاغ، بجيشه الذي أعده الإعداد الجيد، وانتصر على خصمه، وفتح الله عليه من أرض كنت إلى البحر المالح [يقصد به المحيط الأطلسي] في الغرب وما جاورهم من أراضي بندك إلى تغاز منجم الملح، والمعدن الإستراتيجي وما جاورها، وقد اتفق موسى بن أحمد السعدي، وعبدالرحمان السعدي على أن أسكيا محمد فتح هذه المناطق، بحد السيف، فقد ذكر موسى بن أحمد السعدي مانصه : «فطوع الجميع بالسيف والقهر»[1].

من خلال النص السابق أستبعد ما قيل في حق أسكيا الحاج محمد، من أنه غزا كاغ، وباقي المناطق المجاورة لها بحد السيف، دون أن يفاوضهم بأن يبعث رسله إليهم، وهذا كلام مردود على أصحابه، فأسكيا الحاج محمد بعث برسله، وهو في أحلك ظروفه بأن أرسل لاشي بار بن سني علي من يفاوضه، وكان آخرهم محمود كعت. فهل يعقل أن يفتح هذه البلدان، دون أن يفاوض أهلها؟ فالحرب آخر ورقة يلعب بها، وهذا من مميزات القائد الناجح، مهما كانت قواته.

(1) - موسى بن أحمد السعدي، مخطوط، ورقة 110.

2- غزوة زنفري :

غزا ملك زنفري، وسيطر على أراضيه، وضمها إلى ممتلكاته[1].

3- خروجه إلي (مملكة الموسي)[2]:

في السنة الرابعة 904هـ/ 1498م خرج أسكيا الحاج محمد ومعه جمعٌ من العلماء من بينهم الفقيه الفا صالح جور، الذي يعتقد فيه إسكيا محمد أيما اعتقاد، وأورد السعدي أن ألفا صالح طلب من أسكيا محمد، ان تكون هذه الغزوة جهاداً في سبيل الله ! . وبذلك عليه أن يطبق كافة أحكام الجهاد، فأذعن أسكيا محمد وأرسله إلى خصمه، وعندما وصل ألفا صالح إلى ملك موسى، وعرض عليه الإسلام، طلب ملك موسى من رسول أسكيا محمد أن يستشير الإله، فأشار عليه الإله بالحرب، وبذلك لم يجد أسكيا الحاج محمد بداًّ من إعلان الحرب على ملك موسى، وانتصر عليه ودانت له بلادهم، وسبا نساءهم ورجالهم، ودخلوا السباية في الإسلام، وكان ذلك في شهر رمضان المبارك[3].

ويستوجب النص السابق طرح السؤال التالي :

- هل يعتبر أمير المؤمنين أسكيا الحاج محمد غزواته، ضد ملك الموسى جهادًا وباقي فتوحاته ليست جهادا؟

لا أعتقد أن ما أورده عبد الرحمان السعدي من أن الفقيه ألفا صالح، طلب من أسكيا الحاج محمد، أن يعتبر غزوه للملك الموسى جهاداً، ويطبق عليه

---

(1) - الحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص174.

(2) - مملكة الموسي مملكة وثنية، تقع على منحنى نهر النيجر، عرفت بقوتها واستراتيجيتها، عاشت في فترة ممالك السودان الغربي غانا ومالي وسنغاي.

(3) - أحمد بابير الأرواني، الجواهر الحسان في أخبار السودان، مخطوط ورقة، ص9، وعبد الرحمن السعدي، المصدر السابق ص74، وعبد الرحمان زكي، تاريخ الدول الإسلامية السودانية ، المرجع السابق، ص139.

أحكام الجهاد، وهذا على ما يبدو مغالطة تاريخية؛ فأسكيا محمد يعتبر كل فتوحاته جهاداً من أجل نشر الإسلام؛ وخاصة بعد عودته من الحج، وحصوله على لقب أمير المؤمنين، وفعلاً نعتبرها جهادا لأن أغلبها ضد الوثنية، التي كانت منتشرة في المنطقة.

غزوه لإقليم مالى :

جرد أمير المؤمنين أسكيا الحاج محمد، جيشاً إلى إقليم مالي، حيث بدأ التدخل من بلده (تندرم) التي تقع على الحدود الشمالية للملكة، وانتصر عليها، وكان ذلك في السنة الخامسة، حيث قتل زعيميها : باغن فاري عثمان، ودنب دنب الفلاني[1].

وفي السنة السادسة غزا بلدة (اير) (ايورد)، وانتصر عليها وفر حاكمها محمد بن تلظ؛ وقد أورد آمن بن بوعتو، الذي انفرد بهذه المعلومة على حد علمي دون غيره: من أن أسكيا الحاج محمد عندما غزا (اير) لأول مرة، كان بها أبو بكر داعو سني علي مع أنصاره، إلا أن جيش أمير المؤمنين أسكيا الحاج محمد، لم يلق أي مقاومة تذكر من أبي بكر داعو وأنصاره، وربما كانوا قليلين جداً، حيث استطاع جيش الأمير أسكيا الحاج محمد اجتياح عاصمة مالي نفسها[2].

وفي هذا الشأن يذهب طرخان إلى أن عاصمة مملكة مالي السابقة، خربت أكثر من مرة[3].

وفي السنة السابعة كون لأخيه عمر جيشاً، وبعثه إلى زلن على أمل فتحها، إلا أن سلطان (كلي) كان على درجة من الاستعداد والقوة فانتصر على عمر، وكاد أن يفني أتباعه؛ فأرسل عمر على الفور إلى أخيه أسكيا الحاج محمد يعلمه بأن النصر كان حليف خصمه، ويطلب منه المدد؛ فجرد أسكيا الحاج محمد

(1) – عبد الرحمان السعدي، المصدر السابق، ص74.

(2) – الحاج آمن بن يوعتو ، جوامع التواريخ مخطوط، ورقة 8

(3) - طرخان، دولة مالي الإسلامية، المرجع السابق، ص117

جيشاً وسار به نحو زلن لمساندة عمر، ونزل بجيشه في بلدة (تنفرن)، ونازل سلطان مالي وانتصر عليه، وفي هذه المعركة كان أمير المؤمنين معه زوجته أم موسى؛ فولدت له في تنفرن موسى ولقب بتنفرن[1].

بعد ذلك تحرك إلى كشنه وزلن، وخربها، ودمر مقر الأسرة الحاكمة وأسرها، وفي هذا الصدد يقول عبد الرحمان السعدي : «بعث أخاه عمر كمزاغ إلى زلن ليقاتل (فتى قلي) قائد سلطانِ مالي، الذي على البلد، فامتنع منه ما نال منه نيلاً فأرسل الخبر للأمير أسكيا . . . فجاء الأمير بنفسه فقاتله وغلبه، وخرب البلد، ورفع دار سلطان ملى وسبا أهله . . . . . فتأخر هنالك حتى أصلح البلد، ووضعه على غير وضعه الأول، ثم رجع»[2].

ونطرح سؤالاً من شقين:

أ - ما الذي دفع أسكيا الحاج محمد إلى تجريد حملة عسكرية لهذه المناطق، التي تدين بالإسلام، منذ أمد بعيد، وهي من ضمن أملاك مملكة مالي الإسلامية سابقاً !؟

ب - ما المغزى من وراء حمل أسكيا الحاج محمد زوجته معه لهذه المعركة، وهي على أبواب الوضع؟.

للإجابة عن الشق الأول من هذا السؤال، نورد الآتي :

إن حركة التوسع الذي اتخذها أسكيا الحاج محمد، تحت ستار الدين في الحقيقة لم يكن الدين هو النقطة الرئيسية فيها، بل كان المخطط السياسي الأهم في هذه العملية. وحاول الأسكيا البحث عن مبرر شرعي لمثل هذه العمليات،

(1) عبد الرحمان السعدي ،المصدر السابق ، ص ص74-75، وحسن أحمد محمود، الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، المرجع السابق، ص227، وعبد الرحمن زكي، الإسلام والمسلمون في غرب أفريقيا، المرجع السابق ص63.

(2) عبد الرحمان السعدي، المصدر السابق، ص75، والحاج آمن بن بوعتر، جوامع التواريخ، مخطوط، ورقة ص2.

ووجد في العالم المغيلي ضالته للمرة الثانية، وهو خير معين له، عندما سأله عن «بعض المسلمين في شرقنا وغربنا سمعوا بي، وطلبو أن يدخلوا تحت طاعتي، فهل لي أن أجيبهم إلى ذلك؟ أو نقف على حكم بلادنا، التي أورثنا الله عن سني علي؟»[1].

فأجابه المغيلي بالإباحة له قائلاً : «ليس من المنكر قتل الظلمة، والمفسدين وأعوانهم، ولو كانوا يصلون ويصومون ويزكون ويحجون فقاتلوهم، ولو قتلوا منكم كثيراً، وقتلتم منهم كثيراً»[2].

لقد سمح المغيلي لنفسه بهذه الفتوى، دون أن يتأكد من ظلمهم وفسادهم أو من صحة دينهم. وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا يسمح المغيلي لنفسه بالإقامة بينهم لمدة تزيد عن سنة؟ بالتأكيد هذه السنة كفيلة للمغيلي، أن يعرفهم تمام المعرفة هل هم على الإسلام أم الكفر! وكيف يعقل أن يسكن عالم على درجة من العلم، والورع والتقوى، بين شعب ضال يحل جهاده ! ويسكت عن ذلك طيلة هذه الفترة، إلى أن يسأله الأسكيا؛ فيجيبه الإجابة التي ترضي الأسكيا؟ ليس هذا بغريب على المغيلي، الذي سخر أمهات أفكاره، وجر قلمه في مزالق واهية، لتحقيق مآرب أسكيا الحاج محمد، عندما أفتى فتوته الأولى، في حق سني علي وأتباعه بقوله : «إن سني علي وجميع أعوانه وأتباعه وأنصاره لاشك، أنهم من أظلم الظالمين الفاسقين، الذين يقطعون ما أمر الله....»[3].

ونسي أو تناسى أن أسكيا الحاج محمد، كان الرجل الثاني في دولة سني علي، إذًا أسكيا كان من ضمن الفاسقين الظالمين.

وليس لي ما أقوله عن المغيلي إلا أنه تحالف بين العلماء، والحكام، من أجل تحقيق مآرب دنيوية.

(1) المغيلي، أسئلة أسقيا وأجوبة المغيلي، المصدر السابق ص 51.

(2) نفسه والصفحة .

(3) المغيلي، أسئلة أسقيا وأجوبة المغيلي، المصدر السابق، ص39

وللإجابة عن الشق الثاني من السؤال السابق، نورد الآتي:

تعتبر هذه المعركة أول هزيمة يقع فيها قادة أسكيا الحاج محمد، أثرت بشكل أو بآخر على نفسيته، ونفسية قادته وجنوده، وحتى يرفع الروح المعنوية ، ويؤكد للقادة أن رياح النصر أكيدة في هذه الجولة، حمل معه زوجته، وهذا نوع من رفع الروح المعنوية؛ وليؤكد لهم أنه لا مفر من الانتصار عليهم، فهم يدافعون عن إعلاء كلمة الله أولاً، وعن نسائهم وأطفالهم ثانيًا.

بعد هذه الجولة القاسية في ساحة المعارك، والذي فقد فيها أسكيا الحاج محمد أنجب رجاله، عاد ليرتب جيوشه من جديد، فمكث من السنة الثامنة وإلى العاشرة على أمل غزو برك .

5- غزوة برك :

في السنة الحادية عشر جهز أسكيا الحاج محمد، الجيش الذي بقي بعده سنتين، وتحرك به صوب بلدة برك، وكان يرى أن فتحها أمر هين، ولكن حدث العكس؛ فوجد أسكيا الحاج محمد أن أرضها ناراً تتلظى تحت أقدامه، وتجرع فيها كأس الهزيمة الذي لم يتجرعه من قبل، ونهبت جارية زاركن بنكي أم موسى بن الأسكيا، ومات خيرة رجالات الأسكيا، وقد تأثر عمر شقيق الأسكيا لهذا الموقف، وعاتبه الأسكيا على الوضع الذي هم فيه، ورد عليه الأسكيا بروح القائد، الذي لا تؤثر فيه الصعاب بقوله: «وهل ترضى أن يعيش معنا هؤلاء[1]»؟ وفعلاً فإن أسكيا محق في كلامه، فبرك كانت على الوثنية، وهي من أرفع القبائل[2].

المهم في آخر المعركة تغيرت المعطيات، وانتصر أسكيا الحاج محمد، بعد أن فقد جزءاً من جيشه[3].

(1) عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص77، ومحمود كعت، المصدر السابق، ص ص69 ـ70.

(2) -مجهول، نبذة من تاريخ جني، مُخطوط، ورقة 1ـ2 .

(3) - عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص77.

نطرح سؤالاً وهو : ماهي أسباب الهزيمة التي مني بها أسكيا الحاج محمد ؟

على الرغم من أن المعطيات كلها تؤكد النصر المؤزر لأسكيا الحاج محمد وقواته، إلا أن أسباب الهزيمة تعود إلى ما يلي :

أـ أن جيشه قبل هذه المعركة كان في فترة إعداد وترتيب.

ب ـ أن بلدة برك ليست بالمدينة الكبيرة، والجيش كثير العدد حتى يتسنى له الوقوف أمام جيش أسكيا الحاج محمد.

ج ـ أهم نقطة في النصر هي أن سكان برك بالكامل تحولوا إلى مقاتلين، وبذلك كان النصر حليفهم، فالشعب المسلح غير قابل للهزيمة والتجويع .

د ـ أن جزءاً كبيراً من جيش أسكيا الحاج محمد كانت تنقصه الروح المعنوية .

هـ ـ عدم تجانس جيشه فهو مزيج من الطوارق، والبنبارة، والفلان، وسنغاي، وبذلك كانت روح الألفة والتفاني في القتال منعدمة .

بعد هذه الغزوة، رجع أسكيا الحاج محمد، إلى العاصمة، وهو منهك القوى مكسور الخاطر، مشتت الأفكار، وأول عمل أقدم عليه هو إعادة بناء قواته، بعد أن فقد أفضل ما عنده من الرجال، وقد استغرق ذلك العمل سنة كاملة.

6 - جيش أسكيا محمد يدخل كلنيوت ملى :

تحرك جيش أسكيا الحاج محمد صوب بلدة ملى، وكان ذلك في السنة الثالثة عشر وانتصر عليها. إلا أن شبح هول الحرب السابقة كان لايزال في مخيلته، فتوقف عن الجهاد من السنة الرابعة عشر حتى نهاية السنة السادسة عشرة، وهي فترة ثلاث سنوات، ويبدو أنه شعر بأن جيشه ما زال يعاني من مشاكل داخلية، وأنه لم يضع النقاط على الحروف بالاستفادة من الأخطاء السابقة .

7 - بلدة باغن فرن:

دخل جيش أسكيا الحاج محمد بلدة باغن فرن، في السنة السابعة عشر بعد

ثلاث سنوات من الراحة، وكان على رأس جيشه (كُرى كي) وعلى فلن وبلمع محمد كرى، يقودهم(فتُ كيتا)، وقد دخلوها سلماً[1].

8 - غزوة لازار :

كان سبب غزو أسكيا الحاج محمد (لازار) أنه خرج من هذه المنطقة من يدعي النبوة، وهو اللعين (تنيض)، فقصده أسكيا الحاج محمد بجيشه في السنة الثامنة عشر (بفوتا)، وقتله في أزار، وكان ابن اللعين خارج البلدة وعندما سمع بمقتل أبيه، فر مع من معه من جنده إلى فوت، وسكن بها[2].

9 - غزوة أقدز :

كانت أقدز تمثل مركزاً حضارياً واقتصادياً، تأسست في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي، وازدادت أهميتها في القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي بأن ارتادها عدد كبير من التجار[3].

وقد جرد إليها أسكيا الحاج محمد جيشاً، ودخلها بمساعدة سلطان ليك (كت)، وقد انتصر عليها، ودانت له، واستفاد من خيراتها، وقد غنم الكثير منها، وكان ذلك في آخر السنة الحادية والعشرين؛ وأورد السعدي أن خلافات حديثنا بين أسكيا الحاج محمد، وسلطان ليك على تقسيم الغنائم أدت إلى حرب بينهما[4].

من خلال استقراء لشخصية أسكيا الحاج محمد، فإني استبعد ما أورده السعدي، على الرغم من أنه من البيئة نفسها، وقريب من الفترة التاريخية التي نتحدث عنها، للاعتبارات الآتية :

---

(1) موسى بن أحمد السعدي، مخطوط ورقة 56، وعبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص77.

(2) نفسه والصفحة، ومحمود كعت، المصدر السابق، ص76.

(3) مجهول. تاريخ أكدز والطوارق ،مخطوط مركز أبحاث النيجر، رقم 1600 ورقة 2، والحضارة الإسلامية في النيجر ، المرجع السابق، ص ص57 -58 .

(4) عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص78.

1 - أن بلدة ليك موقعها قبل مدينة أقدز، بحوالي خمسين كم، وقد زرتها عام 1994، وهي مدينة صغيرة لا تستحق كل هذه الهالة.

2 - أن أسكيا الحاج محمد من الطبيعي أن يكون قد دخلها، ودانت له دون قتال؛ الأمر الذي جعله يطمئن إلى قائدها وجيشه، ويشاركه في دخول أقدز، باعتبارهم يعرفون دروبها، فمن المستبعد أن يتمرد سلطان ليك على أسكيا الحاج محمد.

3 - وإذا ما صدقنا رواية السعدي، فلربما أن سلطان ليك انضم إلى سلطان أقدز، عندما نشبت المعركة بينه وبين أسكيا الحاج محمد؛ باعتبار أن بلدة ليك وأقدز قريبتين من بعضهما، وسكانها من أصل واحد.

10 - غزوة أسكيا الحاج محمد بلدة غوبر:

غزا أسكيا الحاج محمد بلدة غوبر، واستولى عليها، وطرد ملكها، وعين والياً عليها يتبعه، وفرض على سكانها الضرائب، وجلب معه نصف سكانها أسرى، واستخدم بعضهم كعبيد[1].

علاقة مملكة سنغاي بدولة برنو زمن أسكيا الحاج محمد:

عرفت المنطقة الواقعة شرق مضارب ديار الهوسا، وغرب دارفور في السودان الشرقي، تأسيس دولة كانم، برنو منذ حوالي القرن الرابع الهجري التاسع الميلادي، وعرفت في عصرها الأول بدولة كانم، التي بسطت نفوذها على المنطقة الواقعة جنوب كوار، وشمال شرق بحيرة تشاد، وفي القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي، تحول مركز الثقل السياسي غرب بحيرة تشاد؛ أي إلى إقليم برنو، الذي كان يشمل أجزاء كبيرة من شمال نيجيريا الحالية والكمرون، وقد ظهرت مايات، برنو كقوة سياسية يحسب حسابها. وبفضل قوتها العسكرية، استطاعت السيطرة على أجزاء شاسعة من السودان الأوسط [2].

---

(1) الحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص171

(2) مجهول، تذكرة النسيان، مخطوط، مكتبة الباحث بدون تصنيف، ورقة 1ـ2، وعبد الرحمن عبد الله الشيخ، دول الإسلام وحضارته في أفريقيا، المرجع السابق، ص 84ـ 85.

يرجع أصول سكان برنو إلى الهجرات الأولى، التي امتدت ما بين 800 هـ/ 1250م، وكانت الهجرات قوامها العرب المغاربة والزغاوة.

وقد تعاقبت على حكم برنو عدة أسر، كان على رأسها الأسرة السيفية متمثلة في غاز السيفي 877ـ 908هـ / 1472-1502م[1]، والذي سبقه إلى حكم البلاد (علي جاجي) 870 ـ 877 هـ/ 1465 -1472م، ومنهم من يقول إن نهايته كانت سنة 903 هـ/ 1497م[2] والفرق بين التاريخين خمس وعشرون سنة، وهي فترة طويلة، ولكن على ما يبدو أنه تولى في هذه الفترة حكامٌ ضعاف، لم يكن لهم في تاريخ المنطقة دورٌ بارزٌ.

المهم تمكن علي جاجي من توطيد أركان حكمه، إداريًّا وعسكريًّا، بأن فرض الضرائب على جل إمارات الهوسا الشرقية بما فيها كان؛ الأمر الذي ترتب عنه دخول دولة برنو في مواجهة مباشرة مع سنغاي بقيادة الأسكيا الحاج محمد. وقد كان ذلك مع أواخر القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي حتى بداية العاشر الهجري السادس عشر الميلادي، وكان المحرك لهذا التنافس الزعامة الروحية في منطقتي السودان الغربي والأوسط، وكذلك محاولة أسكيا السيطرة على الطرق المؤدية للشرق، وإحلال سنغاي مكانة إمبراطورية البرنو الروحية في القاهرة، والسيطرة على الثروة الحيوانية والزراعية[3]، وهناك رأيان حول حدوث حروب بين الدولتين من عدمها:

فالرأي الأول يقول إنه على رغم من التحرشات بين الجانبين، إلا أنها لم تصل إلى درجة الصدام المسلح، ومرد ذلك راجع إلى الظروف التي يمر بها كل

(1) الشيخ عبد القادر الجكني، سلاطين برنو، مخطوط، مكتبة جبريل دكوري بتنبكت، دون تصنيف، ورقة 8 ـ 9 ومجهول، تذكرة النسيان، مخطوط، رقم 7.

(2) نفسه ، ورقة 4. Trimingham J .S ; Op, cit. P 93.

(3) - القلقشندي، المصدر السابق، ج8 ص117، ج5، ص281، وطرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية المرجع السابق ص167، وعبد الكريم كريم، المغرب في عهد الدولة السعدية، الرباط: شركة الطبع والنشر، 1977، ص147.

من الطرفين، فسلطان برنو إدريس كات جادما ب 909-933هـ/ 1503-1526م كان قد دخل في حروب متواصلة مع قبائل (البولا) في كانم. وبذلك رأى الأجدى به عدم تشتيت جهوده الحربية، بالدخول في حروب مع الأسكيا الحاج محمد في الغرب.

أما أسكيا الحاج محمد. . فرأى عدم الدخول في حرب، والإقلاع عن التفكير في السيطرة على إمارات الهوسا، نظراً لحدوث هزائم لجيشه في معارك سابقة[1] والرأي الثاني ما أورده صاحب مخطوط جوامع التواريخ، من أن حروباً حدثت بين أسكيا الحاج محمد وحكام برنو المعاصرين له، وقد استطاع الأسكيا تحقيق نجاحات باهرة، بالوصول إلى أعماق دولة برنو، حتى أجبر بعض حكامها على مقارعته من داخل حصون مدنها[2].

وأمام هذه الآراء. . فإني أستبعد الرأي الأول، ونلمس أن مبرراته لعدم وقوع الحرب ضعيفة. ونميل إلى الرأي الثاني، وذلك للأسباب الآتية :

1 - إن الذي أورد هذه المعلومة صاحب مخطوطة قديمة، ومن أبناء المنطقة، وقريب من الفترة التي نتحدث عنها، بالإضافة إلى أنها مخطوطة مغمورة، لم تصل إليها أيدي الباحثين على حد علمي .

2 - من المنطق ـ وطالما الهدف الهيمنة الروحية والاقتصادية ـ أن تكون أداة حسم الأمر لصالح أحد الطرفين هي الحرب، فلا تقدم الأماني على طبق من ذهب.

3 - عرف عن أسكيا الحاج محمد أطماعه في السيطرة علي أكبر قدر ممكن من الأراضي، وحتى وإن كان الطرف المقابل له على دين الإسلام.

(1) Trimingham J . S ; OP Cit ; P 99 - 122 .

(2) مجهول، جوامع التواريخ، مخطوط، مكتبة أحمد سالم الشود بتنبكت، دون تصنيف ، ورقة 7 ـ 8 ، والقلقشندي، المصدر السابق، ج5 ، ص 281.

إقصاء أسكيا الحاج محمد من حكم البلاد وتولي أساكي من بعده:

على الرغم من هذا المجد الشامخ، الذي بناه أسكيا الحاج محمد، على أكتاف رجال مملكة سنغاي، إلا أن نهايته كانت جد مؤثرة، بإقصائه من الحكم على يد ابنه الأكبر موسى بطريقة، تنم عن انحطاط في سلوكيات أسرة الأسكيا، بأن اجتاح يوم عيد الأضحى مجلس والده، وهو يستعد لصلاة العيد، وأجبره على التنازل عن الحكم قبل الصلاة، وأقسم ألا يصلي أحد حتى يتولى الحكم، فتنازل له والده عن الحكم[1]. وقد كانت أول خطوات حكم أسكيا موسى، نفي والده إلى جزيرة نائية مليئة بالأوساخ من ناموس وضفادع ! بعد أن قضى فترة من الزمن يحكم مملكة سنغاي[2].

وقد اختلف المؤرخون في السنوات التي قضاها، فكعت يذكر أنه مكث تسعاً وثلاثين سنة، وفي رواية أخرى ثلاثاً وأربعين[3].

أما السعدي.. فقد ذكر أن مدة حكمه، ست وثلاثون سنة وستة أشهر[4]، ولكن على الرغم من هذا الاختلاف، الذي يترواح بين السنة والنصف، والثلاث سنوات والنصف، فإن ذلك - في نظري - لايشكل عبئًا في حياة مملكة مثل سنغاي، التي بقيت أزيد من ثلاثمائة سنة تناطح الزمن، ويظل سؤال مهم يطرح نفسه هو :

لماذا اختار أسكيا موسى المكان وهذا اليوم بالذات لانتزاع الحكم؟ ولماذا لم يختر مكاناً وزماناً آخر ؟وما أسباب تنازل والده له بهذه السهولة؟ ومالسر من نفيه له بهذه السرعة وفي مكان قذر؟

---

(1) أحمد بابير الأرواني ، الجواهر الحسان في أخبار السودان، مخطوط ورقة 17.

(2) عبد الرحمن السعدي ، المصدر السابق، ص89.

(3) محمود كعت، المصدر السابق، ص 78.

(4) عبد الرحمن السعدي ، المصدر السابق ، ص 81.

للإجابة عن هذه التساؤلات نورد الآتي :

1 - إن التخطيط للعملية الانقلابية كان على مايبدو منذ مدة، وأن الخلاف بينهم كان مستفحلاً.

2 - اختيار المكان والزمان، مرتب له ترتيباً جيداً، فوالده وأتباعه في المسجد، وبذلك فهم عزل من السلاح، وأتباع أسكيا موسى كانوا محاصرين للمكان، وإذا ماشعر بأي حركة من قبل أتباع والده، فإنه يستطيع القضاء عليهم، وبالتأكيد كانت هذه المعلومة بحوزة أسكيا الحاج محمد، والفائدة الأخرى التي يجنيها من المكان سرعة البيعة له، لأن البيعة تتم في المكان نفسه، وحتى لايكون فيه أخذ ورد حول البيعة.

ولماذا لم يختر مكانًا وزماناً آخر لتنفيذ العملية؟ لأن أتباع أسكيا الحاج محمد، ليس من السهولة أن يسلّموا بهذه السرعة، إلا بعد مقاومة عنيفة قد يخسر فيها أسكيا موسى مابناه، لأن أسكيا الحاج محمد خليفة، والخليفة أمره مطاع، أما الأسباب التي جعلت الأسكيا محمد يرضخ بسرعة لمطالب ابنه.. فإنها راجعة إلى الآتي :

أ) حقن الدمـاء .

ب) يعتبر الأسكيا محمد أن الذي استولى على الحكم ابنه الأكبر، فلا يعتبر أن السلطة خرجت من آل أسكيا، بل باقية فيهم فالحدث ليس بالصعب على نفسيته.

جـ) وضعه الصحي الذي أفاد به عدد من المؤرخين، من أنه كان فاقداً لبصره مدة عشر سنوات، لايعلم به أحد إلا خاصته، أما أبناؤه فليس لديهم أي علم بذلك[1]! وكان ذلك سببًا من أسباب التنازل. ومن وجهة نظري أستبعد هذه المعلومة لسبب واحد، وهو أنه لايعقل أن يكون أبناء الأسكيا المقربين منه لايعلمون أن والدهم فاقد لبصره، طيلة هذه الفترة، ألا يأكلون ويشربون معه؟ هل هو في برج عاجي ؟

(1) - الحاج أمن بن بوعتو، جوامع التواريخ ، مخطوط، ورقة 10.

أما الإجابة عن الفقرة الأخيرة من السؤال، من نفيه بهذه السرعة وفي مكان قذر: فهو خوفاً من أن أتباعه وخاصته يرتبون صفوفهم من جديد، وينقضون على حكم أسكيا موسى، وهو مازال في بدايته، وخاصة أن إخوته قد ثاروا عليه من جراء هذه الحركة. أما نفيه في مكان قذر، فلا نجد له تفسيراً إلا أن سلطان الكرسي ينسي عدداً من أصحابه أقل أسباب الإنسانية، والدليل على ذلك أن المنفي والده فحتى الرابطة الأبوية انطمست من قلبه.

(أسكيا موسى 934-937هـ/1528-1531م).

بدأ أسكيا موسى فترته القصيرة، التي لاتزيد عن أربع سنوات، بالصراع المدمر بينه وبين أخوته، وأعمامه[1]، فناصبوه العداء، وقد جرت بينهم معارك طاحنة حاول فيها بعض العلماء أمثال الشيخ أبو البركات التدخل، لجمع الشمل، إلا أن الجرح كان أكبر من أن يلتئم، وخاصة إصرار أسكيا موسى على التعنت المفرط، واللجوء للحرب، وهوالحل النهائي في نظره. ومما يبرهن على ذلك عبارته التي قالها للشيخ أبي البركات : «امهل واصبر حتى يحترقوا بالشمس»[2]، وهي تنم عن الروح العدوانية، وأن طبول الحرب هي الفيصل في ذلك.

لقد دارت بينه وبين اخوته معارك مدمرة، قتل فيها خلق كثير من الطرفين، المنتصر فيها مهزوم، أدت إلى قتله على يد أخيه علي برمح قتله في الحين، ببلدة (منصور) إحدى مقاطعات مدينة جني، وكان ذلك يوم الأربعاء الرابع والعشرين من شعبان عام السابع والثلاثين وتسعمائة 937 هـ/ 1531م[3]، وهكذا انتهت فترته المؤلمة، والتي لم يستطع خلالها تحقيق أي مكسب لمملكته، وتولى بعده أسكيا محمد بنكن (أسكيا محمد الثاني).

---

(1) عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص 88.

(2) المصدر نفسه .

(3) أحمد بابيرُ الأرواني، الجواهر الحسان في أخبار السودان، مخطوط ورقة 17، محمود كعت، المصدر السابق، ص 83.

والسؤال المطروح :

هل كان موقف أبناء أسكيا الحاج محمد وأبناء أخيه موقفاً عدائياً لأسكيا موسى، بسبب مالحق بأسكيا محمد ؟ أم من أجل السلطة؟

هذا ماسنجيب عنه فيما بعد.

أسكيا محمد الثاني ـ محمد بنكن بن عمر كمزاغ (937 - 944هـ) (1531-1537م) نصب جيش سنغاي الأسكيا محمد الثاني بمدينة المنصور بعد موت أسكيا موسى مباشرة، وقد احتج قاتله على هذا التنصيب، والذي رأى فيه سرقة لحق شرعي سرق منه، إلا أن الأمور سارت كما أراد الجيش[1].

والسؤال المطروح :

ولكن لماذا لم ينصبه الجيش، علي الرغم من أنه هو الذي قضى على الأسكيا موسى ؟.

أولا : على مايدو لم يكن له أنصار في الجيش :

ثانيا : شخصيته لم تكن في نظر الجيش قيادية، بل كانت شخصية اندفاعية «تشحن وتفرغ شحنتها، وتنتهي عند هذا الحد، ولذلك لايصلح أن يكون ملكاً».

قضى أسكيا محمد الثاني جزءاً من فترة حكمه، التي دامت ست سنوات في هدوء، بعد أن تغلب على المصاعب التي أثارها أخوه في وجهه، واستمالته لإسماعيل الذي كان يثير القلاقل ضده، وتعاهد الاثنان على المصحف وزوجه ابنته (فب)[2]، وعلى الرغم من جهوده الخيرة في تهدئة الأوضاع، باستمالة خصومه، إلا أنه كانت له ممارسات تنم عن الرعونة والانحطاط الخلقي، يندى

(1) عبد الرحمن السعدي ، المصدر السابق، ص91 ، وزباديه، مملكة سنغاي، المرجع السابق ، ص 42 ، والشيخ الأمين عوض الله ، المرجع السابق ، ص ص73 - 74.

(2) - محمد محمد المفتي ، التاريخ الخاص بالتواتر، وعبد الرحمن عبد الله الشيخ ، دول الإسلام وحضارته في أفريقيا، المرجع السابق، ص 7.

لها الجبين بإحضاره بنات عمه أسكيا الحاج محمد عاريات، كاشفات رؤوسهن في مجلسه، وإجبارهم على ترديد عبارة « يان مار فرخ نعامة واحد خير من مائة فروخ دجاجة»[1]، وتعني العبارة بأن أسكيا محمد الثاني الابن الوحيد استطاع اعتلاء عرش سنغاي، وهو بمثابة ابن النعامة؛ لأن النعامة تخرج مايزيد عن عشرين كتكوتا كلها أقوياء، أما أبناء عمه مثل أفراخ الدجاجة ضعاف.

قام بأمر السلطنة، وفق الظروف المتاحة، على الرغم من قصر مدته، بأن حاول تنشيط الحركة الفنية بجلبه آلات الطرب، وأكثر من العطايا والمنح، وغزا بنفسه كنت إلا أنه هزم أمامها، وفر عسكره يجر أذيال الخيبة والهزيمة، وتبعوه حتى وقع في (خضخاض)[2]، وقد تفرق جيشه، وبعد ذلك استطاع إعداده، وقد تخوف أسكيا محمد الثاني من أن يصل خبر هزيمته إلى تنبكت، فجهز جيشاً وواصل مسيرته إلى كاغ، ثم غزا (كُرمُ) التي كانت على الكفر، وكان يقودها (جابير) واستطاع أسكيا محمد الثاني الانتصار عليهم وتشتيت شملهم. ثم اتجه الى بلدة منصور غازياً في شهر شوال أحد شهور العام الثالث والأربعين، وبعث أسكيا محمد الثاني بعيونه للاستطلاع، إلا أن أسكيا إسماعيل كان قد دبر له محاولة انقلابية، فقبض على عيونه، وكبلهم بالحديد، وأرسل له أمر العزل[3].

- هل اتجه أسكيا محمد الثاني إلى مدينة المنصور غازياً فعلاً !

ومن يغزو إذا كانت هي على الإسلام، وهي المدينة التي نصب فيها ليكون ملكاً على سنغاي؟

- في الحقيقة لم يكن غازياً، وإنما كان رادعاً لخصومه، فعندما شعر بمخطط لمحاولة قلب نظام حكمه، بادر إلى مباغتة خصومه للقضاء عليهم.

(1) عبد الرحمن السعدي، المرجع السابق، ص 87.

(2) منطقة بين تنبكت وليرة، والخضخاض تعني عند أهل السودان الغربي الأرض التي رمالها ناعمة، تغوص فيها حوافر الخيل والإبل .

(3) عبد الرحمن السعدي ، المصدر السابق، ص ص 89 - 90 .

وقد أورد عبد الرحمن السعدي أن أسكيا محمد الثاني، بقى مطارداً من طرف ابن عمه بأن فر إلى تنبكت، ومنها إلى تندرم، ثم إلى إقليم ملى، ثم إقليم تام، وسكن فيها بأسرته إلى أن توفي، وكان طرده في أول يوم من ذي الحجة عام ثلاث وأربعين وتسعمائة 943 هـ/ 1536م[1]. وأورد السعدي أنه توفي في فترة حكم أسكيا داوود، وكانت وفاته بعد العام تسعمائة وست وستين 966 هـ/ 1558م، فعندما أصبح أسكيا داوود في مقابلة بلد سام، أصدر أمره الى جميع أرباب آلات الطرب، أن يسلموا على أسكيا محمد بنكن بالعزف علـى الآلات، وعندمـا سمع الأصوات مات[2].

أسكيا إسماعيل (- 943 946هـ/ 1537 - 1539م).

على إثر الانقلاب الذي قام به القائد (دند فاري) على أسكيا محمد الثاني، تولى عرش المملكة أسكيا إسماعيل[3]. وعلى مايبدو كان هناك اتفاق مسبق بين إسماعيل ودند فاري، وهو الذي جهز له الجيش بالأموال، التي منحها إياه والده أسكيا الحاج محمد. وقد قضى في السلطنة سنتين، أمضى نصفهما في مطاردة أسكيا محمد الثاني[4].

والسؤال المطروح؟

لماذا هذا التآمر من أسكيا إسماعيل، وهو الذي عاهده أسكيا محمد الثاني على المصحف بأن لايتآمر عليه ؟ ولماذا لم يتول القائد دند فاري، وهو الذي قام بالمحاولة الانقلابية ؟

ـ كان سبب التآمر يرتكز على ثلاث نقاط:

أ ـ محاولة إنقاذ والده من السجن الذي أنهك قواه.

---

(1) - عبد الرحمن السعدى، المصدر السابق، ص 90 - 91، وعبد الرحمن عبد الله الشيخ، المرجع السابق ،ص 71.

(2) - عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق ، ص ص 104 - 105.

(3) - نفسه ، ص 91.

(4) - نفسه ، ص 93 .

ب - رجوع شقيقاته الى الحجاب، بعد تعرضهن للإهانة من أسكيا محمد الثاني، بإجبارهن على الحضور إلى مجلسه عاريات كاشفات رؤوسهن.

جـ - شعورُ أسكيا محمد أن ابن عمه سرق من أبناء أسكيا الحاج محمد السلطة، وبذلك أرجعها إلى بيتهم، بتوليه أمر البلاد دونها الموت.

على الرغم من قصر مدة أسكيا إسماعيل في السلطنة ، إلا أن أول أعماله كان إخراج والده من السجن، وتجريده حملة عسكرية ضد أحد أمراء الوثنيين في الجنوب الغربي من البلاد، بأن سبى منهم أعدادًا هائلة، الأمر الذي ترتب عليه انخفاض ثمن العبيد في سوق جاو[1].

انتشر مرض الطاعون في البلاد، وفتك بحياة الكثير من الأهالي[2]. وقد توفي والده في السنة التي خرج فيها من السجن، ليلة الفطر عام أربعة وأربعين وتسعمائة 944هـ 1537م[3]، وربما مات بمرض الطاعون.

وبعد وفاة أسكيا إسماعيل متأثراً بمرض الطاعون، أثناء غزوه للوثنية[4]، حدث اختلاف بسيط في تاريخ وفاته، فكعت يورد أنه توفي يوم الثلاثاء رابع شعبان سنة ستة وأربعين وتسعمائة 946 هـ، بعد أن مكث في السلطنة سنتين وسبعة أشهر وأربع ليال[5].

أما السعدي فيقول : إنه توفي يوم الأربعاء من شهر رجب في العام السادس والأربعين وتسعمائة 946 هـ، ومكث في السلطنة سنتين وتسعة أشهر[6].

---

(1) محمود كعت المصدر السابق، ص 87، وعبد الرحمن السعدي المصدر السابق، ص 94 وزباديه، مملكة سنغاي، المرجع السابق، ص 43 .

(2) موسى بن أحمد السعدي، مخطوط ورقة 79، وزبادية مملكة سنغاي ، المرجع السابق ص 43.

(3) - محمود كعت، المصدر السابق، ص 87.

(4) - عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص 95، نفسه، ص 43.

(5) - محمود كعت، المصدر السابق، ص 87.

(6) – عبد الرحمن السعدي ، المصدر السابق، ص 95.

وهذا الاختلاف لايمثل أهمية ، وأوردته من باب التدقيق... المهم رجع جيش أسكيا إسماعيل بعد موته من حرب أحد أمراء الوثنية في الجنوب الغربي للبلاد؛ لينصب ملكًا جديدًا على البلاد، هو أسكيا إسحاق الأول.

ولنا أن نتساءل :

لماذا جل ملوك سنغاي ابتداءً من أسكيا موسى وإلى أسكيا إسماعيل كانوا ضعافاً ؟

لأن الجيش هو السلطة الوحيدة التي تملك أحقية تنصيب ملوك المملكة، وبذلك كان قادة الجيش هم المسيرين الفعليين لدفة الحكم بروح عسكرية محدودة الأفق، والملك يملك ولايحكم، ومن هنا ندرك سر فشل جل الملوك في بناء المملكة، وقصر مدة حكمهم، ونستنتج ذلك من تصرف أسكيا إسحاق تجاه الجيش في العرض القادم.

أسكيا إسحاق وصراعاته مع خصومه وغزواته 946-956 / 1539- 1549م:

هو أسكيا بن الحاج محمد، لقب بإسحاق كربن وكدبن، بمعنى الحجر الأسود في اصطلاح وعكري، وربما راجع ذلك إما إلى شدة سواده أو قوته.

تولى أمر السلطنة بعد موت أسكيا إسماعيل يوم الأحد سادس شعبان سنة ست وأربعين وتسعمائة 946 هـ/ 1539م، وكان تنصيبه على يد الجيش الذي أدرك خطورته، فقام باستبدال قادة الجيش تدريجياً، واستبدلهم بقادة يخضعون له، عرف عنه الصلاح والهيبة والقوة، كان كثير الصدقات على الفقراء والمحتاجين، مواظباً على الصلوات، وصلاة الجماعة، عاقلاً، ذا فطنة ودهاء. ومن مآثره التي تحكى عنه أنه ذات ليلة في صلاة العشاء، خرج للمسجد، وكانت ليلة ممطرة فسبق المؤذن والإمام، وجلس في ركن من أركان المسجد فحضر المؤذن والإمام، ومكث الإمام ينتظره فخاطبه المؤذن، إذا كنت تنتظر أسكيا إسحاق فإنه لايخرج من مرقده في هذه الليلة، وفي هذا الجو فإنه على

سريره المكسو بأنواع الحرير. فأجابه أسكيا إذا كنتم تنتظرونني فها أنا موجود قبلكم، قوموا إلى صلاتكم(1).

وهذه الحادثة تترجم لنا التقوى التي كان عليها أسكيا إسحاق، وعلى تواضعه في ملبسه ومجلسه، حتى أن المؤذن لم ينتبه لمقدمه.

ومن مآثره : أنه عندما مر على مدينة جني، وهو في طريقه إلى مدينة (تعب)، طلب من المترجم أن يجمع كافة الناس عامتهم وخاصتهم، وطلب منه أن ينادي فيهم أن السلطان ماأتى إلا لإصلاح حال الرعية، وأن يعلموه بمن يفسد في المسلمين، وبمن يظلم الناس في هذه البلدة، وسكت الجميع، ونهض من بين الحاضرين الفقيه القاضي محمود بن أبي بكر بغيغ، الذي سيرد الحديث عنه فيما بعد ـ وخاطب أسكيا إسحاق بقوله «وهل ماتقوله حقاً، فقال: والله لحق، فقال: إن أعلمناك بذلك الظالم ماذا تفعل له؟ قال: أفعل له مايستحق من ضرب وقتل... إلخ»، فأجابه الفقيه ماعرفنا أظلم منك، أنت أبو كل ظالم، فإن كنت تقتل الظالم فأبدأ بنفسك يرحمك الله، وهذا المال الذي يجلبه إليك من هنا وهناك، وتثري على حساب الآخرين. وعندما أكمل الفقيه حديثه بكى أسكيا إسحاق بكاءً شديداً، ورجع إلى بيته وتاب من فعلته، وأجبر الفقيه محمود بغيغ على تولي قضاء جني، على الرغم من رفض الأخير تولي هذا المنصب(2).

وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على تواضع أسكيا إسحاق واحترامه للعلماء، حتى ولو كان في ذلك مايمسه شخصيّاً، وإيمان الرجل، وحرية الرأي. وتذكرنا هذه الحادثة بالفاروق، عمر بن الخطاب، وقصته المشهورة، عندما كان يقسم في الغنائم.

وفي المقابل كان حازماً مع خصومه، ينفق بسخاء من أجل التخلص منهم،

(1) عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص 95، ومحمود كعت، المصدر السابق، ص 88، والشيخ الأمين عوض الله، المرجع السابق، ص75 .

(2) محمود كعت ، المصدر السابق ، ص 90.

وقد منح الزغراني ثلاثين بقرة لم تلد من أجل قتل (كرمن فاري عثمان) في بلدة بير، ثم قتل الزغراني فيما بعد[1].

وهذه الحادثة تنم عن الدهاء، فبموت الزغراني يموت معه سر المؤامرة، وقد حدثت في عهده صراعات دموية، بينه وبين بلمع محمد الصادق ألد خصومه، وقد أرسل أسكيا إسحاق برسالة إلى أهالي تنبكت يخبرهم باعتلائه عرش سنغاي، إلا أن بلمع أمر أهل تنبكت بالقبض على رسله، وأوهمهم بلمع بأنه الملك الفعلي لسنغاي، وقد استبشر أهالي تنبكت وكبار رجالها خيراً، بتولي بلمع، وقد عبروا عن هذه البهجة بالصعود إلى سطوح المنازل وضرب الطبول، إلا أن الرياح تجري بمالا تشتهي السفن، فما هو إلا أسبوع حتى استطاع أسكيا إسحاق التربع على عرش المملكة، وبذلك انتهت أوهام بلمع[2]. وأمام الأخطار المحدقة بأسكيا إسحاق، أشار عليه مستشاره أن يستميل خصومه إلى جانبه، وخاصة (عمر كت بن محمد بنكن) ومحمد بن أسكيا الحاج، فأرسل في البداية إلى عمر، وقد حضر إليه ولاطفه الحديث وقدم له الهدايا، فرفع الأخير التراب عن رأسه، إعلاناً بتقديم فروض الولاء والطاعة، وهو الذي تولى فيما بعد مقارعة خصوم أسكيا إسحاق. كما كسب ود محمد بن أسكيا الحاج بأن لاطفه وقدم له الهدايا، ووعده بتوليه مناصب رفيعة، إضافة الى ذلك كسب ود قبائل الطوارق التي عرفت بقوتها[3].

بعد ترتيب أسكيا إسحاق لأوراقه مع خصومه، واستمالتهم له، وجه جلَّ اهتمامه لمقارعة خصمه العنيد بلمع محمد الصادق.

وقد قاد الصراع الذي خاضه أسكيا إسحاق ضد خصمه القائد عمر كت الذي بعث الحماس في الأهالي بخطبة حماسية.. رفع فيها الروح المعنوية، وشحن قلوب الناس ضد بلمع وجهز جيشاً، كان أغلبه من الطوارق الذين شبههم

(1) - عبد الرحمن السعدي ، المصدر السابق، ص 96.

(2) - نفسه ، ص 125.

(3) - عبد الرحمن السعدي ، المصدر السابق ، ص 127.

السعدي لكثرتهم بأسراب جراد، وانقضوا على جيش بلمع، الذي نزل في (كنب كُري) (وبنبت قباءه)، كان ذلك يوم الجمعة الثامن عشر من جمادى الأول وكانت معركة حامية الوطيس، أبلى فيها القائد عمركت بلاءً حسنًا، واستطاع أن يكسر جيش خصمه، ويشتت فلوله ويتابعه إلى تنبكت، وأهل تنبكت لاعلم لهم بخبر الهزيمة، إلى أن أخبرهم بلمع بما جرى له، وقد قبض على أنصار بلمع، فمنهم من قتله أسكيا إسحاق بطريقة وحشية مثل (هنبركي) الذي وضعه في (طين قوي التماسك)[1] وخيط عليه جلد بقرة ودفنه حيا، ومنهم من سجنه مثل (ازوفرم بكر)، ومنهم من ضربه بالسياط حتى الموت[2]، إلى آخر أنواع التعذيب، وهذا يبرهن على حالة الفزع والهلع، التي كان يعيشها أسكيا إسحاق وأتباعه وصعوبة الموقف وقوة خصومه.

بعد أن استتبت له الأمور، حاول الالتفات إلى تنظيم المملكة المترامية الأطراف، فاتخذ سياسة استمالة أقاربه، فولى محمود بن اسماعيل على بلدة كرمن وجعله (كرمن فاري)[3]، وعين أخاه، محمد كاغ على مقاطعة، وأرسل عدداً من أصدقائه بعدد من الجمال الممتازة إلى تنبكت[4]، ويقصد من ذلك أن يبين لأهل تنبكت الذين ناصروا بلمع قوته، وهيبته، وثراءه، وبذلك تعتبر مناورة سياسية.

وكانت لأسكيا إسحاق عدة غزوات، يهدف من ورائها إلى تأديب الخارجين على نطاق حكمه، ونشر الإسلام، ففي السنة الثامنة والأربعين وتسعمائة 948 هـ/ 1541م دخل(كبر)، وصلى عيد الأضحى فيها.

كما غزا في السنة التاسعة والأربعين وتسعمائة 949 هـ/ 1542م المناطق

(1) ـ توجد مقاطع لهذا الطين الي الجنوب من مدينة جاو، وفي مدينة طاوة، وهو شديد التماسك، يستخدمه الأهالي إلى اليوم في صناعة خزنات الحبوب.

(2) ـ عبد الرحمن السعدي ، المصدر السابق ، ص 128 - 129.

(3) ـ بمعني الحاكم المطلق .

(4) - عبد الرحمن السعدي ، المصدر السابق، ص 131.

التي في اتجاه (تعب) إلى أن وصلها، وهي آخر بلدان سلاطين (بُندكُ)، وفي رجوعه عرج على مدينة جني، وصلى بهالجمعة، ثم توجه إلى كاغ، وقد تعرض إلى محاولة اغتيال من طرف (فرن علي كشر) في ميناء كبر، إلا أن البحارة دفعوا المهاجم في النهر، وبذلك نجا أسكيا إسحاق من الموت[1].

وتدلنا هذه الحادثة على حنكة وفطنة أسكيا إسحاق، والتفاف أتباعه حوله، حيث أنهم لم يؤازروا الخائن.

ولنرجع إلى غزواته، فقد واصل تحركه بأن ترك أخاه (داوود كرمن فاري)، ومكث ثماني سنوات، وفي عام واحد وخمسين وتسعمائة 951هـ/ 1544م اتجه الى (كُكُركاب) وهو موضع بأرض دند، وفي العام الثاني والخمسين وتسعمائة 952 هـ/ 1545م بعث أخاه كرمن فاري داوود إلى ملّى، وعندما سمع سلطانها فر خوفاً من بطش كرمن[2].

وفي سنة ثماني وتسعين وتسعمائة 998هـ/ 1589م واصل غزوه لتنفن، وهم قوم على الكفر يعرفون بكفار كرم، وفي العام التاسع والتسعين وتسعمائة 999هـ/ 1590م غزا (كل) إلا أن مخططه التأديبي والتوسعي في منطقة السودان الغربي أثارت عليه تهديدات سلطان مراكش، الذي طلب منه تسليم ملاحة تغاز[3]، والذي سيرد الحديث عن هذا في فقرة الحضور- المغربي في السودان الغربي.

أما عن نهايته، فقد أورد كعت بأن أسكيا إسحاق توفي أول العام السادس والخمسين والتسعمائة 956هـ/ 1544م، ومكث في السلطنة تسعة سنين وتسع أشهر وتسع ليال في بلد كُيكى[4].

---

(1) عبد الرحمن السعدي ، المصدر السابق، ص 97.

(2) نفسه ، ص 99.

(3) محمد محمود الأرواني، الترجمان في تاريخ الصحراء وأروان، مخطوط، مركز أحمد التنبكتي، رقم 1921، مخطوط ورقة 20، وعبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص 132.

(4) محمود كعت، المصدر السابق ، ص 93.

أما السعدي فقد أفاد أنه مات يوم السبت الرابع والعشرين من صفر، سنة ست وخمسين وتسعمائة 956 هـ/ 1544م، ومكث في الحكم تسع سنين وستة أشهر[1].

إذًا فقد مكث أسكيا إسحاق في السلطنة مايقارب عشر سنوات، كانت جلها كراً وفراً.

أسكيا داوود بن أسكيا الحاج محمد وغزوته :

اختلف المؤرخون في تاريخ تولى أسكيا داوود أمر السلطنة، فقد أورد كعت بأنه تولى في الثاني والعشرين من صفر، عام خمسة وخمسين وتسعمائة 955هـ / 1548م ، ومكت في الحكم أربعًا وثلاثين سنة وأربعة أشهر[2]. وذكر عبد الرحمن السعدي بأنه تولى أمر سنغاي، يوم الجمعة الثالث والعشرين من صفر ببلدة كوكيا، ورجع إلى كاغ، في أول يوم ربيع الأول[3]. وأفاد صاحب مخطوطة الحقوق الاجتماعية للعبيد، أنه تولى الحكم في العام الثامن والخمسين، بعد تسعمائة 958هـ / 1551م[4].

وأمام هذه الآراء.. فإني أرجح الرأيين الأولين للأسباب الآتية :

1 - أن محمود كعت كان معاصراً لأسكيا داوود.

2 - أن عبد الرحمن السعدي كان قريبًا لفترته، وجده توفي في فترة الأسكيا داوود.

3 - أن الفترة التي ذكرها سيد محمد الهادي، فترة طويلة بين موت أسكيا إسحاق، وتولى أسكيا داوود، ومن غير المعقول أن تبقي هذه الفترة دون حاكم.

---

(1) عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص 100.

(2) ـ محمود كعت، المصدر السابق، ص 93.

(3) ـ عبد الرحمن السعدي ، المصدر السابق ، ص 100.

(4) ـ سيدي محمدَ الهادي، الحقوق الاجتماعية للعبيد، مخطوط ورقة 100 .

4 - فترة سيدي محمد الهادي فترة متأخرة، فهو من أبناء القرن الثامن عشر الميلادي .

أورد كعت، بأن أسكيا داوود واجه مصاعب جمة، من طرف والده أسكيا الحاج محمد منذ صغره. ومرد ذلك أن الأخير عند زيارته للأراضي المقدسة ومصر، أخبره الصالحون والعلماء، بأن هناك ابناً له، وأعطوه أوصافه ، هو الذي سينتزع الرئاسة من إخوته، ويمكث أطول فترة من غيره، ويسلم السلطنة من بعده إلى أبنائه، وبذلك ناصبه العداء.

على الرغم من أن هذه المعلومة أوردها كعت، الذي كان معاصراً لأسكيا داوود، إلا أني أخالفه الرأي لسبب واحد، وهو أن الخلاف، إن وجد بين أسكيا الحاج محمد وابنه، فمرده إلى اختلاف في وجهات النظر فقط.

لقد عرف عن أسكيا داوود جملة من الخصال الطيبة ، فكان سلطاناً مهيباً، فصيحاً، سخيا، جواداً، ذا وجه بشوش، ومزاج رائق ، حافظاً لكتاب الله، واتخذ شيخًا يعلمه علوم الدين من بعد الزوال إلى العصر .

هو أول من اتخذ خزائن للمال، وخزائن للكتب، وله نُساخ ينسخون الكتب ويهديها للعلماء [1]. وفي عهده، ازدهرت الثقافة العربية الإسلامية، ومن خصاله الحميدة: تصدقه على الفقراء والمحتاجين، فقد تصدق بأقل من ألف صنية[2]. ومن مآثره الطيبة أنه أعتق أبناء العجوز، الذين كانوا من ضمن عبيد تركة زنك، ووزع الباقي منهم، بأن أعطى الفع بكر سبعة وعشرين عبداً، صدقة من السلطان، وأعطى مجموعة إلى المسجد الكبير نساءً ورجالاً: النساء ينسجن الحصير للمسجد، والرجال يحملون الطين والخشب لأجل البناء، كما أعطى للخطيب سبعة وعشرين عبداً[3]. كما كان يتصدق على الفقراء والمحتاجين بالغنم

(1) - محمود كعت، المصدر السابق، ص95.

(2) - محمد محمد المفتي (مرحبا)، فتح الحنان المنان في أخبار السودان، مخطوط، ورقة 46، ومحمود كعت، المصدر السابق، ص97.

(3) - محمود كعت ، المصدر السابق، ص 106.

والبقر، وقد منح أخت القاضي هند الفع، ألف شاة من الضأن والماعز. ومن شمائله احترامه لأصدقائه، يأتيهم إلى بيوتهم ويسهر معهم، إلى الثلث الأول من الليل، وهذا ماحدث إلى الفع كعت، الذي جاءه في بعض السنين في كاغ، واستقبله بالترحيب، وفرح غاية الفرح، وأضافه، وأكرم وفادته وكان يأتيه في الليل ؤيسهر معه. ومن سمو احترامه للقاضي، أنه كان لايرد له طلباً يصدر منه، وقد طلب ألفا كعت من أسكيا داوود، أن يمنحه بعض الأموال لتزويج بناته وأولاده، وفعل ذلك بل اشترى له (القاوس)[1] بثمن باهض[2].

لقد وهبه الله ثروة في كل بلد من بلاد السودان، فكانت له في كل بلد مزرعة، وحراثة مالا يحصيه إلا الله، وله خدام يقومون على أمر هذه الثروة، وله عبيد في كل منطقة، ولانريد أن نسترسل في الحديث عن ثرائه لأنه يطول.

أما عن حاشيته فقد حف نفسه بشيء من الهالة ، فكان له رجل يلازمه، يدعى (وَنْدَعْ) يشرح له كل شيء، وهو الذي عرفه بالحاج الكنتوي، الذي قال إن أجداده أصولهم عبيد، عندما كان الكنتوي من ضمن وفد الحجيج السوداني. إضافة لذلك كان له عبيد يرافقونه، يصل تعدادهم إلى سبعمائة عبد، وعلى كل واحد منهم لباس وحرير، فإذا أراد أسكيا داوود أن يبصق أو يتفل، أسرع إليه الخصيان بأن يسبق كمه ويبصق فيه ثم يمسح فاه من النخامة[3].

وبمجرد تولي أسكيا داوود أمر سنغاي، رتب جيشه، فكان العام الأول من توليه بداية الغزو، فغزا المناطق التي في اتجاه موشى، الى أن وصل موشى وانتصر عليها. وفي أواخر العام السابع والخمسين والتسعمائة 957هـ/ 1550م غـزا المناطق إلى (تع) (وكُم)، وحارب فيها حاكمهم (فندنك جاجي تمانـي)، وقد أحضر معه (مجموعة من القينين والقينات المسميات مابي)[4]، وجعل لهم

(1) القاوس هي الحلي التي ترتديها العروس.

(2) نفسه ، ص 108.

(3) محمود كعت ، المصدر السابق، ص ص 111 ـ 114.

(4) ـ اختص الفولا، وهم فرع من الفلان بالغناء والطرب، والى يومنا هذا يمارسون هذه المهنة في أفراحهم، ويحيون سهرات في القبائل الأخرى، وسيرد ذكرهم بالتفصيل عند الحديث عن قبائل الفلان.

حارة في كاغ. وفي شهر جمادي الأول في العام الثامن والخمسين بعد التسعمائة 958 هـ/ 1551م، رجع أسكيا داوود إلى تندرم، وفي العام الواحد والستين والتسعمائة 961 هـ/ 1553م ذهب إلى كوكيا، وأرسل (هيكي على دادُ) بسرية إلى كشن، كان عددها، أربعة وعشرين فارساً من أهل سنغي ، ومن كبار القادة، وكان خصمهم يفوقهم عدداً وعتاداً، بأن بلغ عددهم أربعمائة فارس من أهل لبت وكشن، والتقى الجمعان في موضع يعرف (بكرفت)، وكانت القوتين غير متكافئتين، فانتصر أهل لبت وكشن على مجموعة أسكيا داوود، وقتل منهم خمسة عشر رجلاً، منهم القائد هيكي على دادُ، وأخوه محمد بنكن كوم بن فرن عمر كمزاع وغيرهم، وقبضوا على تسعة مجروحين منهم (علو زليل بن فرن عمر كمزاغ) و(بكر شيلي أجي) و(محمد دل أجي) وغيرهم، وقدموا لهم العلاج واهتموا بهم اهتماما خاصاً، وأعجبوا بشجاعتهم، وقالوا مثل هؤلاء لايستحقون الموت وبعثوا بهم إلى أسكيا داوود، وأصبحوا مضربًا للمثل عندهم في الشجاعة والبطولة[1].

وأمام هذه المعلومات، فإني أستبعد ما أورده عبد الرحمن السعدي، من أن أسكيا داوود يبعث إلى أعدائه بسرية من الجيش، فيها خيرة قادته، تتألف من أربعة وعشرين فارساً، لأنه لايعقل أن يتصرف سلطان محنك، له تجربة طويلة في الحروب، مثل أسكيا داوود هذا التصرف، بأن يبعث مجموعة قليلة إلى أعدائه، إلا إذا كان يقصد من إرسالهم استطلاع الموقف فقط، وربما وجد رجاله أنفسهم أمام أعدائهم وجهاً لوجه، ففضلوا منازلتهم على الفرار منهم.

بعد مقتل هيكي علي دادُ في المعركة السابقة، تولى أمر القيادة (بكر شيلي إجي) وفي العام الثاني والستين بعد التسعمائة 962 هـ/ 1554م، اتجه من (برن) إلى (ورش بكر)، وأخرج (شاغ فر محمد كناتي) الذي أصله وعكري وههك كرى كي كمكل بالجيش إلى الجبال. وفي العام الثالث والستين جرد

(1) - عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص 103.

جيشا ـ وغزا إلى أن وصل (بُص)، ونشر فيها الخراب. وفي السنة السادسة والستين بعد التسمائة 966 هـ/ 1558 غزا إلى أن وصل إلى (بُسرم) في أرض ملّي، إلا أن (سُوم أنزُ) عند وصوله هناك، توفي وتولى بعده ابنه، الذي انتهج سياسة والده، فواصل سيره إلى (دبكرلا)، وتقاتل مع سلطان ملي، ومع كنت فرن، وانتصر عليه، وتزوج ابنة سلطان ملي (نار)، ورجع بها إلى سنغاي، بعد أن زين عنقها ويديها بالذهب والملابس، وبقيت معه إلى أن توفيت.

تجاوز أسكيا داوود بجيشه (سام)، الذي ودع فيها أسكيا محمد بنكن إلى مثواه الأخير. وواصل مسيرته إلى جني حيث صلى بها الجمعة، وتفقد أحوالها وغادرها، واتجه غازياً بعدها للمرة الثانية، من برن إلى موشى الذي فــر جيشه[1].

يبدو أن إقليم ملي يمثل ثقلاً سياسياً واقتصادياً، وكثيراً ما أعلن استقلاله عن باقي أقاليم المملكة، وهذا مانلمسه من جّل سلاطين سنغاي، فأول من يتولى يغزو ملي؛ لإعادتها إلى حاضرة المملكة.

وفي عام واحد وسبعين وتسعمائة 971 هـ/ 1563م، أرسل أسكيا داوود قائده (فاري بكر علي دُودُ) إلى أرض بَرَك لقتال (ابن هو)، وأصدر له الأوامر بعدم إبلاغ الجيش عن الوجهة المراد قصدها، فخرج الجيش في فصل الصيف، وكان الحر شديداً، وسار في الفيافي، وتذمر الجيش من هذه الغزوة؛ لأنه لايعرف المكان المقصود، وكذلك الفصل غير مناسب للغزو، ولكن القائد واصل سيره إلى أن وصل المكان المقصود، وباغت أعداءه وانتصر عليهم، وكر راجعًا في شهر ذي الحجة المكمل لسنة 971 هـ/ 1563م إلى كاغ، ودخلها[2]. وفي السنة الثامنة والسبعين وتسعمائة 978 هـ/ 1570م غزا أسكيا داوود إلى(سُورُ بَنْتَبْنَا) في أرض ملّي؛ وهي آخر غزواته في (اترم)، وبعث ابنه (كري فرم الحاج)

(1) - عبد الرحمن السعدى.

(2) - عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق ، ص 107.

إلى الحمدية، ومعه صهره سلطان نانو الحاج محمود بير بن محمد الليم، في أربعة وعشرين ألف عسكري، من الطوارق، اثني عشر مع كل واحد منهم، فأغاروا على العرب، في تلك الجهات ورجعوا[1]. ثم غزا إلى أن وصل أرض كرم، وواصل سيره بجيشه إلى بلد زينك وقاتل فيها رئيسها (تن تُوتم)، ثم أرسل كرمن'فاري يعقوب، وأغار على (دع كي)، فسبا جميع عياله، ثم تدخل صالح بينهما فرد له عياله، وأغار ثلاث غارات : الأولى إلى حد مُوشى، والثانية إلى أرض دند، والثالثة حتى وصل إلى لُولامي[2].

وفي هذه الأثناء كانت تربطه علاقة وطيدة بملك مراكش المنصور الذهبي، وسبب العلاقة أن المنصور بعث إلى (أسكيا داوود)، لكي يسلمه خراج معدن تغاز عاماً واحداً، فبعث له أسكيا داوود، عشرة آلاف ذهباً، وهدية وعطية خير، فتعجب المنصور من سخاء أسكيا وكرمه، فكان سبب المحبة والوصال بينهم، ومايؤكد ذلك، أنه عندما سمع المنصور بخبر وفاة أسكيا داوود، جلس في قصره، واستقبل العزاء في أسكيا داوود من وجهاء المغرب[3].

أما عن وفاته فإنه فارق الحياة ة يوم الثلاثاء سابع عشر رجب، عام واحد وتسعين وتسعمائة 991 هـ/ 1583م، ودفن بكاغ خلف قبر والده، وتولى بعده ابنه أسكيا الحاج في اليوم الذي توفي فيه[4].

أسكيا الحاج بن داوود :

هو أكبر إخوته، عرف منذ صغره بين أقرانه بالنجدة، والشجاعة والصبر، وذكر أهل العقل والمعرفة أنه يستحق أن يكون أميراً، ولو في بغداد[5]. تولى حكم المملكة في اليوم الذي توفي فيه والده قبل دفنه، يوم الثلاثاء سابع عشر

(1)- عبد الرحمن السعدى، المصدر السابق ، ص 109.
(2)- نفسه ، ص 110.
(3)- نفسه ص111.
(4) - محمود كعت، المصدر السابق، ص119.
(5) - عبد الرحمن السعدي ، المصدر السابق، ص 115.

من رجب، عام واحد وتسعين وتسعمائة 991 هـ 1583م، وكان أسكيا داوود قبل موته يرى أن يتولى ابنه محمد بنكن، إلا أن محمدًا لم يكن حاضراً عند وفاة والده، فبايع أبناء أسكيا داوود أخاهم الأكبر أسكيا الحاج، ثم بايعه الجيش[1].

وقد قيل في مدح أسكيا الحاج، أن اثنين من سلاطين دولة سنغاي، أكبر من سلطنتهم، أسكيا الحاج محمد وحفيده أسكيا الحاج بن أسكيا داوود ! واثنان من سلاطين سنغاي، في حجم السلطنة نفسها، أسكيا إسحاق بن أسكيا داوود، وأسكيا محمد بنكن بن فرن عمر كمزاغ، أما الباقون فسلطنة سنغاي أكبر منهم[2].

وأمام ما أورده عبد الرحمن السعدي، فإني أرى أن كافة حكام سنغاي ابتداء من أسكيا الحاج محمد، آخر حاكم منهم، تعتبر مملكة سنغاي أكبر منهم، باستثناء الملك سني علي، الذي أسس المملكة، وذلك للأسباب الآتية :

1 - أن أسكيا الحاج محمد تولى ، ووجد المملكة جاهزة، والأمصار مفتوحة، فما كان منه إلا أنه حافظ على ماورثه عن سلفه وحاول توسيعه، ولكن ليس بالكفاءة نفسها، التي وسعها بها الملك سني علي.

2 ـ التناحر الذي كان يدور، في القصر الملكي، ابتداء من أسكيا الحاج محمد، وإلى آخر ملك حكمهم، ينم عن أنهم لم يكونوا في المستوى المطلوب، لتسيير دفة الحكم.

3 ـ أسكيا الحاج الذي قال عنه عبد الرحمن السعدي إنه يستحق أن يحكم بغداد! في الحقيقة مبالغة تاريخية؛ فهو لم يستطيع أن يثبت، حتى في مملكة سنغاي لفترة طويلة، بل جاءه أمر العزل من ابنه بسرعة.

4 - لو قال عبد الرحمن السعدي عن الملك سني علي الكلام، الذي قاله عن

(1) - محمود كعت، المصدر السابق، ص 119، وعبد الرحمان السعدي، المصدر السابق، ص115.

(2) - عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص115.

أسكيا الحاج محمد، وحفيده، لكان الأمر معقولاً إلى حد ما، لأن الملك سني علي، فعلاً أسس مملكة مترامية الأطراف، ومكث أكثر من خمس وعشرين سنة ممتطئاً صهوة جواده، يفتح الأمصار.

وعرف بقيادته الناجحة، والحزم الصارم، والاعتدال في الحكم، وهذه الميزات تساعد صاحبها على تسيير أمور أي دولة.

دخل خليفة أسكيا داوود، إلى حكم سنغاي، وهو معتل الصحة بمرض القروح في أسفله، الأمر الذي أقعده عن القيام بمهامه على خير وجه.

أما عن نشاطه العسكري، فقد أورد كعت، أنه غزا أهل وكد وقتل فرن وكد، وسبا أبناءهم، وأخذ أموالهم وعبيدهم، إلى بلد كاغ[1]. إلا أن عبد الرحمن السعدي استبعد هذا الخبر، وذكر أن مرضه منعه من الغزو، فلم يغز ولو مرة واحدة؛ نظراً لأنه كان لايتحكم في بوله[2]. وقد ترتب عن مرضه المزمن، حدوث قلاقل واستبداد من طرف بعض حكام المقاطعات، وحدثت في عهده، حالة من الفوضى وعدم استتباب الأمن، وتعطل القضاء في تنبكت سنة وخمسة أشهر، إلى أن تدخل الإمام محمد بغيع، وتولى القضاء. ولولاه لسرقت الأموال وضاع حق اليتامى والمحتاجين[3].

وأمام هذه الظروف القاسية التي مرت بها سنغاي، تدخل أسكيا محمد بان لإنقاذ الموقف، في المحرم عام خمسة وتسعين وتسعمائة 995 هـ/ 1586م، وذهب أسكيا الحاج إلى تندبى، وكان في تلك الفترة، يعانى من مرض مزمن، وماهي إلا فترة قصيرة بعد عزله حتى فارق الحياة[4].

(1) – محمود كعت، المصدر السابق، ص119.
(2) ـ عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص 115.
(3) ـ محمود كعت ، ص 114.
(4) ـ نفسه ، ص 126.

أسكيا محمد بان بن أسكيا داوود وسياسته الداخلية :

تولى أسكيا محمد بان أمر السلطنة، عام خمسة وتسعين وتسعمائة 995هـ / 1586م بعد عزله لأخيه أسكيا الحاج(1).

انتهج أسكيا محمد بان سياسة مغايرة لما كان عليه أسلافه، الذين تولوا أمر السلطنة؛ فقد أعاد تنظيم، وتنصيب إخوته، وأحكم في رقاب بعضهم السيف، فعين أخاه صالح كرمن فاري، ومحمد الصادق بلمع، وعزل أخاه حامد، وقتل أخويه فرن محمد بنكن وفرن الهادي في (كنت)، وقد نعت الأخير (أسكيا محمد بان) بالأحمق، وامتدح أخاه أسكيا الحاج بأنه لم يقتل أحداً من أخوته، وقد اتهمه بانحطاط أخلاقه(2).

في ظل هذه السياسة، التي اختطها أسكيا محمد بان، والتي لم ترق بعض أخوته وأتباعه، بدأت المؤامرات تحاك ضده، بقصد الإطاحة به، فاجتمع من لهم الحل والعقد، ومنهم من له منصب في المملكة، وعلى رأسهم بنتل فرم نوح و(هيكي محمد فاي) والد (كلشع بكر) و(شاع فرم المختار) وغيرهم(3). واتفق الجميع على تولية بنتل فرم نوح السلطنة، وعلى ليلة معينة ينفخ فيها بنتل البوق فيجتمعون حوله، وينصبوه على المملكة بدل أسكيا محمد بان، غير أن الأمر انكشف وفسدت الخطة دون أن يعلم بنتل نوح بالأمر، فقبض على مدبري المؤامرة، وأودع بعضهم السجن. أما صاحب الشأن فانتظر الموعد المحدد، ونفخ في البوق، ولم يأته أحد ففر خارج البلدة، إلا أن أتباع أسكيا محمد بان أودعوه سجن دند(4).

لقد حدثت صراعات ضد أسكيا محمد بان، كان آخرها عندما جرد بلمع حملة عسكرية ضده، انطلق بها من كبر إلى كاغ، مقر أسكيا محمد بان في فصل الصيف؛ قصد انتزاع الحكم منه، وعندما سمع بمقدمه، انفجرغيظاً، وأدرك أن

(1) ـ محمود كعت، المصدر السابق، ص 125، وعبد الرحمن السعدي المصدر السابق، ص 121.

(2) - عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص 121.

(3) ـ نفسه ، ص 122.

(4) ـ نفسه، ص122.

الظروف تسير ضده، فخرج بجيشه، في وقت القيلولة يوم السبت الثاني عشر من جمادى الأولى، والتقى الجمعان على مشارف كاغ، وفي هذه الأثناء توفي أسكيا محمد بان في منزله عند الظهيرة، وقيل في شأن موته أمران، هما:

الأول : أنه مات من شدة القيظ، ويعلل السعدي ذلك بأن شفته السفلى وجدتّ بها جروح ، وقد سمعه بعض الناس يقول إن بلمع جاء ليعزلني، قبح الله سلطنته.

الثاني : أن جسمه كان تخينًا جداً، وعندما خرج لبس درعاً حديدياً، كان سبباً من أسباب موته[1].

ونرى من أسباب موته، حالته النفسية المضطربة، وارتفاع درجة الحرارة، خاصة وأنه يعاني من السمنة المفرطة، وأدى لباس الدرع الحديدي إلى ارتفاع ضغط الدم على المخ وأودى بحياته.

مكث أسكيا محمد بان في السلطنة سنة واحدة وأربعة أشهر وثمانية أيام، ثم تولى بعده أسكيا إسحاق بن أسكيا داوود ا[2].

أسكيا إسحاق بن أسكيا داوود :

تولى أسكيا إسحاق، بعد وفاة أسكيا محمد بان، على إثر فشل محاولة سرقة السلطة من يده، على يد كبار الجيش وأكابر القوم، ومنهم كنفار محمود بن أسكيا إسماعيل بن أسكيا محمد، وقد تولى أمر البلاد بعد أن بايعه حتى المعارضين له.

وعندما تولى، أغدق على الجنود المنح والعطايا، وأرضاهم، وتوجه صوب أخيه بلمع الصادق، ليواصل المرحلة التي انتهى فيها أسكيا محمد بان، وقد عرف عن أسكيا إسحاق الكرم والجود والسماحة، وكان يحب العلماء ويجزل لهم العطاء[3].

---

(1) ـ عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص 125.

(2) – نفسه، ص 125.

(3) ـ عبد الرحمن السعدى، المصدر السابق، ص 135.

انطلق بجيشه صوب أخيه، يوم الثالث عشر من جمادى الأولى عام ستة وتسعين وتسعمائة 996 هـ/1587م، دون علم بلمع الصادق بموت أسكيا محمد بان. وكان بلمع على يقين من النصر، وأعجبته كثرة جنوده، وقد أرسل له أسكيا إسحاق أربعمائة فارس، مرتدين القلنسوات، من أولاد الأساكي وغيرهم، وعندما نظرهم بلمع اعتقد أنهم قادمون له بقصد الدخول في طاعته، ولكن كان العكس، فنزل الفرسان وحيوه بتحية نصها «تُنكر تُنكر بلمع تنكر تنكر أسكي إسحاق أخوك يسلم عليك» ويعلمك بأن أسكيا محمد بان مات بموت الفجاة، وأني توليت أمر البلاد فمن أطاعني فليس له عندي إلا الخير والمحبة، ومن خالفني فقد خالف أمر الله وعصاه.

وقد تأثر من الموقف بلمع، وخاف وشعر بأن الأمور تسير ضده، وأمر بضرب الطبل والرحيل في الساعة نفسها، وسار بجيشه صوب جيش أسكيا إسحاق إلى أن اقترب منه، وسمع صوت طبول جيشه، وحصل اشتباك بينهم، استطاع معها أسكيا إسحاق هزيمة جيش بلمع، وقد تشتت جمعه، واستمر أتباع أسكيا إسحاق في مطاردته دون الرغبة في قتله، فطاردوه إلى تنبكت ثم كندم وإلى نتدرم، إلى أن وصل الى قرية (لُنُف) بقرب من (بُوي)، وفي هذا المكان كانت له زوجة وابن يدعى أسكي محمد بنكن، ووصل إلى بوي حيث أبدل جواده، ووصل إلى دار بنكي، وقد استمرت الفتنة بينهم أربعة أشهر، وبعد أن تخلص أسكيا إسحاق من خصمه بلمع رجع إلى كاغ[1].

بعد أن انتصر أسكيا إسحاق بن أسكيا داوود على خصمه بلمع، فاجاءه المنضور الذهبي بطلبه بتسليم ملحة تغاز إلى المغرب، والاعتراف بسلطة ملك المغرب على سنغاي كما هي على المغرب، وماهي إلا فترة قصيرة حتى جرد له المنصور جيشاً بقيادة جودار، وقد قضت نهائيا على الفوضى، التي كانت عليها مملكة سنغاي في سنة 1000هـ/ 1591 م، وهذا ماستتحدث عنه بالتفصيل في جزئية الحضور المغربي في السودان الغربي.

---

(1) ـ عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص ص 135 ـ 140.

بعد هذا العرض لسلاطين مملكة سنغاي، الذين جاءوا إلى الحكم بعد أسكيا الحاج محمد.. فإنني حاولت الغوص في شخصيتهم بقدر قوة الشخصية، والتي وصلت فيها إلى نتيجة، أشرت إليها فيما سبق بأن سلاطين سنغاي، كانت السلطنة أكبر منهم، باستثناء الملك سني علي.

الحضور المغربي بالسودان الغربي وحالة المنطقة عند مجيئهم :

يخطئ عدد من المؤرخين الذين يربطون الثقل المغربي في السودان الغربي بفترة السعديين، فالمغاربة كانوا رواداً للمنطقة منذ زمن بعيد، يعود إلى ماقبل فترة إمبراطورية غانا الوثنية، ونجد ذكراً واضحًا لهم، فالعالم والتاجر الدرعي والسجلماسي والفاسي والفجيجي وغيرهم[1]. كما كانت هناك عائلات مغربية قديمة، في المنطقة عمق التلاحم التاريخي بين المغرب والسودان الغربي، وهذه العائلات هي :

1 - عائلة تعلي، ومن بين أبنائها إمام المسجد الكبير محمد بن الصديق[2].

2 - عائلة الخضر، وقد قدم جدهم الأول من مدينة فاس، وكان كاتبًا للملك سني علي[3].

3 - العائلات التواتية[4].

4 - عائلـة الجراري[5] مقيمة في بلدة أروان، ومن أبنائها سيدي أحمد بن العزيز الجراري[6].

---

(1) - أبي القاسم بن محمد بن عبد الجبار الفجيجي، الفريد في تقييد الشريد، وتوصيد الوبيد، تقديم وتحقيق عبد الهادي التازي، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة 1983، ص 51.

(2) - عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص 218، ومحمد الغربي، المرجع السابق، ص 189.

(3) - عبد الرحمن السعدى، المصدر السابق، ص 68.

(4) - نفسه ، ص ص59 - 60.

(5)- التقيت بعدد من أبنائها في صيف عام 1985 و 1987 في بلدة أروان، وتنبكت وأقدز، وأكدوا لي أن أجدادهم قدموا من المغرب. وقد سألت أستاذنا الدكتور عباس الجراري، وهو من كبار علماء المغرب عن ذلك، فأكد لي صدق مايقولون.

(6) - نفسه، ص 233.

5 - عائلة الفيلالي[1] في أروان وتنبكت وجني وقندام وجاو[2].

6 - عائلة البلبالي[3] استقرت في مدينة تنبكت، وفي كانوا وكشنه[4].

7 - عائلة محمد الفاسي[5] نزحت من فاس، واشتغل أبناؤها هناك بالتعليم.

لقد حدثت مصاهرات بين المغاربة وأهالي السودان الغربي، وارتبطوا معهم برباط الدم؛ فقد أورد كعت زواج الشريف الحسني أحمد الصقلي في تنبكت، من امرأة عربية من أهل تافلالت، تدعي زينب، فولدت له مزوار ومحمداً وسلمان ورقية وزينب[6].

هذه حالة من الآف الحالات، تدل على عمق الروابط، كما كانت في منطقة السودان الغربي، عدد من القبائل المغربية تقطن عدداً من المدن والقرى هي بكوى ويبكين، وطوتل، ويكرم، وبانكند وبُدُمُب - والتي أوعز لها السلطان منصور الذهبي تزويد الحملة بالمؤن، وخص كل واحد من سكان هذه المدن بنوع من التموين.

أما في زمن دولة سنغاي.. فقد استمر الدور نفسه للمغرب، فارتادها العلماء والفقهاء والتجار، وكانت لهم أحياء خاصة بهم في كبرى مدن السودان الغربي، في تنبكت وجني وجاو وأقدز وغيره. وكان ساسة وعلماء السودان الغربي على

(1)- اجتمعت بعدد من أفراد أسرتها في تنبكت وجاو وجني وقندام وأروان، وأخبروني بأن أجدادهم قدموا من المغرب.

(2) - نفسه، ص: 306 233 308.

(3)- استقرت في مدينة تنبكت، وفي كانوا وكشنة، وكان جدهم الأول يدرس في فاس ومراكش، التقيت ببعض أفرادها بمدينة تنبكت في صيف عام1987، وأخبروني بقدوم أجدادهم من المغرب.

(4)- محمود الأرواني، الترجمان، مخطوط، ورقة 70.

(5)- لقب الفاسي كثير في منطقة السودان الغربي، وجد في جاو وتنبكت وجني وأقدز وقندام وطاوة كني ودوس ولري، وغيرهم من مدن السودان الغربي، قابلت عدداً منهم في هذه المدن السالفة الذكر، وأخبروني أن أجدادهم قدموا من المغرب.

(6) - محمود كعت، المصدر السابق، ص 23.

اتصال دائم بالمغرب الأقصى، يتتبعون أخبارهم، وماستجد فيها. وكان أحمد بابا التنبكتي على رأس هؤلاء العلماء، الذين كانوا على شوق لتتبع أخبار المغرب، وكان له أصدقاء في المغرب، ولاأستبعد أن تكون له زيارة سبقت مجيئه للمغرب، في عهد السلطان المنصور الذهبي. وهذه المراسلة تكشف لنا النقاب عن ذلك، علي الرغم من عدم وضوحها في كثير من مواضعها، وهذا نصها : «الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد، وبعد فبسلام لايبارى ولايباهى وتحية لاتجارى [بياض] وكاتبه عبد الله [بياض] إلى سيدنا وابن سيدنا الفاضل الأجل المحترم [بياض] المكرم الهمام بن الهمام الشريف الحسني قاضي القضاة سيدي أحمد بابا بن أبي العباس، السلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته، وإن سألت عنا كما يكفي السؤال عنك وعافية، ونعمة ضافية وموجبة إليك ياسيدي أني رأيت لسيدي [المكانة][1] المعظم المحترم مع جوابك الأعز ووجدني الجاه على جناح السفر [بياض] موته عيالي، ورسلت كتابًا من نفس لصاحب الخطاب [بياض] على آخر ذي الحجة وتمثل معه [بياض] أن يسره الله ومكنه إن شاء الله [بياض] اليوم في طيف لايعرفون أين مسكنهم لأن تافلالت هي التي كانت سكنتهم وقبضوها [بياض] في علم العرب المغاربة اليوم، في طيف لايعرفون أين مسكنهم، وتكلمت مع بعض العرب المغاربة، الذين كنت نتكلم معهم فإذا هم إن شاء الله أقرهم [بياض]، إن أمتنع منعم سوق تافلالت لابد يخرجون التراب أو يحكّمون أيديهم رغم أنوفهم، وحاصل الأمر إن شاء الله في آخر ذي الحجة أو أول المحرم [بياض] أطلب من الله التيسير، وأما أمر الرقبات فإنهم أعطوني الخبر، ولكن رأيتهم [بياض] ليس أحد منهم يحكم في [بياض] لعظم دولتهم وكثرة فسادهم، وقلت لهم إن كان هذا أحق عندكم [بياض] معها لازداد [بياض] ازواد يعطوكم آل ازواد دياتكم تطالبهم بهم [بياض] بذلك بعضهم والبعض مارأيته الى الآن، ونرجوا من الله تبارك وتعالى أن ييسر الأمور، ونحن والله مالنا علم سوى هذه الأمور، ولكن مسلم على أهل ازواد أولاد البربيش، وقل لهم نجد

(1) ـ المكان.

[بياض] في الرقبات [بياض] سيدي محمد [بياض] مع أولاد الساحل لحارسه وليس لهم حكم»[1].

شهدت مملكة سنغاي بعد إقصاء السلطان أسكيا الحاج محمد من الحكم على يد ابنه حالة من التصدع في العلاقات داخل البيت الحاكم، ترتب عنها انعكاسٌ على الحالة السياسية والاقتصادية للمملكة، وظهر التناحر الدموي بين أبنائه لغرض السيطرة على الحكم ، وبدأ التدهور يظهر في أمور الدولة، وحدث التمرد من أمراء المقاطعات والقبائل، وظهر الانحلال الأخلاقي، وقال : صاحب الترجمان بأن حالة من الفوضى، كانت عليها السودان الغربي بظهور التمرد من أمراء المقاطعات وكثرة الحرابة، وقتل الأنفس دون وجه حق، واختل الأمن وتمرد رؤساء القبائل، فأول من بدأ بذلك (سنب لمدُ) صاحب (دنك) بأن قتل عدداً لايحصى من أهل البلاد، من أصحاب رؤوس الأموال، وأكل أموالهم وسبا عدداً من الحرائر. ثم تمردت قبيلة الزغرانيين، بأن خربوا بلدة (بر) وبلد (درم)، وأهلك أرض جني (كفابنبر)، وعاثوا في الأرض فساداً، ومن منكرهم تناسلهم مع أصحاب الديانة الماجوسية في مدينة جني، فخرجوا أولادهم مجوساً، وفسدت عدة مناطق، وتمردت قبائل الفلان على النظام السياسي، عندما أحسوا بضعفه من جراء الصراعات الداخلية، كما فسدت أخلاق عدد من حكام السودان والعامة، فكثر فيها شرب الخمر والزنى، ومسائل يندى لها الجبين![2].

ومعنى هذا أن المنطقة تعاني من فوضى سياسية، واقتصادية، واجتماعية، والأمر يحتم على الدول القريبة منها أن تأخذ زمام المبادرة، وتخرج هذه المنطقة من الفوضى، بعد أن فشل أبناؤها الخروج بها إلى دائرة الأمان.

(1) محمد البشير بن العبيد، يبعث برسالة إلى سيدي أحمد بابا بن العباس التنبكتي، تتناول أحداثًا في المغرب، مركز أحمد بابا التنبكتي، رقم 2498 ورقة 1 .

(2)_ محمود الأرواني، الترجمان، مخطوط، ورقة 10 - 11 وعبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص ص143 - 144 .

من خلال هذه المعطيات، وجدت المغرب متمثلة في الدولة السعدية ، أمام الأمر الواقع لإنقاذ مايمكن إنقاذه، هذا من جهة، ومن جهة أخرى خشت الدولة السعدية أن تنعكس هذه القلاقل على المغرب، خاصة وأن الأخطار محدقة بالمغرب من الإسبان في الأندلس، والأتراك في تلمسان، وحرس المغرب في التدخل في المنطقة استبعاد فتيلة الشر بتفويت الفرصة على الإسبان والأتراك من التدخل في منطقة السودان، باستنجاد أحد حكام المنطقة بها، وبذلك تصبح المغرب بين فكي رحى فكانت مبادرة السلطان المنصور الذهبي مبادرة شجاعة وحكيمة إلى الغاية، حسب وجهة نظري. وكما يقول المثل "إن لم تكن ذئبًا أكلتك الذئاب".

والسؤال المطروح :

هل كان للمنصور الذهبي نية للتدخل في السودان الغربي؟.

لم يكن للمغاربة حتى قبل الدولة السعدية نية للتدخل في المنطقة، فملاحات تغازة، التي يرجع جلّ المؤرخين أسباب تدخل المغرب في السودان إليها، معروفة لديهم منذ زمن غانا، والمغرب في تلك الفترة والفترات التي تلتها على درجة من القوة تمكنهم من السيطرة على المنطقة بسهولة ويسر، ولو كانوا لهم نية التدخل، فإن ذهب ونقاره وبنبوك معروف لديهم هو الآخر.

فتدخل المنصور الذهبي في السودان الغربي كان مرده إلى حالة الفوضى، التي عرفتها المنطقة، بعد وفاة أسكيا داوود.

لقد كانت لديه مراسلات وتبادل هدايا بينه وبين أسكيا داوود.

الإرهاصات الأولى للحملة :

لست بصدد الحديث عن الحملة المغربية على السودان الغربي بتفاصيلها وأبعادها، فهذه دراسات مستقلة بذاتها، كتب فيها عديد من الباحثين أمثال الدكتور محمد الغربي وغيره. ومازال الباحثون يواصلون الكتابات في هذا

المجال، وعلى سبيل المثال لا الحصر، الباحث المغربي أيت امبارك، والذي يهمني من ذلك الحضور المغربي في السودان الغربي، وهل كان له دور في المنطقة؟ وكذلك أسباب ودوافع الحملة، وهل هي نهب لخيرات السودان كما يقال ؟

كذلك سوف نتناول الحملة من وجهة نظر مؤرخي السودان الغربي فقط، كانت أولى المبادرات بعد وفاة السلطان مولاي عبد الملك عام 985 هـ/ 1577م، وتولي السلطان أحمد الذهبي أمر المغرب.. فقد بدأ يسعى إلى توطيد أركان دولته من الأخطار المحدقة بها، فكانت أولى اتصالاته، ببلاد السودان الغربي زمن حكم أسكيا داوود، حيث بعث السلطان أحمد الذهبي بوفد إلى أسكيا داوود، يطلب منه أن يسلم له خراج معدن تغاز لمدة عام واحد؛ فاستقبل أسكيا داوود الوفد بكل حفاوة وتكريم ، وأرسل للسلطان المغربي عشرة الآف ذهبًا هدية وعطية، فتعجب أحمد الذهبي من سخائه، وجود كرمه، فكانت تلك الهدية سبب المودة بينهم، وعندما توفي أسكيا داوود، وسمع به أحمد الذهبي، حزن لموته أشد الحزن، وجلس في قصره للتعزية، فعزاه كبار قادته وجنوده في فقد صديق له.

وهنا سؤال يطرح نفسه :

لماذا اتخذ أسكيا داوود هذا الأسلوب الدبلوماسي مع وفد المنصور؟ هل فعلاً كما يقال سخاء وكرم؟ أم مراوغة وتعطيل التدخل المغربي، حتى يستعد لهذا الأمر؟ أم أن أسكيا داوود على معرفة بقوة المغاربة، وأسلحتهم التي لم تكن معروفة لديهم، الأمر الذي لا يستطيع معه المقاومة ؟أم ماذا؟.

من خلال العرض يتضح أن عملية إكرام الوفد، والهدية التي منحها إلى أحمد الذهبي، استخدم فيها أسلوب الدبلوماسية والمراوغة؛ لأنه لا يعقل أن يأتي وفد محمل برسالة من السلطان أحمد الذهبي إلى السلطان أسكيا داوود، ويطلب منه تسليم خراج ملاحة تغازة لمدة سنة، وكل منهم يعتبر نفسه أمير المؤمنين في بلاده، ومن حقه حماية مكتسباته بأي طريقه كانت. ولكن في الوقت نفسه

الكيس من عرف خصمه وإمكانياته، قبل أن يتصرف تصرفًا، يجر عليه الويل مثلما فعل أسكيا إسحاق.

فمن وجهة نظري لم يكن الأمر كرماً وسخاء من أسكيا داوود، بقدر ما هو تحوطات أمان؛ لأنه على ما يبدو على معرفة تامة بقدرات خصمه، وهو بذلك غير قادر على مواجهته بالقوة، لأنه لايملك السلاح الذي يمتلكه خصمه. ومن هنا أدرك أن حل التودد والصداقة هو الحل الأكثر ملاءمة، وفعلا نجح في ذلك، بأن أعطاه ما يعادل خراج تغازة سنة في سبيل سلامة بقية المكتسبات، بما فيها ذهب ونقارة، وروح أسكيا داوود وأتباعه.

بعد وفاة أسكيا داوود، تولى أمر سنغاي أسكيا إسحاق، وبدأت تطلعات المغرب من جديد نحو السودان الغربي، الذي أصبح يشكل خطورة عليه. وقبل الشروع في إرسال الوفد، استفتى السلطان أحمد الذهبي علماء وأشياخ الفتاوى في بلاده، في أحقية وضع يد الإمام على معادن السودان الغربي، فأفتوا له من أن النظر في المعادن مطلقًا إنما هو للإمام لا لغيره، وأنه ليس لأحد أن يتصرف في ذلك إلا عن إذن السلطان أو نائبه، وبعث السلطان مولاي أحمد بتلك الفتاوى مع رسالة، يدعوه فيها إلى تنظيم ملح تغار بين المغرب والسودان، بأن يحمل الملح إلى أقطار السودان للواردين عليه مثقالين من الذهب العين لكل حمل، وتستعين بذلك الخراج عساكر المسلمين على جهاد الكفار؛ فأجاب أسكيا إسحاق أن الأمير أحمد الذهبي، أمير ناحيته وهو أمير ناحيته، وبذلك لم يسعف أسكيا إسحاق فيما طلب، وسلم الوفد جوابه مع حريشاناً ونعلين من حديد، وآخر الوفد بتأخير الرد على جوابه.

وصل الوفد المغربي الى السلطان الذهبي وسلمه الهدية، وأعلمه بما جرى بينه وبين أسكيا إسحاق من حديث، فجمع الذهبي، أعيان دولته وأهل الرأى والمشورة، وأخبرهم بالأمر وكان يوم اجتماعهم يومًا مشهودًا، وأشاروا عليه بالتدخل في السودان الغربي[1].

(1) موسى بن أحمد السعدي، مخطوط، ورقة 113-114، ومجهول تاريخ الزواد في خبر البرابيش، مخطوط، ورقة 4.

بعد رحيل وفد السلطان المغربي عن سنغاى، أرسل السلطان أسكيا إسحاق ألفين من الطوارق، وأصدر لهم الأوامر بأن يغيروا على أخر بلاد درعة إلى جهة مراكش، دون أن يقتلوا أحدا فغاروا الطوارق على سوق (بني صبيح)، وأخذوا كل ما فيه من السلع، ورجعوا كما أمرهم[1].

والسؤال المطروح :

لماذا أخر اسكيا اسحاق رسول السلطان المغربي؟ ولماذا وقع اختياره على الطوارق بالذات لتنفيذ هذه المهمة؟.

للإجابة عن هذا السؤال الذي يتكون من شقين، نورد الآتي :

الشق الأول :

1- استخفاف بمطالب خصمه.

2 - تعمد التأخير لأخذ متسع من الوقت؛ للتشاور مع قادته وأصحاب المشورة.

أما الشق الثاني:

1- إظهار قوته أمام خصمه بتهديد أراضيه.

2- شجاعة الطوارق المفرطة، ومعرفتهم بالهجوم الخاطف والعودة بسرعة.

3- إظهار أسكيا إسحاق لخصمه أن قبائل الطوارق تحت سيطرته، وأنه يستطيع استخدامهم حيثما شاء.

ولنرجع إلى حديثنا إذًا، منذ تلك الفترة بدأ السلطان الذهبي يعد العدة فما جاءت سنة 997هـ/ 1569م، إلا وكان الجيش جاهزًا تحت إمرة قواده، وفي اليوم السادس عشر من ذي الحجة سنة ثمان وتسعين وتسعمائة 998هـ / 1589م، تحركت القوات من مراكش، التي بلغ عددها اثنين وعشرين ألف رجل، منهم ألفٌ من المعلمين المتطوعين بأنفسهم، ونزلت القوات بوادي

---

(1) - مجهول، تاريخ الزواد في خبر البرابيش، مخطوط، ورقة 4، ومحمد السالك بن حني التنواجوي، فوائد من غابر الأخبار في تاريخ الدول وأصول الأنساب ، مخطوط ، ورقة 36 ـ

تانسيفت تحت قيادة الباشا جودر، يساعده جماعة من خيرة أعيان الدولة. وفي المحرم بداية سنة تسع وتسعين وتسعمائة 999هـ/ 1590م تحركت القوات، بعد أن حمل الذهبي قائدها بجملة من النصائح ورسالتين :

الأولى : إلى سيدي محمد بن أد.

الثانية : إلى قاضي مدينة تنبكت عمر بن الشيخ محمود بن عمر ابن أقيت

فحوى الرسالتين : يأمرهم بلزوم الجماعة، وخص الذهبي بن أد في رسالته بعبارة "فانظر حال السلطان وصلاحه سبحان من خص من شاء بما شاء"[1].

وأصدر أوامره لقائده جودر إذا ما لقي الولي الصالح الشيخ سيدي أحمد ابن أد، أن يستشيره في حال دخوله فإنه ولي القطر[2].

ولكن لماذا ركز المنصور على هاتين الشخصيتين، دون سواهما من أبناء السودان الغربي؟ ولماذا اختار جودر باشا إلى قيادة الجيش؟

كان التركيز عليهما لسببين همَا :

1- أن عائلة بن أد لها وزنها الروحي في المنطقة، فأهالي السودان يتبركون بهم ، ويسيرون وفق تعليماتهم، فكسب المنصور لهم يعتبر كسبًا للناس جميعًا.

2- القاضي في السودان الغربي له مكانة متميزة بين الحكام والأهالي، فهو محل ثقة ومشورة، ومن خلال رسالة المنصور نجده يأخذه باللين والهيمنة الروحية، وكلمة يأمره تعني أن المنصور الإمام الروحي، وأبو حفص تابع له روحيًا، إذًا الخطاب من الأعلى إلى الأسفل، يأمره بملازمة الجماعة، ولذلك أمره مُجاب.

---

(1) محمود الأراوني، الترجمان، مخطوط ورقه9، ومجهول، جواهر الحسان في تاريخ أروان، مخطوط مكتبة محمد بوبو بتنبكت، دون تصنيف، ورقة 10

(2) مجهول، جواهر الحسان في تاريخ أروان، مخطوط ورقة 10.

أما بخصوص اختيار جودر . . فقد أورد كعت أنه جاء، بناءً على معطيات متمثلة في شخصيته الفريدة، وذكائه المفرط[1].

ولكن هذا في نظري لا يكفي وحده لقائد يخوض غمار حرب في الصحراء، ما لم يكن عارفًا لمجاهلها. وعلى مايبدو، كان على اتصال ومعرفة بطبيعة الصحراء، من قبل أن تصدر إليه الأوامر بقيادة جيش المنصور، وأفاد القشتالي بأن جودر هو الذي قاد جيش المنصور عند فتحه توات وتيكورارين[2].

الحملة المغربية فى نظر السودانيين :

أورد عدد من مؤرخي السودان الغربي معلومات، عن الحملة المغربية وسيرها؛ فقد أورد صاحب الترجمان أن الحملة بقيادة جودر، انطلقت من واد تانسيفت وسلكت طريق الكلاد ثم درعة، ودخلت الفيافي والقفار، حتى وصلت إلى تغازا، ثم إلى (تليك)، وقد حفروا بها آبارًا للتزود بمياه الشرب، ومن بعد سارت الحملة إلى تودن، ومنها إلى تنبكت، وقد استغرق زمن الحملة مائة مرحلة، وفي ضحى عام999 هـ/ 1590م وصلت إلى مدينة تنبكت، فاستراحت بها أيامًا، وغادرتها صوب جاو بقيادة جودر؛ بقصد تأديب أسكيا إسحاق، وعندما علم بمقدمهم، حشد لهم من أمم السودان مائة آلاف !، ومن الطوارق أربعة آلاف، وكانت أسلحتهم السيوف والرماح، والحراب، والتقى الجمعان في منطقة تندبي[3].

وقفت في صيف عام1987 م وأنا في طريقي إلى مدينة جاو على أول مكان حدث فيه صدام بين جودر، وأسكيا إسحاق في تندبي، فقمت بدراسة لأرض

---

(1) - محمود كعت، المصدر السابق، ص149.

(2) - القشتالي، المصدر السابق، ص 159.

(3) - محمود الأرواني، الترجمان، مخطوط، ورقة 10 ـ11، وسيدي محمد الهادي، الحقوق الاجتماعية للعبيد، مخطوط ورقة 24، ومحمد السالك بن حني التنواجوي فوائد من غابر الأخبار، مخطوط، ورقة24، ومجهول حديقة البستان على تواريخ أهل أروان، مخطوط، ورقة 15.

المعركة في عين المكان، وهي عبارة عن أرض منبسطة، تتخللها أحراش، يشرف عليها من الجنوب سفح جبل طويل، بلغت مساحتها حوالي 2 كم .

بدأت المعركة من الضحى إلى العصر بين الطرفين، وكانت غير متكافئة من حيث التسليح، انهزم على أثرها جيش أسكيا إسحاق وفر أسكيا، عبر نهر النيجر، ولحق به محمود بن زرقون مع عسكره إلى أن أدركه، وأخذ كل ماعنده من المال، وغيره، وهرب أسكيا إسحاق إلى الصحراء، حيث مات هناك[1] ومازال إلى يومنا هذا، المكان الذي مات فيه أسكيا إسحاق معروفاً لدى أهالى جاو . والمكان يقع إلى الشمال الغربي من المدينة، يبعد عنها بحوالي مائة وخمسين كيلومتراً، مررت عليه وأنا في طريقي لمدينة تنبكت[2] .

أورد كعت على أن أول صدام بين جيش المنصور وجيش أسكيا قائلاً : "ورأيت بخط الفقيه الإمام أبي بكرسُ بن عمر أن القتال بين أسكيا إسحاق وأهل مراكش في سُنكى، في طرف تندبي، ضحى الثلاثاء سادس عشر جمادى الأول عام تسعة وتسعين وتسعمائة. . . أن أول القتال والمضاربة بينهما كان في سُنكى. . . ولما فسد أمر سنغى. . . "[3].

من خلال النص السابق. . يتضح وجهة النظر السودانية في ترحيبهم بالحملة من عدمها، ونلمس من عبارته "ولما فسد أمر سنغى بمعني" أن الحملة جاءت، لتصلح ما فسد من أمر سنغاي.

أما صاحب الترجمان، فله رأى في الحملة بأن وصفها بالجهاد، وإعلاء الكلمة وهذا يدل عن رضائه التام، عن الحملة، وأنها جاءت لتغيير واقع متدنٍ، من فساد سياسي، واقتصادي، واجتماعي، حتما على السلطان المغربي التدخل لإصلاح مافسد.

(1) محمود الأرواني، الترجمان، مخطوط، ورقة 11. ومجهول حديقة البستان على تواريخ أهل أروان، خطوط، ورقة 15.

(2) انظر الملحق، ص 18.

(3) محمود كعت، المصدر السابق، ص 152.

وقد أورد صاحب الترجمان ما نصه : "واصل الباشا محمود بن زرقون الجهاد وإعلاء الكلمة، حتى دان له الخلق، وخضعت له البلاد في عامين"[1].

أما صاحب مخطوط حديقة البستان فإنه هو الآخر اعتبر حملة المنصور نقطة تحول في تاريخ المنطقة من سيء إلى أحسن[2].

وقال فيهم عبد الرحمن السعدي، رماهم الله بجيش جودر فاجتثهم من عروقهم[3].

وقد رحب عدد من أهالي السودان الغربي، بمقدم الحملة، وقال فيها الشعراء شعراً، مدحوا فيه المنصور، ومن هؤلاء الشعراء الشاعر والعالم عبد الله ابن سيدي مولود فال، من أبناء مدينة تنبكت، ولد عام 957هـ/ 1550م بمدينة تنبكت، وقد برع في الشعر، ارتجل قصيدة في حق السلطان المنصور، عدد أبياتها ثلاثة وثلاثين بيتاً، نورد بعض الأبيات، وهي :

بمقدم وفد النصر حل بنا البشر
وأشبعت الأرواح وانشرح الصدر

بمقدم هذا الوفد يا مرحباً به
تراقصت الأكوان وانشرح العمر

فيا مرحباً حقاً ويابشر به
لقد كمنا فيض كما أجبر الكسر

فأرض بها المنصور حل جديره
يفخر وله الإمام لها فخر

(1) - محمود الأرواني، الترجمان، مخطوط، ورقة 11.
(2) - مجهول حديقة البستان ، مخطوط ورقة 16.
(3) - عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص ص 143-144.

تـربـع فـوق الحمـد للـه سـاجـداً

من أوصافه التسبيح والصبر والـذكـر

كـفـاه بأن الشـيـخ أعـطـاه سـره

تشـرب مـن بحـر المحـبة ناهـلاً

وذلك بـحـر ليـس في شـربـه كـدر

وحـاز لـواء سـراً وظـاهـراً

وكان دوام الـسـر ديـدنـه الـصـبـر[1]

رجع محمود بن زرقون من جاو وترك بها جودر، وعند وصوله إلى (تنبكتت) شيد قصبة وأسكن فيها الرماة، وجعل عليهم المصطفى، وأرسل نصف الجيش للسلطان مولاى أحمد الذهبي، مع هدية عظيمة فيها من الذخائر ما لايحصى، وهي: ألف ومائتان من أفضل الرقيق جواري وغلمان، وأربعون حملاً من التبر، وأربعة سروج ذهباً، وكتب له بفتح بلاد السودان[2].

ولكن هل أرجع الباشا محمود بن زرقون نصف الجيش مع الهدية إلى السلطان منصور الذهبي؟

من وجهة نظري هذه المعلومة مستبعدة، وذلك لعدة أسباب، وهي :

1 - أنه لايعقل أن يرجع نصف الجيش المغربي في بداية فتوحاته عن أرض السودان الغربي.

2 - أن وصول الجيش المغربي للسودان الغربي كلفه خسائر بشرية ومادية. فكيف يسمح الباشا محمود بإرجاع نصفه؟!

(1) - عبد الله بن سيدي مولود فال التنبكتي، قصيدة في مدح المنصور الذهبي، عند مقدم جيشه للسودان، مخطوط، مركز أحمد بابا التنبكتي، رقم 1969،

(2) - محمود الأرواني، الترجمان، ورقة 11.

3 - إذا كان إرجاع نصف الجيش بقصد حماية الهدية من قطاع الطرق؛ فهذا العدد لايعقل أن يسخر لحماية هدية فكتيبتان قادرتان على الحماية.

4 - حسب وجهة نظرى أن ورود هذه المعلومة من طرف مؤرخ سوداني، هو القصد منها الإشارة إلى كمية الخيرات التي نقلها المغاربة من السودان إلى المغرب، وكأنه يريد ان يقول إنه استنزاف لاقتصادهم، وحتى يضخم الحالة قال بعث مع الهدية نصف الجيش !

وأورد كعت أن بعد هذه الانتصارات، عاث القائدان المغربيان جودر ومحمود في أرض السودان فساداً ! إلا أنهما تخوفا من فسادهما أن يجر عليهما ثورة شعبية، فلجأ إلى تهدئة الأجواء، وترتيب صفوفهم باستمالة العلماء والفقهاء، وهم وحدهم الذين لهم تأثير على الأهالي، فأرسلا القائد مامي إلى بيت القاضي عمر واستأذن عليه بالدخول؛ فدخل وقبل رأسه وركبتيه وقدميه ويديه! ثم التفت إلى الفقهاء وحياهم، وسلم عليهم، وجلس أمام القاضي، وفي هذه الأثناء كان رجال القاضي واقفين على الدور، شاهرين أسلحتهم تحسبًا لاي طارئ .

تحدث القائد مامي إلى القاضي والحاضرين بأن الباشا محمود وكافة الكواهي يقرئون لكم السلام، ويقسمون لكم أن ما أقدم عليه السفهاء من رجالنا برجالكم دون علمنا، وأتيت إليكم راجيًا الصفح عما بدر من رجالنا، ومنذ الآن نبدأ صفحة جديدة من السلام والوئام بيننا، فاستبشر القاضي عمر والحاضرين خيراً، وبعث محمد بغيغ للحرس، الذي على جامع سكنري بالنزول، وعدم الاستمرار في الترصد، وأن الأمور على ما يرام، فأظهر القائد حسن النية بأن قطع رأس أحد اتباعه، عند عودته من عند القاضي عمر لحظة دخوله الى القلعة، ووجد مجموعة من أتباعه يضربون سودانيًا فضرب رأس أحدهم عربونًا على مصداقيته، وكان وقع هذه الحادثة على الناس خيراً، وانعكست على أصحاب الحرف والتجار، فخرجوا يزاولون أعمالهم في طمأنينة، إلا أن الأمر لم يستمر طويلاً،

فبعد رجوع الباشا محمود بن زرقون بجيشه من رأس الماء، في شهر فاتح المحرم سنة اثنتين وألف 1002هـ/ 1593م، عادت النوايا السيئة، والمكر من جديد إلى القائد محمود، فطلب تجديد البيعة للسلطان في مسجد سنكري، وعندما اجتمع أهل تنبكت في المسجد، وكان على أبوابه الرماة، أصدر الباشا محمود اوامره لزبانيته بوثق العلماء بالسلاسل، وأخذهم إلى القصبة التي تبعد كثيراً عن المسجد، باستثناء القاضي عمر، حمل على حماراً ومعه شواشينه ونساءه وأطفاله وفي الطريق اشتد المرض بالقاضي عمر يومين، وشفاه الله، وكان مع الجمع أسرة أقيت بما فيهم أحمد بابا.

عقب هذه العملية، بعث الباشا محمود بن زرقون بكتاب إلى السلطان المنصور الذهبي نصه «وليعلم أمير المؤمنين السلطان بن السلطان مولانا أبا العباس أحمد الله بنصره ويخلد ملكه، أننا ما قبضنا هؤلاء الفقهاء القاضي عمر وإخوانه وأتباعه إلا أن ظهر لنا ما في نفوسهم، من عداوة السلطان وبغضه، وتحققنا أن قلوبهم مع أسكي وهم على كيدهم، ويجمعون لهم الرجال لمحاربتنا، متفقين على الفساد، بعد أن قتلوا من جيش السلطان ثلاثة وسبعين رجلاً، ومنه شهادة جل أعيان تنبكت وكبرائها على ذلك»[1].

واستطرد كعت أن القائد محمود طلب من القاضي محمد بغيع أن يكتب شهادته خلف هذه الأسطر، إلا أن القاضي امتنع على ذلك؛ لأن الخبر لا أساس له من الصحة، وقد توعده الباشا محمود بقطع يده، إن لم ينفذ ما طلب منه، إلا أنه قال له قطع اليد أفضل أن تكتب شيئاً زورا وبهتانا، وفي الوقت نفسه كانت هناك مجموعة من الفقهاء انجروا خلف الباشا محمود، ووقعوا على ذلك منهم أسكيا الفع بكر لنبار[2].

وفي الحقيقة ماأورده محمود كعت حول هذه المعلومة، يعتريه شيء من

(1) - محمود كعت، ص176.

(2) - نفسه، ص ص 172-176.

المغالطة التاريخية، ومحاولة تشويه مسيرة المغاربة في المنطقة. فقد ذكر أن القائد محمود أحضر العلماء إلى جامع سنكري وأوثقهم بالسلاسل، وأخذهم إلى القلعة التي تبعد كثيراً عن المسجد، باستثناء القاضي عمر، حمل على دابة ومعه شواشينه، وفي الطريق اشتد المرض بالقاضي عمر يومين!

ومن خلال الدراسة الميدانية عام 1987 للمكان الذي يتكلم عنه كعت، نتبين أن ماذكره لا أساس له من الصحة، فالمسافة بين جامع سنكري وقصبة المغاربة ثلاثمائة متر فقط، وهذا ليس غريبًا على كعت، فالدارس لكتابه يجد فيه جملة من المغالطات التاريخية.

إلا أننا لاننفي وجود بعض التجاوزات عند بعض قادة الحملة وجنودها تجاه الأهالي، وهذه قصيدة نظمها أبو القاسم بن محمد، وهو من أبناء السودان الغربي، في جور بعض قادة الحملة، وقد أكملها عام 1079هـ/ 1668م.

إليّ احكم شكيت ضعفي وفاقتي
وماقد جرى به القضاء والدرادتي
فيارب إن القوم صالوا بكرهم
علينا ولالنا سواك إنما نتى
فكم من عسر أبدلت باليسر إن تشاء
فما شك في ضد يده المقالتي
فكم من سجين مثلنا ضاق أمره
فخلصته من كل هم وشدتي

إلى أن قال : تم هذا التوسل المبارك بحمد الله وحسن عونه لأبي القاسم ابن محمد بن ابي القاسم بن لانحاف تامه، في اليوم!! من شوال، عام تسعة وسبعين وألف[1] 1097/1668.

(1) أبو القاسم بن محمد بن أبي القاسم بن لانحاف، قصيدة في التوسل، مخطوط مكتبة عادل الأرواني بتنبكت، دون تصنيف .

وقد تذمر من هذا الإجراء أحد قادة المغرب، في السودان الغربي المدعو أحمد الحداد، وذهب خفية عبر مدينة ولاته، إلى مراكش، وأخبر السلطان المنصور بتصرفات الباشا محمود، وغضب المنصور أشد الغضب، وتأسف على ما حصل نظراً لأنه يحب العلماء، والصلحاء، وأرسل القائد منصور بن عبد الرحمان إلى السودان، وأعطاه فرمان بعزل محمود، وتحرك القائد منصور ومعه ثلاثة الألف ومائة ما بين أرباب خيل وراجل، وعند وصوله لتنبكت علم بموت محمود وتولى القيادة جودر، كان ذلك يوم الخميس أول يوم من رجب، عام ثلاثة بعد الالف 1003هـ/ 1594م .

وقد استقبل جودر القائد منصور بكل حفاوة! تولى بعدها القائد منصور القيادة وتحرك صوب أرض (الحجر)[1] وهناك نازله أسكيا نوح في حرب، لم تدم طويلاً انهزم على إثرها سلطان سنغاي، وتشتت جمعه، وسبا الذكور والإناث والمؤن.

وقد بعث القائد منصور برسالة إلى السلطان منصور الذهبي عقب انتصاره على أسكيا نوح في أرضي الحجر ـ عثرت عليها في مدينة تنبكت، وعلى الرغم من أنها مبتورة، إلا انها تكشف بعض الأضواء- نصها :«الحمد لله وحده والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه من متولي أمر جنده مولاي أحمد الذهبي، المتوكل على الله الفاتح بأمره، المؤيد بنصر الله، أبو الفضل والوقار، أبو اليتامى والمساكين، كنز الفقراء والضعفاء، الأسعد الميمون الخليفة الأرشد صاحب السعادة الباشر [غير واضحة] القائد [غير واضحة] العامل منصور بن القائد [غير واضحة] على امبارك الدرعي[2].

(1) الحجر أرض منبسطة، تقع الى الجنوب من مدينة تنبكت، كانت مسرح الأحداث وصراعات بين المغاربة والسودان، مررت عليها وأنا في طريقي من جاو الى تنبكت.

(2) الباشا منصور أعتقد أنه عبد الرحمان على امبارك الدرعي، عامله على السودان، يبعث برسالة إلى السلطان منصور الذهبي، مكتبة جبريل دكورى، بتنبكت دون تصنيف، ورقة واحدة، لا أدري هل كانت هذه الرسالة من نسختين: إحداهما بعث بها للسلطان المغربي، والأخرى احتفظ بها.

تكشف لنا هذه الرسالة، على الرغم من أنها مبتورة، وحرمتنا من معلومات نحن أحوج ما نكون إليها. . إلا أنها بينت لنا عدة أمور، وهي :

1 - الديباجة التي تكتب بها المراسلات من الحمد والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

2 - اعتمد صاحبها عبارات التذلل للسلطان الذهبي والمدح والثناء عليه ووصفه بصفات الفضل والوقار.

3 - تكشف لنا الرسالة أن المراسلات كانت تكتب في أوراق صغيرة وأعتقد أنه من جانب أمني؛ فالورقة الصغيرة يستطيع صاحبها إخفاءها، إذا ما شعر بأي خطر .

إلا أن المنية عجلت بوفاة الباشا منصور بن عبد الرحمان، عقب هذه المعركة، في السابع عشر، خلت من ربيع الأول عام خمسة بعدالالف 1005هـ/ 1596م، وأصبح القائد جودر مرة أخرى قائداً للجيوش المغربية.

عندما تناهت أخبار وفاة الباشا منصور إلى أسماع السلطان المنصور، أرسل الباشا محمد طابع بحملة قوامها ألف رجل، من بينهم أرباب الخيل وغيرهم، فوصل إلى تنبكت يوم الاثنين لتاسع عشر من جمادي الأول عام ستة وألف 1006هـ 1597م فانتزع الحكم من جودر، غير أنه مالبث قليلاً حتى توفي، وعاد الحكم من جديد إلى الباشا جودر[1]! .

ولكن ما السر من وراء وفاة جل القادة الذين بعثهم السلطان المنصور الذهبي للسودان الغربي، وبقاء جودر على قيد الحياة ؟ .

على ما يبدو أن مجيء جودر كأول قائد في السودان الغربي، أكسبه علاقات متميزة مع جيش وأهالي السودان الغربي، بالإضافة إلى الدهاء والمراوغة الذي وصف بهما، ولولا الدهاء الذي كان عليه لما اختاره السلطان المغربي، أول قائد لجيشه في السودان الغربي.

(1) محمود الأرواني، الترجمان، مخطوط، ورقة 10.

استخدم جودر هذا الدهاء، والعلاقات، وأخذ يصفي خصومه في السلطة بتدبير المكائد والحيل باسم القادة إلى أن شعر بخطره السلطان الذهبي، وطلب منه الرجوع إلى المغرب، إلا أن الباشا جودر قدم له صورة الموقف العسكري في السودان الغربي، بطريقة مروعة تجعل من السلطان الوقوف عندها، فقد أخبره بأن الموقف لا يتحمل مجيئه؛ لأن الأخطار محدقة به من كل جانب، فقائد ماسنه يحاول ضرب الجيش المغربي، وسلطان ملي تحرك بقواته صوبه، وهو يعلم أن السلطان الذهبي ليس لديه دراية بالموقف السياسي في المنطقة .

فعلاً حشد صاحب ماسنه، وصاحب ملي جيشاً وأراد غزو مدينة جني، وتصدى لهم القائدان على عبد الله التلمساني ومصطفى الفيل، وأبطلوا محاولتهما وانتصروا عليهما، وكان ذلك ضحوة الجمعة آخر يوم في شهر رمضان، عام ألف وسبعة 1007هـ/ 1598م.

أورد صاحب الجواهر الحسان، من وجهة نظر إفريقية، عدد الباشوات الذين تعاقبوا على السودان الغربي في فترة السعديين، وهم:

1 - الباشا جودر.

2 - الباشا محمود بن زرقون.

3 - الباشا محمود الطابع.

4 - الباشا محمود لنْك.

5 - الباشا محمود بن أحمد.

6 - الباشا مسعود بن منصور.

7 - الباشا محمد بن محمد بن عثمان.

8 - الباشا محمد بن موسى.

9 - الباشا محمد بن القائد أحمد.

10 - الباشا يوسف بن عمر.

11 - الباشا جد بن يوسف ·

12 - الباشا محمد بن أحمد ·

13 - يوسف بن عمر ·

14 - إبراهيم بن سعيد ·

15 - علي بن عبد القادر ·

16 - علي بن امبارك ·

17 - مسعود بن أحمد ·

18 - عبد الرحمان بن القائد حمد بن مسعود بن علي ·

19 - مسعود بن منصور ·

20 - محمد بن عثمان ·

21 - أحمد بن علي بن عبد الله ·

22 - حميد بن عبد الرحمان ·

وتجدر الملاحظة أن الذين تعاقبوا على حكم السودان مائة وأربع وخمسون باشا، هذا مع تكرارهم. أما من غير التكرار فعددهم سبع وتسعون باشا، وعدد الذين تكرروا خمسون ·

أما عدد من تكرر، في السلطنة أربعة عشر ·

1 - عدد من تكرر، من الفاسيين أحد عشر ·

2 - عدد من تكرر، من المراكشيين خمسة عشر ·

3 - عدد من تكرر، من أهل الأشراف أربعة ·

وقد انقسم المغاربة عندما ملكوا تنبكت إلى عدة أقسام، وهي :

1 - أهل المراكشيين، سكنوا حومة ساري كيب، والجامع الكبير.

2 - الدراوي، من أهل درعه - سكنوا حومة ساري كيب.

3 - سراك، سكنوا قرية كبر.

4 - ألحاح، سكنوا حي سار يامو.

5 - الفاسيون، سكنوا قرب تنبكت.

6 - المرسيون، سكنوا قرب تغارسُ.

7 - الأندلسيون، سكنوا بعضًا من جهات تغاسُ.

8 - أهل الجبل، معرفون في تنبكت بارجبُركُي.

9 - الشاظميون، معروفون في تنبكت أيضاً بسارمي موضع.

10 - المنصور، سكنوا حومة الجامع الكبير، معرفون باركي منصور.

11 - شطوط، قبيلة من الرماة.

وخلاصة القول حول الحضور، من وجهة نظر سودانية، نورد الآتي :

1 - اعتبر أهل السودان الغربي ـ على لسان عدد من علمائهم ومؤرخيهم ـ أن الحملة كانت نتاج حالة منْ الفوضى، والانحطاط مرت بها منطقة السودان الغربي، نتيجة الصراع على كرسي الحكم، الأمر الذي ترتب عليه اختلال في الأمن وصراعات دموية، انعكست على الوضع الاجتماعي، وبذلك انتشرت الرذيلة بأنواعها. واعتبر بعضهم ذلك، نتيجة لفساد أمر سنغاي ، ووصفها آخر بالجهاد لإعلاء كلمة الله، لأنه شعر بتدني العمل بالدين، ونشر الرذيلة، وقال عنها عبد الرحمان السعدي بأنه عقاب من الله لأهل السودان الغربي، بما اقترفت أياديهم بجيش جودر، فاقتلعهم من جذورهم .

وكل هذه الآراء وغيرها، تنم عن رضاء تام عن الحملة، وأنها لم تكن كما يخيل للبعض، أنها نهب لخيرات السودان، ولو كانت كما يظن البعض.. فإن السودان معروفة للمغرب، قبل دولة سنغاي، ولكن الحملة جاءت لتصحيح مسار منطقة بحالها.

2 - وفي الوقت نفسه، استاء عدد من مؤرخي وعلماء السودان الغربي، من ممارسات بعض قادة الحملة، مثل محمود بن زرقون وجودر. ولكنهم اعتبروا تصرفاتهم شخصية لم تصدر لهم من مراكش ؛ والدليل على ذلك عدم رضاء القائد المغربي، أحمد الحداد عن تصرفات الباشا محمود بن زرقون، وأخبر السلطان المغربي المنصورالذهبي عما بدر منه، وعزله .

3 - كشف بعض علماء ومؤرخي السودان الغربي، على أن هناك أعداداً هائلة من أبناء السودان الغربي، كانوا مع الجيش المغربي في تطهيره للمنطقة .

4 - أفصحت الدراسة ـ من وجهة نظر سودانية ـ عن بقاء عدد كبير من المغاربة، في السودان الغربي، بعد رجوع الحملة عام 1112هـ/ 1700م امتزجوا مع السكان الأصليين، عرفوا بالرماة. وما تمر على منطقة من مناطق السودان الغربي، إلا وتجد فيها أسرة مغربية تعرف بالرماة، وخاصة في المدن الكبرى، وحالة هؤلاء ميسورة وجزءٌ من أبنائهم يشغلون مناصب في دول السودان الغربي،[1] وقد التقيت بأعداد منهم في تنبكت، وجاو، وليرى، وقندام، وجني، وجاو، وكنى وطاوه، وينامى، وأقدز، وغيرها من مناطق السودان الغربي؛ فلو أنهم لم يندمجوا مع السكان الأصليين، لما استمروا لهذه الفترة. بل إنهم ساعدوا على تحسين النسل في السودان الغربي ؛ وطوروا المنطقة سياسياً واقتصادياً، واجتماعياً، وعلميا، فطوروا الزراعة والصناعة والتجارة وبنوا المساجد والمنارات العلمية، ومحوا بأخلاقهم النبيلة، رواسب الماضي من ممارسات لأخطاء عدد من قادة الحملة.

في الختام. . . أريد أن أنوه، إلى ما سبقت الإشارة إليه، في بداية الحديث عن الحضور، على أن الذي يهمني منه هو تواجد العنصر المغربي في المنطق والحضور من وجهة نظر سودانية هل هو استعمار أم جهاد وإنقاذ للمنطقة ؟ وقد

(1) تقلد الدكتور زين مولاي، وهو مغربي الأصل، منصبًا رفيعًا في عهد الرئيس السابق لجمهورية مالي، موسى تراوري، ألتقيت به في بيته بالعاصمة باماكو، وأفادني بهذه المعلومة، بتاريخ 1985/9/15

أحجمت عن الكتابة في سير الحملة وتطوراتها ومعاركها وباشواتها، وأكتفيت بالحديث في هذا الموضوع، بمعلومات، قدمها بعض مؤرخي السودان الغربي عن الحملة، وأغلبها مقتضبة، إلا أن لها فائدة، إذ إنها تعبر عن رأي الطرف الثاني المفقود لفترة طويلة من الزمن . كما حاولت أن أوضح، وأصحح بعض المفاهيم، التي وقفت عليها في عين المكان.

الطوارق كقوة سياسية فى منطقة السودان الغربي :

تسميتهم ونسبهم :

اختلف المؤرخون، في تسمية الطوارق بهذا الاسم، فمنهم من يقول : إنهم سموا بالطوارق، نسبة إلى طارق بن زياد، ومنهم من يرى أن التسمية، جاءت نسبة لطرقهم الصحراء، وتوغلهم فيها[1].

وأمام هذه الآراء، فإني أرى أن التسمية، أطلقتها عليهم الشعوب المجاورة لهم نظراً لكثرة ارتيادهم للصحراء.

اختلف المؤرخون أيضاً في تنسيب الطوارق والرجوع بأصولهم، فمنهم من يرى أنهم ينتسبون إلى صنهاجة، والصنهاجيون يرفعون نسبهم إلى حِمْيَرْ، وقبائل صنهاجة كثيرة، ولكن أشهرها لمتونة، وجدالة، ومسوفة، وهم متوزعون في الصحراء، لا يستقر بهم مقام، وهم على دين الإسلام، والسنة، وليس بينهم وبين العرب المغاربة نسب، إلا الرحم، وأنهم خرجوا من اليمن، وارتحلوا إلى الصحراء، وسكنوا في المغرب مدة، وأن يوسف بن تاشفين، طردهم من المغرب إلى التكرور[2].

أما ابن موسى السعدي، فيورد أن صنهاجة الملثمين، كانوا في الأزمنة القديمة

---

(1) - محمد سعيد القشاط، التوارك عرب الصحراء الكبرى، ط : مركز دراسات وأبحاث شؤون الصحراء : كالياري، إيطاليا، ديتار 1989ص 27.

(2) - احمد بابير الأرواني، السعادة الأبدية ، مخطوط ، ورقة 10 وأحمد بابيرالأرواني، الجواهر الحسان، مخطوط، ورقة 20 ـ21.

قبل الإسلام، يقطنون الصحاري الجنوبية للمغرب، ويعتمدون في غذائهم على لحم الإبل ولبنها، وأنهم يجتنبون المدن، وهذا ينطبق على الطوارق[1]. ويرى هنري لوت أن أصلهم من الجرمنت[2]. إلا أن جيبوى هامني، يستبعد ذلك، ويعلل بأنه ليس هناك أدنى علاقة بين الشعبين، وذلك لأن الطوارق في الأصل شعب أبيض، رغم إقرار بعض الكتاب القدامى بأنهم من الجرمنتيين، وأنهم وسطاء بين البيض والسود.

أما السبب الثاني.. فإنه يرجع إلى أن الشعوب، التي ساعدت على تشكيل الطوارق الحاليين، كانت خارج فزان، وهي هوارا، ولمطا، ومسوفة. ومن المؤكد أن بعضاً منهم، مر بفزان في فترة متأخرة، وأن الرباط الوحيد، الذي يربط بين الطوارق والجرمنت هو «تركا» الذي يعتبر اسماً ثانيا لفزان. ويضيف جيبوا هامني، أن الطوارق هجين، يتكون من العرب المغاربة والعرب غير المغاربة[3]. وأمام هذه الآراء التي تبحث في أصل الطوارق، فإني أميل إلى الرأي القائل: إنهم من صنهاجة، الذين نزحوا من اليمن، وذلك لسببين، هما:

1 - أن ملامح الطوارق ملامح عربية

2 - اللهجة التي يتخاطبون بها إلى يومنا هذا موجودة في اليمن.

موطنهم وتقسيماتهم:

تنتشر مضارب الطوارق في الصحراء الكبرى، ما بين حدود جمهورية مالي الشمالية الغربية، مع موريتانيا، مروراً بشمال مالي وشمال النيجر، ونيجيريا

---

(1) موسى السعدي، زهور البستاتين، مخطوط، ورقة 158.

(2) هنري لوت، الصحراء الكبرى، كمجال حيوي للإنسان، تقريب عماد غانم، طرابلس: مركز الليبيين للدراسات التاريخية، ص: 244.

(1) DJIBO M HAMANI, au carrefour du Soudan et de la Berberie : Le Sultanat Touareg de l'ayar, Institue de Recherches en Science Humaines, Niamey. 1989. P : 46.

وبوركينا فاسو، وشمال تشاد، وجنوب غرب ليبيا، وجنوب شرق الجزائر[1].

وتنقسم منطقة الطوارق إلى سبع سلطنات، وكل سلطنة لعدد من القبائل، وهي:

1 - سلطنة آزقر

وتشغل سلطنة آزقر سهول ووديان وواحات جبال تاسيلي، وتمتد أراضيها من مدينة غدامس ومرزق إلى ولزي، في الجنوب الشرقي للجزائر، وتتمركز في مدينة غات، التي تقع إلى الجنوب الغربي من ليبيا.

وتتكون هذه السلطنة من عدد من القبائل، أهمها :

أ ـ قبيلة أفوغاس:

يقال إن اسم القبيلة، اشتق من حيوان منقرض، كان يطلق عليه باللغة التارقية (فعس)، وهو من الحيوانات المفترسة، ويقال: إن الجد الأول لقبيلة أفوغاس، يدعي فعس ـ أما عرش القبيلة فمن طوارق أزجر .

ب ـ إوراغن:

وتنقسم بدورها إلى أهل غات، وكشكزان، وأهل اواي[2].

حـ ـ منغساتن :

من القبائل التي لها مكانة بين أقرانها من القبائل، وعرشها دائماً من طوارق أزجر.

د ـ إلمطين:

هـ - امنـان:

و ـ كيل ولى:

---

(1) لقد زار الباحث اغلب مضارب خيام الطوارق، وبذلك أعطيت تحديداً لتواجدهم، بالإضافة الى ماذكره إسماعيل العربي الصحراء الكبرى وشواطئها ، الجزائر : المؤسسة الوطنية لكتاب 1983.

(2) Djibo M. Hamani OP-cit. P : 12.

ز - مقر غسن[1] :

2 - سلطنة الهقار :

تحد سلطنة آزقر، من جهة الشرق، وتتخذ من مدينة تمنغست في جنوب شرق الجزائر مركزاً لها، وتمتد مضاربها إلى الحدود المالية النيجرية .

وتتألف السلطنة من عدد من القبائل، أهمها :

أ ـ كيل أغلا ·

ب ـ تيطوف، ويطلق عليها كذلك طيطوف·

ح ـ كل أغري، ويطلق عليها كلرولة·

د ـ تيغية ملت أو تاغت ملت[2]·

والجدير بالملاحظة، أن على راس كل واحدة منها، عشيرة نبيلة تحمل اسمها، ورئيس العشيرة النبيلة هو رئيس القبيلة، ويختار إلى جانبه مجلس يتكون من رؤساء أسر العشيرة، ولكن لكي يُعْتمد هذا الاختيار، لا بد أن يقره مجلس القبيلة، الذي يتكون من رؤساء العشائر· أما الرئاسة فهي وراثية ومن ناحية الأم، لا من ناحية الأب[3].

3 - سلطنة والليمدن كل اطرام :

تعني كلمة والليمدان، عند الطوارق، أهل الغرب. وتمتد هذه السلطنة من منطقة أرواغ، إلى منحنى نهر النيجر، وتحدها من الغرب ولاته، ومن الشرق

(1) محمد عبد الرحمان عبد اللطيف الفلاني، الطوارق شعب الصحراء ، مخطوط، مكتبة محمد سعيد القشاط بطرابلس، دون تصنيف، ورقة 37 ـ 38، بشير قاسم يوشع، غدامس ملامح وصور، بيروت : دار لبنان للطباعة والنشر 1973 ، ص ص281 ـ 282 ، وعبد القادر.

(2) محمد عبد الرحمان عبد اللطيف، أمراء دولة الملثمين، مخطوط، مكتبة محمد سعيد القشاط بطرابلس، دون تصنيف، ورقة 20 أحمد بابير الأرواني الجواهر الحسان، مخطوط ورقة 21، ومحمد سعيد القشاط، الطوارق غرب الصحراء الكبرى، المرجع السابق ص 40·

(3) أحمد بابير الأرواني ، الجواهر الحسان، مخطوط ورقة 21، وإسماعيل العربي، المرجع السابق، ص ص 176 ـ 177.

سلطنة تكر يقريت، ومن الشمال تيزي، ومن الجنوب مالنكلي، التي تقطنها قبائل البمبار، والليمودون ترجع أصولها إلى قبيلة مسوفة(1).

وتختلف هذه السلطنة عن بقية السلطنات، لأنها تنقسم إلى إمارات، بالإضافة إلى القبائل، وهذه الإمارات هي :

1 - إمارة كلنصر، تتركز ببلدة قندام، التي تقع إلى الغرب من مدينة تنبكت، والتي تبعد عنها بحوالي خمسين كيلومتراً، وتمتد مضارب الإمارة إلى الشمال من تنبكت، بمنطقة أزاود، وتضم كلنصر أغزاف، وتنكر يقيف وكل بتوارق، وكلتقلالت وكل أسكن وكل قوسى والهشان أبو غليتين وإقلاد.

ب ــ إمارة تنكر يقيق، فهي على منحنى نهر النيجر.

حـ ــ إمارة كونتة، وهي إمارة تقع على أطراف مدينة جاو.

د ــ إمارة إفوغاس، حول جبال إفوغاس(2).

كما تضم سلطنة اولليمدان عدداً من القبائل، وهي :

أ ــ كل أهارا، وهي القبيلة التي تكون فيها السلطنة.

ب ــ كل تهينات.

حـ ــ أغطفانن، ويقال إنها تحريف لاسم قبيلة غطفان العربية.

د ــ إلوغمان.

هـ - أودالن.

و ــ إمنان.

ز ــ إمغران.

(1) - DJIBO, M. HAMANI, OP-cit. P : 4.

(2) محمد سعيد القشاط، التوارك عرب الصحراء الكبرى، المرجع السابق، ص41، والهادي المبروك الدالي ، من روائع أدب أفريقيا فيما وراء الصحراء، اللجنة العلمية لدراسة جنوب الوطن العربي ،بيروت : دار صنين للطباعة والنشر 1996، ص ص 39-40.

ح ـ إشهد نهارن ·

ط ـ إمضضغن ·

ي ـ كل وليّ ·

ك ـ إداو إسحاق، وهي تضم عدة تفرعات ·

4 - سلطنة تقريقريت : والليمدن أهل الشرق:

تعني كلمة تقريقريت الوسط، في لغة الطوارق ، واشتق اسمها من موقعها بين السلطنات، تحدها من جهة الشمال، سلطنة الهقار، ومن الجنوب سلطنة كل اقرس، ومن الغرب سلطنة والليمدن كل اضرام، ومن الشرق تحدها سلطنة تمزقدا آيير، ومركز هذه السلطنة مدينة (طاو)[1][2].

تضم هذه السلطنة عدداً من القبائل، أهمها :

1 - كل نان : وهي القبيلة التي تكون منها السلطنة ·

2 - كلا أغلال : وهي القبيلة الروحية والإمامة عادة تكون في رجالها.

3 - تقرمت ·

4 - إراولن ·

5 - إيخيرخيرن ·

6 - إزرياضن ·

7 - تلميد يس ·

8 - أقيران ·

9 - كيل إزار ·

---

(1) مدينة تقع في جمهورية النيجر إلى الشمال الشرقي من العاصمة نيامي، تبعد عنها بأربعمائة وخمسين كيلو متراً، وهي موطن توارك والليمدن، زارها الباحث عام 1994م .

(2) أحمد بابير الأرواني، الجواهر الحسان مخطوط ورقة 21 ـ22، محمد سعيد القشاط، التوارك عرب الصحراء الكبرى، المرجع السابق، ص42.

10 - أيت أداري.

11 - الشريفن : وهم ينتسبون إلى البيت الهاشمي.

12 - داغمنا.

13 - أقدالن وهم من جداله.

14 - أزويتن، وهم يرجعون إلى قبائل الزوايا بموريتانيا.

15 - إجو انجواتن.

16 - إيدابيرن.

17 - إبهيوان.

18 - إيكد قان.

19 - إيبنكلان

20 - إلبكان.

21 - إيضيضاين

22 - إمغراون، وهم بقايا قبيلة مغراوة، الشهيرة بالشمال الأفريقي.

23 - إيكلان.

24 - إراكيتان.

25 - اشيد يوان[1].

5 - سلطنة ايير :

أطلق عليها هذا الاسم، نسبة إلى جبال (آهيير)، التي يسكنها رعايا السلطنة. تحدها من الشمال سلطنتا آزفر والهقار، وتشترك جنوباً مع سلطنة تمزقدا، في منطقة أزواغ الشرقي، عند هضبة تقتديت، وغرباً تتداخل مع سلطنة والليمدن

(1) - مجهول تراجم علماء باغرم، مخطوط، ورقة 13، محمد سعيد القشاط، التوارك عرب الصحراء الكبرى، المرجع السابق، ص ص42 ـ 43.

كل دنت، وتقريقريت في منطقة أنقال نقدا، ومن الشرق تحدها رمال تينيرى، ومن الغرب واحات كوار بلما.

وتنقسم السلطنة الى ثلاثة أقسام :

1 - آير الشمالية : وهي تضم المناطق الواقعة إلى الشمال من مدينة أقدز، وهي أكثر تماسكاً اجتماعياً، عن بقية السلطنة.

2 - آير الوسطى : وهي تمتد من جبال تغازي في الشمال إلى أودراس في الجنوب، وهي عبارة عن جبال؛ وأهم جبالها تغازي، وأغرغاتن، وتمغة والبنداي، وسرسُو، وأعلان، وأغتن، ودحلان، وجبل بلا واودراس، وكل هذه الجبال ذات انحدار شديد.

3 - آير الجنوبية : وهي عبارة عن منحدرات صخرية، ولها قمة واحدة يبلغ ارتفاعها 3300 قدم[1].

وخلال القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي، استوطن البربر آير، وشيدوا بها مدينة تين شمن، على الطريق التي تربط أودراس بأقدز، واتخذوا منها عاصمة لإمارة عرفت ازدهاراً اقتصاديا وثقافياً .

وقد أفاد صاحب مخطوطة تراجم علماء باغرم أن قبيلة من العرب المغاربة تدعي (كيل أوي) جاءت من الشمال الغربي، من مملكة الكوسى، بين (زندر)[2] وكوكا، واستوطنت المنطقة عام 1153هـ/ 1740 م، ويبدو أنها من الطوارق، المطرودين من تلك الأماكن[3].

ينقسم سكان آير إلى مجموعتين رئيسيتين، هما :

---

(1) مجهول، تراجم علماء، باغرم، مخطوط، ورقة 13، وإسماعيل العربي، المرجع السابق، ص191.

(2) زندر : مدينة من ضمن جمهورية النيجر الحالية، تقع إلى الجنوب الشرقي من العاصمة نيامي، وتبعد عنها بحوالي 600 كلم.

(3) مجهول، تراجم علماء باغرم، مخطوط، ورقة 14، وإسماعيل العربي، المرجع السابق، ص192.

السود والطوارق :

ويعتبرون أكثر تقدماً من إخوانهم، في الشمال. وطوارق آير أقل تماسكاً من حيث التنظيم الاجتماعي، من طوارق الشمال، بينما ظل شيخ الطوارق في الهقار (امنوكل) يحتفظ بسلطته القوية، عبر العصور، فإن (بامنوكل)[1] طوارق آير لا يملك إلا سلطة اسمية[2].

تقطن أهم قبيلة من آير مدينة أقدز، التي تأسست في القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي، على أيدي القبائل الليبية الخمس، والتي اقتسمت فيما بينها إقليم آير . ونظراً لموقعها المتميز، أصبحت أقدز قصبة المنطقة لمملكة مزدهرة اقتصادياً وثقافياً. وقد بلغت قمة مجدها عام 926هـ/ 1519م، بعد أن استولى عليها السلطان أسكيا الحاج محمد[3].

وتضم سلطنة آير عدداً من القبائل، وهي :

1 - كيل اواي.

2 - ايكزكزن.

3 - كل تدلي.

4 - إفوغاس.

5 - إهقاران.

6 - كل إغاروس.

7 - كل اقدادي.

8 - أخير خيرن.

---

(1) بامنوكل تعني سلطانًا عند الطورق.

(2) نفسه والورقة.

(3) مجهول، تاريخ أقدز مخطوط، ورقة 10، وإسماعيل العربي ، المرجع السابق، ص193، للمزيد عن مدينة أقدز، ارجع للأطروحة نفسها ص 453.

9 - إمزوراك ·

10 - كل فروان ·

11 - إفرتين ·

12 - إقدالن ·

والجدير بالملاحظة، أن هذه السلطنة، من تقاليدها، تولي شيخ القبيلة كيل أواي منصب مستشار السلطان لشؤون الطوارق، وهو بمثابة نائب للسلطان، ويعرف عند الطوارق (بأنستا فيدت)[1].

6 - سلطنة تمزقدا :

تتميز بموقعها الإستراتيجي، إذ إنها تحتل أراضي خصبة، ينزل بها المطر· إضافة إلى ذلك، تتحكم في طرق القوافل القادمة من ليبيا إلى بلاد الهوسا، وكذلك مصر، كما ترتبط بعلاقات تجارية مع مناطق بحيرة تشاد، ومملكة كانم، وقبائل التبو، والزغاوة[2].

وقد ذكرها ابن بطوطة في رحلته، عندما أورد قائلاً: " . . . وفي أيام إقامتي بها توجه القاضي أبو إبراهيم، والخطيب محمد والمدرس أبو حفصى والشيخ سعيد ابن علي إلى سلطان تكدا، وهو عربى مغربى يسمى إزار، وكان على مسيرة يوم منها، ووقعت بينه وبين (التكركري) وهو من سلاطين العرب المغاربة أيـضاً منازعة فذهبوا إلى الإصلاح بينهما "[3].

حدود السلطنة :

تحدها من الشمال سلطنة آيير، ومن الجنوب مملكة كتشنا الهوساوية، ومن الغرب سلطنة تكريقريت، وسلطنة كل أفرس، ومن الشرق مملكة برنو .

(1) مجهول، تراجم علماء بغرام، مخطوط ورقة 16، محمدسعيد القشاط، التوارك عرب الصحراء الكبرى، المرجع السابق، ص43.

(2) - نفسه والورقة.

(3) - ابن بطوطة المصدر السابق، ص595.

وتتكون السلطنة من عدة قبائل، أهمها :

1 - الشريفن، وينتسبون لأشراف بني هاشم ·

2 - كل فروان ·

3 - إيكزكزن ·

4 - إيفدين ·

5 - إيكشكشن ·

6 - إفوغاس ·

7 - إمزوراك ·

8 - كل انبرده ·

9 - إيرضيانن ·

10 - إزمايان ·

11 - إيرغران ·

12 - إقدالن ·

13 - كل طمات ·

14 - إيمزوغن ·

7 - سلطنة كل اقرس :

هي آخر سلطنات الطوارق، إلى جهة بلاد الهوسا، وتحتل المنطقة المعروفة (بآخر واضر) وتعني الوادي الصغير، في لغة الطوارق، وتحدها من الشمال الغربي سلطنة تكر يقريت، ومن الجنوب قوبير، ومن الغرب سلطنة تمزقدا.

ومقر هذه السلطنة أزرا روري، إلى الشمال من مدينة ماداوا .

تتكون هذه السلطنة من عدد قبائل، وهي:

1 - كل اقلان، وهم مجموعة الأغلان بموريتانيا.

2 - إغاون.

3 - كل منير.

4 - إتيسان[1].

سلطنة مقشرن :

تتمركز هذه السلطنة، في المنطقة الواقعة بين ملاحات تغازا إلى مدينة تنبكت، وهي سلطنة وافرة العدد، ويرجع أصل سكانها إلى لمتونة من حمير. يشتهر أبناء هذه السلطنة بنشاطهم التجاري المتميز، الذي مكنهم من بناء مدن كبرى في السودان الغربي، مثل مدينة تنبكت، وقد عرف سكان وسلاطين مقشرن بالفضل والعلم والعطف، حيث احتمت بهم قبيلة أولاد عبد الرحمن في القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي، فنزلت عندهم ومكثت بينهم ثمانين سنة، وجدوا من خلالها حسن المعاملة. ظل الطوارق في تلك المناطق، إلى أواخر القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي، حيث أبعدهم عنها جيش جودر. وأورد السعدي أن دولة مقشرن، استمرت ثلاثين سنة من تاريخ سبعة وثلاثين من القرن التاسع[2].

سلاطينهم :

أول سلاطين طوارق مقشرن :

1 - فأوسنب بن محمد بن أليم بن الكنقي، المولود بمدينة تنبكت.

2 - الحاج محمود دبير، وهو من مواليد مدينة تنبكت.

(1) مجهول، تاريخ أزواد في خبر البرابيش، مخطوط، ورقة 2-3 ، ومحمد سعيد القشاط، التوارك عرب الصحراء الكبرى، المرجع السابق، ص46.

(2) مجهول، تاريخ أزواد في خبر البرابيش، مخطوط، ورقة 1ـ 2، أحمد بابير الأرواني، الجواهر الحسان، مخطوط، ورقة 22-23 ، وعبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص22.

3 - محمد وأوسنب، وهو مزداد بمدينة تنبكت

4 - أبوبكر وأوسنب، وهو من أولاد أليم بن الكنقي، ولد في مدينة تنبكت، وارتحل إلى ديار أولاد سيدي محمود، منذ صغره لطلب العلم، وبعد أن تبحر فيه، اشتغل بالتدريس إلى جانب أمور السلطنة. كانت خاتمة حياته مؤلمة؛ إذ دخل دياره القائد مصطفى التركي، وأباد جميع أهله ومؤيديه[1].

5 - في عام 1134 هـ/ 1712م كان سلطان الطوارق الشيخ بن كردان، ثم جاء بعده السلطان كي محمد نض[2]. ومن الذين تولوا السلطنة (أكل) وابنه عمار، الذي انتهج سياسة، طبعها الظلم والفساد[3].

أما مدينة تاد مكتة، فقد تعاقب عليها عدد من السلاطين، كان أولهم النابغة (بن كاوي) و(سرم) و(اكودرن) و(سالم بن واكس بن منصور)[4].

مكانة الطوارق وثقلهم السياسى :

عرفت قبائل الطوارق، لدى ممالك وقبائل السودان الغربي بالقوة، والشجاعة الفائقة، وبعزة النفس؛ فتسابق عدد من ملوك السودان الغربي إلى كسب ودهم، والتودد لهم، وكانوا يمثلون العمق الاقتصادي في تجارة القوافل عبر الصحراء، وكانت أغلب القوافل التجارية المتجهة من غدامس إلى تنبكت وباقي مناطق السودان الغربي يقودها الطوارق[5]، ولكن على الرغم من ذلك فقد نعت عدد

(1) - عبد الرحمن السعدي ، المصدر السابق ص 313.

(2) - المختار بن محمد بن المختار بن أحمد، بن المختار، نبذة منقولة عن الشيخ الكبير المختار الكنتي حول الطلسم، مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر، رقم 90، ورقة 46 .

(3) مختار بن محمد بن المختار بن احمد، يبعث برسالة إلى امير المؤمنين الشيخ أحمد بن أبي بكر بن سعيد، مخطوط، مكتبة محمود أحمد الأرواني، دون تصنيف، ورقة3 ، وعبد الرحمن السعدي، المصدر السابق ، ص ص 22 - 24.

(4) المختار بن محمد بن المختار بن أحمد، يبعث برسالة الى أمير المؤمنين الشيخ محمد بن أبي بكربن سعيد، مخطوط، مكتبة جبريل دكوري بتنبكت، دون تصنيف، ورقة 3 .

(5) جيمس ريتشاردسن، ترحل في الصحراء من 1845-1846، ترجمة الهادي مصطفى أبو لقمه، منشورات جامعة قاريونس 1993، ص 140.

من مؤرخي السودان الغربي الطوارق، بنعوت لاتمت أغلبها إلى الحقيقة بصلة؛ ومنهم صاحب مخطوط نصيحة الأمة الذي قال: «وأما الطوارق فإنهم تغلبوا من غير معرفة بسياسة الملك، والقيام بالمناصب الشرعية، فإنهم يخربون ولايعمرون! وهذا هو حالهم... وهم مع ذلك أولى في كثرة إراقة الدماء واستحلالها في القرن الثالث بعد الألف»[1] 1003 هـ/ 1594م.

وقد وصفهم المختار بن محمد بن المختار، في رسالة بعث بها إلى أحمد ابن أبي بكر، قال له فيها عن الطوارق: «... ذلك أن الطوارق فوق مايوصفون به من كثرة الرجال وبسطة الأجسام والأموال، وغالباً ديارهم صحارى وفلوات... »[2].

إن ما أورده جلال الدين الفقيه عنهم، لايمت إلى الحقيقة بصلة؛ نظراً لأنهم أثبتوا نجاحهم في تسيير أمورهم وعلاقاتهم مع جيرانهم. أما ما خاضوه من حروب، فقد كانوا مكرهين عليه.

لقد شهد الطوارق صراعات دموية، مع بعض حكام السودان الغربي، الذين أرادوا تأديبهم كما يزعمون. وقد حدثت مواجهات دامية، بينهم وبين الملك سني علي، أول ملوك إمبراطورية سنغاي، الذي اتهم بعض العلماء وبعض العامة، ظنّا منه بتواطئهم مع الطوارق، الذين أذاقوه الويل[3]، لأنهم من الشعوب المحاربة، والمتمرسة في حرب العصابات، التي ماتزال إلى يومنا هذا من أنجح الحروب وأكثرها فاعلية.

وفي عهد مملكة مالي الإسلامية، حاولوا الانفصال عن المملكة[4]؛ نظراً

(1) ـ جلال الدين محمد الهما التنبكتي، نصيحة الأمة في إثبات حكم الرخصة، مخطوط، ورقة 10.

(2) ـ المختار بن محمد بن المختار يبعث برسالة إلى أحمد بن محمد بن أبي بكر بن سعيد، مخطوطة ورقة 14.

(3) ـ عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص 65.

(4) ـ نفسه، ص 27.

لشعورهم بالقوة، والقدرة على تكوين دولة في مضارب ديارهم، كما حدثت، في عهد إمبراطورية سنغاي بينهم وبين بعض ملوكها مناوشات، وخاصة في عهد السلطان أسكيا إسحاق، الذي عرف قوتهم وشدتهم، فكسبهم إلى صالحه، بعد أن كانوا ضده، وسخرهم لتأديب وإظهار قوة سنغاي لدى حكام مراكش، الذين بدأوا يتطلعون إلى دخول المنطقة، حيث أرسل فرقة من فرسانهم، إلى مشارف مراكش، وطلب منهم الإغارة عليها، دون أن يقتلوا أحداً[1].

وعندما جاء جيش منصور الذهبي إلى السودان الغربي، قاومه الطوارق مقاومة عنيفة وظلوا يتحينون الفرص، وحينما خرج جيش المغرب استولوا على تنبكت، وكونوا دولة الطوارق[2].

وقبائل الطوارق، كانت لديهم صراعات مع قبائل الفلان، المنافسة لهم في المنطقة. ويكشف هذا الصراع، الرسالة التي بعث بها أمير المؤمنين أحمد بن محمد إلى الشيخ سيدي المختار بن سيدي محمد سنة 929 هـ / 1522 م .

وهذا نصها :

«بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الذي يأجر الشافعين والمشفعين ويجزي الشاكرين ويحب الصابرين والمحسنين، والصلاة والسلام على أفضل الشافعين والمشفعين.

أما بعد فالسلام بالتمام والإكرام بالاهتمام من الشيخ أمير المؤمنين أحمد ابن محمد إلى الأخ في الله والعون المتعاون على طاعة الله سيدي المختار، جعلنا الله من المصطفين الأخيار آمين. قد رأيت ماكتبت إليّ من أنك تخوفت من أن نذكر ليس في أمرئ برد قائم العير من أموالنا التي نهبوها قبل قدومك وبعده، إلا أن نتبين في ذلك التخوف وعلته إلى ماقلت في كتابك فإنه تعني سر ولم يزل متعلقًا بي ولم أزل شافعًا له عندك ماشفع شفاعة الشافعين عند السادة النافعين

(1)- عبد الرحمن السعدى، المصدر السابق، ص 65 - 99 - 127.

(2)- أحمد بابير الأرواني، الجواهر الحسان، مخطوط ، ورقة 21 .

. . . عقدنا رأينا عقداً مستحكماً على أن لايثنينا مع هؤلاء الطوارق الغلاة البغات الطغاة العبدة المردة الغدرة الفجرة . . . لأنهم لم يزالوا منذ زمن والدك المرحوم يغشوننا غشا ويغدروننا غدراً مرة بعد أخرى، ويبغتون قرية (كبرى) بعد أخرى، ولاحساب للقرى الصغرى والخيانات الأخرى، ولذلك أزمعنا على أن نجادلهم وندامغهم حتى يبعدوا عنا. . .أو يرجعوا إلينا أذلة صاغرين بحيث ننفذ حكم الشرع الشريف . . . كما نفذت في أشياعهم من أجناسهم كتوارق تشيت، وقد جئت بتوفيق الله جاداً مجداً في الإصلاح وطلب الفلاح والصلاح . . . فقد فوضنا أمر هؤلاء الطوارق إلى الله ثم إليك، فأفعل في أمرهم كيفما رأيت ورجوت الفلاح والصلاح للإسلام وأهلها. . . وإن رأيت إسقاط غنائم العين الذي نهبوه من قبل قدومك وبقية مال الصلح والمنهوب قبل وبعد، مع بقاء عالم فالإمارة فافعل أيضًا ولكن بشرط إن رأيت إبراء ذمتي من حقوق أرباب هذه الأموال كلها شرعاً، وشاورت إخوتك الأمير عثمان وأحمد بن عمر في ذلك لاأريد إلا الإصلاح ماستطعت كما تيقنت ذلك والسلام انتهى»[1].

من خلال فقرات النص السابق، يتضح الآتي :

1 - الديباجة التي تكتب بها الرسالة.

2 - مكانة قبيلة كنته الروحية، بين قبائل السودان الغربي، لأن المرسل اليه كنتاوي.

3 - حالة الخوف التي تسيطر على سلطان الفلان والأهالي من ممارسات الطوارق، وسطوهم على تجار الفلان، وأخذ عيرهم.

4 - يبدو أنه كانت هناك مراسلات بين سيدي المختار وأمير المومنيين أحمد ابن محمد.

---

(1) - أحمد بن محمد يبعث برسالة إلى الشيخ سيدي المختار بن سيدي محمد، موضوعها في شان خلاف بين الفلان والتوارك، مخطوط، مكتبة محمد علي الفلاني. بأروان، دون تصنيف، تاريخها هـ/ 1529م، ورقة واحدة.

5 - يبدو أن الخلافات كانت قديمة بين الفلان والطوارق، وعبارة: لم يزالوا منذ زمن والدك يغشوننا لدليل على ذلك.

6 - من الواضح أن الطوارق أقوى من الفلان، فلهجة الرسالة تدل على ذلك.

7 - لجوء الفلان، وطلبهم الصلح والتدخل، يدل على حرصهم على عدم إراقة الدماء..

8 - الصراعات القبلية وحالة الفوضى في تلك الفترة وعدم قدرة مملكة سنغاي على ردع المتمردين من القبائل.

كما كان لقبائل الطوارق صراع دامٍ مع إدريس ألوما من 1564 إلى عام 1576م، فقد غزاهم ثلاث غزوات تسمى الغزوة الأولى سكتله أوبرس، والغزوة الثانية هي بدنكم أو ترغيغة، والثالثة تسمى تادس.

ففي الغزوة الأولى حدث بينهم صراع، كاد أن يفنى الطرفين، بدأ من بعد صلاة المغرب، حيث قتل إدريس تسع من قادتهم وانتصر عليهم، وغنم نساءهم وأولادهم وأموالهم، ورجع إلى برنو..

أما الغزوة الثانية، فقد توجهت صوب أهل دلكر، حيث دخل معهم في معركة من الضحى إلى الليل، صمد فيها الطوراق صمود الصخور، وسقوا إدريس كاساً مرّاً، ألحقت به هزيمة نكراء[1]. وفي المقابل، كانت قبائل الطوارق على علاقات وطيدة مع قبيلة كنته العربية، وهذه المخطوطة التي نوردها الآن برهان على ذلك، قال صاحب المخطوط : «سمعت الوالد رضوان الله عليه يقول قدم؛ أي الشيخ بن كردن سلطان الطوارق في مائتي راكب على ولي الله سيدي الحاج أبي بكر بن محمد بن عمر الوافي، ثم الكنتي سنة أربعة وثلاثين بعد المائة وآلاف 1134 / 1721 م فقام عندهم ثلاثة أيام، فعرض الجماعة له مداره مائة ناقة وحصانا [ولباساً وحراقا] وسروال حبش في صندوق عنده،

(1) - أحمد بن فوطو، كتاب غزوات السلطان إدريس ألوما في برنو 1564-1576، حققه وعلق عليه وترجمة إلى الإنجليزية ديرك لانجي، فرانز شتيز، 1984، ص32-33.

فكان يبعث خديمه ويقول له : أدخل يدك في الصندوق وأخرج دراعة وحراماً وسروالاً، ولاتفتح الصندوق فيذهب الخادم فيأتي بما ذكر، فيناوله رجلاً من القوم ثم يرد الخديم فيأتي فمثل ذلك حتى ألبس المائتي رجل، فلما أخرج الخديم آخر ذلك نظر في الصندوق فإذا فيه دراعة وحرام وسروال فأخبر السيد الحاج أبا بكر بذلك، فقال له : أفتحت الصندوق؟ قال نعم! قال : لو لم تفتحه مازلنا ننفق منه»[1].

علي الرغم من أن هذه المخطوطة متاخرة عن الفترة بإحدى وعشرين سنة، إلا أنها تكشف النقاب عن جملة من الأمورالقديمة التي لاتتغير بسرعة، وهي :

1 - اسم سلطان الطوارق .

2 - العلاقات الحميمة بين الطوارق وكنته.

3 - كرم الضيافة، التي كانت عليها قبيلة كنته.

4 - القوة والهيبة، التي كان عليها سلطان الطوارق عدداً وعدة.

5 - ثراء رئيس قبيلة كنته، بتمويله لسلطان الطوارق، وأتباعه لمدة ثلاثة أيام وكسوتهم جميعا.

6 - أنواع الملابس التي يرتديها مشايخ وأهالي كنته.

7 - مدى هيمنة الجانب الروحي، على عقول أبناء السودان الغربي،وإظفاء الهالة الروحية على مشايخهم، فكيف لصندوق واحد أن يتسع لكل هذه الملابس !؟.

التنظيم السياسى لقبائل الطوارق :

يتألف نظام الحكم في السلطنات التارقية، من سلم إداري يتمثل في :

1 - **السلطان** : ويطلق عليه طوارق الهقار، واطرام ،وتكريقريت،وأمنوكال، أو أمغار، ناكال، وتعني عندهم إمام البلد. أو شيخ البلد

(1) ـ المختار بن محمد بن المختار بن أحمد، نبذة منقولة عن الشيخ المختار الكنتي حول الطلسم، مخطوط، ورقة 42.

وفي آيير، وتمزقدا، وكل أقرس، يسمى الطبل؛ لأنه المسؤول عن الطبل، وهو شعار الحكم والسلطنة، ويستعمل في الحرب وإدارة الاجتماعات.

ينصب الأمنوكال من طرف لاماني، وهو مجلس الأتابالان، ويتألف من رؤساء القبائل، وله الحق في عزل السلطان، ويرأس هذا المجلس السلطان الذي له الحق وحده في إعلان الحرب أو السلم. أما مجلس الأتابالات فهو المسؤول أولا وأخيراً، عن استتباب الأمن، والمسائل الاقتصادية، والدينية، والاجتماعية[1].

وعادة مايكون السلطان محاطاً بمجموعة من القانونيين، والحكماء، والعلماء الذين يشغلون وظائف المستشارين، والقضاة والأئمة.

أما الأمور السياسية، والعسكرية، فينفرد بها السلطان عن غيره، يساعده في هذه المسؤولية أمغار أفغامان، بمعنى القائد العسكري، وهو يقوم بتدريب الشباب على فنون الحرب والأسلحة المختلفة، كالسيف، والرمح، والخنجر، ونحوه[2].

وكذلك يتميز السلطان بالتحكم في الطبل، الذي يعتبر الأداة الإعلامية، التي يتم بها إعلام القبائل بأمور السلطنة في السلم، والحرب.

وبما أن الطبل يمثل جانباً مهماً في حياتهم فإنهم وضعوا له مصطلحات ورموز تعارفوا عليها عن طريق عدد ضرباته، والأوقات التي يضرب فيها. فيضرب عندما يريد السلطان جمع الأهالي ثلاث ضربات على الطبل في النهار، ومثلها في الليل، وكذلك عند إعلان الحرب، وتكون اثنتا عشرة ضربة، وتعاد دون انقطاع ليلا ونهاراً؛ أما الإعلان عن قدوم خطر خارجي؛ فيضرب على الطبل دون

(1) - عبد الرحمن عبد اللطيف، مخطوط، ورقة 44، ومحمد سعيد القشاط، التوارك عرب الصحراء الكبرى، المرجع السابق ص ص50- 51.

(2) - نفسه والورقة.

انقطاع طيلة النهار والليل. كذلك إذا ماأرادوا غزو الأعداء، فإنهم يضربون الطبل ست ضربات، وتعاد أربع مرات في النهار وأربع مرات في الليل، ويضرب على الطبل ثماني ضربات إذا اختفت إحدى القبائل ، أما عند ارتفاع الخطر عن مضارب الطوارق، فيتم الإعلان عن ذلك بضرب الطبل ثمان ضربات فقط لا تعاد. أما الذي يقوم بضرب الطبل، فعادة مايكون عبداً من عبيد السلطان[1].

وهذا الطبل عبارة عن قصعة خشبية، يربط عليها جلد بقر، أو بعير بعد دبغه بعود الجداري، ويشد بحبال رقيقة وقوية على القصعة، ويثقب الجلد أربعة ثقوب صغيرة على هيئة دائرة، لكي تسمح بمرور الهواء عند الضرب.

يقرع الطبل بعصا خاصة، أو بعقال بعير، ويفضل العقال لأنه لايؤثر على الطبل، وبذلك لايستهلك بسرعة[2].

طريقة تنصيب الأمنوكال وبعض وظائف الدولة :

اليوم الذي ينصب فيه الأمنوكال، يعتبر مناسبة مهمة في نظر الطوارق، تعد لها الاستعدادات، والمسؤول عن الترتيب لهذا الاحتفال الفقهاء والعلماء، فعندما يعرض أكثر من مرشح نفسه لهذا المنصب، يأمر المسؤولون عن هذا التنصيب المرشحين، بأن يجلس كل واحد منهم في خيمة أو تحت شجرة، ويطلبون من كل شخص يريد مرشحًا معيناً، الذهاب إليه والجلوس إلى جواره، ويعتبر الفائز هو الذي يجلس إلى جواره أكبر عدد من شيوخ القبائل.

ومن الوظائف في السلطنة، وظيفة شيخ القبيلة (أمغار)، وهو المسؤول في حالة الحرب والسلم عن القبيلة، وجمع الأموال لخزينة السلطنة ونحوه. وكذلك من المناصب منصب الإمام الذي يمثل الجانب الروحي، ومن يتولاه لابد أن يكون متظلعًا في الأمور الدينية، ويشرف على التعليم والمساجد[3].

(1) - محمد سعيد القشاط، التوارك عرب الصحراء الكبرى ، المرجع السابق، ص 51 .

(2)- محمد عبد الرحمن عبد اللطيف، مخطوط، ورقة 46.

(3)- نفسه والورقة.

منصب مجلس المشايخ :

يتكون من جميع شيوخ القبائل، ويجتمع بدعوة من الأمنوكال، ومن مهامه: مناقشة الأمور المتعلقة بالسلم والحرب، وتسيير القوافل التجارية، وتأمين الحماية لها، وتوجيه حركة انتجاع الرعي في طلبهم للماء و الكلأ، وتجنيبهم هجمات الأعداء[1]. هذا عن قبائل الطوارق وماتمثله من ثقل في المنطقة يحسب حسابه .

موطنهم واصلهم :

تقطن قبائل الفلان في شمال موريتانيا ومالي، وشمال شرق النيجر، ونيجريا، والسنغال، وبوركينافاسو وتشاد[2].

جاء المؤرخون بعدة آراء، حول أصل قبائل الفلان، فكل واحد منهم انتحى رأياً بذاته.

وقد أورد صاحب مخطوط، فتح الحنان المنان، بأن الفلان يرجع أصلهم إلى الفاتح العربي عقبة بن نافع، الذي بنى في القيروان لعسكره أربعة آلاف وستمائة داراً، وكان معه عشرة آلاف من المسلمين، وقد جاوز بجزء منهم إلى السودان؛ حتى وصل نهر النيجر، واستقر بمدينة كل السوق، وترك مجموعة من جيشه، قدر عددهم بألفي عسكري، ليوطدوا الإسلام ثم كر راجعاً، وقد قتله كسيلة في الطريق، والذين تركهم تزاوجوا مع السكان الأصليين، وحرفت كلمة ألفين، إلى أن وصل الاسم مايعرف بالفلان[3].

وقد أورد في نص آخر قائلاً «إن الإسلام دخل إلى السودان، في القرن الأول الهجري، على يد عقبة بن نافع الفهري الصحابي الجليل، ولقي بعض

(1) محمد عبد الرحمن عبد اللطيف، مخطوط ورقة 46.

(2) وقف الباحث على أغلب منتجعاتهم في عام 85 ـ 87 ـ 94 ـ 95 .

(3) محمد محمد المفتي (مرحبا)، فتح الحنان المنان بجمع تاريخ بلاد السودان، مخطوط، ورقة 4 - 15، محمدمحمد المفتي (مرحبا)، التاريخ الخاص بالتواتر، مخطوط ورقة 24 ، وفيج جي دي، تاريخ غرب أفريقيا، المرجع السابق، ص 30 .

قبائل الروم، فدعاهم إلى الإسلام فأسلموا على غير قتال، وأسلم ملكهم المسمى (برمندانه)، وتزوج بنت الملك وتدعى (بجْرمغ)، فأنجبت أربعة أولاد، هم الذين يرجع إليهم أصل القبائل الفلانية، ومقرهم بلاد فوتا؛ وبمرور الأجيال نشأت منهم هذه اللغة الفلانية»[1].

وأورد موسى بن السعدي عن أصل الفلان بأن : «الفلان قبيلة من قبائل الروم، أسلم ملكهم من غير قتال، وتزوج عقبة بن عامر ابنة ملكهم (بح مع)، فولدت كل قبيلة الفلانيين، وقد تكلم أبناء عقبة بن عامر بلغة أمهم، ويورد صاحب المخطوط أن هذه المعلومات استقاها من ثقاة من أهل بلاد فوت تور.

وأورد صاحب المخطوط، في موضع آخر، أنه نقل عن سيف دمك عبد السلام أن الفلان الذي في فوت، أصلهم من قبيلة من قبائل أقباط مصر، يسمون بالفلاح، أهل ماشية، وأهل بادية، وأن أصل لفظ الفلان الفلاح، وأصلهم من فلاحي مصر، فلما طال تداول الألسن للكلمة تبدلت. وإلى يومنا هذا بقاياهم هناك يتكلمون بلغتهم، وإن طباع الفلان موافقة لطباع أهل مصر[2].

وأورد كذلك موسى بن أحمد السعدي قصيدة طويلة عن أصل الفلان، نورد منها البيتين الآتيين :

فتورب إخوان الفلانين إخوة　　　لعرب فمن روم بن عيض تفرعوا

فعقبة جد للفلانيين من عرب　　　ومن تور كانت أمهم وهي يجمع[3]

كما أورد محمد بن الشيخ عثمان بن فودي في نسب الفلان قوله : «الحمد لله الذي ألهم وعلَّم الأنسان . . . وهم يعني التورذ أصل قبيلة الفلان ولغتهم

---

(1) محمد محمد المفتي (مرحبا)، فتح الحنان بجمع تاريخ بلاد السودان، مخطوط، ورقة 15 - 16

(2) ـ موسى بن أحمد السعدي، مخطوط، ورقم 63 .

(3) نفسه والورقة 48 .

هي لغة الفلان وماذكر عن قبيلة الفلان، بجمع بنت ملك التورود تزوجها عقبة بن نافع الفهري، فأنجبت له أربعة أولاد دعب وباس ورعب ووى ، فولد دعب فيعى، وتضم قبائل سنغي وغيرهم، وباس ولد البعاويين فمنهم قبائل وُلرُب ، ووى ولد قُرب وهي مشهورة عند الفلان، ورعب ولد والرب، وجزءاً من أبناء هذا الفخذ كان أمراء على الفلان »[1].

وأورد محمد بن عثمان بن فودي في موضع آخر أصل التورود بقوله : «أصل التوروذ على حد علمي أنهم من نصارى الروم، وصلت اليهم جيوش الصحابة فأمن ملكهم وزوج بنت عقبة بن عامر الصحابي المجاهد أمير المغرب، فولدت قبيلة فلان المشهورة انتهى»[2].

يورد صاحب المخطوط أنه استقى معلوماته عن أصل الفلان من الحسن البلبالي الذي أخبره المعتمد عندهم في فوت، وهو مقر الفلان، أن أصل التورود بنبر من أهل السودان، سار من جاو ملكهم تور إلى فوت بجانب النهر وسيطر عليها[3].

وقد ذكر ابن فودة في موضعين أصل الفلان، في الأول يقول البعض ينادي (أن الفلان من اليهود)[4] والدليل على ذلك حبهم للبقر والتمسك بالعصي[5].

وأورد بن فودي بيتين في أصل الفلان، يتفقان في مضمونهما مع ماأورده موسى بن أحمد السعدي، ويختلف معه في تركيبة بعض من إخوتهم، وهم :

---

(1) محمد بن عثمان بن فودي، نسب الفلان، مخطوط، مركز أبحاث النيجر، رقم 650 ورقة 1-2.

(2) ـ محمد بن عثمان بن فودي، نسب الفلان، مخطوط، ورقة 2.

(3) نفسه والورقة.

(4) يشتغل اليهود منذ عام 1980م على قبائل الفلان في منطقة تنبكت وجاو وأقدز وزند، ويؤكدون لهم بأنهم بقايا من الفلاشة، واستطاعوا إرجاع مجموعات منهم إلى الأرض المحتلة.

(5) محمد بن فودي ، إنفاق الميسور ، في تاريخ بلاد التكرور، مكتو: الناشر الحاج طن أغي طابير يرو، 1964، ص 223.

بنو تور إخوان الفلانيين من عرب   لعرب فمن روم بن عيصو تفرعوا
وعقبة أبو كل الفلانيين من عرب   ومن تـور كانت أمهم هي تجمع[1]

كما أورد عبد الله بن فودي أن الفلان من بنبارة السودان، وعندما جاء الفاتحون المسلمون اعتنقوا الإسلام، وطلبوا من أمراء الإسلام أن يتركوا لهم من يعلمهم أصول دينهم، فتركوا لهم عقبة بن نافع، وقد جلس ليعلم الناس الدين الإسلامي، وتزوج عقبة ابنة أمير التورد (بج منغ)، وأنجب أبناء يتكلمون بلغة غير لغة أبيهم، ثم رجع عقبة إلى بلاده[2].

وأمام اختلاف هذه الآراء حول أصل الفلان، فإني أميل إلى ماذهب إليه محمد محمد المفتي مرحبا، والشيخ عثمان بن فودي، في نسب الفلان وصاحب مخطوطة خبر السوق، لأنهم يؤكدون أن أصل الفلان من نسل عقبة بن نافع الفهري، وذلك للأسباب الآتية :

1 - من خلال زياراتي لمنطقة السودان الغربي، وإلى مضارب خيام الفلان في ليرة، وتنبكت، وقندام، وجاد، وجني، وأقدز، وطاوه، وكنى، وغيرها من أماكن تواجدهم، واتصالي ببعض من مثقفيهم عمر سيسه ومحمود محمد الطاهر وبوبو ولد سيدي وغيرهم، أكدوا إليّ بأنهم عرب، وأنهم من نسل جيش عقبة بن نافع الفهري، الذي تركه على ضفاف نهر النيجر.

2 - وكذلك من الوجهة المنطقية، كيف لقائد فاتح ناشر للإسلام في أدغال أفريقيا، أن يرجع بكل جيشه، والإسلام مازال في بدايته؟ وكذلك كيف لجيش أن يبقى في المنطقة، منعزلاً عن نفسه، دون أن يختلط بالسكان الأصليين؟.

3 - جل الآراء التي وردت في أصل الفلان تورد عقبة بن نافع، وإن اختلفت الأساليب في العرض.

(1) حمد بن فودى، انفاق الميسور، المصدر السابق ص 222 .

(2) عبد الله بن محمد بن فودي، ضياء السياسات وفتاوى النوازل، تحقيق أحمد محمد كاني، الزهراء للإعلام العربي 1988، ص ص 11 - 12 .

4 - إن ما ورد أن الفلان من قبيلة الفلاح القبطية، القاطنة في مصر، وأن لغتهم ماتزال في مصر، كلام مردود على أصحابه. وقد سألت من لهم دراية بذلك في مصر، حول هذا الموضوع، فأكدوا لي عدم صحة هذه المعلومات، وأن لا أحد في مصر يتكلم لغة الفلان.

5 - تتكلم بعض القبائل العربية، في اليمن لهجة الفلان، وهذا يسند وجهة نظرنا في عروبتهم. أما القول بانتساب قبائل الفلان إلى عقبة بن عامر، فهذا أمرٌ مردودٌ على أصحابه، لأن عقبة بن عامر قتل يوم اليمامة، زمن خلافة أبي بكر الصديق.

6 - أما ماورد من أن الفلان من اليهود، نظراً لحبهم للبقر، وتمسكهم بالعصا، فهو دليل واهٍ، لايستند إلى الحقيقة العلمية. فكيف لنا أن ننسب شعباً اعتماداً على بعض مظاهره الخارجية، إذ لو كان الأمر كذلك، لكان الأحرى والأجدى بنا أن نؤصلهم إلى الهنود، لأنهم لايحبون البقر فقط بل يقدسونه.

أشهر قبائلها :

وردت عدة آراء حول تسمية فوت طور، نورد منها الآتي :

الرأي الأول :

1 - ترجع فوت طور إلى فل وسبات ووسبات بمعنى البيضاني

أما الرأي الثاني :

يقول إن فوت طور اسم رجل، واسم والده إسماعيل، ويحتمل أن يكون لقب أهل قبيلة طور مشتقّــاً من اسمه، وغلب على غيرهم أسماء آبائهم أو أسماء بلدانهم أو غير ذلك.

الرأي الثالث :

يقول إن فوت اسم ولد لحام بن نوح عليه السلام، وأن لحام أربعة أولاد :

كوش ، ومضر، وفوت وكنعام· فكوش والد أسلاف الحبشة، ومضر والد المصريين أي القبط ، وفوت والد الفوتيين ، وكنعان والد السوريين، الذين كانوا متوطنين بسواحل الشام·

الرأي الرابع :

يقول : إن اسم فوت، يدل على الأقوام الليبيين الأوليين، أي أهل جبال برقة وماحولها من قبائل العرب المغاربة الذين نزلوا بهم فيما بعد·

أما لفظ فوت فيعني قطف الزهور[1]·

الرأي الخامس :

يقول تعني التوروذ بالفلاني تورذ بي وبالهوسا (نورنكاوا)، يقال إن هذه المجموعة هاجرت إلى بلاد الهوسا في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي تحت قيادة موسى حكل، فقد أورد بن فود قائلاً :«موسى هذا هو الذي جاء مع قبيلتين من أرض الغرب، التي هي فوت [يعني بها فوت تورد حاليا في السنغال]، وهو من رؤسائهم؛ حتى وصل بهم إلى أرض كن»[2].

وأمام هذه الآراء. . فإني أميل إلى الرأي الرابع، وذلك لسببين، هما :

1 - أن عدداً من الآراء، تقول : إن الذين حكموا إمبراطورية غانا، مهاجرو من برقة بليبيا، إذًا الموجات البشرية القادمة من برقة بليبيا قديمة، وربما كانوا أبناء عمومة حكام غانا الذين سبقوهم إلى تلك الديار، وأرادوا اللحاق بهم؛ وخاصة أن الرأي الأول يفسر أن فوت طور تعني فل وسبات ووسبات، تعني البيضان؛ أي العرب·

2 - أن أغلب الهجرات، التي جاءت من اليمن، والجزيرة العربية، كانت تأتي عبر مصر، مروراً بليبيا والمغرب الأوسط والأقصى، إلى السودان الغربي؛

---

(1) ـ موسى بن أحمد السعدي، مخطوط، ورقة 49 - 50 .

(2) نفسه وورقة 50 ـ 51 .

فمثلاً قبيلة أولاد سليمان المنتشرة، في موريتانيا و تشاد، ولديهم أبناء عمومة في ليبيا، لايستبعد قدوم فوت طور من جبال برقة بليبيا.

تقسيماتها :

تنقسم قبائل الفلان إلى عدة أفخاذ، هي :

1 - فخذ جل وجدهم رعب به.

2 - بر وجدهم وي بر.

3 - أسَ سُه.

4 - به أبوقبيلة رعب به.

5 - فل ومهمته رعي المواشي بما فيهم البقر.

6 - سلناب.

7 - وونوب.

8 - ليلب.

9 - جايب (وديب).

10 - وياليالب.

11 - وآنانب.

12 - فخذ سحب.

13 - وفخذ خنجب.

14 - فخذ جعفرب.

15 - فخذ وسيب[1].

---

(1) موسي بن أحمد السعدي، مخطوط، ورقة، 49_54.

كذلك من أشهر قبائل الفلان قبيلة (بورورو)، وهم يمثلون كثافة سكانية في مدينة ساي وداكورو ومين سورو[1].

نظام الحكم عندهم :

الأمير:

لكل قبيلة من قبائل الفلان أمير، يسير شؤونها في تلك المدينة أو المنطقة، ويعتبر السلطة العليا، وله حق القرار في السلم والحرب، وفي مدينة تنبكت كان أميرها زمن السلطان منسا موسى الحاج محمد الحسكي[2]، وفي عهد دولة سنغاي كان أميرها كاوور[3]، والأمير الشيخ بن عبيد بن عمرو بن العامي، والأمير السيع بن عبيد[4].

الشيـخ :

كان لكل فخذ من أفخاذ الفلان شيخ يأتمرون بأمره، وهو المسؤول عن حفظ الأمن وفض المنازعات . أما في حالة الانتقال سعيًا وراء الماء والكلاء، فإنه يرجع إلى الأمير في ذلك؛ بقصد الاستشارة والإعلام. وكان شيخ بلدة جاغ الشيخ محمد فاطم بن محمد توري في فترة دولة سنغاي[5].

الامـام:

الإمام منصب روحي عند قبائل الفلان، والذي يتولى هذا المنصب يشترط فيه

(1) عبد الله بن فودي، إنفاق الميسور ، المصدر السابق ص 223 وجبريل بكري أمادو، النيجر، بحث غير منشور ، ورقة15 .

(2) محمد محمد المفتى (مرحبا) التاريخ الخاص بالتواتر، مخطوط ورقة 112.

(3) مجهول ، رسالة من جماعة الفلان الذين في تنبكت، وخصوصاً الأمير كاوور إلى جماعة تنكير بكيف عموماً، وخصوصاً أواب وقندكم، مخطوط مركز أحمد بابا التنبكتي، رقم 2509، ورقة 1.

(4) - محمد محمد المفتي (مرحبا)، التاريخ الخاص بالتواتر، مخطوط، ورقة 113، مجهول رسالة إلى جماعة الفلان؛ وخصوصاً الأمير كاوور مخطوط ورقة 1 ،

(5)ـ محمد محمد المفتي (مرحبا) التاريخ الخاص بالتواتر، مخطوط، ورقة 100.

أن يكون حافظاً للقرآن الكريم ، ومتبحراً في الفقه، واللغة العربية، ونحوها.

للإمام خيمة معروفة في كل جماعة من جماعات الفلان، يحفِّظ أبناءهم القرآن الكريم، ويعلمهم تعاليم الدين الإسلامي، وإليه المرجع في المسائل التي تشكلُ عليهم.

ومن أشهر الرجال الذين تولوا منصب الإمامة (كولافون جلو)، وهو من العلماء الأجلاء، وله مؤلفات وشروح في الفقه، والنحو، وغيره، وكذلك من الذين تولوا منصب الإمام الحاج لب الفلاني[1].

مكانة قبائل الفلان فى السودان الغربي، ودورهم في نشر الإسلام :

مثلت قبائل الفلان ثقلاً سياسيًا واقتصاديًا، وروحيًّا، جعلها تأخذ الصدارة في المنطقة، وقوة يحسب حسابها إلى يومنا هذا.

قال عنهم محمد محمد المفتي (مرحبا) :« فعلمنا من ذلك حقاً أنهم من سلالة عقبة؛ حيث كانوا يعملون على نهجه ويجددون بنيانه »[2].

وهذه العبارة تدل على أصالة هذه القبائل، التي تنتسب إلى القائد العربي عقبة ابن نافع الفهري.

وقد تسابق ملوك السودان الغربي، لكسب ود قبائل الفلان، بمناصرة عديد منهم على خصومهم من القبائل الأخرى، فقد تدخل الملك منسا موسى، ملك مملكة مالي الإسلامية، بعد رجوعه من الحج لصالح ماما، المسمى الحاج محمد الحسكي الفلاني، أحد زعماء الفلان ضد خصمه، ومكنه من الاستقرار هو وقبيلته في تنبكت، وجني، وجاغه[3]. إلا أن الملك منسا موسى وأتباعه لم ينج من خطر الفلان، فقد نشبت حروب بين قبائل الفولبي دينياني، بقيادة تنغيلا وابنه كولى استمرت من (890- 914هـ) 1481 إلى 1514م، أسفرت هذه

(1)ـ محمد محمد المفتي (مرحبا)، التاريخ الخاص بالتواتر، مخطوط، ورقة 113.

(2) - محمد محمد المفتي (مرحبا)، فتح الحنان المنان في أخبار السودان، مخطوط، ورقة 17.

(3)ـ محمد محمد المفتي (مرحبا)، التاريخ الخاص بالتواتر، مخطوط، ورقة 113.

الحروب عن فقدان مملكة مالي سلطتها على مرتفعات فوتا جالون، وبذلك حصل لها ضعف في الاتصال بمقاطعاتها الغربية، باتجاه غامبيا والكازامنس شمالا، وقد شهدت نهاية القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، وبداية القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، فتناً في الطريق الرابطة، بين أطراف مالي الغربية والشرقية، أدت إلى ضمور في تجارة الذهب؛ لأن التجار الذين كانوا يترددون على أسواق سوتوكو، أجبروا على أن يسلكوا دروباً أخرى متعرجة، لضمان سلامة تجارتهم، الأمر الذي جعلهم يقضون في الطريق فترة طويلة، تصل إلى ستة أشهر. لقد وصلت انتصارات قبائل الفلان بقيادة الأب وابنه، أسماع البلدان المجاورة لمنطقة السودان الغربي، وعززتها بعبورها نهر غامبيا، من منفذ سمي بعد ذلك باسمهم ممر الفلان. وعند وصول جيوش الفلان منطقة البوندو، قسم الأب وابنه حركة التوسع؛ فاتجه تنغيلا نحو مملكة ديارا، بينما توجه كولي نحو غزو الفوتا[1].

توجه القائد الفلاني تنغيلا صوب مملكة ديارا، على أمل الانتصار عليها، إلا أن حساباته كانت خاطئه، فانهزم جيشه وفقد حياته على أيدي عمر كمزاع شقيق أسكيا الحاج محمد.

أما ابنه كولي، فقد غزا الفوتا - تورو والدجولوف، واستطاع الانتصار على الأمراء المحليين المنقسمين على أنفسهم بسهولة ويسر، وأن يكون إمارة اتخذ إقليم غور حاضرة لها.

وقد انطلق منها في حروبه ضد الدجولوف، وفتح عدداً من أقاليمها، ونشر فيهم الرعب، واستولى على أغلب أراضي الوولوف، ولم يبق في حوزة الدجولوف إلا الأراضي الجنوبية، البعيدة عن النهر، واستمرت سيطرة الفوتا على الدجولوف إلى منتصف القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي[2].

(1) مادينا لي - نال، تدهور إمبراطورية مالي، تاريخ أفريقيا العام، المجلد الرابع، ص 192.
(2) مادينالي ـ نال ، المرجع السابق ص 193.

لقد حاولت قبائل الفلان أن تفرض نفسها على جل الممالك، التي قامت في السودان الغربي، بخلق تحالفات مع غيرها من القبائل الأخرى، حتى التي لاتدين بالإسلام، وشكلت هذه التحالفات، خطورة على إمبراطورية سنغاي، زمن السلطان أسكيا الحاج محمد، ونستشف هذه الخطورة من السؤال الذي توجه به أسكيا الحاج محمد للعالم محمد عبد الكريم المغيلي، و نصه : « وأيضًا جوابكم في المحاربين من فلان وغيرهم معهم أناس من مسوفة وغيرهم، يزعمون أنهم مسلمون، وهم ساكنون معهم ملازمون لهم، في الرحيل والنزول ويخالطونهم في كل شيء من أموالهم، وأمورهم، وخيلهم، مع خيلهم، يغزون معهم ويحاربون معهم، هذا هو غالب أحوالهم، ومنهم من كان معهم ولايحارب معهم، وجيء بهم إلينا فقالوا مانقدر على الخروج عنهم مخافة أن يأخذونا، وإن خرجنا يأخذنا غيرهم، لأنا مساكين لانقدر عن الدفاع عن أنفسنا، فرددنا إليهم أموالهم، وقلنا لهم افترقوا منهم، فهل نترك غزو المحاربين لئلا نضر أولئك المسلمين، الذين هم معهم، وأبوا أن يفارقوهم، أو لابد من غزوهم، وإن كانت المضرة تلحق من معهم من المسلمين المذكورين ، فقد شوشنى في ذلك بعض فقهاء بلدنا، حتى توقفت عنهم »[1].

جواب المغيلي عن السؤال مفاده محاربة المحاربين بغزوهم، وإذا ماأصيب أحد من المسلمين الذين بينهم، فلا جناح عليكم؛ لأن المسلمين الذين بينهم ظلموا أنفسهم بتواجدهم معهم، وحتى أموالهم إذا فسدت فلا شيء عليكم، وإذا غنمتم شيئًا من أموالهم، يقصد المسلمين، فردوه إليهم[2].

من خلال سؤال أسكيا الحاج محمد وجواب المغيلي، يتضح الآتي :

1 - حالة الهلع والخوف التي كان عليها السلطان أسكيا الحاج محمد، وتخوفه من قوة الفلان، وإظهار نفسه بالقوي الذي لايلوي له عنان.

(1) محمد بن عبد الكريم المغيلي ، أسئلة أسقيا وأجوبة المغيلي ، المصدر السابق، ص59.
(2) نفسه ، ص 61.

2 - الدبلوماسية التي يتمتع بها أسكيا الحاج محمد، بعدم إظهار خوفه من قبائل الفلان، وتقديم نفسه لهم بحرصه عليهم، وأنهم لايمثلون شيئًا إذا ما أراد تأديبهم، واستخدام المغيلي باعتباره طرفاً محايداً .

3 - أعطى لنفسه الشرعية في ضرب الفلان، باستخدام الحق الشرعي المنبثق من الشريعة الإسلامية، باستفتاء العالم محمد بن عبد الكريم المغيلي.

4 - تكشف لنا إجابة المغيلي في هذه الفقرة، وفي غيرها من الفتاوي، التي منحها لأسكيا الحاج محمد، ارتماء المغيلي في أحضان أسكيا محمد وتحقيق مآربه، فهو يفتي وفقاً لما يمليه عليه السلطان، لابما تمليه عليه الشريعة الإسلامية، وبذلك نحكم عليه بأنه من زبانية السلطان.

لقد كانت لقبائل الفلان تحالفات مع قبائل أخرى، وهذه الرسالة التي نقتطف فقرات منها تؤكد ذلك: « بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على نبيه الكريم وبعد. فمن صافي تنبكت من الفلان عموماً وخصوصاً الأمير كاوور، إلى جماعة تنكر بكيف عموماً وخصوصاً سيدهم أو واب وفندكم وبعد؛ فالإعلام لكم أني رأيت براءتكم وقرأتها وفهمتها، ومافيها من نقض الصلح المبرم بيننا أن تعرضنا لأهل توات وغير ذلك [بياض] إن ماعزمنا ستسمعون ذلكم، أو ترونه إن شاء الله، وأما نقض [بياض] توات فمرحباً به وأهلا.

قال الشاعر :

فمرحباً به حين يأتي   لاكذاب ولاعلل

وقال آخر:

لمتم وذقتم وماهو   عنها بالحديث المرجم

بتوها ذحيمة وتضري   إذا أضريتموها فتضرم

وأنتم إلى الصلح أفقر ":[1].

(1) مجهول ، رسالة من جماعة فلان الذين في تنبكت، وخصوصاً الأمير كاوور إلى جماعة تنكير عموماً، وخصوصاً أواب وفندكم، مخطوط، ورقة 11

من خلال النص السابق، يتضح الآتي :

1 - الديباجة التي تكتب بها رسائل التهديد.

2 - اسم أمير الفلان واسم أمير خصمه.

3 - قبائل الفلان التي أميرها كاوور، كانت لها اتفاقيات ومعاهدات صلح، بينها وبين كل من : أهالي تنكير بمنطقة كيف بموريتانيا، وأهالي مدينة توات متمثلة في زعيمها. وأن هذه الاتفاقية نقضها زعيم تنكير وتوات.

4 - الأمير كاوور كان على درجة من القوة، التي يستطيع بها تأديب خصومه، ونلمس ذلك من عبارته التي يقول فيها: «إن ماعزمنا، ستسمعون ذلكم أو ترونه إن شاء الله، وأما نقض توات فمرحباً به وأهلا»، وبذلك هو في موقع قوة.

لقد تربعت قبائل الفلان على منطقة شاسعة من السودان الغربي، وحملت لواء نشر الإسلام في أدغال إفريقيا، واعتنقت جل أفخاذها الدين الإسلامي، منذ زمن الفاتح العربي عقبة بن نافع، ومايؤكد إسلامهم ما أفتى به أحمد بابا التنبكتي بأنه لايجوز استرقاقهم؛ لأن الغالب في قبائلهم الإسلام[1]. وقد أورد ابن فوديه في المسألة العاشرة في شراء فلاني السودان لأجل التمليك والاسترقاق قائلا :« ... إن شراء فلاني هذه البلاد لأجل التمليك والاسترقاق لايجوز في معظمهم ... لأن الغالب في قبائلهم الإسلام»[2].

ومن خلال الرسالة التي وجهها العالم أحمد البكاي بن محمد بن المختار ابن أحمد، إلى قبائل الفلان، يتضح إسلام جلهم، ولو أن الرسالة متأخرة عن فترتي، إلا أني أوردتها لأن المدة بين الفترة التي نكتب عنها، وفترة الرسالة

---

(1) أحمد بابا التنبكتي ، الكشف والبيان لأصناف مجلوب السودان، مخطوط، مركز أحمد بابا التنبكتي، رقم 1170، ورقة 2.

(2)- عثمان بن فودي، مهمة تحتاج إلى معرفتها أهل السودان، مخطوط، مركز أبحاث النيجر، رقم 100، ورقة 21 .

ليست بالفترة البعيدة، وهذه فقرة منها : «إلى جميع الإسلام من قبائل الفلان، وبعد نهنيكم والحمد الله على نصركم على الأعداء، وزادكم الله نصراً، وأصلح لكم دينكم وآخرتكم التي خير وأبقى»[1].

لقد أنجبت قبائل الفلان قادة وعلماء أفذاذ، لعبوا دوراً بارزاً في نشر كلمة الإسلام خفاقة وإعلاء رايته من أمثال: الأمير الحاج محمد الحسكي والأمير كاوور، والأمير الشيخ بن عبيد العامي، والعالم محمد فاطم بن محمد توري، والإمام لبُ الفلاني. ومن المتأخرين القائد والمجاهد، والعالم عثمان بن فودي الذي انتشر صيته شرقاً وغرباً، وأسس دولة إسلامية، كان لها دورٌ بارزٌ في حركة اليقضة الإسلامية الأفريقية، والعالم أحمد بلو بن عثمان، وغيرهم من الذين لايسعنى ذكرهم في هذه الدراسة.

أما عن طبيعة شعب الفلان.. فإنه تغلب عليه الطيبة، وهذا ما أكده عبدالرحمن السعدي حينما تكلم عن قبائل جلف فأورد : «... وأما جلف فهم خيار من الناس فعلا وطبيعة وطبايعهم تباين طبائع سائر الفلانيين في كل وجه، وخصهم الله تعالى بمحاسن الأخلاق ومكارم الأفعال، ومحامد السير، وهم في تلك الناحية الآن بقوة عظيمة ومتنة جسيمة، أما النجدة والشجاعة فليس لهم نظير فيها، وأما العهد والوفاء فمنهم ابتدأت وإليهم انتهت في تلك الناحية»[2].

وهذا النص فيه إشارة لقبائل الفلان، لأنه قارن طيبة جلف، بطيبة سائر الفلان، أي كل الفلان، الأمر الذي يؤكد عراقة هذه القبائل وأصالتها؛ حتى صارت مضربًا للأمثال بين القبائل الأخرى، وقوة لها وزنها في منطقة السودان الغربي.

---

(1) ـ أحمد البكاي بن محمد بن المختار بن أحمد يبعث برسالة إلى قبائل الفلان، دار معمر القدافي، لجمع الثرات العربي الأفريقي بجاو، دون تصنيف، ورقة 1.

(2) ـ عبدالرحمن السعدي ، المصدر السابق، ص 78.

قبائل البرابيش :

تسميتهم ونسبهم:

لم أعثر على تسمية البرابيش، ولا من أين جاءت التسمية في المخطوطات والمصادر والمراجع، التي تمكنت من الإطلاع عليها، إلا أني خلال جمعي للرواية الشفوية، بمنطقة أفريقيا فيما وراء الصحراء، في السنوات الماضية، حصلت على أكثر من راوٍ، ذكر لي سبب التسمية فمنهم من يرجعها إلى أن الأفخاد التي تتكون منها البرابيش، جاءت من مناطق مختلفة لا يجمعها رابط إلا الائتلاف السياسي، فأطلقوا على كافة الأفخاذ تسمية موحدة، وهي البرابيش .

بربش وتعني بربش عند أهل السودان الغربي[1] أي وزع الشيء. أما الرأي الثاني فيفيد أن لفظ بربيش، أطلقها زعيم فخذ أولاد سليمان على باقي الأفخاذ؛ نظراً لأن هذا الفخذ من أهم الأفخاذ[2].

أما نسبهم ، فقد أورد صاحب الترجمان، أنهم ينتسبون إلى بني حسان، وهم من ضمن الهجرة الهلالية إلى الشمال الأفريقي[3]. وجاء بول مارتي، وأفاد بكل ثقة من أن البرابيش ينتمون إلى ثلاث فئات: الأولى مجموعة عربية مغاربية طارقية، والثانية والثالثة مجموعتان عربيتان (حسان أولاد حم ، وحسان أولاد رزق)[4].

حاول بول مارتي تقريب الصورة أكثر، بتقسيم أصول البرابيش، إلا أنه وقع في لبس، عندما أفاد أن المجموعة الأولى ترجع في نسبها إلى الطوارق، وكأنه يريد أن يقول لنا : بأن الطوارق ليسوا من الهجرات العربية الأولى، التي جاءت من اليمن، وأنها جنس آخر، فما ذهب إليه صاحب الترجمان، أقرب إلى الصحة من غيره.

---

(1) - يطلق أهل تنبكت على كل شخص يميل إلى السمرة بربوشي.

(2) - الهادي المبروك الدالي، تاريخ أفريقيا فيما وراء الصحراء، مرقون تحت الطبع ، ورقة 60.

(3) - محمود الأرواني، الترجمان ، مخطوط، ورقة 94.

(4) - بول مارتي، البرابيش بنو حسان، عربه وعلق عليه محمد محمودِ ولد واداي، دمشق ، مطبعة زيد بن ثابت، 1985 ط1 انظر الملحق ص.

أما عن موطنهم، فإنهم يتركزون في ولاته، والنعمة وليرى، ومنطقة أروان "وفي أبو جبيهة"، وتنبكت، وقندام، ودونتنزا، وبوري، وموبتي، وهبري، وقوسي وجاو. كما ينتشرون في عدد من قرى بوركينا فاسو، والسنغال، ونيجيريا وتشاد[1] وإقليم السوس وتشيت[2].

تقسيماتهم :

تنقسم البرابيش إلى ستة عشر فخذاً، وينقسم كل فخذ إلى عدة بطون، وهم:

1 - فخذ أولاد سليمان وينقسم بدوره إلى عدة بطون، وهي:

أ - أولاد سليمان الأصليون ـ أهل رحال، أهل مرزوق بن الشيخ، أهل يوسف الكبار، أهل يوسف الصغار .

ب - أولاد اسعيد جدهم سعيد بن آد.

حـ- النهارات، وجدهم ناهر بن محمد.

د- أهل منصور، وجدهم منصور بن سعيد.

هـ- أهل السلام عليكم[3].

2 - أولاد غليان، وينقسمون إلى :

- أولاد غليان الأصليون أولاد أحمد بن إبراهيم .

- أولاد عبد الله بن إبراهيم .

- أولاد بو خصيب (أهل المجيد الغيرات).

(1)- وقف الباحث على أغلب مضارب خيامهم، خلال رحلاته المتكررة للمنطقة.

(2)- الحسن الوزان ، المصدر السابق، ج1، ص 54.

(3) محمد الأرواني، الترجمان، ومخطوط، ورقة 31 وبول مارتي، البرابيش، المرجع السابق، ص 71.

3 - أولاد أيعيش، وينقسمون إلى :

- العلوتى
- صم.
- الحسن
4 - أولاد إدريس، ويتفرعون إلى :

- أهل امبارك.
- أهل عمارة.
- أهل حمود ادا.
- أهل بلة.
- أهل أعلى موسى.
- أهل عريب.
5 - أولاد غنّام، ويضمون :

- أولاد معريك.
- أهل حماد.
- أهل حدي.
- أهل بلدة[1].
6 - أولاد عمران، وهم :

- أهل الهادى.
- أهل الكوري.

---

(1) - مجهول ، تاريخ أزواد في خبر البرابيش، مخطوط ورقة10 ـ 11، وبول مارتي، البرابيش، المرجع السابق ص ص 71 ـ 72.

- أهل المحافيظ.

7 - الكوانين الكحل، وهم :

- أهل بلال.

- أهل ولاد محمد ولد سيدي أحمد.

- أهل ياداس.

8 - الكوانين (البيض)، وهم :

- أهل دخنان.

- أهل الراحل.

- أهل أميلاه.

- أهل بو ابعير.

- أهل هيمة.

- أهل أعلى ولد ماما.

- أهل عمر.

- أهل حمدو.

9 - ركان، وينقسمون إلى :

- ياداس.

- الزريبة، وهذا الفرع يختص ببناء المنازل.

- أهل بكار[1].

---

(1)- مجهول ، تاريخ أرواد في خبر البرابيش، مخطوط، ورقة 12، وبول مارتي، البرابيش، المرجع السابق، ص ص 72 ـ 73، وبول مارتي، كنته الشرقيون، تعريب محمد محمود ولد ودادي، دمشق، مطبعة زيد بن ثابت، 1985، ص 226.

10 - السكاكنة ويضمون :

- أهل بوصيبيع.
- أهل الكتي.
- أهل كيجاجا.

11 - أهل أروان، ويشملون :

- بني أحمد بن أيبر.
- أولاد بهدة.
- أولاد النواحي.
- أولاد الوسرة.
- أولاد تجكانت[1].

12 - أهل بو اجبيهة، وهم :

- أولاد عبد الرحمن، من الرحامنة الذين قدموا من المغرب، ثم ملكوا بوجبيهة ومنطقة أزواد[2].
- الآخظورات.
- أبناء عامر.

13 - الأخظورات.

14- أبناء عامر.

15 - الطرشان :

(1) مجهول، تاريخ أزواد في خبر البرابيش، مخطوط، ورقة 11، وبول مارتي، البرابيش، المرجع السابق، ص 73.

(2) محمود محمد الأرواني، الترجمان ، مخطوط، ورقة 17.

وهم من أولاد حسان، وهي قبيلة قليلة العدد، وتعتبر امتداداً لقبيلة الطرشان، التي تقطن بنغازي بليبيا.

16 - الأغلان :

وهي قبيلة صغيرة العدد، أميرها في فترة التواجد المغربي بالسودان الغربي، هو سيدي بن عروة[1].

17 - قبيلة الوسر :

جاءوا لازواد، أمن الشيخ سيدي أحمد بن صالح بسبب ثقلهم السياسي في المنطقة :

فخذ أولاد سليمان، هو أول فخذ يصل إلى منطقة السودان الغربي بالتحديد لمنطقة أزواد، وقد وجدوا أمامهم قبائل الطوارق، وحدثت بينهم حروب طويلة، انتهت بانتصار أولاد سليمان على الطوارق، وإخراجهم من المنطقة. وكان أميرهم، زمن مجيء جودر باشا، عيسى بن سليمان، واستمروا في أروان فتحول ثقلهم هناك. وعند مجيء عب بن مخلوف، إلى منطقة السودان الغربي، كان معه أولاده الأربعة وهم : عيسى، محمود، وأحمد، وسليمان.

ولما توفى عب بن مخلوف تزوج ابنه الأصغر سليمان من ابنة شيخ أولاد عبد الرحمن[2]. تولى إمارة أولاد سليمان، عدد من الأمراء منهم: عب ابن مخلوف، وعلي بن حمدان، واستمر يحكم إلى أن توفي، فتولى ابن عمه (حام بن يَدْل)، وكانت فترته قصيرة. وتولى ابن عمه حافظ بن عيش بن الحاج محمد.

(1) محمود الأرواني، الترجمان، ورقة 11 .
(2) نفسه، وورقة 31.

وفخذ أولاد سليمان من أهم الأفخاذ في قبيلة البرابيش، فهو يختص بالقيادة والعلم[1]. ويطلق عليه بول مارتي الفخذ الأميري[2].

وقبائل البرابيش متمثلة في أفخاذها وبطونها لا تجرؤ على التخطيط لأي غزو، مالم يكن فخذ أولاد سليمان هو المخطط . ولكن نادراً ما تحدث بعض التجاوزات في المهام، وبالإضافة الى هذا الدور القيادي اختص أولاد سليمان بالعلم[3].

أما فخذ الرحامنة. . . فيعتبر هو الآخر من الأفخاذ المهمة، وقد نزلوا بأروان عام تسعمائة هجري 900هـ / 1494م. وكان سبب مجيئهم الى أزواد خلاف وقع بينهم وبين أبناء عمومتهم، من أحواز مراكش، فهاجروا إلى أزواد، ونزلوا على الطوارق، ومن معهم وصاروا في حكم الطوارق.

وقبل قدوم جيش جودر للمنطقة انتصر الرحامنة على الطوارق وطردوهم، وأصبحوا سادة في أزواد، وأروان، ووصل نفوذهم تغازا. كما ناصروا جودر عند دخوله السودان، وكان الرحامنة على علاقة وطيدة بفخذ أولاد جلول، وأولاد أسعد، وأهل غليان والأخظورات والنهارات[4].

والجدير بالملاحظة أن أفخاذ قبيلة البرابيش، تختلف في القوة والمهام من فخذ إلى آخر، وتنقسم في المكانة إلى طائفتين:

الأولى فخذ أولاد سليمان، وأولاد عمران، وأولاد عيش، وأولاد إدريس، وأولاد غنام، وأولاد غليان، فهي تعتبر من أرقى الأفخاذ في البرابيش، ولاتعطي الغفر. أما القبائل التي تعطي الغفر، فهي ترمز، والسكاكس، وأكوانين أهل الكوروا[5] وتعتبر في المستوى الاجتماعي أقل من الأولى. ومن النادر أن تحدث

---

(1)- مجهول، تاريخ أزواد في خبر البرابيش، مخطوط، ورقة 7.

(2)- بول مارتي، البرابيش، المرجع السابق ص 226، والهادي المبروك الدالي ، تاريخ أفريقيا فيما وراء الصحراء من خلال الرواية الشفوية، مرقون ورقة 49.

(3)- مجهول تاريخ أزواد في خبر البرابيش، مخطوط، ورقة 8 ـ 9 .

(4)- محمود محمد الأرواني، الترجمان، مخطوط، ورقة 21.

(5)- نفسه ورقة 94، والهادي المبروك الدالي، تاريخ أفريقيا فيما وراء الصحراء من خلال الرواية الشفوية، ورقة 55.

صراعات في قبيلة البرابيش، لأن مرد تلك الصراعات، في الأغلب الأعم يعود للزعامة، ومن بين الحوادث التي حصلت بينهم موقعة (نبكة حام)، التي انقسموا على إثرها الى طائفتين :

طائفة أولاد عامر، وأولاد سليمان، وأولاد أحمد. أما الثانية فتضم أولاد عمران، وأولاد عيش، والمحافيظ ومن في حكمهم، وبعد صراع دام ست عشرة سنة تصالح أولاد عيش، وأولاد عمران، والمحافيظ مع أولاد سليمان، وأولاد أحمد على أن يكون أميرهم محمد ولد حافظ بن عيش بن الحاج محمد ابن سليمان، ثم ثار عليه ابن عمه محمد بن يوسف، وأخذ منه الإمارة قهراً. وقد ناصره على خصمه قبيلة الطوارق، وعرب القبلة فقتل أميرهم المدعو محمد الأمين، ثم تصالحوا بعد ذلك، والحوادث في هذا الخصوص كثيرة، إلا أننا أوردنا حادثة، لم يؤخذ منها، كدليل على ثقلهم السياسي في منطقة السودان الغربي :

دورهم القيادي في المنطقة :

مثلت قبائل البرابيش، في منطقة السودان الغربي ثقلاً سياسياً واقتصادياً بحسب حسابه، وقد تسابقت القوى السياسية، التي قامت في المنطقة على كسب ودها؛ من أجل استمراريتها في الحكم. ففي عهد سنغاي كان جل سلاطينها على علاقة وطيدة بأمراء البرابيش، بل أشركوهم في إدارة الحكم وتسيير الجيش، فكان عدد من الوزارات يسيرها رجال من البرابيش، إضافة لذلك فقد تزوج عدد من سلاطين سنغاي نساء بربشيات، وخاصة من فخذ أولاد سليمان، فقد تزوج أسكيا الحاج محمد منهم، وابنه الذي تولى الحكم من بعده امرأة سليمانية، واستمرت العلاقات بينهم إلى فترة تطلعات المغرب على المنطقة؛ فتحولت أنظار البرابيش إلى مساندة جيش السلطان المنصور الذهبي، وتزكيته، وخاصة الفخذ القادم من المغرب الأقصى، باعتبارهم من أبناء جلدتهم[1].

(1) محمد محمد المفتي، (مرحبا) ، التاريخ الخاص بالتواتر، مخطوط، ورقة 22.

وهذه الوثيقة التي نوردها، تؤكد عمق التلاحم بين البرابيش والمغرب ، فهي عبارة عن رسالة مشتركة، بعث بها زعيم البرابيش سيدي محمد بن أمهد وإسماعيل بن إبراهيم المغربي، إلى سيدي أحمد بابا التنبكتي، أحد الزعماء الروحيين لمنطقة السودان الغربي، تقول الرسالة : «الحمد لله وصلى الله على محمد ومن تلاه، وبعد فالسلام الذي لا يباهى، والتحية التي لا تتناهى، أحلى من العسل مذاقاً وأطيب من المسك استنشاقاً وكالقرآن ترياقاً. من إسماعيل ابن إبراهيم وبن المغربي ومحمد بن أمهد، إلى من لا زالت الأيام تساعده والآفات تباعده، يعنيان بذلك من أطال الله عمره وأدام عزه ونصره، وكبت عدوه ذاك الفقيه الشريف العامل ذو المجد المنيف القاضي أحمد بابا حمد لله مسعاه وجعل الجنة مثواه حفظه الله ورعاه وأيده وآواه موجبه إليكم إنما بلغهما كلامكم ودخل فيها مدخلاً عظيماً واشتريه غاية جزاكم الله خيراً، واليوم الله الله ثم الله لاتترك الدراهيم الذي في الأكوانين ساعة وقم في أمرهم على ساق الجد غاية، واعلم أنك وكيله يعني إسماعيل على عبد آل أو ليكن لأنه هو وهو تعاقبا في الطريق والله والله لا يخرج من تنبكت حتى تأخذ ما فيه ما بينهما من المسألة التي بينه وبين البشير الجكي وأسال عبد آل بن حمادين أو الواني بن عبد الرحمن عن ما يدخل فيه عبد آل أو تيكن؛ لأنهما يعلمان مدخله في تنبكت جزاكم الله عنه وعن المسلمين خيراً، والذي أخذتم من السودان فأدمغه لسيل إلى علي، والسلام عليكم ورحمته وبركاته بكرة وأصيلاً.

تصل إنشاء الله بيد القاضي الفقيه الشريف سيدي أحمد بابا بن أبي العباس حفظه الله من جميع الناس وراعاه من كل وسواس وخناس، بجاه محمد صلى الله عليه وسلم جده وعمه العباس[1]» .

---

(1) - إسماعيل بن إبراهيم المغربي، وسيدي محمد بن أمهد رئيس البرابيش، رسالة مشتركة إلى أحمد بابا بن أبي العباس التنبكتي، مخطوط، دار معمر القذافي لجمع التراث العربي الأفريقي ، دون تصنيف، ورقة واحدة.

نستخلص من هذه الوثيقة عدة جوانب مهمة، وهي :

1 - الديباجة والأسلوب اللذان كتبت بهما الرسالة.

2 - تحالف البرابيش مع المغاربة، والتنسيق بينهم في المواقف السياسية .

3 - مكانة أحمد بابا وعائلته في المنطقة من خلال عبارات الرسالة.

4 - تدخل أحمد بابا في مسائل مالية بين وكلاء لإسماعيل المغربي ومحمد ابن أمهد .

5 - كونها ردًا على رسالة كان أحمد بابا التنبكتي قد بعث بها إلى إسماعيل المغربي ومحمد بن أمهد.

6 - الإفصاح عن عدد من الشخصيات من قبيلة البرابيش ومن قبائل أخرى.

7 - الطريقة التي تتم بها كتابة خواتم الرسائل بالدعاء للمرسل إليه مثل حفظه الله من جميع الناس وفي وسواس خناس.. إلخ.

8 - أحمد بابا كان على علاقات مع المغاربة.

وهذه رسالة أخرى تؤكد قوة البرابيش في المنطقة، وكيف أن فخذًا واحداً منهم يحسب له حساب، وهذا أمير منطقة بحالها، وحالة الهلع التي عليها أمير أولاد علوش بن هنون، وهذه فقرات من رسالة التهديد، والتي تقول :

النص: « بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً، حمد من جعل سيف الحق قاطعة، وكل إفك وزور طامحة، القائل، أن الله لا يهدي كيد الخائنين ولا يصلح عمل المفسدين، وأن العاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين والصلاة والسلام على مفضح أسرار المنافقين، وعلى آله وأصحابه غيظ الكفار والمعاندين. هذا وأنه من البطل الصنديد ذي الوطئ الشديد، رقاب المارد العنيد الأمير السديد حامد بن الشيخ أمير المؤمنين الإمام أحمد بن محمد سبط المجد التليد أبي بكر بن سعيد، أسعده الله في الدارين ووقاه شر الكونين وأناله خير الدارين إلى عاملنا، زعما

ورعينا رغما سيد ولد هنون عليك سلام، أن بقى بيننا وبينك سلام وبعد فسببه إليك إعلامك بأن ماخفى على فعلتك بنا بتهديدك رعيتنا جملة زوايا ماكرتيل من زوايا المساكين، الذين لا دافع إلا العلي القدير الكفيل، وغيرهم من سوادين تيك بنون وتركينغ وفتكر وخصوصاً أهل بنت غنغ الذين رعدت عليهم برعدك الخالبة وبرقت عليهم ببرقك الكاذبة، أو لم يعزموا لك لتفعلن كيت وكيت ولتجعلنها عليهم رماداً . . . ولم يزل قبل ذلك تتراءى عليّ بربواتك منذ قدمت هنا، واعرض عنك في ذلك كله، حتى علمت أن الحلم منك كالحلم، والجهل عليك أمثل في العدل. والآن ياولد هنون فو الله الذي تسيل دماؤنا لأجله لم تنهى عن دماؤنا بعدك وإعزاز نفسك علينا، وفسادك وعن تخويفاتك الكاذبة . . . لأجعلنك عبرة لجميع علوش وقبيلة بربوش ولأضيقن عليك هذه الأرض برحبها خيولاً ورجالاً بحول من له الحول والقوة، وما رأيت أحد أجرأ على عرب مغاربة الشرق وطوارق الغرب مثل جرأتك . . . . وما صدر منك لهذا إلا سخاوة عقلك وقلة فهمك، وإن كنت على العهد المعهود بينك وبين أخي أمير المؤمنين، فأقدم إليّ بنفسك حتى أقرأ عليك كتابك الذي أرسل إليّ في هذه الأيام، وإن أبيت فاعلم أن حينك قد حان . . . والسلام يعود عليك إن تركت بيننا وبينك محبة والسلام الحار، وأنت ياطاهر محمد قد بلغني ما أنت عليه والعاقل تكفيه إلاشارة وغيره لا يسمع إلا دعاء ونداء، إن كنت بريء مما قالوا عليكم فقدم وتبرأ بنفسك، وإلا فلا تلومن إلا نفسك والسلام»[1].

من خلال النص السابق يتضح الآتي :

1 - الديباجة التي كتبت بها الرسالة من البسملة والتصلية على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

---

(1) الأمير حامد بن الشيخ أمير المؤمنين الإمام، أحمد بن أبي بكر سعيد، يبعث برسالة إلى سيدي بن هنون أمير أولاً علوش، مخطوط، مركز الشيخ المختار الكنتى بجاو، دون تصنيف، ورقتين.

2 - تظهر من بدايتها للقارئ القوة والحسم لمرسلها.

3 - قـوة البـرابيش، وكيـف أن فـرعاً واحـداً، زعـزع أمـن أميـر لـه قـوة عسكرية ضاربة بتهديد رعاياه.

4 - منطقة السودان الغربي كانت بها زوايا لحفظ القرآن الكريم وتدريس الدين الإسلامي .

5 - كشفها عن عدد من أسماء قبائل السودان الغربي .

6 - حالة الهلع التي كان عليها الأمير حامد، ومحاولته إظهار نفسه بالقوي، من خلال عبارات: برعدك الخالي وبرقك الكاذب. . الخ.

7 - الصورة التـي يخاطب بها أمير تنبكت أمـير أولاد علوش أنه تابع له رغـم أنفه.

8 - يذكر الأمير حامد خصمه بأن هناك اتفاقية حسن الجوار بين بن هنون أمير أولاد علوش، وشقيق الأمير حامد منذ أمد بعيد.

9 - أمير أولاد علوش كان له مناصرون. وعبارة الأمير حامد وأنت يا طاهر محمد قد بلغني مانت عليه فيها إيحاء بذلك .

10 - أفخاذ البرابيش كلهـا تعقد اتفاقيـات منفـردة، الأمـر الـذي يكشف عـدم وحدتهم، على الرغم من قوتهم.

11 - الحنكة السياسية التي يتمتع بها الأمير حامد، بمحاولته تنحية الطاهر محمد من الدائرة بدعوته لتبرير مانسب إليه.

استمرت قبيلة البرابيش تمثل الثقل السياسي في المنطقة، بل ازدادت في فترة الحضور المغربي بالسودان الغربي. وهذه الحادثة تؤكد ذلك، عندما استنجد القاضي عمر من بطش محمد بن زرقون، بشيخ أولاد عبد الرحمن عيسى ابن سليمن البربوشي، في تغازا، ودخل في حمى الأخير، فحماه من محمود ابن زرقون وأوصله بنفسه الى بلدة (واد)[1].

(1)- عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص 172.

وهذه الرسالة تؤكد ثقل البرابيش في المنطقة، وهي رسالة إلي جماعة أكلاد وخصوصاً أميرهم انغلالن بن حوالن، تبين أهمية أمهمد بن أحمد زعيم البرابيش. تقول الرسالة: «السلام والإكرام العام إلي جماعة أكلاد، وخصوصاً كبيرهم أميرهم انغلالن حوالن وبعد بلغني أمهد بن أحمد ماتقاولتم معه، وأنك ياانغلالن كنت تريد أن تأتيني معه... ولو جعلت لكان خيراً ان شاء الله إن كنت من أهل الخير...»[1].

كما شكلت قبائل البرابيش ثقلاً اقتصادياً في منطقة السودان الغربي بأن سيطرت على طرق القوافل الذاهبة، والقادمة من الشمال الأفريقي، فكانت تأخذ (الغفر)[2] على كل وارد من تجار غدامس، وتوات، وتجاكنت، وأولاد بالسبع وأهل سجلماسة، وطرابلس وغيرهم. وكانت القافلة تصل الى اثنى عشر ألف جمل في فصل الصيف، محملة بالبضائع من ملح، وتمر، وغيره. وتخرج من السودان محملة بالصمغ، والعاج، والريش والذهب، والرقيق كلها تأخذ عليها البرابيش الغفر، الذي كانت قيمته سبع مثاقيل وثلث من الذهب، على كل حمل. ويأخذ عن التجار الواردين عليه من شنقيط ضريبة عن الإبل، التي يأتون بها؛ بقصد البيع في أروان ومن جاورها[3]. ومن هنا ندرك ثقل قبائل البرابيش في منطقة السودان الغربي، وبذلك مثلت قوة يحسب حسابها، إلا أن هناك سؤالاً يطرح نفسه، وهو: ما الذي وحَّد بينهم في تجمع يعرف بالبرابيش؟ هل هو تحالف سياسي؟ أم انتماء عرقي؟ أم ماذا؟.

من خلال المصادر التي تمكنت من الإطلاع عليها، نلمس أن انتماءهم ليس سياسياً بقدر ماهو انتماء عرقي، والذي يدعم المعلومة السابقة كيف لهذا العدد

---

(1) - مجهول يبعث برسالة إلى جماعة أكلاد، وخصوصاً أميرهم انغلالن بن حوالن، مخطوط، مكتبة الباحث، دون تصنيف، ورقة واحدة.

(2)- ضريبة تؤدى عن كل رأس في القافلة.

(3)- محمد محمد الأرواني، الترجمان، مخطوط، ورقة 94.

الهائل من البشر، الممتد من موريتانيا إلى تشاد أن ينظوي تحت راية واحدة، وأن يقسم الأدوار الحربية، والقيادية، والعلمية، والخدمية، مالم يكن لهم انتماء عرقي يجمع بينهم؟

بعد أن انتهيت من الجانب السياسي، نتعرض إلى البنية الاقتصادية للسودان الغربي.

* * *

□ الفصل الثالث □

البنيــة الاقتصـاديــة

للسودان الغربى

1 - الزراعة.

2 - الثروة الحيوانية والسمكية.

3 - المعادن.

4 - الصناعة.

5 - الحركة التجارية.

على الرغم من أن السودان الغربي قد اشتهر بتجارة الذهب، وبمساهمته الفعالة في تجارة القوافل عبر الصحراء الكبرى، بينه وبين الشمال الأفريقي والسودان الغربي.. فإن خصوصيات أرض السودان الغربي، وبيئتها، ومناخها، أغدقت على البلاد خيرات زراعية، وحيوانية، وسمكية، ومعدنية وفيرة.

فمن هبات الطبيعة للسودان الغربي، أن أراضيه وقعت في حزام السفانة الملائم للزراعة، وتربية الحيوانات، كما أن الطبيعة أنعمت عليها بمصادر المياه الوفيرة، وقوامها الأمطار، ونهري النيجر والسنغال، فضلاً عن خصوبة التربة، ووجود المعادن الثمينة، وفي مقدمتها الذهب.

وقد وضف عدد من حكام السودان الغربي، في فترة إمبراطورية سنغاي هذه الإمكانيات الطبيعية، بطريقة مثلى، حتى أصبحت تمثل العمود الفقري، للاقتصاد الوطني.

وعليه.. سنتناول في هذا الفصل الذي يعني بدراسة الأحوال الاقتصادية، في السودان الغربي، في تسلسل، ستة موضوعات، هي: الزراعة، والثروة الحيوانية والسمكية، والثروة المعدنية، والصناعات المحلية، والتجارة الخارجية، ثم الداخلية.

الزراعة :

تمثل الزراعة الحرفة الرئيسية، والمصدر الأساسي لعيش الغالبية العظمى، من أهل البلاد، وذلك لوجود معظم الأقاليم المأهولة بالسكان، في منطقة السفانا، التي تتمتع بخصوبة التربة ووفرة المياه. وقد ساهم عدد من حكام السودان الغربي، وفي طليعتهم أسكيا الحاج محمد الكبير في تطوير الإنتاج الزراعي،

وإدخال أساليب جديدة لاستصلاح الأراضي وتحسين الحبوب، ورفع معدلات الإنتاج، مستفيداً من صلات بلاده الوثيقة بالشمال الأفريقي[1].

وتتمركز الزراعة بشكل عام على جانبي نهر النيجر، وقد أورد الحسن الوزان أن نهر النيجر يشق أرض السوذان، وأن أجمل أرض السودان امتدادها على طول نهر النيجر[2]، وأفاد مارمول أنه ينبع من جبال لوم، وطوله أربعة آلاف ومئتان 4200 كم[3]. ونهر السنغال يصب من جبال فوتا جالون، وطوله الف وسبعمائة كم. وقد أضفى نهر النيجر على التربة خصوبة، وخاصة في فترة الطمي، وقد أفاد موسى بن أحمد السعدى في هذا الخصوص قائلاً: «في ليلة الجمعة رابع شعبان في العام 1011 هـ/ 1602م، وقع البحر في معدل، كان ذلك في سبعة يناير، عندما كان الباشا سليمان في الحكم ، ووقع أيضًا في ثاني دجنبر عام اثني عشر وألف 1012 هـ/ 1603م وفي ليلة الأحد رابع عشر من شهر شعبان، عام أربعة عشر بعد ألف 1014 هـ/ 1605م. كما وقعت زيادة في معدله في الثاني عشر من دجنبر زمن حكم الباشا محمود لنك»[4].

يدل فيضان النهر على كثرة الأمطار، في السنوات السالفة الذكر، حيث ينعكس ذلك على خصوبة التربة وزيادة كمية الإنتاج الزراعي.

والزراعة في السودان الغربي هي عبارة عن مزارع للقطاع الخاص والعام، وكان لحكام سنغاي مزارع خاصة بهم، يعود منتوجها إليهم، فعلى سبيل المثال مزارع السلطان أسكيا داوود، الذي كان يشغل فيها عبيده، ويشرف عليها رئيس خدمه، ويحصل من المزرعة الواحدة على ألف صنية[5].

---

(1) ـ موسى بن أحمد السعدي ، مخطوط ورقة 120.

ZAKARI DRAMAN ISSIFOU ; Afrique Noire Dans les Relatin Internationales au . VI e siecle Editions Karthala; Paris 1982 ; p 154

(2) ـ حسن الوزان، المصدر السابق، ج 2 ، ص 30.

(3) ـ مارمول، المصدر السابق ، ج 3 ، ص 183.

(4) ـ موسى بن أحمد السعدي، مخطوط ورقة 122، وعبد الرحمن السعدي المصدر السابق، ص ص 215-217.

(5) ـ محمود كعت، المصدر السابق، ص ص 95-96.

وكان حكام سنغاي يمنحون أتباعهم مزارع، وهذا ماحدث لألفا محمود كعت عندما أراد تزويج بناته وأولاده، إذ طلب من أسكيا داوود أن يمنحه مـزارع لأبنائه[1].

وكانت الزراعة في القطاع الخاص مقسمة، حسب نوعية المزروع، فهناك مزارع خاصة بالأرز، ومما يؤكد ذلك مزرعة الأرز في أرض (بون) التي منحها أسكيا محمد بان إلى شيخ يدرس طلاب العلم [2]، وفي المقابل كانت توجد مزارع لعامة الناس وهي عادة ماتكون صغيرة. وهذه الرسالة التي نوردها تدل على ذلك، وهي من رقية بأرض السودان الغربي إلى زوجها الحاج عبد الله بن الحاج الصالح الوغلامي، بخصوص اليهودي موشى، الذي تركه وكيلاً. فباع مزرعتهم.

نقتطف فقرات منها : «[بياض] بقى بذلك مقام الحاج عبدالله بن الحاج الصالح الوغلامي، سلام الله عليك من زوجتك رقية بنت، ومن عند أولادك عبد الله وأخته الكبيرة وحدجه... وأما إلهام الصالح فهو بمدينة مكناس، مع خاله التهامى، وأعلم بأني فعلت لنا فعل الرجال، وأنت منهم، لأنك قدمت ولأخبرتنا بخبرك لميت ... ولأرسلت لنا جواباً، وأما اليهودي موشى الذي تركته وكيلاً علينا، فهو عمل لنا بحق التوكيل... حاز الأرض وحرثوه وقطف الثمر، وأرد بيعه للغير وحنا رزقنا على الله... وبعد ذلك قام اليهودي وقال لنا: حين صير الاحمل، وقال : لنا ندفع له ننفق علينا، ولم يجد بيدنا شيء، وقام وباع لنا دارنا وخرجنا منها ورحلنا لبلاد تبعصامت ولازلنا فيها... ولأوجدنا على مانصرف على نفوسنا... »[3].

(1) محمود كعت، المصدر السابق ، ص106.

Dipo ; A.H. : L'Afrique Noire pre-colonial; paris; 1956; p

(2) محمود كعت، المصدر السابق، ص 130.

(3) رقية تبعث برسالة إلى زوجها الحاج عبد الله بن الحاج الصالح الوغلا.. بخصوص اليهودي موشى، الذي تركه وكيلاً عليهم قد باع مزارعهم، مخطوط مكتبة أحمد سالم الشود بتنبكت، دون تصنيف، ورقة واحدة.

من خلال النص السابق، يتضح الآتي :

1 - انتشار الزراعة في السودان الغربي·

2 - تنوع المزروعات في المزرعة الواحدة·

3 - تغلغل اليهود في المنطقة وكسب ثقة بعض الأهالي بأن أصبحوا وكلاء على أعمالهم·

4 - الأثر المغربي في السودان الغربي؛ فالحاج عبد الله بن الحاج الصالح الوغلامي مغربي الأصل·

وهذه الرسالة أخرى تؤكد الاهتمام بالزراعة في السودان الغربي، نورد فقرات منها : نصها "الحمد لله وحده ولايدوم إلا ملكه فمن عبد الله بن حسون إلى ابن أخيه وقرة عينه محمد سالم بن عمار السلام عليك، ورحمة الله تعالى وبركاته ومجيبه إليك أوجب الله لنا ولك الخير ووقانا وإياك المكروه والضير، لتعلم أعلمك الله بخير وعافية أننا لاباس علينا جميعاً لله الحمد، وعسى أنت كذلك··· والذي يوكد به عليك غاية التاكيد ازرع وزرع وزرع وزرع···· ولاتقبض درهمًا ولادينارًا، الجميع اجعله في الزرع ··· ولكن الوصية تزيد في الفهم»[1].

نستنتج من خلال هذه المراسلة الآتي :

1- الاهتمام بالزرعة من طرف الأهالي.

2 - انتشار الزراعة.

3 - توضيف جلّ الأموال واستثمارهم في زراعة الأرض بالسودان الغربي·

وكانت الزراعة منتشرة في عدد من مناطق السودان الغربي، حيث كان جزء

(1)- عبد بن حسون يبعث برسالة تجارية الى محمد سالم بن عمار بأرض السودان، تاريخها حسب اتفاق الباحثين، بمركز أحمد بابا التنبكتي، وهم أحمد سالم الشود، وجبريل دكوري، وعمر سيه، دون تاريخ، ما بين 1600 الى 1700.

منها يعتمد على مياه الأنهار، والباقي يعتمد على الأمطار والعيون، وخاصة في المناطق البعيدة عن نهر النيجر.

أما الزراعة في تنبكت.. فإنها تعتمد على مياه نهر النيجر والأمطار، وقد أفاد مارمول أن المدينة حباها الله بنهر النيجر[1]. وقد ذكر كعت أن الزراعة في المدينة، تعتمد على مياه الأمطار، ومايوضح ذلك أن تنبكت في عام تسعة وتسعين وتسعمائة 999 هـ/ 1590م كانت مطيرة، فقد طلب من القاضي عمر أن يعطيه وأصحابه داراً، نظراً لهطول المطر، وأن معه بارود السلطان فقد يهلك من المطر[2].

أما نظام الزراعة الذي كان متبعاً، فهو نظام المزارع، وهذا ما أفاد به موسى السعدي في قوله: «توفي الإمام أحمد بن الإمام صديق في مزرعة (كُريع) وحمل إلى تنبكت وصلي عليه صلاة الجمعة»، كان ذلك في شهر رمضان عام 1005 هـ/ 1596م[3]. الأمر الذي يؤكد وجود نظام المزارع.

وأرض تنبكت صالحة للزراعة، يزرع بها القمح، والشعير، والذرة، والبطاطة واللفت والخص، وأغلب الحبوب والخضروات[4].

أما الزراعة في مدينة جني، فيزرع بها الشعير والأرز والقطن، وأفاد الوزان بأن البلدة، لاتنبت بها الأشجار المثمرة، ولاوجود لأية شجرة فاكهة[5].

وأمام ماذهب إليه الحسن الوزان، فإني أستبعد ماأورده، وذلك لعدة أسباب هي:

(1) - مارمول، المصدر السابق، ج 3، ص 203.

(2) - محمود كعت، المصدر السابق، ص 156.

(3) - عموسى بن أحمد السعدي، مخطوط ورقة 90.

(4) - أحمد بلعراف التنبكتى، أهمية التاريخ، مخطوط، ورقة 14 . ومارمول، المصدر السابق ج3، ص 203.

Charles Monteil: une cité sondamaise Djenné Metropole du delta central du Nigen; société D'edition gographiqe; Maritimes et colonial parial paris 1931; p 199.

(5) - الحسن الوزان، المصدر السابق، جـ 2، ص 163.

1 - لقد زرت المدينة عدة مرات، ووجدت بها عدداً من أشجار الفاكهة، التي كانت معروفة في عهد الحسن الوزان.

2 - أن التربة والمياه التي في عهد الحسن الوزان هي نفسها اليوم .

3 - لعل حسن الوزان لم يزر جني، بل سمع بها؛ فأورد ماتناهى له.

أما الزراعة في مدينة كاغو، فقد كانت تعتمد على مياه نهر النيجر، والأمطار، ومياه الآبار ذات المياه العذبة، وكان السكان يزرعون بها الحبوب، من شعير، وقمح، وأرز، وقطن، وكميات ضخمة من البطيخ، والخيار، والقرع الجيد. كما توجد لديهم جبال خالية من السكان، مكسوة بالغابات، مليئة بالعيون، ويوجد بها شجر البرتقال والليمون البري، كما تنتج فواكها. قال عنها الوزان : لايختلف مذاقها عن مذاق الشجر المغروس[1].

وفي تندرم كانت الزراعة تعتمد على الري من مياه الآبار، وكان قد حفر فيها اليهود ثلاثمائة وثلاثاً وثلاثين بئراً 333، ويتفاوت عمق البئر من واحد لآخر، فمنهم من يصل عمقه إلى مائة وأربعين ذراعاً، ومنهم من يصل إلى مائتى ذراع، وقد يصل عمقه الى ستين ذراعاً.

وأهل تندرم لهم طريقة في حفر الآبار، فعندما يكتمل البئر بالحفر، يحضرون حزماً من حطب الشبرثبر، ويضعونه في البئر، ويأتون بقوالب بلنغة فيصبونها فوقها، ثم يوقدون عليها النار، فتذوب وتصير متماسكة، ثم يتركونها إلى أن تبرد، ويصبون عليها الماء، أما جوانب البئر فتسطح بالطين الذي أخرج من البئر.

يستفاد من هذه الآبار، في زراعة شجر السلق، الذي يباع للتجار بأثمان عالية، وما أفاد به كعت أن هذا الشجر، لاينمو ويثمر إلا على مياه هذه الآبار، التي لاينقص عمقها عن ستين ذراعًا[2].

---

(1)- الحسن الوزان المصدر السابق، ج 2، ص ص 169-173.

(2)- محمود كعت، المصدر السابق، ص 63.

وعلى مايبدو أن العمق الذي يفوق الستين ذراعاً، به مادة الجبس التي تتجمد على تربة الشجرة، وتمنع عنها تحلل المواد الغذائية.

أما الزراعة في أقدز، فتعتمد على الأمطار والآبار، وتربتها صالحة للزراعة، وتزرع بها الحبوب والفواكه، فلديهم فاكهة الدوم والكرم، وقد أفاد بذلك الشيخ عثمان بن علي بن أبي بكر الحضيري الفزاني، بأن زراعة الكروم، كانت في أقدز في مخطوطته التي نقتطف جزءاً منها، قال: «فيقول العبد الفقير الفاني عثمان بن علي بن أبي بكر الحضيري الفزاني ... زرعت الكرمة التي في دار سكناي بأقدز، وهي دار بنات المرحوم الحاج سالم بن عبد الرحيم ... يوم سبعة وعشرين بتقديم السين يوم الأربعاء عند الضحى، عام تسعة بتقديم التاء وسبعين، بتقديم السين بعد تمام الألف من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى السلام، وولدت تلك الكرمة في أواخر ربيع الأول عام الثمانين والألف صحيحًا صحيحًا بالمعاينة، وأكلت ثمرتها يوم العشرين من جمادى الآخر بحمد الله وحسن عونه»[1].

كما أن هناك نهضة زراعية في إقليم زكزاك، حيث ينقسم الى جزئين: جزء كله سهول، وجزء جبال، وتتوفر فيه المياه الكثيرة وينتج كميات من الحبوب[2]. أما إقليم جوبر، فينتج الذرة، والأرز الجيد، والفلاحون يستفيدون من فيضان النهر؛ بقصد تسميد التربة. وفي إقليم الولوف.. فإن نهر السنغال يغذي التربة وإنتاجه من القمح والشعير قليل[3].

أما في كاتسينا فإن طبيعتها جبلـية وعرة، يزرع بها الشعير والـدخن، وفي

---

(1) - عثمان بن علي بن أبي بكر الحضري الفزاني، مخطوط ، مكتبة محمد الحضري بأقدز، تاريخها 1080هـ/ 1669م، ولامن بن أحمد بكدا، تاريخ أقدز، مخطوط، مكتبة الحاج عبد القادر التبيني، دون تصنيف، مخطوط، ورقة 14.

(2) - حسن الوزان ، المصدر السابق، ج 2 ، ص 174، ومارمول، المصدر السابق جـ3 ، ص ص208 - 209 .

(3) - مارمول، المصدر السابق، جـ3 ، ص ص206 - 215 .

زنفري يزرع الأرز والدخن والقطن[1]. وفي سلى يكثر عندهم شجر الأبنوس، ومنه يحتطبون[2]، أما شجر الزيتون.. فيكثر في مدينة سهل، إحدى مدن السودان الغربي، فقد أشرف على زراعته الإمام (عبد الله الأندلسي)[3]، الذي تولى أمير المدينة في عهد سني علي، فقد زرع ألفاً وثمانمائة شجرة زيتون[4]. وفي بلدة كُوبر يزرع الأرز، ونوع من الحبوب يزرع عند فيضان النهر، حيث يغمر السهول ويزرع الحب على الماء، ويكثر بها العسل، وقد ضمها أسكيا الحاج محمد لممتلكاته[5].

وفي مدينة كوكو، يكثر عندهم الفقوس العنابي، الذي أشار إليه ابن بطوطة بأنه لامثيل له، والملوخية البرية والثوم، والكرنب والباذنجان. كما يكثر عندهم نبات القرعة، فيستعملونه في غذائهم، ويصنعون منه أواني يزينونها بنقوش، ويستعملونها في حياتهم اليومية، وقد أفاد ابن بطوطة، أن صحون القرعة، كان يحمل فيها طحين الغرتي، إلى عدد من مناطق السودان الغربي[6].

كما تربعت على جزء من أراضي السودان الغربي، وخاصة في جنوب مدينة جني، وجنوب غرب قندام، وسيقو، وشرق كني وطاوه، غابات كثيفة، بها أشجار مثمرة وغير مثمرة، وقد أورد ابن بطوطة أن القافلة الواحدة تستظل تحت شجرة واحدة، وهذا يدل على ضخامتها، وأن النساج ينسج غزله بداخلها إلى

---

(1) حسن الوزان، المصدر السابق، جـ 2 ، ص ص 173 - 174.

(2) الاستبصار، المصدر السابق، ص 217.

(3) عبد الله الأندلسي، هاجر أجداده من الأندلس إلى منطقة السودان الغربي، وكان له سبعة أولاد وثلاث بنات، وهم: محمود وسغنغ ومصطفى وسكلع وعثمان وبغيغ وإسحاق، ومن البنات عاتكه وفاطمة وحسنة، للمزيد انظر محمد محمد المفتي (مرحبا)، التاريخ الخاص بالتواتر، مخطط ورقة 15 .

(4) محمد محمد المفتي (مرحبا)، التاريخ الخاص بالتواتر، مخطوط، ورقة 15 - 16.

(5) حسن الوزان، المصدر السابق ، ج 2 ، ص 171.

(6) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص ص 679 - 680، ومارمول المصدر السابق ، ج 1، ص 53.

آخر ذلك، وبها أشجار مثمرة أشبه بالتفاح، والمشمش، والخوخ، وهناك أشجار يستخرج من ثمارها دقيق، يستعمله التجار في المبادلات التجارية، وفي الأسواق[1]. كما كانوا يجمعون من الأرض حبوباً شبيهة بالفول، يقلونها مع الغرتي ويأكلونها، وهي مـن أفضل الأكلات[2]. كما تكثر لديهم فواكه مثل الجميز، وثمار تُعرف (بتادمون) هي طيبة المذاق حسب تعبير القلقشندي[3].

كما توجد لديهم أشجارٌ تعرف بالزيزور، وأخرى بالقوص، وهي تشبه السفرجل، وأشجاراً تشبه شجرة الليمون، يستخرج منها مخلوط يشبه دهن السمن، يستخدم في وقود السراج، وصنع الصابون، وطلاء المنازل، كما أن أرضهم تنتج نبات الكولا، والتبغ الذي يعد من المحاصيل الزراعية الهامة، وكانت الكولا تستعمل في مبادلاتهم التجارية[4].

لقد كانت تفرض ضرائب على المنتوجات الزراعية، من قبل حكام السودان الغربي، فقد كان لأسكيا الحاج محمد رجل مخصص لجمع الضرائب عن المحاصيل، وأعلى قيمة للضريبة ثلاثون (فتاً) لايتجاوزها، وتمنح الغرامة حسب الاستطاعة ولاتفرض، فمن المزارعين من يدفع عشر أفتات، ومنهم من يعطي عشرين، ومنهم مادون ذلك. . . وهكذا إلى الثلاثين[5].

من خلال العرض السابق، يتضح أن الزراعة كانت من المصادر الأساسية، في حياة حكام السودان الغربي وعامة الناس، وأن أرض السودان الغربي كانت

---

(1) ـ ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 681 ومارمول المصدر السابق ، ج 1 ، ص 53، والهادي المبروك الدالي، مملكة مالي الإسلامية وعلاقاتها مع المغرب وليبيا، المرجع السابق ، ص 69.

(2) ـ ابن بطوطة ، المصدر السابق ، ص 681.

(3) القلقشندي، المصدر السابق، جـ 5 ، ص 288 .

(4) ـ ابن بطوطة المصدر السابق ص 674، والعمري، المصدر السابق، ص 62، والهادي المبروك الدالي، مملكة مالي الإسلامية وعلاقاتها مع ليبيا والمغرب، مرجع سابق، ص 70 .

(5) - لامن بن احمد باكت تاريخ أقدز، مخطوط، ورقة 16.

خصبة، والأمطار متوفرة ونهر النيجر يزداد نشاطاً، بزيادة تهاطل الأمطار هذا عن الزراعة كمورد من موارد السودان الغربي.

الثروة الحيوانية والسمكية :

ضمت بلاد السودان الغربي ثروة حيوانية، شملت الحيوانات الأليفة والبرية. فقد اهتم السكان بتربية الحيوانات الأليفة والاستفادة منها في حياتهم اليومية.

مارس بعض مواطني السودان الغربي حرفة صيد الحيوانات البرية، مثل الفيلة، فهي توجد بكثرة في الغابات الكثيفة في جنوب البلاد، يصطادونها بالسهام، ويقتلونها، ويستفيدون من لحومها، وأنيابها ويبيعونها للتجار المغاربة. كما توجد لديهم من الحيوانات البرية، الزرافة التي تعيش في الغابات والصحارى؛ فالصيادون يصطادون الزرافة الصغيرة لسهولة الحصول عليها، ويستخدمون جلودها في الزينة. ومن حيواناتهم البرية: الأسود، والبقر الوحشي، والقردة، والدمان، والغزلان والضباع والماعز الوحشي ووحيد القرن والنمور، التي يسفيدون من جلودها في حفظ ملابسهم، ويطلقون عليها الشكاير[1]. أما الأرانب، والقنافذ، والسلحفاء، والضب، والحرباء.. فقد استخدمها أهل السودان الغربي في التداوي من السحر[2].

أما الحيوانات المستأنسة.. فقد أولاها سكان السودان الغربي عناية خاصة، وقد اهتموا بتربية الإبل، التي استفادوا من لحومها، وألبانها في غذائهم، ووبرها، وجلدها، في صناعة بيوتهم ولباسهم. كما استخدموها في نقل

---

(1) الإدريسي، المصدر السابق، ج 1، ص ص 20 - 21، والحسن الوزان، المصدر السابق، ج 2، ص 269، ومحمود كعت، المصدر السابق، ص 144، ومارمول، المصدر السابق، ج 1 ص ص 69 ـ 87.

Kayser et Viuers, A. : Les animaux. protégés de L'Afrique Noire; Dakar 1961 . P : 41.

(2) محمد محمد المفتي (مرحبا)، التاريخ الخاص بالتواتر، مخطوط، ورقة 50.

أحمالهم وتجارتهم وخزانات للمياه، فالبدوي يمثل الجمل عنده أغلى شيء[1]، وكانت بأعداد هائلة فأسكيا الحاج محمد ضيف الشريف أحمد الصقلي بأن نحر له مائة من الإبل[2]، الشيء الذي يترجم لنا مكانة الشريف أحمد الصقلي السامية والروحية باعتباره شريفًا. وأولى السكان عناية خاصة بتربية الأبقار والإكثار منها، وقد اختصت بذلك قبائل الفلان دون غيرها بهذه المهمة، وكان منتشراً على حافة الصحراء، وفي مدن كاوكاو وكوبر وأقدز[3]. ولوفرته منح صاحب سنقر فندنك بُوبُ، وُوُل كين، عليا التلمساني ست آلاف بقرة، في مقابل صلح بينهم، على أن يرجعه إلى بلد[4]. فهذا حاكم بلده أعطى هذا العدد، فما بالك بحكام المدن الكبيرة!!

كما اهتموا بتربية الأغنام والماعز الذي يربى في مناطق الشمال، أكثر من الوسط والجنوب، حيث يأتي في المرتبة الثانية، بعد الأبقار، من حيث الكثرة ، فخديم أسكيا داوود المدعو (زنك)، كان له في دند سبعة سراح بقر، وثلاثون سارحاً للغنم. هذا خديم أسكيا داوود له هذا العدد، فما بالك بأسكيا داوود نفسه. وكان السكان يستفيدون من الماشية بأنواعها، من حيث اللحوم، والألبان ومشتقاتها[5]، أما الخيول فكانت تستورد عن طريق التجار العرب المغاربة إلى

(1) زكريا بن محمد ابن محمود القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، بالمصدر السابق ص 18 - 19 ، وعماد الدين إسماعيل محمد بن عمر، تقويم البلدان، المصدر السابق، ص 137، والقلقشندي، المصدر السابق، ج 5 ، ص 286، ونعيم قداح ، أفريقيا الغربية في ظل الإسلام، المرجع السابق ، ص 128.

ca Da Mosto : Relation des voyage a la cote accidentale de l'Afrique, paris P : 53.

(2) ـ محمود كعت ، المصدر السابق ص 18.

(3) ـ أحمد بلعراف التنبكتي، أهمية التاريخ، مخطوط، ورقة 20 ، والحسن الوزان، المصدر السابق، ج 2 ، ص: 171 - 172 - 178

(4) ـ المختار بن محمد بن المختار بن أحمد يبعث برسالة إلى أمير المؤمنين الشيخ أحمد بن محمد ابن أبي بكر بن سعيد، مخطوط ، ورقة2، ومحمود كعت ، المصدر السابق ، ص 195.

(5) ـ عبدالرحمن عمر التواتي، فهرسة لأشياخه، مخطوط، مكتبة محمد الساكت بزندر، دون تصنيف، ورقة 37، ومحمود كعت، المصدر السابق، ص 195.

المنطقة، وقد أكد ذلك القلقشندي بقوله: «...وتجلب الخيل العراب إلى ملوكهم ويتغالون في أثمانها...»[1]، والخيول عندهم مرتفعة الثمن، وقد اقتصر ركوبها على الملوك وكبار الموظفين، وكانت تستخدم في القتال، وذلك لسرعة عدوها[2].

كما توجد لديهم الحمير بكثرة، حيث يستعملها السكان لقضاء حاجاتهم داخل البلاد، ومن بين الثروة الحيوانية البغال، وقد شاع استعمالها، فهي أكثر تحملاً للأثقال من الحمير، وقد استخدمها منسا موسى، في حمل زوجته وذهبه في رحلته للحج[3].

كما كانت منطقة السودان الغربي، تزخر بمختلف أنواع الطيور، منها: الداجنة والبرية، ويشير القلقشندي إلى وجودها في ذلك الوقت قائلاً: «وبها من الطيور الدواجن، الأوز والدجاج والحمام»[4]، وكان الدجاج يمثل جزءاً هاماً في منازل سنغاي، على أيام الأسكيين، وكان بيض الدجاج، ولحومها يمثل غذاءً مهماً في حياة السكان[5].

كما يوجد في البيئة السودانية طير النعام، الذي يستفاد من ريشه بأن يصدر

---

(1) ـ القلقشندي، المصدر السابق، ج 5، ص 287.

(2) ـ احمد بلعراف التنبكتي، أهمية التاريخ، مخطوط، ورقة 21 وعبد الرحمن بن عمر التواتي، مخطوط، ورقة 63 ومحمود كعت، المصدر السابق ص 108، وسليمان الباروني: الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الأبضية، المصدر السابق، ص 184.

Henri Barth; voyages et Decouvertes dans L'Afrique septentrionalle et central; vol I ; Paris A bonné Librair 1860 ; p 28.

(3) ـ عبد الرحمن بن عمر التواتي، مخطوط، ورقة 63، ومحمود كعت، المصدر السابق، ص 36.

(4) ـ القلقشندي، المصدر السابق، ج 5، ص 288.

(5) - P L . Dekeyser et Drivot: les oiseaux de L'ouest Africain; Dakar; 1966; p114.

خارج السودان الغربي، الشيء الذي يدر عليهم أرباحا طائلة، كما كانوا خدمون رقبة جلد النعامة في حفظ الذهب[1].

كذلك من الطيور البرية، التي احتضنتها أرض السودان الغربي الباز، والعقاب سور، وقد أفاد كعت في ذلك قائلاً: «وإن أدركك خصيانه هنا قتلوك روك غذاء العقاب والنسور»[2].

وكانت توجد لديهم التماسيح بكثرة في نهر النيجر، ويبلغ طول الواحد أحياناً لي اثني عشر ذراعاً، وقد أفاد ابن بطوطة بأن التماسيح خطيرة، وأن أحد ي مالي، وقف حائلاً بينه وبين النهر، خوفاً عليه من التماسيح. وكان كان يمارسون صيدها جماعات، فيبيعون جلودها في الأسواق بأثمان مرتفعة، ت ملوك سنغاي يقتنون أذنابها فيزينون بها مساكنهم وقصورهم، وكذلك كان ، أثرياء المجتمع[3].

وكان بأرض السودان الغربي عدد من الحشرات، مثل الناموس الذي كان خدم في السجون وهو نوع من العقاب، وقد سجن أسكيا الحاج محمد الكبير سجن يكثر فيه الناموس[4] وقد سبقت الإشارة إلى ذلك. ومن الحشرات اد كان بأعداد هائلة، وهذا ماعبر عنه عبد الرحمن السعدي في قوله: «خيل يا إليهم كجراد منتشر»[5] كان الجراد يستخدم كغذاء للسكان بأن يحمص، كل أو يجفف ويطحن؛ وإلى يومنا هذا يستعمله سكان السودان الغربي.

الحيوانات التي كانت منتشرة، الأفاعي والعقارب والحيات[6]. وعقارب مدينة ا من أخطر العقارب، قال عنها ابن بطوطة: «وعقاربها تقتل من كان صبياً

موسى السعدي، مخطوط ورقة 60 حسن الوزان، المصدر السابق، ج 2، ص 269.

محمود كعت، المصدرالسابق، ص 137.

- ابن بطوطة، المصدر السابق، ص وحسن الوزان، المصدر السابق، ج 2، ص 269.

عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص 89.

نفسه، ص 127.

محمود كعت، المصدر السابق، ص 50.

. . . وأما الرجال فقلما تقتلهم، ولقد لدغ يوماً، وأنا بها ولد للشيخ سعيد بن علي عند الصباح فمات لحينه»[1]، ومن الحشرات النافعة في السودان الغربي النحل، حيث إن تربيته تمارس على نطاق واسع في المنطقة، وخاصة أقدز، وتُصنع له مخابىء تحت الأشجار، وكان العسل يدخل في تغذية الكثير منهم، وفي علاجهم، كما يبيعون كميات منه إلى التجار المترددين على المنطقة[2]. أما عن الثروة السمكية.. فإن نهر النيجر حبا أهله بثروة سمكية هائلة، منذ القدم، وقد تحدث في ذلك كعت، وعَدَّد أنوعاً من الأسماك منها الكبيرة والصغيرة. وكانت حرفة صيد الأسماك من الحرف المهمة، التي مارسها بعض أهالي السودان الغربي، وكان أهل كرمن من الزناجية، ينزلون بموضع على نهر النيجر، يدعى سنشركي، يصطادون فيه الأسماك، وتعرف عندهم حيثان بدع[3].

وفي إقليم الولوف، يعيش عدد وافر من الأسماك المختلفة الأحجام والألوان، وحيوانات مائية، مثل فرس النهر والثعابين البحرية ذات الأجنحة، إلا أنها صغيرة جدا.

استخدم أهل السودان الغربي الأسماك في غذائهم، فإما إن يتناولوها طرية أو بعد تجفيفـــها، وكانوا يصدرون جزءاً منها إلى الشمال الأفريقي؛ فتُباع في أسواقهم بأثمان مرتفعة[4].

لقد برزت أهمية الاستفادة من الثروة الحيوانية في مجال الزراعة والنقل، فاستخدمت الحيوانات في الحرث، والحصاد، ونقل المحاصيل من مكان الإنتاج للأسواق الداخلية والخارجية، وكانت الإبل أهم وسيلة للنقل عبر الصحراء

---

(1) ـ ابن بطوطة، المصدر السابق، ص ص 696 - 697.

(2) ـ لامن بن أحمد بكدا، تاريخ أقدز، مخطوط ورقة 20 ، مارمول، المصدر السابق، ج 3 ، ص 207 .

(3) ـ محمود كعت، المصدر السابق، ص 119 .

(4) ـ موسى بن أحمد السعدي، مخطوط، ورقة 288 والبكري، المصدر السابق، ج 1، ص 51 ومارمول، ج 3 ، ص 215.

لمناطق الشمال الأفريقي، كما استفاد أهالي السودان الغربي، من بعض منتوجات حيواناتهم، في مجال التصنيع، كدباغة الجلود، السروج والأكياس وبيوت الشعر وسقوف المنازل والألبسة.

المعادن :

كان لمنطقة السودان الغربي ثروة معدنية، يفوق عائدها الاقتصادي الثروتين السابقتين، وتشمل معادن جد مهمة، وهي: الذهب والملح والنحاس والكحل وغيره. ومعدن الذهب من أهم المعادن، التي حظيت بالعناية الفائقة، من قبل حكام السودان الغربي، وفي مقدمتهم السلطان أسكيا الحاج محمد الكبير سلطان سنغاي، نظراً لأنه يمثل العمود الفقري لاقتصاد السودان الغربي.

ويوجد الذهب في أعالي نهر النيجر، الذي يجرفه معه عند انحداره السريع من مناطق الجبال العالية، حيث يتسع مجراه عند جاو وتنبكت، فيفيض على الجوانب في موسم الأمطار[1]، كما يوجد كذلك في بلدة ونقارة، التي تقع اليوم إلى الجنوب الغربي من العاصمة باماكو بجمهورية مالي، وقد أفاد الإدريسي واصفاً إياها بأنها : «بلاد التبر المشهورة بالطيب والكثرة، وهي جزيرة طولها ثلاث مائة ميل، وعرضها مائة، وخمسون ميلاً والنيل [نهر النيجر] يحيط بها من كل جهة في سائر السنة، فإذا كان في شهر غشت، وحمي القيظ، وخرج النيل وفاض، غطى هذه الجزيرة ... وأقام عليها مدته ... ثم يأخذ في الرجوع، فإذا أخذ النيل في الرجوع والجزر، رجع كل من في بلاد السودان المنحشرين إلى تلك الجزيرة، بحاثاً يبحثون طول أيام رجوع النيل، فيجد كل إنسان منهم في بحثه هناك ما أعطاه الله سبحانه كثيراً أو قليلاً من التبر...»[2].

(1) Mauny. R. Tableau deographique de L,ouest Afrixain au Moyen Age; Dakar; 1961 p 295.
وزبادية ، مملكة سنغاي، المرجع السابق ص 188

(2) - الإدريسي، المصدر السابق، ج 1، ص24 .

كما يوجد الذهب في (بمبوك)[1]، الذي يقع إلى الجنوب الغربي من العاصمة باماكو، بحوالي ثلاثمائة كيلومتر، وهو من المناجم المهمة في السودان الغربي[2]؛ كذلك يوجد الذهب في بلدة سيكا سو، التي تقع إلى الجنوب الغربي من العاصمة باماكو، وتبعد عنها بمائة وخمسين كيلومتراً،[3] يوجد الذهب في بلدة موشي، ويقوم بإخراجه أبناء المنطقة، ويوجد أيضا في مدينة برسني بكميات وفيرة، ومعروفة لدى أهالي السودان[4]. كما يتوفر في بلدة كرنرف، ومدينة غياروا، حتى أن ملكها له حجر ضخم من الذهب يجعله أمامه فإذا ما زاره أحد الملوك، يأمر بربط جواد الزائر إلى تلك الحجرة وهو بذلك يبين لضيفه ثراءه وعظمته[5].

لقد كان الذهب متوفراً بكثرة، في أسواق سنغاي، على أيام الأسكيين، وكانت مناطق استخراجه عند حافة نهر النيجر العليا، مما حمل عدداً من الرحالة العرب كابن سعيد والعمري وغيرهم على القول : إن نهر النيجر يزرع الذهب على شواطئه، ويذهب الأهالي ليقتطفوه، فينال كل منهم ما قدر له. ذهب السودان الغربي يغطي حاجة سكان البحر المتوسط بما يقدر بالنصف ، ويتخذ كحلي، وزينة لدى الملوك الموسرين[6].

---

(1)- وقد وقفت على مقربة منه عام 1987.

(2) - ابن القاسم التنبكتي، يبعث برسالة تجارية، مخطوط، يتحدث فيها عن معادن السودان، مكتبة الباحث نسخة أصلية، تاريخها 1080هـ ورقة 1، وأحمد الياس حسين «سلع التجارة الصحراوية» الصحراء الكبرى ، طرابلس : مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية 1979، ص204 .

(3) - زرت هذه المدينة عام 1987 وشاهدت عدداً من الأوروبيين والأفارقة يغربلون بغرابيل رقيقة جداً التربة على ضفاف النهر.

(4) - مجهول . تراجم علماء باغرام، مخطوط، ورقة 16 والاستبصار، المصدر السابق، ص221 ومحمد بن فودي، إنفاق الميسور، المصدر السابق، ص45.

(5) مجهول تراجم علماء باغرام، مخطوط، ورقة 17 والاستبصار، المصدر السابق، ص221 .

(6) - محمود كعت، المصدر السابق ص 19-31-87-112 .

كما استخدم الذهب في السودان الغربي في فترة الأسكيين، كعملة، مكتوب على وجه منها عبيد الله، والوجه الثاني توكلنا على الله[1].

لم يحدد صاحب المخطوط في أي فترة من عهد الأسكيين، ولكن أعتقد أنها كانت في فترة السلطان أسكيا الحاج محمد، بعد عودته من رحلة الحج وتلقبه بأمير المؤمنين، فصك عملة تعبر عن عظمته وفترته . وقد أورد صاحب مسالك الأبصار، أن السلطان منسا موسى، عندما سئل عن معدن الذهب، عند زيارته لمصر، أورد أن هذا المعدن يتكون من نوعين، هما:

"نوع في زمن الربيع، عقيب الأمطار، ينبت في الصحراء، وله ورق شبيه بالنخيل، أصوله التبر، والنوع الآخر يوجد في جميع السنة في أماكن معروفة على ضفاف مجاري النيل، فيحفر هناك حفائر فتوجد أصول الذهب كالحجارة والحصي فيؤخذ، وكلاهما هو المسمى بالتبر.

والأول أفحل في العيار، وأفضل في القيمة. قال وحدثني السلطان موسى أن الذهب حمي له بجمع له متحصلة كالقطيعة، إلا مايأخذه أهل تلك البلاد منه على سبيل السرقة.

قلت : والذي قال الدكالي إنه إنما يهادي بشيء منه كالمصانعة، ويكتسب عليهم في المبيعات، لأن بلادهم لاشيء بها، وقول الدكالي أثبتَ"[2].

من خلال ما أورد العمري وأكده القلقشندي نلمس المبالغة، والخيال الجامح في تصوير الذهب، لأنه لم يكن نباتًا، بل هو معدن يستخرج من نهر النيجر، ومن المناجم الموجودة في باطن الأرض فقط. ولكن شهرة منطقة السودان الغربي بهذا المعدن هي التي جعلت عدداً من المؤرخين ينسجون حولها الأساطير، وينسبونها إلى حكام المنطقة. والمستفاد من النص السابق، أن معدن الذهب موجود في المنطقة بكميات كبيرة، وأنه يمثل جانباً مهماً في حياة السكان، حيث يتم استخراجه وبيعه، أو مقايضته بالسلع الأخرى .

(1) محمد محمد المفتي (مرحبا)، التاريخ الخاص بالتواتر، مخطوط، ورقة 96.

(2) العمري، المصدر السابق ص 64، والقلقشندي، المصدر السابق ج 5، ص 290.

وقد أفاد صاحب الاستبصار، أن معدن الذهب ترابه أحمر، ويستخرج كما يستخرج الحديد والرصاص والنحاس والفضة[1].

وأورد أبو الحسن الحكيم طريقة صناعة الذهب، الذي يصفى بإذابته على النار، ولتنقيته من الشوائب، وصبه في قوالب معينة، تسمى «السبائك» ويتولى أصحاب الحرف هذه العملية، ثم تؤخذ هذه السبائك إلى مصانع ضرب العملة في المغرب ومصر[2]. الشيء الذي يدل على مدى ارتباط منطقة السودان الغربي بالشمال الأفريقي، وفي مقدمته المغرب .

ومن المعادن المهمة، والقليلة في السودان الغربي ، معدن النحاس، وقد أورد ابن بطوطة معلومات عن هذا المعدن قائلاً: «ومعدن النحاس بخارج تكدا يحفرون عليه في الأرض ويأتون به الى البلد، فيسكبونه في دورهم، يفعل ذلك عبيدهم وخدمهم، فإذا سكبوه نحاساً أحمر، صنعوا منه قضباناً في طول شبر ونصف، بعضها رقاق وبعضها غلاظ، فتباع الغلاظ منها بحساب أربعمائة قضيب بمثقال ذهب، وتباع الرقاق بحساب ستمائة وسبعمائة بمثقال ذهب، وهي حرفهم يشترون برقاقها اللحم، والحطب ويشترون بغلاظها العبيد، والخدم، والذرة، والسمن، والقمح »[3].

أما القلقشندي. . فقد أورد نقلاً عن عيسى الزواوي قوله : «قال لي السلطان موسى، إن عنده في مدينة اسمها نكوا [ربما يقصدها تكدا] معدن نحاس أحمر، يجلب منه قضبان إلى مدينة (بنبي) قاعدة مالي فبعث منه إلى بلاد السودان

(1) الاستبصار ، المصدر السابق ص221.

(2) أبو الحسن علي يوسف الحكيم ، الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة، تحقيق حسين مؤنس، مدريد 1960م، ص30 تتربع جمهورية مالي اليوم على مساحة من الذهب، تقدر بخمسمائة كيلو متر مربع تقريباً، ويتركز في الجنوب والجنوب الغربي من الدولة، إلا أن جله مستغل من طرف شركات أجنبية، ولا يستفيد منه الشعب إلا بالنزر القليل.

(3) ابن بطوطة، المصدر السابق ص ص697 ـ 698، ومحمد الغربي، المرجع السابق ص74، والهادي المبروك الدالي ، مملكة مالي الإسلامية وعلاقتها مع المغرب وليبيا، المرجع السابق، ص ص 74-75.

الكفار، فيباع وزن مثقال بثلثي وزنه من الذهب، فيباع كل مائة مثقال من هذا النحاس بستة وستين مثقالاً وثلثي مثقال من الذهب»[1].

والنصان السابقان يوضحان لنا وجود معدن النحاس في تكدا، وطريقة تصنيعه، وأثمانه واستعماله في المبادلات التجارية، ومدى الفائدة التي يجنونها منه .

ويأتي معدن النحاس، السالف الذكر، في الأهمية بعد الذهب والملح، وذلك للحاجة الماسة إليه في الصناعات الحربية والزينة، وصناعة الأواني وغيرها، فقد تصنع منه الأشكال الفنية والمصنوعات البسيطة، وأغمدة السيوف والرماح، كما تزركش به ألبسة الرؤساء. يستخرج هذا المعدن الذي شكل أهمية في حياة السكان والحكام بمنطقة السودان الغربي من منطقة اكجوجت في الجنوب الغربي من موريتانيا، ومنجم أزوليك ببلاد الآير[2].

ومن المعادن المهمة أيضاً الحديد، وكانت مناجمه منتشرة في عدد من بقاع السودان الغربي، وازدادت أهميته زمن الملك سني علي، وأسكيا الحاج محمد، وذلك نظراً لكثرة فتوحاتهم، فازدادت الحاجة إليه في صناعة الأدوات الحربية، وكثرت دكاكين محترفيها، فصنعوا منه الحراب، والسيوف، والرماح، والدروع، وسيرد ذكرها في الصناعة. وبالإضافة للمعادن السابقة، عرفت المنطقة معادن أخرى كمعدن الرصاص والكحل والقصدير؛ فالرصاص يوجد في بلدتي مرسى ووبروي، والكحل في بلدة كرنوف. وكانت المرأة في السودان الغربي تتزين بوضعه في عينيها[3]، إلا أن هذه المعادن لم تكن واسعة

---

(1) - والقلقشندي المصدر السابق، ج 5، ص291 .

(2) - عبد الله بن الحسن علي، تحفة الأصحاب والرفقة ببيع مسائل بيع الصفقة ، مخطوط، مكتبة الباحث، الأصل تاريخ نسخها 1130هـ 1717م، مخطوط، ورقة 1-3، مجهول رسالة إلى الأسكيا محمد، بخصوص قوافل الملح، مخطوط مكتبة الباحث الأصل، مخطوط، ورقة 10.

(3) - الشيخ عبد الرحمان عبد الله، المرجع السابق، ص74 و MOUNY M OP Cit P 205 .

الانتشار، وسنتطرق لأهم معدن في السودان الغربي، والذي ياتي بعد معدن الذهب في القيمة والأهمية، ألا وهو الملح.

يتركز معدن الملح، في عدة مناطق من السودان الغربي، لكن أشهرها إنتاجاً لهذا المعدن : تغازا، والتي حددها القزويني، بأنها تقع جنوبي المغرب بقرب البحر المحيط[1]، وحددها القشتالي بأنها بلدة تتوسط القفر بين المغرب، وبلاد السودان، كانت في القديم من مملكة سكية[2]، ويطلق عليها عدد من المؤرخين تغزة، إلا أن السائد تغازا[3]، ومعظم سكانها من قبيلة مسوفة إحدى قبائل صنهاجة الصحراوية[4]. أما الذين يقومون باستخراج معدن الملح، فهم من خارج البلدة، حيث يأتون مع القوافل ويبقون كمنجمين. وتغازا مكان مأهول بمناجم الملح، التي تشبه مقاطع الرخام، يحمل منها الملح إلى داخل وخارج السودان الغربي، وهو من أجود أنواع الملح[5]، ومن الملاحات المهمة ملاحة تغاز الغزلان، فبعد أن أحس أسكيا داوود بأن تغازا أصبحت في مرمى السلطان المنصور الذهبي، أمر رجاله بحفر تغاز الغزلان، بديلاً عن السابقة، عام 964هـ / 1556م، ثم استحدث بعد ذلك ملاحة تنورد، بعد أن سيطر السلطان المنصور الذهبي على ملاحة تغاز[6].

ومن ملاحات السودان الغربي ملاحة تودن، وهي مصدر من مصادر ملح السودان، قال عنها عبد الرحمن التواتي: «فقدمنا قرية تودن، وأقمت بها مدة فمرضت بها أياماً . . . لقبح عيشها وملحها»[7].

(1) – موسى بن أحمد السعدي، مخطوط ورقة270 ، وزكرياء بن محمد بن محمد القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، المصدر السابق ص25.

(2)- القشتالي ، المصدر السابق، ص120.

(3) - مجهول ، خبر السوق، مخطوط، مركز أحمد بابا رقم 1170، ورقة 15, والقزويني، المصدر السابق، ص25 والحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص108.

(4) - موسى بن أحمد السعدي مخطوط ، ورقة76 .

(5) - الحسن الوزن ، المصدر السابق، ج2، ص108 والقشتالي، المصدر السابق، ص120.

(6) - عبد الرحمان السعدي، المصدر السابق، ص121.

(7) - عبد الرحمان بن عمر التواتي، مخطوط، ورقة 31.

ولقيمة ملاحة تودن وكثرة ملحها، أصدرت فيها فتاوى، فقد قدم القائد أحمد ابن القائد عبد المالك الحيوني، إلى سيدي الوافي بن طالبن، نصاً في حكم معدن تودني ؛ نقتطف فقرات منه «. . .حكم معدن تودني، هل حكمه حكم سائر المعادن، . . . إلا الإمام أم لا، وهل إذا أعطى السلطان حفرة لأحد ومات السلطان. . . إن حكم المعدن المذكور على حكم سائر المعادن التي لاحكم فيها. . . وكتبه المقر بقصور وتقصير سيدي طالبن بن الوافي بن طالبن بن محمد ابن احمد ابن اد. . .»[1].

ومن ملاحات السودان الغربي، ملاحة أوليل، قال عنها الإدريسي: «ولايعلم في بلاد السودان ملاحة غيرها»[2]، ويقصد بذلك في غزارة إنتاجها، ومنها ينقل إلى جميع بلاد السودان وإلى سلي، وتكرور، وبريسي، وغانة، وكافة بلاد ونقارة وغيرها[3].

ومن الملاحات المعروفة في السودان الغربي ملاحة كرنرف، التي تقع جنوب مدينة زندر، وتبعد عنها بحوالي مئتي كيلو متر؛ حيث ينقل ملحها إلى أقدز، وكني وكانوا وغيرها من المناطق[4]. وملاحات السودان الغربي منها ماهي عامة يمتلكها أصحاب المنطقة التي توجد بها، ويأخذ عليه السلطان ، الخراج على الملح بعد بيعه للتجار، ومنها ماهو ملك للسلطان أصلاً، وعادة ما يكون من حق السلطان، ولا يباع ملح أحدٍ إلا بعد بيع السلطان لملحه.

أما الخراج الذي يحصل عليه السلطان من الملح، فيعادل سنوياً الثلث عن كل مقطع، وقد يصل خراج مجموعة من الملاحات أحياناً إلى ثلاثين الفاً[5].

(1) القائد أحمد بن القائد عبد المالك الحيوني، يبعث بسؤال إلى سيدي الوافي ابن طالبن في حكم معدن تودني، مخطوط مركز أبحاث النيجر، رقم 1120، ورقتين.

(2) الإدريسي، المصدر السابق، ج1، ص17.

(3) ابن حوقل، المصدر السابق ص91، والاستبصار، المصدر السابق، ص214، والبكري، المصدر السابق، ج2، ص867 .

(4) مجهول، تراجم علماء باغرام، مخطوط، ورقة ص17.

(5) مجهول ، ملح السلطان، مخطوط، مكتبة الباحث بدون تصنيف، ورقتين.

وتتم طريقة استخراجه بحفر سراديب في الأرض بعمق قامتين أو دونها، ويقطع كما تقطع الحجارة، ويسمى هذا المعدن تاتنتال، وأفاد الحسن الوزان أن له عدة ألوان منها الرمادي والأبيض والأحمر(1)(2).

لقد كان معدن الملح يساوي وزنه ذهباً في بلاد السودان، وهو من المعادن التي تهافت التجار عليها؛ لأنهم كانوا يجنون منه أرباحًا طائلة.

الصناعة :

عرفت الصناعات المحلية ازدهاراً كبيراً في السودان الغربي، فقد كانت صناعة الخشب من الصناعات الواسعة الانتشار في المنطقة؛ فمن خشب أشجار الأبنوس والخيزران صنعوا الأبواب، والنوافذ، والأعمدة، وأدوات الصيد، والحرب، من نشاب، ودبابيس، ورماح ونحوها(3).

ولقد عمل السكان في صناعة الفخار وتشكيله، فصنعوا منه أدوات للطبخ، وحفظ الحليب، عرفت عندهم بالقدح(4). كما كانت عندهم صناعة القرب، التي تصنع عادة من جلد الماعز، ويفضل ذكورها بأن يخرج الجلد من الرقبة بعد ذبحه. ويحافظون على سلامته من الثقب، ويطمر في الأرض لفترة من الزمن، ثم يخرج ويكون قد زال شعره، ثم يوضع في الدباغ، والمعروف بالجداري، وعيدان شجر التاكوت، الذي يكثر بمدينة غدامس، ويجلب إلى السودان الغربي، وبعد شهر من وضعه في الدباغ يخرج، وقد أصبح ملساً ورطباً وذا رائحة طيبة، ويستخدم بعد ذلك في حفظ الزيت والماء والسمن والدقيق، وكذلك اللحم المجفف.

---

(1) - البكري، المصدر السابق، ج2، ص867 والاستبصار، المصدر السابق، ص214، والحسن الوزان المصدر السابق، ج2، ص280.

(2)- لقد شاهدت في مدينة تنبكت صفائح من الملح، طول الواحدة منها مترًا، وعرضها خمسون سنتيمترًا، ولونها أحمر وأبيض، أما الرمادي فلم أره.

(3)ـ الإدريسي، المصدر السابق، ج 1، ص 20.

(4)ـ محمود كعت، المصدر السابق، ص 90.

ومن الصناعات المنزلية التي كانت منتشرة، صناعة الدلاء التي تُستخدم لسحب الماء من البئر، وهي من الصناعات، التي برع فيها صناع السودان الغربي، صناعة الزق وهو من الفخار، وعادة مايكون صغير الحجم، يستخدم في شرب الماء والحليب[1].

زيادة على هذا، فقد طور الأهالي بشكل كبير، صناعة النسيج، وخاصة بعد وجود المواد الأولية لهذه الصناعة في البلاد، منها: الصوف والوبر والقطن. وقد أكد الوزان عند زيارته لسنغاي، في عهد الأسكيا الحاج محمد الكبير، في بداية القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي، على انتشار دكاكين الحياكة في مجال القطن؛ حيث كان بعض الناس يقومون بغزله، والبعض الآخر اختص بنسجه. وكان القطن يستخدم كوسيلة لشراء بضائع الشمال الأفريقي، المجلوبة للسودان الغربي بطريقة المقايضة، والدليل على ذلك ماشاهده الحسن الوزان، أثناء رحلته إلى مدينة جني قائلا: « ويجني سكان البلاد أرباحاً عظيمة من تجارة أقمشة القطن، التي يمارسونها مع التجار العرب المغاربة، ويبتاع منهم هؤلاء بالمقايضة الكثير من الأقمشة الأوروبية»[2].

وأفاد الوزان في موضع آخر، حول هذه الصناعة بأن أهل كوبر متحضرون، وهذه الحضارة تولدت منها مهارتهم في صناعة نسيج القماش، ولاسيما الإسكافيين، الذين يصنعون أحذية تشبه الأحذية الرومانية القديمة[3] وقد ازدهرت صناعة نسيج القطن، والصوف والوبر في مدينة سغ إحدى مقاطعات السودان الغربي[4]. كما برع أهالي قبيلة الزغاويين في صناعة البيوت من وبر الإبل[5]. وبرع أهالي الدمذم في نسج الثياب والأكسية من

(1) ـ محمود كعت ، المصدر السابق، ص 35 - 36 - 67.

(2) ـ الحسن الوزان، المصدر السابق، ج 2 ، ص 537.

(3) ـ نفسه ، ج 1 ، ص 171.

(4) ـ موسى بن أحمد السعدي ، مخطوط، ورقة 49 - 201.

(5) ـ الإدريسي، المصدر السابق، جـ 1 ، ص ص 110 - 111.

خيوط، تخرج من ثمار أشجار، يطلقون عليها (توريري)[1]، ومما يميز نسيجها أنه لايتأثر بالنار.

أما في مدينة ترنكه، فإن البعض من سكانها يحترفون صناعة الأُزر، التي يطلقون عليها الشكيات، وهي ملابس قطنية يصدورنها أحياناً إلى قلنبوا، وأهل ترنكه يحبون شجرة القطن، فلا يوجد بيت إلا وفيه شجرة قطن[2]. يبدو أن هذا راجع إلى التفاؤل بهذه الشجرة، فالجانب الروحي دائمًا يلعب دوره في تصرفات الأفراد، وخاصة في أفريقيا، جنوب الصحراء.

ومن الصناعات المهمة في السودان الغربي، صياغة الذهب والفضة؛ حيث اشتهرت بها مدينة تنبكت وسهل. ولقد كانت هناك عائلات معروفة بهذه الحرفة عن طريق التوارث: من بينها عائلة أولاد أحمد بن عبد الله الأندلسي، في مدينة سهل، الذين ورثوها عن أبيهم مصطفى. وفي مدينة تنبكت، انتشرت صياغة الذهب؛ وخاصة في حي الغدامسية، وحومة السوق، ونحوها لأن عقول سكانها راجحة في ذلك[3].

كما انتشرت عندهم صناعة الحدادة، في كل من تنبكت، وجاو، ويسلنكوب، وبالتحديد في (قرية لفر)[4]، وكان بها ثلاثة حدادين، يصنعون معاول الحرث، وأدوات الحرب كالخناجر، والسيوف، والدروع، والخوذات، والرماح، والفؤوس، وحدائد الخيل، والمطارق والإبر[5].

---

(1)ـ شجرة توريري لاوجود لها اليوم في منطقة السودان الغربي، لقد سألت عن هذا النوع من الأشجار، خلال رحلاتي المتكررة، ولم أتوصل إلى معلومات عنها، ويبدو أنها انقرضت من المنطقة، أو هي من صنع الخيال.

(2)ـ الاستبصار، المصدر السابق ، ص 225.

(3)ـ البكري، المصدر السابق، ج 2 ، ص 869، والاستبصار المصدر السابق، ص 218.
Delafosse , M : Haute senegal Niger, Paris, 1912. P.11.p.163.

(4) محمد محمد المفتي (مرحبا)، التاريخ الخاص بالتواتر، مخطوط، ورقة 16، وأحمد بابير الأرواني، السعادة الأبدية ، ورقة 36 .

(5) ـ أحمد بلعراف، أهمية التاريخ، مخطوط، ورقة 13 - 14، وموسى بن أحمد السعدي، مخطوط، ورقة 283، ومحمود كعت، المصدر السابق، ص 30.

ومن الصناعات التي كانت منتشرة في المنطقة، صناعة الزرابي، زمن دولة سنغاي، التي تصنع من أصواف الأغنام، وشعر الماعز ووبر الإبل، والتي اختص النساء دون غيرهم في ذلك. كما عرفت المنطقة صناعة الحصير، التي تنسج من نبات يشبه الديس، إلا أنه أقوى منه وأكثر سمكًا[1]. وصناعة الزرابي التي يبدو أنها انتقلت من الشمال الأفريقي، فهي معروفة في المغرب، وتونس، وليبيا، منذ فترة مبكرة.

وتطورت صناعة دبغ الجلود، وكثر محترفوها، حيث تعددت الصناعات الجلدية، فصنعوا القرب، والملابس، والنعال، والسروج، وأغمدة السهام، والآلات الموسيقية، وخاصة الطبل الذي كان من أهم الآلات الموسيقية، لدى سكان السودان الغربي، وقد جلبوا له مواد الصباغة، من المغرب، ومن مدينة غدامس بليبيا، وقد استخدم الصباغون أوراق النبات، منها التاكوت، والجداري، وغيره من المواد لإخراج الجلد في أحسن حال، وأضافوا لهذه الاصباغ الشب والملح لتثبيت ألوانه[2].

نشطت حرفة الصباغة في العهد المغربي، وحتى أواخر القرن العاشر الهجري، السادس عشر الميلادي؛ حيث كان قسم كبير من سكان سنغاي يلبسون خلال فصل الشتاء الجلود المصبوغة[3].

ومن الصناعات المحدودة في السودان الغربي، صناعة الصابون الذي يستخدمه أهالي المنطقة، في عملية التنظيف، ويرشدنا إلى هذه الصناعة، حادثة العجوز مع السلطان أسكيا داوود، قالت: « ولابد لي من حمل غرامة لك تذكرني بذلك وذلك عشر رؤوس صابون في رأس كل سنة»[4].

(1) ـ محمود كعت، المصدر السابق ، ص 106 - 108، والحسن الوزان، المصدر السابق ج 2، ص 172.

(2)ـ موسى بن أحمد السعدي، مخطوط ورقة 49، ومحمد عبد الفتاح ابراهيم، الثقافات الأفريقية، القاهرة :

(3) Mauny: Op. cit. p. 102 - 131.

(4)ـ محمود كعت ، المصدر السابق، ص 106.

من خلال هذه العبارة، يمكننا أن ندرك عدة جوانب، منها :

1- صناعة الصابون كانت على نطاق ضيق.

2 - التقدم في الصناعة.

3 - وجود زيت الزيتون في المنطقة، وهو وجود صناعة الصابون.

وكذلك من الصناعات الدقيقة، في المنطقة والتي تنم عن إبداع رفيع، واهتمام بالرسائل، التي لابد أن تكون ذات قيمة، صناعة حوافض الورق في سنغاي، حيث كانت تصنع حوافض الرسائل من معدن النحاس[1]. ومن الصناعات الغذائية التي كانت معروفة في المنطقة، صناعة تجفيف السمك الذي يؤكل، ويصدر إلى الخارج، ومايدل على ذلك أن أسكيا محمد كان يفرض ضريبة على قبيلة جندكت، من السمك المجفف، وكان السمك يقاس بالحزمات، والضريبة الواحدة عشر حزمات. وأفاد كعت قائلاً: «. . . يأخذ غرامتهم كلما غاض البحر، يأخذ ممن استحق عشرحزمات من الحيتان اليابسات»[2].

وهذه الصناعة تدل على تقدم فكري في السودان الغربي.

ومن الصناعات التي مارسها بعض سكان السودان الغربي، مهنة الخياطة، فلقد كانت تنبكت، من بين أهم المدن السودانية، التي كانت تضم أكبر عدد من الخياطين الذين عادة ما يرافقون السلاطين عند خروجهم في الحرب والسلم، بقصد تخييط ملابس الجند، وقد رافق الخياطون بلمع الصادق وجيشه، عند خروجه لأخيه أسكيا محمد بان في كاغ[3].

ومن الصناعات المحدودة، صناعة الأدوات، التي يضع أهالي السودان فيها ملابسهم، فكانوا يصنعون جعباً طويلة من جلد النمور، يطلقون عليه

(1)- محمود كعت، المصدر السابق، ص 67.

(2)ـ محمود كعت، المصدر السابق، ص 57.

(3)ـ نفسه، ص 131.

شكاير[1]. وقد عرفت المنطقة بصناعة مخازن الحبوب، التي تصنع من الطين المخلوط بالتبن والملح؛ حيث يصل ارتفاع الواحدة منها أربعة أمتار، ولاتزال هذه المخازن تستعمل عند أهل السودان الغربي إلى يومنا هذا[2]. كما صنعوا، كذلك، حوافض للحبوب، من جلود الحيوانات وسموها صينية[3].

ومن الصناعات التي اختصت بها طائفة من العبيد، صناعة بناء أحواض السباحة. وطريقة بنائها تتم بحفر حفرة، طولها نحو ثلاث قامات، ثم تملأ بالرمال والأحجار والبنغات فيوضع فيها الحطب، وتشعل فيها النار، فيذوب البنغات على الأحجار والرمال؛ فتصير ملسة ولاتسمح بتسرب الماء[4].

أما صناعة القوارب، والسفن، فهي الأخرى من الصناعات التي برع فيها سكان السودان الغربي، فقد كانت زمن الملك سني علي من أنشط الصناعات، وقد شجع سني علي صناعة السفن فأبدع الصنّاع فيها، وتنوعت أحجامها، فمنها القوارب الصغيرة والكبيرة، وقد استخدمها في حروبه التوسعية، وخاصة في هجومه على أمير مدينة جني كنبر، كما استخدمها في السلم بنقل البضائع، التي لاتنقل إلا في السفن مثل القارو[5]. وشهدت هذه الصناعة كذلك، نشاطاً في زمن أسكيا الحاج محمد وخلفائه، وازدادت في فترة المغاربة، وخاصة زمن جودر باشا، فعرف ميناء كبره نشاطاً للسفن، التي كانت ترسو على مرفأ. وقد استخدم أسكيا إسحاق القوارب، في فراره من القائد جودر باشا عام 999 هـ/ 1590م[6].

وكانت السفن تصنع من أشجار غليظة وقوية، بأن تُعد الإعداد الجيد،

---

(1)ـ محمود كعت، المصدر السابق، ص 144.

(2)ـ وقفت عليها عام 1995، وأنا في طريقي إلى أقدز .

(3) محمود كعت، المصدر السابق، ص95.

(4) نفسه ، ص 35.

(5) محمود كعت، المصدر السابق، ص 50.

(6)ـ عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص 82 - 145 - 162.

وتنظف من بقية الأغصان، ثم تخاط بطريقة انسيابية، فتصنع قوارب صغيرة، وسفن كبيرة، وهناك سفن يتفنن فيها صناع السودان، من حيث الأناقة، وهي التي يتنقل فيها السلطان(1).

الحركة التجارية :

أ – المراكز التجارية على جانبي الصحراء الشمالي والجنوبي :

بدأ قيام المراكز التجارية، على أطراف الصحراء، في أماكن الاستقرار، حول الواحات والوديان ، وتم التبادل التجاري بصورة بسيطة، في أول الأمر بين السكان المستقرين على أطراف الصحراء، والبدو المتجولين لسد متطلباتهم؛ نظرًا للتباين الواضح بين إنتاج المنطقة الصحراوية، والأقاليم المحيطة بها؛ فاتسع نطاق هذا التبادل، عندما تم عبور الصحراء، بصورة منتظمة، منذ العصر الفينيقي(2)، ودخلت سلع منطقتي حوض البحر المتوسط، والسافانا، جنوبي الصحراء في الميدان التجاري، فازدادت الحركة التجارية، في المحطات الواقعة على مرافئ الصحراء الشمالية والجنوبية، وتغيرت طبيعة الحياة فيها.

شجعت هذه المراكز بعض الجماعات من المناطق المجاورة على الاستقرار فيها لتوفر فرص الكسب، وممارسة الحياة الجديدة المتمثلة في الحرف اليدوية البسيطة، التي يتطلبها استقبال القوافل، والعمل على راحة المسافرين. واشتغلت أعداد كبيرة من سكان هذه المراكز، بالتجارة الداخلية والخارجية؛ فكان التجار في الداخل، يقومون بمهمة جمع السلع من مختلف مناطق السودان، في المراكز الجنوبية لحين وصول القوافل، وقد استقر بهذه المراكز، التجار الوافدون من مصر، والمغرب وليبيا، للقيام بمهمة مراقبة الأسواق المحلية، والاتصال بشركائهم أو موكليهم(3).

---

(1) - محمود كعت المصدر السابق، ص50 ـ 95 ـ 158، والقشتالي المصدر السابق ص 147.

(2) -Triningham :op ; cit P13 .

(3) – بوفيل ، المرجع السابق، ص 98.

: S . D GOITEIN : studies In Islami cHISTORY and INSTITUTIONS I . M lemis . Islam In Tropical Africa (- OXford 1966) pp 23 - 25

استوعبت هذه المراكز الأيدي العاملة الوافدة من القبائل المجاوررة لها، وازدادت الهجرات إليها بازدياد حركة القوافل، حتى صار السكان خليطاً من مختلف العناصر، فتحولت الحياة البسيطة إلي حياة حضارية، معتمدة أساساً على التجارة واستقبال القوافل، ومساهمة بذلك في نمو بعض المراكز التجارية، وتوسيع حدودها، فكُونت الممالك المستقلة كما حدث في سجلماسة وأودغشت، ولقد تنافست الدول التي قامت على جانبي الصحراء، في السيطرة على هذه المراكز، وإخضاع، أو مصادقة بربر الصحراء الذين يمثلون الدعامة الكبرى، لتحرك القوافل، وحفظ الأمن داخل الصحراء.

كما عرفت المراكز التجارية ارتباطاً وثيقاً بالأمصار الكبرى، شمال الصحراء وجنوبها، واتصلت بطرق التجارة العالمية البرية، والبحرية، فكانت صلات هذه المراكز التجارية، بموانئ سواحل البحر الابيض المتوسط، والبحر الأحمر والمحيط الهندي[1].

وفيما يلي عرض لأهم المراكز، التي قامت على جانبي الصحراء الشمالي والجنوبي:

زويلة :

تشمل منطقة فزان مجموعة من الواحات، ذات الاتصال السهل شمالاً بسواحل البحر المتوسط، وجنوباً بمنطقة بحيرة تشاد، وأشهر المراكز التي ظهرت في المنطقة زويلة، وتقع إلى الجنوب من مدينة سبها .

ظهرت زويلة كمركز تجاري منذ القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي، إلا أن جرمة كانت أكثر شهرة منها، حتى دخول الإسلام الى المنطقة، وبدأت زويلة تأخذ الصدارة مع بداية الفتح الإسلامي، فصارت مقر الولاة، قبل تأسيس القيروان، ثم بعد ذلك قاعدة بلاد فزان[2].

(1) - GOITEIN . S. op cit : pp .

(2) عماد الدين إسماعيل بن علي بن جمال الدين بن محمد أبو الفداء ، المختصر في تاريخ البشر ، مصر 1325 هـ ، ج1، ص187; وأبو الحسن علي بن موسى، كتاب بسط الأرض في الطول والعرض، تحقيق خوات قرنيط خينيس ، تطوان 1958، ص61 .

لقد مرت زويلة بظروف سياسية صعبة جداً، بدخولها ضمن نطاق الدولة الرستمية، ثم تبعيتها لأسرة بني الخطاب، إلا أن هذه الظروف لم تؤثر بشكل قوي، على مركز زويلة المرموق الذي اكتسبته من موقعها، في بداية طريق كوار الممتدة إلى السودان الأوسط والغربي، وقد ربطها هذا الطريق بمصادر ثروات السودان الغربي، وعلى رأسها الرقيق التي صارت سوقاً لتصديره، وتتجمع التجارة بزويلة من كل جهة، ومنها يفترق قاصدوها الذين تتشعب طرقهم[1]؛ فقد ارتبطت بالمراكز والأمصار مثل أجدابيا والقيروان، وكان أمير أجدابيا يفرض على القوافل الصادرة، والواردة من بلاد السودان ضرائب يقبضها[2]، وأفاد صاحب الاستبصار بارتباطها الوثيق ببلاد السودان، وقال: "وهي من مدن السودان"[3].

غدامس :

تقع مدينة غدامس، إلى الجنوب الغربي من مدينة طرابلس، وتبعد عنها بحوالي ثلاثمائة كيلو متر، وهي من ضمن نطاق ليبيا، عند التقاء حدودها مع تونس والجزائر، ولغدامس تاريخ قديم، يرجع إلى العصر الفينيقي، والروماني، فقد كانت حصنًا تجارياً، وحربياً لروما على طريق جرمة جنوباً، وقد دخلت غدامس ضمن حدود الدولة الإسلامية، في حملات عقبة بن نافع الفهري على المغرب[4].

---

(1)ـ وأبو الحسن علي بن موسى، كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي بيروت 1970 ص127، و أحمد أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي، كتاب البلدان، ملحق بكتاب ابن رسنة الأعلاق النفيسة، ليدن 1891 ص345، و Martin op. cit p, 18

(2) ابن حوقل، المصدر السابق، ص70 أابو إسحاق الفارسي، الاصطخري، ، مسالك الممالك، ليدن 1906 ص46 .

(3) الاستبصار، المصدر السابق، ص146 .

(4)ـ مجهول، خبر السوق، مخطوط ورقة 12، و محمد سليمان أيوب، "جرمة في عصر ازدهارها، "بحث مقدم للمؤتمر التاريخي بكلية الآداب، الجامعة الليبية، 1968، ص192.

قال عنها الحسن الوزان إنها منطقة كبيرة مسكونة، بها قصور وقرى مأهولة بالسكان ،أهلها أغنياء، لهم بساتين نخل وأموال كثيرة؛ نظراً لأنهم يتاجرون مع بلاد السودان[1].

وارتبطت غدامس تجارياً، بمدينة تنبكت، وجاو، وجني، وأقدز، وتادمكة، ومع مدن وقرى سودانية أخرى، فصارت محطة مهمة في بداية الطريق، عبر المنطقة الوسطى من الصحراء الكبرى إلى السودان. وكان حي الغدامسية بمدينة تنبكت من أرقى الأحياء. اشتهرت غدامس بصناعة الجلود، وقد قال عنها موسى بن أحمد السعدي في هذا الخصوص: «بأنها بلد بالمغرب، ضاربة في بلاد السودان منها الجلود الغدامسية، وهي مدينة لطيفة أزلية في الصحراء على مسافة سبعة أيام من جبل نفوسه، إليها ينتسب الجلد الغدامسي... ومن غدامس يدخل الى بلاد تادمكة وغيرها من بلاد السودان»[2].

من هنا ندرك قيمة مدينة غدامس، كمركز تجاري، له ارتباطه بمدن ومراكز السودان الغربي.

إضافة إلى هذا فالرسالة التي أرسلها عيسى بن أحمد الغدامسي إلى السيد جعفر بالسودان، سنوردها لتبين مدى ارتباط غدامس بمدن السودان الغربي تجارياً؛ فلقد قال فيها: «الحمد لله وحده والصلاة على رسول الله هذه وصية عيسى بن أحميد الغدامسي لأخيه ومحبه في الله السيد جعفر بيديه على وجه الأمانة، مائة وثلاثة وثلاثين حجرة من الملح منها مائة، وعشرة أحجار له في نفسه، وأربعة عشر لأبنائه، وتسعة للخدام، ويريد من ذلك متاعه، إذا كان سلمه الله [غير واضح] من الريش، ومعظم العاج اشتريه له وإذا [غير واضح] وجدت له أربعة مراجن متا [غير واضح] يهم له يريدهم للطريق، وما بعد ذلك

(1)- الحسن الوزان، المصدر السابق، ج1، ص164.

(2)- موسى بن أحمد السعدي، مخطوط، ورقة 35، وابن سعيد، بسط الارض، المصدر السابق ص 61.

حمله في القوارب، بارك الله فيك يجزيك والسلام حصل له في المكتوب إحدى ومائة والف»[1] 1101 هـ / 1689م»

من خلال هذه الرسالة يتضح الاتي :

1 - الديباجة التي تكتب بها الرسائل التجارية.

2 - العلاقات المتميزة التي تربط تجار غدامس بزملائهم بالسودان الغربي.

3 - السلع وأثمانها في السودان الغربي.

4 - الوسائل التي تنقل فيها، البضائع وهي القوارب.

5 - الفترة التي كتبت فيها وهي فترة التواجد المغربي في السودان الغربي؛ الأمر الذي يوضح النشاط التجاري بين شمال الصحراء وجنوبها.

6 - إن الأمن ليس على ما يرام.

فزان :

يصفها الحسن الوزان على أنها " منطقة كبيرة، تقوم فيها قصور ضخمة وقرى كبيرة، وكلها مأهولة بأناس أغنياء بالمال وبحدائق النخيل، وهم واقعون فعلاً على تخوم آغادس، وصحراء ليبيا التي تتاخم مصر "[2].

وقد أكد الوزان اتصال فزان بالسودان الغربي، فهي مركز تجاري مهم، من مراكز التجارة، الذي تقع عليه طرق القوافل، والتي كانت تذهب للسودان الغربي. فجل منتوجات البحر الابيض المتوسط والشمال الأفريقي من سلع ومواد زراعية، كانت ترسل إلى السودان عبر فزان، وكانت تمر منها أهم السلع،

---

(1)- عيسى بن حميد الغدامسي، يبعث برسالة إلى السيد جعفر في السودان، مخطوط، مكتبة الباحث بدون تصنيف، ورقة واحدة.

(2)- الحسن الوزان ، المصدر السابق، ج 2، ص 146.

وحتى طرق القوافل التجارية بين تنبكت ومصر كانت تمر بفزان عن طريق أوجله وجالو وغات[1].

لقد سهل إقليم فزان على القوافل التجارية عملية الاتصال والتبادل التجاري، وأحكم الصلة بين الرحلات الوافدة من الشمال الى الجنوب، كما قام سكان واحات هذا الإقليم بدور إيجابي، في استقبال القوافل، وإرشادها عند المغادرة، وتوفير احتياجاتها من المياه وغيرها من الخدمات[2].

ورجلان :

تقع ورجلان على خطي عرض 030.50 شمالا 05,17 شرقاً في حدود الجزائر الشرقية، وتعتبر ورجلان البداية الشرقية لواحات الجزائر، وتميزت بوفرة المياه الباطنية، التي توجد في أعماق بعيدة، إلا أنها تتدفق عند حفرها بكميات وفيرة[3]، فقد اكتسبت شهرتها الكبيرة لارتباطاتها التجارية الواسعة، وكونها المركز الأول لتجارة الرستميين. ولأهلها الدور الريادي، في قيادة قوافل التجارة إلى بلاد السودان، منذ زمن إمبراطورية غانة الوثنية[4].

(1)- أحمد بلعراف التنبكتي، أهمية التاريخ، مخطوط، ورقة 7، عبد القادر جامي من طرابلس الغرب إلى الصحراء الكبرى، ترجمة محمد مصطفى، طرابلس : المصرات للطباعة والنشر والتوزيع 1960 ص 93. وجمال زكريا قاسم، «كتاب وصف أفريقيا» حوليات كلية الآداب، جامعة عين شمس، مجلد 11 القاهرة، 1968، ص292 .

Michel Abitbol ; Tombouctou et les Arma ; G . P . Maisonneuve et larose; paris 1979; P : 24.

(2)- أبو سالم عبد الله محمد بن أبي بكر التنبكتي، مخطوط، مكتبة الباحث، دون تصنيف، ورقة 20، رحلته إلى الأراضي المقدسة ، مخطوط ورقة 20 إبراهيم فخار، تجارة القوافل في العصر الوسيط، ودور التجار الليبيين في حضارة الصحراء الكبرى ، مجلة البحوث التاريخية طرابلس، مركز جهاد الليبيين، للدراسات التاريخية، 19، ص 57 .

(3)- ابن سعيد، الجغرافيا، المصدر السابق، ص126.

(4)- أبو زكريا يحي« بن أبي بكر الورجلاني، السير وأخبار الأئمة، مخطوط، دار الكتب المصرية، رقم 9020 ج1، ورقة 42-56 ج2، ورقة 79، وسليمان الباروني النفوسي، الأزهار الرياضية في ملوك الأباضية ، المصدرالسابق، ص ص8 -9.

قال عنها الوزان إنها مدينة أزلية بناها النوميديون، سكانها أثرياء، وذلك لاتصالهم بأقدز، وبضائعها تنقل إلى بلاد السودان ونقارة مقابل التبر، الذي تسك منه الدراهم والدنانير[1].

من هنا ندرك مدى الارتباط الوثيق، بين ورجلان ونظيراتها في السودان الغربي .

تيهرت :

تقع ضمن نطاق جمهورية الجزائر حالياً، وقد لعبت دوراً مهماً كمركز تجاري مع مثيلاتها بالسودان الغربي، وتعتبر قاعدة المغرب الأوسط؛ حيث كانت تتبادل البضائع مع بلاد السودان والمغرب الأقصى؛ خاصة مدينة سجلماسة[2].

الزاب :

تقع في نطاق جمهورية الجزائر، كانت مركزاً تجارياًوروحياً، في آن واحد، أهلها أغنياء، وهي على خط التجارة الداخلة والخارجة من بلاد السودان، الشيء الذي ربط تجارها مع تجار السودان برباط وثيق[3].

توات :

تقع توات إلى الجنوب الغربي، من الصحراء الجزائرية، التي هي جزء من الصحراء الكبرى الأفريقية، وتبعد عن عاصمة الجزائر حوالي 1500 كم[4]، وتعتبر توات مركزاً من المراكز التجارية الهامة، فموقعها كواحة وسط الصحراء، جعلها حلقة وصل بين الشمال الأفريقي وبين السودان الغربي؛ حيث عملت على تزويد التجار، بما يلزمهم من غذاء وماء، وغالباً ما يقوم تجار السودان،

---

(1)- الحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص136.

(2)- سليمان البارون ، المصدر السابق، ص ص8 ـ 9.

(3)- حسن الوزان، المصدر السابق، ص ص134 ـ 135.

(4)- فرج محمد فرج، إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب 1977 ، ص1.

وتجار الشمال الأفريقي، بعرض بضاعتهم بها[1]. وقد أشار ابن خلدون إلى ذلك قائلا : «فمنها على ثلاث مراحل قبلة سجلماسة، وتسمى وطن توات، وفيه قصور متعددة تناهز المئين، أخذه من الغرب إلى الشرق، وآخرها من جانب الشرق يسمى تمنطيت، وهو بلد مستبحر في العمران، وهو ركاب التجار المترددين من المغرب إلى بلد مالي من السودان، لهذا العهد»[2].

وقد كان اليهود المحرك الأساسي لتجارة توات، فتواجد الجالية اليهودية الغنية والكبيرة العدد بها، في الوقت نفسه، درَّ عليها أموالاً وفيرة في تجارتها مع السودان الغربي؛ باعتبارها مركزاً تجارياً، تعبره القوافل الرابطة بين شمال أفريقيا، وبين السودان الغربي[3]. وقد مارس اليهود إلى جانب التجارة، صياغة الحلي وسك النقود، ولعبوا أدواراً مهمة كوسطاء في التجارة، إذ كانوا على اتصال بكبار أرباب التجارة، وأرباب السفن، والشركات الأوروبية، التي كانت تتعامل مع المغرب آنذاك، وخاصة أبناء ملتهم المقيمين بأوروبا[4].

وبهذا أصبحت توات ملتقى طرق مهمًا لعدد كبير من القوافل التجارية القادمة من الشمال الأفريقي، والمنطقة نحو السودان الغربي.

سجلماسة :

أدى ازدياد الحركة التجارية، في أول القرن الثاني الهجري، الثامن الميلادي، في المنطقة الغربية من الصحراء الكبرى، إلى ظهور محطة جديدة، قدر لها أن تلعب دوراً كبيراً في تاريخ العلاقات التجارية، عبر الصحراء، وهي مدينة سجلماسة[5]، في الحدود الجنوبية الشرقية للمملكة المغربية.

---

(1) نفسه ص 66ـ 67ـ 70.69

(2) ابن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص117ــ 118 .

(3) عبد القادر زبادية، محمد بن عبد الكريم المغيلي، مجلة الأصالة، السنة 4، ع26، الجزائر، 1975، ص211.

(4) محمد حجي : الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، الرباط، منشورات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، 1977 ، ص268 .

(5) البكري ، المصدر السابق، ج2، ص837 .

Michel Abitbol ; op ; cit . p 30.

وقد اختلف في تاريخ إنشائها واسم مؤسسها، ولسنا بصدد إيراد هذه الاختلافات[1]، إلا أننا نأتي بما أفاد به البكري، وهو من أقدم المصادر التي تحدثت عنها، أفاد أن أبا القاسم سمجو بن واسول المكناسي، يتردد على هذا المكان بماشيته فاجتمع عليه جماعة من الصفرية، وقدموا عليهم عيسى بن يزيد الأسود، فشرعوا في بناء سجلماسة سنة أربعين ومائة 140هـ/ 857م، تولى بعد عيسى أبو القاسم ابن واسول، الذي حكمت سلالته سجلماسة، وعرفت دولتهم بدولة بني واسول، ـ كما عرفت أيضاً بدولة بني مدرار نسبة إلى مدرار المنتصر بن اليسع[2].

بدأت سجلماسة مرحلة التوسع والازدهار، في عصرأبي المنتصر اليسع 174هـ / 790م؛ حيث ضمت درعة ، وبدأت تقوم بدورها الطليعي في خدمة التجارة، واستقبال القوافل من كل أنحاء المغرب، والمشرق الإسلاميين، وساعد موقع سجلماسة، وخصوبة أرضها، على تحمل الحركة التجارية، وتوفير متطلبات القوافل الداخلة والخارجة من السودان، وجعلت هذه الامتيازات سجلماسة أم البلدان المجاورة لحدود السودان الغربي، وتوثقت علاقاتها بالدول التي جاورتها لتيسير انتقال القوافل، خصوصاً دولة الأباضية في تيهرت[3]، ودولة الأغالبة في تونس؛ فانتظم طريق القوافل من سجلماسة إلى ورجلان، والقيروان[4]، كما

(1) للمزيد في اختلاف تاريخ تاسيس والمؤسس، انظر الناصري، الاستقصاء، المصد رالسابق، ج1 ص124، وابن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص13، غيرهم.

(2) البكري المصدر السابق، ص ص 142 ـ 150، ابن عذاري المراكشي ، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة ج س كولان وا. ليفي يروفنسان، ط:3، الدار العربية للكتاب 1983م، ج1، ص ص156 ـ150.

(3)- شمس الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله أحمد بن أبي بكر المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط: 2 ، لندن 1906، ص231 والقزويني ، آثار البلاد ، المصدر السابق ص42، ولسان الدين الخطيب، معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، نشر وتحقيق أحمد مختار العبادي، جامعة الإسكندرية، 1958، ص114.

(4) أبو زيد بن سهل ، صور الإقليم، مخطوط، مصور على مايكروفلم بمعهد المخطوطات بالقاهرة، غير مفهرس، ورقة 19، والأصطخري، مسالك الممالك، المصدر السابق ص46 .

ارتبطت بعلاقات حميمة مع المراكز التجارية بالسودان الغربي، فكانت القوافل تنقل البضائع المغربية إلى السودان، وتأتي ببضائع السودان بما فيها الذهب، والتوابل وغيرها، وبذلك انعكس كل ذلك على سكان سجلماسة، وازداد ثراؤهم بسبب تجارتهم مع السودان الغربي؛ فكانوا حلقة وصل بين هذه المناطق وغيرها[1] وهذه رسالة تجارية، من تاجر مغربي، يدعى حمدو الشان الفاسي، إلى وكيله بالسودان الغربي، ونصها «الحمد لله وكل وستتاب من يضع اسمه عقب تاريخه أشرف حامد على ماله بذمه اشريف سميه وصيى أحد وعشرون مثقالاً ذهب، وعدد له ملح وأربعة حجر عدد . . . أمانة وعلى غيره اشريف عيسى أحد عشر مثقالاً توكل مفوض اقمه مقام نفسه، وبداء من وعلى الغرار ونكار وعلى القبض وإقرار وإبطال . بتاريخ، أو آخر شهر الله المعظم رمضان عام ستة ومائة والف عبيد ربه حمدو [بياض] حمد الشان الفاسي، كان الله له آمين»[2] .

نستخلص من الرسالة عدة جوانب، وهي :

1 - المواد التي كانت تجلب من السودان الغربي إلى المغرب الأقصى، وباقي مناطق الشمال الأفريقي، وفي مقدمتها الذهب الذي يقدر بالمثقال، والملح بالحجر.

2 - عمق الاتصالات التجارية بين المغرب الأقصى، والسودان الغربي؛ خاصة وأن هذه الرسالة، كتبت في فترة التواجد المغربي في السودان الغربي؛ الأمر الذي يؤكد الازدهار التجاري، في هذه الفترة، وأن حكم المغاربة للمنطقة لعب دوراً في ازدهارها، على كافة الأصعدة .

---

(1) الإدريسي، المصدر السابق، ج1 ص105، والحسن الوزان، المصدر السابق، ص ; 127وإبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ ،الدار البيضاء ، دار الرشد الحديثة 1984، ج2، ص181.

(2) حمدوالشان الفاسي، يبعث برسالة تجارية إلى وكيله في السودان الغربي اشريف حامد مخطوط، مركز الشيخ المختار الكنتي، دون تصنيف، ورقة واحدة، تاريخها 1106هـ/

ومن كبار تجار سجلماسة الذين لعبوا دوراً مهماً، في اقتصاد السودان الغربي التاجر حم بن الحاج السجلماسي[1]. ومن أبناء سجلماسة بتنبكت وأروان أولاد عبيد، وهم أكثر الجماعات السجلماسية ارتياداً للسودان، وقد نزل بعضهم بوادي الرتب، بقصبة البلاغمة بأروان. كما اشتغل أولاد عبد الله الكامل بن حسين ابن الحسن السجلماسي بالتجارة، وكانوا سبعة : إدريس وسليمان وإبراهيم وموسى وعيسى ويحيى ومحمد، واستوطن سليمان تلمسان، أما البقية فقد استوطنوا أرض السودان الغربي، وكان ذلك عام 1100 هـ / 1591م[2].

درعــة :

تقع درعة شرقي مدينة سجلماسة، بنحو سبع مراحل، ويمتد واديها على مسافة كبيرة، جنوب المغرب الأقصى، تقوم عليه أنواع مختلفة من المزروعات، كما تتوفر بها المعادن. وإلى جانب هذه المواد الطبيعية، كانت درعه مركزاً تجارياً هاماً، ومحطة على أول الصحراء كثيرة في الأسواق والمتاجر[3]، واستقرت بدرعة مجموعات من العرب المغاربة والعرب غير المغاربة، الذين اشتغلوا بالتجارة وخدمة القوافل، وقد كان تواجدهم حاضراً في مراكز التجارة والعلم بالسودان الغربي، فكثيراً ما نجد التاجر الدرعي في المصادر القديمة، بل هناك أسرى، إلى يومنا هذا، موزعون بين تنبكت وجاو وأقدز، ويلقبون بالدرعي[4].

---

(1)- التقيت في العاصمة النيجرية نيامي بالعالم الشريف مولاي زيدان، الذي يرجع نسبه إلى السيد حم بن الحاج السجلماسي، وقد زودني بهذا المخطوط،، الذي يتحدث في بعض مواضعه عن نسب الحاج مولاي زيدان.

(2) أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن الحسن بن يوسف، الأنوار الحسنية في نسب من بسلجماسة من الأشراف المحمدية، مكتبة الباحث، دون تصنيف، 1100 هـ ، ورقة 52 .

(3) البكري ، المصدر السابق ج2 ، ص ص 845 ـ 846 ، وابن سعيد، بسط الأرض، المصدر السابق، ص58، والاستبصار، المصدر السابق، ص207.

(4) ألتقيت بعدد من أفراد هذه الأسر في تنبكت وجاو وأقدز، عام 1985 ـ 1987 ـ 1994 ـ 1995.

تـارودانـت :

تقع تارودانت جنوب مراكش، بالقرب من ساحل المحيط الأطلسي شرق أغادير الحـاليـة وقد كانت حـاضرة سـوس لبـعض الـوقـت ، عـندما دخل عبد الواحد المراكشي[1] المغرب في القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي. أدى موقع تارودانت على طرف الصحراء وقربها من الساحل إلى تنافس الدول، التي قامت في المنطقة، على السيطرة عليها؛ حيث دخلت تحت سيطرة المداريين ثم الأدارسة[2]، وقد ظلت تارودانت مركزاً مرموقاً لتجارة الصحراء، حتى قيام مراكش، فبدأت التجارة تتحول اليها، غير أن تارودانت حافظت على بعض مكاسبها التجارية، فقد استمرت تستقبل قوافل التجار، حتى مستهل القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي[3].

ولاتــه :

هي إحدى مدن جمهورية موريتانيا الحالية، ولكن لم يرد تاريخ يحدد تأسيسها، إلا أن النحوي يقول : ربما تكون قد تأسست في القرن الهجري الأول، ورد اسمها عند ابن بطوطة ايوالاتن. وذكرها ابن خلدون عرضاً، عندما أشار إلى خروج هدية منسا موسى ملك مالي إلى السلطان أبي الحسن المريني، وجاءت عند السعدي والاتا وابن فودي ولاتن، وقد اعتمدت على رسم ابن بطوطة؛ لأنه دخل المدينة، ومكث بها خمسين يوماً، ولأنه أقدم المصادر التي أشارت إلى هذا المركز[4] .

(1) عبد الواحد المراكشي ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان ، القاهرة : 1963 م، ص 447، و أبو الفداء، تقويم البلدان، المصدر السابق، ص131.

(2) أبو القاسم عبد الله بن أحمد ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ليدن 1967، ص 88، ولسان الدين الخطيب ، أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، وما يجر ذلك في مجموع الكلام، المصدر السابق، ص142.

(3) الخليل النحوي، بلاد شنقيط المنارة والرباط، تونس 1987م، ص68.

(4) ابن خلدون ، المصدر السابق، ج 7 ، ص644، وعبد الرحمان السعدي، المصدر السابق ص7، وعثمان بن فودي ، إنفاق الميسور، المصدر السابق، ص217.

بدأت ايولاتن تحتل مكانها، كمركز تجاري، على طريق الصحراء الجنـوبي، بعـد سقوط إمبراطورية غـانة، وقيام مملكة مالي، التي ضمتهـا إلى حدودها. وقد أدت ايولاتن الدور نفسه، الذي كانت تقوم به أودغشت في عهد إمبراطورية غانة، إذ اتجهت إليها القوافل عبر المنطقة الغربية من الصحراء الكبرى، وقد وصفها ابن بطوطة بأنها مدينة كبيرة، تحت إشراف سلطان مالي المباشر؛ إذ يحكمها نائب عنه، وأشار إلى اهتمام أهالـي ولاتة بالتـجار وخروجهم إليهـم بالماء والمـؤن[1] .

وسكانها خليط من الزنوج والعرب، وقد هاجر إليها عدد من علماء تنبكت، زمن الملك سني علي[2]. وقد ارتبطت بعلاقات تجارية مع تنبكت وباقية المراكز الأخرى[3].

جنـي :

تقع مدينة جني إلى الجنوب الغربي، من مدينة تنبكت، وتبعد عنها بحوالي ستمائة كليومتر تقريباً، وقد ورد اختلاف في تاريخ تأسيسها ؛ إلا أن السعدي يورد أنها تأسست في القرن الثاني الهجري 623/2[4] وسيرد الحديث عنها بالتفصيل في فصل العمران، أما مايهمنا من المدينة مركزها التجاري، وقد حظيت بأهمية اقتصادية كبيرة، نظراً لموقعها المتميز، كملتقى للقوافل التجارية التي تسير بين شمال الصحراء، وجنوبها؛ حيث اشتهرت بتجارة الملح والذهب، وقد وصفها عبد الرحمان السعدي قائلاً : «وهي سوق عظيم من أسواق المسلمين، وفيها يلتقي أرباب الملح من معدن تغازا وأرباب الذهب من معدن بيط»[5].

(1) مجهول، تاريخ باغرام، مخطوط ورقة 16, وقفت على هذه المدينة عام 1997.

(2)- الحسن الوزان ، المصدر السابق، ج2، ص162.

(3) نفسه، ج2 ، ص120.

(4) عبد الرحمان السعدي، المصدر السابق، ص12.

Delafosse, M. Op. cit. P : 280.

(5)- نفسه والصفحة .

. De la fosse, M. : Haute sengal Niger Paris 1912 P : 280

ومن خلال النص السابق تتضح قيمتها كمحطة تجارية، ربطت بين زنوج الجنوب، وتجار الشمال بأهم معدنين في المنطقة: الذهب والملح.

وقد زادت ازدهاراً وقيمة تجارية، بعد أن دخلها الملك سني علي؛ حيث عمل على تطويرها، ودعم الأمن بها، بعد أن تزوج أم أميرها[1] .

وفي زمن الأسكيا الحاج محمد الكبير، أصبحت جني أكثر ازدهاراً، وملتقى للتجار داخل السودان الغربي وخارجه ، وقد مكنها موقعها من الاستفادة من النقل النهري، في نقل الملح والذهب، وباقي السلع الأخرى، بالقوارب من تنبكت وجاو وسيقو إلى جني وبالعكس[2]

من هنا نـدرك القـيمة الاقـتصاديـة التـي كان يشغلها هذا المركز في دعم الاقتصاد الوطني.

تنبكت :

تقع مدينة تنبكت على الحافة الجنوبية، للصحراء الكبرى بما يعرف بمنحنى نهر النيجر[3]، وقد مكنها موقعها المتميز، من أن تلعب دوراً مهمـاً في اقتصاد شمال وجنوب الصحراء .

لقد مثلت التجارة المصدر الرئسي في حياة سكانها، وبذلك اهتموا بها اهتماماً كبيراً، وتوافد عليها التجار من داخل السودان الغربي، ومن خارجه؛ وخاصة من الشمال الأفريقي، وفي مقدمتهم المغرب وليبيا. فكان تجار سجلماسة،

(1)- موسى بن أحمد السعدي، مخطوط، ورقة، 137.
Barth : H OP, cit, Vol 3 : 532.

(2)- مجهول، نبذة من تاريخ جني، مخطوط، ورقة 4-5.
Zeini Moulaye (Lés Relations du Mali avec les Etats Nord - Africains de 1960 à 1980) these de Doctorat de 3 cycle en science politique uninver-site de paris1 . Departement de science politique de la sorbonne1982
(غير منشور)

(3)- أحمد بلعراف التكني، أهمية التاريخ، مخطوط، ورقة 20.

وفاس، والسوس، وغدامس، وفزان، وطرابلس، في حركة دؤوبة معها، يحملون معهم بضائعهم، ويعودون محملين بالذهب، والرقيق، وناب الفيل، وريش النعام، وغيره[1] .

وقد بلغت تنبكت ذورة الازدهار الاقتصادي في القرن العاشر، الهجري السادس عشر الميلادي، الذي عرف بالعصر الذهبي لتلك المدينة، وقد بلغت القوافل القادمة إليها من الشمال الأفريقي، في سنة 751هـ/ 1350م اثني عشر ألف جمل[2] .

وقد أعجب الحسن الوزان بوفرة خيرات تنبكت، وبكثرة الحوانيت التي تبيع المنتوجات القطنية، والأقمشة المجلوبة لها من الشمال الأفريقي وأوروبا[3]. وقد أفاد عبد الرحمان السعدي، بأن تنبكت ملتقى للتجار، أصحاب رؤوس الأموال الضخمة، من كل بلاد[4]. وأورد ابن بطوطة أن بها قبر سراج الدين بن الكويك، أحد كبار التجار من أهل الإسكندرية[5] ؛ الشيء الذي يبرز لنا مدى قيمة هذا المركز اقتصاديًا بربطه بشمال وجنوب الصحراء.

تغاز:

تقع تغاز في جنوب المغرب الأقصى، بقرب البحر المحيط[6] على الطريق

---

(1) نفسه والورقة .

(2) أحمد بابير الأرواني، السعادة الأبدية ، مخطوط، ورقة 13، ونعيم قداح أفريقيا الغربية، المرجع السابق ، ص55 .

(3) الحسن الوزان ، المصدر السابق، ج2، ص ص165 _ 166 .

Elias N . saad, OP. cit , pp: 6. 11. 13.

(4) موسى بن أحمد السعدي، المصدر السابق، ص11.

lient prefonton : Historire de Tombucts de sa fondation a l'occupation Francaise, Paris 1942, P .34

(5) ابن بطوطة ، المصدر السابق، ص11.

(6)- القزويني ، المصدر السابق، ص25 .

الرئيسي، للقوافل بين المغرب وتنبكت، وأغلب سكانها من مسوفة، وتعتبر تغاز المصدر الرئيسي لمعدن الملح، فقد اشتهرت بهذا المعدن، ونسجت حولها الأساطير؛ حتى قيل إن البيت الواحد مبنيٌّ كله بالملح[1]، وهذا يدل على كثرة الملح، الذي كان ينقل بواسطة قوافل تجار الشمال الأفريقي، وخاصة المغرب إلى أصقاع السودان الغربي، وبذلك مثلت تغاز مركزاً تجاريا لأهم معدن[2].

وقد قال : الحسن الوزان «فكان مأهولاً فيه عدد من مناجم الملح، تشبه مقالع الرخام، يستخرج الملح من حفر، تحيط بها أكواخ عديدة، يسكنها المستخدمون لاستخراج هذا الملح، وليسوا من سكان البلدة»[3].

جاو :

تقع مدينة جاو اليوم إلي الشمال الشرقي، من العاصمة باماكو بجمهورية مالي؛ فقد مثلت الدور السياسي، كعاصمة لإمبراطورية سنغاي ، والدور الاقتصادي كمركز من المراكز التجارية للسودان الغربي .

نمت جاو سريعاً لوقوعها على نهاية الطريق الصحراوي، عبر المنطقتين الشرقية والوسطى، من الصحراء الكبرى المتجه نحو حوض نهر النيجر، وقد مكنها موقعها على منحنى نهر النيجر، نحو الجنوب بإشرافها على حركة الملاحة، والتجارة على امتداد نهر النيجر، نحو الجنوب والغرب. وتيسرت اتصالاتها، بهذه المناطق، فتجمعت في المدينة بضائع المنطقة كلها، وارتادتها القوافل التجارية منذ القدم[4].

وقد نتج عن هذا النشاط التجاري ـ عبر طريقي ورجلان وزويلة ـ توسع

(1) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص674.

(2) عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص11، وعبد العزيز بنعبد الله، المرجع السابق، ملحق 1، ص 26.

(3) الحسن الوزان ، المصدر السابق، ج2، ص ص108 ـ 109.

(4) موسى بن أحمد السعدي، مخطوط ورقة 260، ومحمد علي، دبور تاريخ المغرب الكبير، القاهرة : 1963، ج3، ص346.

جاو، وامتداد حدودها إلى المناطق المجاورة، فأخضعت ثمانية من ملوك السودان، وصارت مدينة جاو، كما يتضح من نصوص الجغرافيين العرب المدينة التجارية الأولى، في وسط نهر النيجر[1].

يبدو أن جاو حافظت على مركزها التجاري، في ظل الأسرة الجديدة، حتى قامت مملكة مالي الإسلامية، فدخلت جاو تحت طاعتها في الفترة الواقعة بين 626 ـ 636 هـ/ 1225-1235م، ثم استقلت جاو عنها فيما بعد. وبدأ عهد التوسع لجاو، حين تولى الملك سني علي السلطة، حيث بدأ في بناء إمبراطوريته التي امتدت حدودها، إلى كل المنطقة الواقعة، بين دولة كانم في الشرق وحتى ساحل المحيط الأطلسي غرباً[2].

تكدا :

تقع تكدا إلى الجنوب الغربي، من مدينة تنبكت، بحوالي أربعمائة وخمسين كيلومتراً، وقد زادت أهميتها بعد اكتشاف النحاس بها، حيث تحولت قوافل التجارة إليها .

وأول من ذكرها، العمري (ت 749 ـ 1348 م)، ونقل عنه القلقشندي في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي. فذكر أن بها مناجم غنية، تنتج كميات كبيرة من النحاس، وأورد ابن بطوطة الذي دخل تكدا عام 754 هـ / 1253م) وصفاً لهذا المعدن، يحفر عليه في الأرض، ويأتون به إلى البلد فيسبكونه في دورهم، ويوزع بعد ذلك داخل بلاد السودان، وذكر القلقشندي وجود الملح بها كذلك[3].

---

(1) أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي، حققه محمد صادق ، بيروت: دار العراق 1955 ، ص194.

(2) أحمد بابير الأرواني، السعادة الأبدية، مخطوط، ورقة،

Fage g .Dip . cit p.57 . 8_7

(3) العمري، مسالك الأبصار، المصدر، السابق ص ص 74 ـ 75 ، والقلقشندي، المصدر السابق، ج5، ص291، وابن بطوطة ، المصدر السابق ص697.

إلى جانب النحاس والملح، فإن تكدا صارت سوقاً تجارياً مهمًا، ووصل أهلها إلى درجة كبيرة من الثراء، بسبب الاشتغال بالتعدين، أو في الملح أو خدمة القوافل، وكان معدن النحاس، ينتقل إلى المغرب ومصر، عن طريق قوافل التجارة المترددة عليها[1].

أقدز :

تقع أقدز اليوم في الشمال الشرقي، من نيامي عاصمة جمهورية النيجر، وتبعد عنها بألف كيلومتر،[2] والذي يهمنا منها مكانتها التجارية، فقد احتلت موقعاً مهمًا، وقد كتب عنها الحسن الوزان، وأشار إليها تحت مملكة أغادس، وأفاد أن أغلب سكانها من العرب المغاربة الذين اشتغلوا بالتجارة، ويعتمد دخلها على الضرائب التي تؤخذ من التجار الوافدين عليها، وخاصة من تجار ليبيا. وقد حملت لها البضائع من فزان، وغدامس، وزويلة، ونقلت منها القوافل بضائعها المتمثلة في البخور والذهب[3]، كما كان العلك من بين المواد الغالية الثمن، التي تحملها القوافل التجارية إلى أقدز، وتكشف هذه المراسلة التالية النقاب عن ذلك، وهذه فقرات منها تقول: «الحمد لله وحده ولا يدوم إلا ملكه وصلى الله على من لا نبي بعده. من عند البركة المكرم الأكرم محمد بن عب إلى البركة المكرم الأكرم بكار بن حيد، ألف ألف سلام عليك ورحمة الله وبركاته، ومثل ذلك على من نحب ويحبك، وبعد أن سألت عن أهلك وأبنائك، فهم سالمون والحمد لله، والأهل حكمهم والعلماء والإماء، فهم سالمون والحمد لله كما تحب وترضي. بعد أن سئلت عن خبر الساحل قدم منها الجكاني، وقال: بأن العلك بثلاثين مثقالا ... ومن وقت قدم الجكاني أغلا العلك وروده بعشرة ألف وخمسمائة للحمل وقال: الجكاني بأن أهل أكديز متغادوين بينهم .... وقام سيدي محمد بن بو بكر اني بالحركة وتخابطو في فم أكديز... والموت فيهم

(1) موسى بن أحمد السعدي، زهور البستاتين، مخطوط ورقة 320.

(2) - BARTH OP . CIT 232.

(3) - Hunwick J.D, OP. cit, P : 27.

يسير... وأن سألت عن الخديم العالي إلى مائة مثقال أو أكثر، وتباع الريش بثمانية مثاقيل للرطل، وإن سألت عن خبر الملح في تنبكت بثلاثة مثاقيل ونصف للحمل... وبعد مسلم عليك إبراهيم بن سيدي علي صاحب سيدي محمد بن بوبكر الجكاني... ونزل عنده محمد بن عب بن محمد... ، أهلك الذي في الساحل لابأس... ومسلماً عليك كثير السلام، كاتب الحروف ومسلماً على بكار كثير السلام كذلك محمد الأمين»[1] .

نستخلص من هذه الرسالة الجوانب الآتية:

1- الخط الذى كتبت به مغربى .

2- المرسل والمرسل إليه وهما تاجران من منطقة السودان الغربي.

3- مادة العلك التي كانت من بين السلع المهمة المرتفعة الثمن في السودان الغربي، التي كانوا التجار يتعاملون بها في تلك المناطق، والتي تؤخذ من نوع من الأشجار، فى أفريقيا إلي يومنا هذا.

4- ذكر مدينة أكدز بالتحديد، والتي توجد فيها سلعة العلك، وهي مركز تجاري.

5- ثمن ريش النعام، وأنه يقدر بالرطل.

6- ثمن الملح في تنبكت.

7- جاءت الرسالة بعدد من تجار السودان الغربي.

8- الرجل السوداني له أكثر من زوجة، وهن موزعات في أماكن تواجده.

المسالك التجارية :

مع بداية استقرارأحوال المغرب، بدأ الاتصال الطبيعي المنتظم عبر الصحراء، وكلما زاد الاستقرار في الشمال، تعمقت الصلات، وازدادت حركة القوافل التجارية .

(1) محمد بن عب ، يبعث برسالة إلى بكار بن حيد، بخصوص تجارة بينهم، مخطوط، مكتبة أحمد سالم الشود، دون تصنيف، ورقة واحدة تاريخها، حسب تاريخ محمد عبيد كان على قيد الحياة في بداية انظر الملحق ، ص665.

ويتضح من الإشارات القليلة الواردة في كتب الجغرافيين العرب، أن القوافل عبرت الصحراء، في وقت مبكر في العصر الإسلامي ــ وكانت هذه القوافل، تخرج من المنطقة الواقعة بين وادي درعة، وساحل المحيط الأطلسي بطبيعتها الخصبة، ومياهها المتوفرة العذبة، فصارت مركزاً لتجمع العرب المغاربة الذين فى الصحراء، يلتقون فيها بسكان طرف الصحراء الشمالى. وقد أورد البكري طريقين صحراويين، استخدما في العصر الأموي:

أولهما : يخرج من وادي درعة إلى غانة، ماراً ببئر تزامت من "عمل الأول، وزعم أن بني أمية صنعتها " فإذا كان قد حفر في العصر الأموي، أو قبله فإن هذه الإشارة تدل على انتظام الطريق في عصر بني امية.

والثانية : من تامدلت فبئر الجمالين «من أنباط عبد الرحمن بن حبيب » أثناء ولايته أفريقية 127 ـ 138 هـ (744 ـ 755م)، ثم عبر الطريق على البئرين الآخرين، اللذين أنشأهما عبد الرحمن بن حبيب أيضاً، حتى بئر وانزامين، وينتهي الطريق في أودغشت[1].

ويفهم من حديث موسى بن أحمد السعدي عن بئر وانزامين، وتجمع طرق التجارة عندها، أنه كانت هناك طرق اخرى، ربما استخدمت أو استخدم بعضها في العصر الأموي، ويظهر من الإصلاحات الطرقية، والتي كان الولاة يقومون بها أن الدولة أولت عنايتها بالتجارة وشجعتها.

طريق أوجلة إلى (جاو)

يبدأ هذا الطريق من أوجلة وزلة وودان، إلى بلاد كوار، حتى يصل الى كوكو[2].

(1) موسى بن أحمد السعدي، مخطوط، ورقة 30، والبكري، المصدر السابق . . .ص 846، والاستبصار، المصدر السابق، ص 213.

(2) الإدريسي، المصدر السابق، ص 132.

طريق فزان أقدز :

يرجح أن أول طريق سلكه العرب عبر الصحراء، هو طريق فزان أقدز؛ فهو أقصر طريق لعبور الصحراء[1].

ـ طريق غدامس تاد مكة، وطريق تاد مكة القيروان مروراً بورقلة، ومن تاد مكة إلى طرابلس مروراً بغدامس[2] .

ـ طريق ورقلة تادمكة كاغو[3].

ـ طريق ينطلق من جبل نفوسه إلى زويلة، والسودان الغربي وهو قليل المياه[4] .

ـ طريق تبدأ من الأراضي التونسية، تسير إلى الجنوب مارة بغدامس وغات وأقدز، ثم تتجه منه إلى الغرب مارة بتكد، إلى جاو على نهر النيجر، وتنتهي في تنبكت[5].

- طريق توات تكد وكوكو وسجلماسة وغدامس[6].

طريق تادمكة أودغست :

أورد البكري وصفاً للطريق بمراحله الخمسين، فالطريق يمر في بدايته على

(1) - H- Murray , Historical - Account of Discoveries and Travel in Africa 2nd ed - Edenburgh 1818 vol - 1 - P37

والجدير بالملاحظة أن التجارة البرية قائمة إلى يومنا هذا بين فزان واغادس فعند زيارتي لأقدز، شاهدت عشرات السيارات المحملة بالبضائع الليبية في أقدز، وتحمل هذه السيارات بلابل من أقدز .

(2) - البكري ص 164 ، وابن بطوطة ، المصدر السابق ص ص 206 - 208 واليعقوبي ، المصدر السابق، ص 109 .

(3) - البكري، ص 164، إبراهيم حركات ، المغرب عبر التاريخ، المرجع السابق، ج2، ص 20.

(4) – نفسه ص 10 - 11.

(5) – محمد عبد الفتاح إبراهيم ، أفريقيا من السنغال إلى نهر جوبا ، مكتبة الأنجلو المصرية، 1961، ص 72 .

(6) – اليعقوبي ، المصدر السابق، ص 109 .

الآبار الثلاثة، التي حفرها عبد الرحمن بن حبيب . وقد شهد هذا الطريق نشاطاً ملحوظاً، منذ عهد الأدارسة ، الذين استطاعوا السيطرة على المنطقة، حتى منطقة زاغة على نهر النيجر، والذي أطلق عليها ابن خرداذبه بلاد زاغي بن زاغي[1].

والملاحظ على هذا الطريق كثرة وجود الماء؛ فقد أفاد البكري بأن ثلاثة عشر موضعاً للمياه، كلها عذبة ماعدا القليل، الذي تمنع ملوحته الاستفادة منه، ويلاحظ أيضاً قرب مياه الآبار من السطح، ففي بعض الحالات يوجد الماء على بعد ذارعين[2].

طريق سجلماسة أودغست :

ارتبطت سجلماسة عبر الصحراء جنوباً، بعدة طرق، فالبكري ذكر طريقين أحدهما: يمر على تادمكت ، ثم يواصل على طريقها الى أودغست. وقدر ابن حوقل المسافة بين سلجماسة وأودغست بشهرين. وأورد مارمول اسماء بئرين بين سجلماسة وتنبكت، وهي بئر زعوات وبيء[3] عروان. والطريق الآخر يتجه رأساً الى غانة مسيرة شهرين ، ربط الإدريسي[4] سجلماسة بسلي وتكرور وأوليلى، ولم يذكر المحطات التي عبرها، وقدر طوله بأربعين يومًا بسير القوافل[5].

طريق وادي درعة إلى بلاد السودان :

لم يذكر البكري تفاصيل كثيرة عن هذا الطريق، كما فعل بطريق تادمكت فمراحل الطريق غير مذكورة بالتفصيل ، وكذلك أماكن المياه، فهو يقول مثلاً : «ثم تمشي في الصحراء فتجد الماء على اليومين والثلاثة» ، ولكنه ذكر بعض الآبار

(1) – أبو القاسم عبد الله بن أحمد بن خرداذبة، المسالك والممالك، السابق، ص11 وإبراهيم حركات، «دور الصحراء الأفريقية في التبادل والتسويق خلال العصر الوسيط » مجلة البحوث التاريخية ، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، س 3 – يناير 1981م، ص 30.

(2) – البكري ، المصدر السابق، ص ص 156 - 157

(3) - مارمول ، المصدر السابق، ج3، ص 179.

(4) - الإدريسي ، المصدر السابق، ص ص 3 - 4.

(5) - البكري ، المصدر السابق، ص ص 149 - 159، وابن حوقل، المصدر السابق، ص 91.

التي توضح أن الطريق لا يعاني من الجفاف الشديد، وأكبر مسافة دون ماء على هذا الطريق، هي المجابة الكبرى حيث لا يوجد ماء بها، لمدة ثمانية أيام، ويمر الطريق بقبائل لمتونة وقاعدتهم أزقى[1].

طريق تغاز السودان :

لم يتعرض البكري[2] لهذا الطريق مباشرة، بل أشار إلى وجود معدن الملح، واتفق وصفه مع ماجاء عند الكتاب من بعده[3] عن تغازة. تبعد تغازة عند البكري عشرين يوماً من سجلماسة، بينما سافر ابن بطوطة من سجلماسة الى تغازة في خمسة وعشرين يوماً، والماء غير متوفر في المنطقة الواقعة جنوب تغازة إلا نادراً، وقد صادفت قافلة ابن بطوطة ماء الغدران، الذي تركته الأمطار بين تغازة وناسر هلا، والصحراء الواقعة جنوب تاسر هلا ذات ريح، شديدة الحرارة تجفف الأسقية، ومن هناك يواصل الطريق إلى ايولاتن. وقد سار ابن بطوطة على الطريق بين سجلماسة ايولاتن شهرين كاملين[4].

ومن المحتمل أن يكون طريق تغاز، قد ازدهر أكثر من الطريق الواقعة إلى الغرب منه؛ لأن ظهور تنبكت في أواخر القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي كمركز تجاري، إلى جانب نمو مركز جني قد ركز حركة القوافل، في الجهة الشرقية من هذه المنطقة، وساعد على ذلك الاضطرابات، التي شهدتها غانة على حدودها الجنوبية، وقد ساعدت هذه العوامل الجزء الشرقي من المنطقة الغربية؛ لاحتلال مكان طلاعيا في تجارة الصحراء، نظراً لتزويدها القوافل بملح تغازة.

(1) - البكري، المصدر السابق، ص ص 163 - 164، وابن خرداذبة، المصدر السابق ، ص 10، وابن بطوطة، المصدر السابق، ص 659 .

(2) - البكري، المصدر السابق ص 171.

(3) - القزويني، المصدر السابق، ص ص 25 - 26، وابن سعيد، بسط الأرض ، المصدر السابق، ص 47 ، وابن بطوطة، المصدر السابق، ص 674.

(4) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص ص 674 - 676..

طريق فاس تنبكت :

وهي من الطرق التجارية التي يوجد فيها عدد من الآبار، وقد أوضح الوزان شكل الآبار، بأنها مكسوة بجلود الإبل ومبنية بعظامها، وعلى التجار أن يسافروا مع هذه الطريق في فصل الشتاء فقط، نظراً لأن هناك رياح القبلي التى تهب على المنطقة، وتحمل معها الاتربة التي تغطي آبار المياه، وبذلك يموت المسافر في هذه الطريق عطشاً؛ لأنه لايستطيع أن يهتدي إلى مكان البئر[1].

طريق تلمسان أقدز :

يربط هذا الطريق بين مدينة تلمسان ومدينة أكدز، وهو طريق صعب لا يوجد به الماء، ولذلك يضطر المسافر الى حمل الماء معه، طيلة المدة التي يستغرقها في السفر، والتي تتراوح ما بين ستة الى سبعة ايام[2].

إن الطرق السالفة الذكر لم تبق ثابتة عبر الحقب الزمنية، فهناك أمور سياسية وأمنية، عملت على تغيير مسارها من فترة لأخرى، ولكن الاتجاهات عموماً حافظت على ثباتها، ما دامت بعض المراكز التجارية لم تفقد أهميتها، ولاشك أن أهم مؤثرات ضعف الحركة التجارية الصحراوية، أو قوتها ترجع إلى عدة، عوامل أهمها: الجانب الأمني، فإذا ما توافر هذا الجانب نشطت حركة التجارة. وفي منطقة السودان الغربي هذا الجانب متذبذب من فترة لأخرى، حسب قوة الدولة الحاكمة. ونستشف ذلك من غرر المسائل، فقد ورد في ذلك سؤال للقابس « عن رفقة قدمت من غانة إلى سجلماسة فلما كانوا في بعض الطريق، خرج عليهم اللصوص فأكلوا أموالهم»[3].

من خلال النص السابق يتضح، كما أسلفنا، أن الجانب الأمني كثيراً ما يفقد، فيمنع التجار عن ارتياد هذه المناطق.

(1) الحسن الوزان ، المصدر السابق، ج 1، ص ص 75 - 76.

(2) نفسه ص 75 .

(3) مجهول ، غرر المسائل ، أسئلة علماء جارولة ، أخذت عن باب مسائل الجمل والإجازات والأكرية والموزارعة والمقاربة ، مخطوط مكتبة الباحث، دون تصنيف، وهناك نسخة بالخزانة العامة ، الرباط رقم 725.

وكثيراً ما كانت قبائل البرابيش والطوارق والفلان تخرج عن نطاق السلطة الحاكمة، وتجبر التجار على دفع إتاوات عالية؛ لكي تمر قوافلهم ، الشيء الذي دفع بالتجار إلى العزوف عن الذهاب إلى بلاد السودان.

الظروف الطبيعية :

تعتبر الظروف الطبيعية من بين أهم العناصر المؤثرة على التجارة عبر الصحراء، فالطبيعة قوة قاهرة من الصعوبة التغلب عليها[1]. فهناك رياح القبلي، التي تعمل على جفاف الماء من القرب[2]. وقد تعرض ركب أسكيا الحاج محمد، لمثل هذه الرياح في رحلة الحج. كما توجد رياح يطلق اسم عليها الريح الأحمر بما تثيره من غبار أحمر.

السلع المتبادلة ونظم التعامل :

عبرت الصحراء الكبرى أنواع متعددة من السلع، التي انحصرت بصورة رئيسية في المواد التعدينية، والزراعية، في المنطقتين المحيطتين بالصحراء الكبرى، في الشمال والجنوب. كما كانت الصحراء نفسها تنتج بعض هذه السلع التي تبوأت مكاناً بارزاً، في الحركة التجارية، ويمكن تناول هذه السلع تحت مجموعتين: سلع صادرة من السودان، وأخرى واردة إليه .

السلع الصادرة من السودان :

لعبت السلع التي كان يصدرها السودان دوراً رئيسياً، في تجارة الصحراء الكبرى، ويأتي الذهب والرقيق على رأس قائمة هذه السلع.

---

(1) - هبت عليّ في عام 1987، وأنا في طريقي من مدينة جاو إلى تنبكت رياح عاتية ، أوقفت سيارتي يوما كاملاً وليلة إلى أن هدأت تلك الرياح، وكانت محملة بالحصى أثرت في زجاج السيارة بخدشة ،وأربكت الدليل الذي رافقني بأن وصلنا إلى تنبكت بعد ثلاثة أيام ونصف . والمسافة كلها أربعمائة وخمسون كيلو متر أذًا، فما بالك بمن هو على الجمل .

(2) - محمود كعت ، المصدر السابق، ص 187.

الذهب :

كان الذهب السلعة الأولى التي جذبت اليها التجار، منذ عهد الفينيقيين، حيث تاجروا في الذهب مع السودان الغربي، ومنذ ذلك التاريخ أصبح الذهب محور تجارة السودان عبر الصحراء مع المغرب[1].

وقد لفتت تجارة الذهب انتباه الجغرافيين، والرحالة العرب، منذ القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، وجمعوا عنها معلومات كثيرة، والظاهرة البارزة على ما جاء في المصادر العربية، هي حصر مصادر الذهب في منطقة السودان الغربي، والتركيز على روافد نهري السنغال والنيجر[2].

تميزت بعض المناطق في السودان الغربي، بتواجد كميات كبيرة من الذهب، مثل جزيرة ونقارة التي تبعد عن مالي بثمانية أيام[3]، وغايروا، وبلاد الفرويين، وكوغة، إلى الجنوب الغربي من غانة[4]. وكانت كميات الذهب في تلك المناطق كثيرة، حتى أن لملك غانة وحده اثني عشر معدناً يستخرج منها التبر[5].

وقد كتب عدد من الكتاب العرب القدامى، عن هذا الذهب روايات، تصل أحياناً إلى درجة المبالغة في طريقة جمعه. فقد ذكر ابن حوقل، أن الذهب ينبت ببلاد غانة: «في الرمل كما ينبت الجزر، ويقطف حين بزوغ الشمس»[6] كما أورد العمري في رواية عن الملك منسا موسى ملك مالي عند زيارته للقاهرة في رحلة الحج، أن هناك نوعاً من الذهب يجمع «في زمن الربيع، عقيب الأمطار،

---

(1) – محمود الأرواني ، الترجمان ، مخطوط، ورقة 94.

(2) - الإدريسي ، المصدر السابق، ص 8، العمري ، مسالك الأبصار ، المصدر السابق ، ص61، عمر بن مظفر بن عمر، فريدة العجائب وفريدة الغرائب ، لندن 1822، ص 152.

(3) - الإدريسي ، المصدر السابق، ص 8، العمري ، المصدر السابق، ص ص (74-75).

(4) – البكري ، المصدر السابق، ص 176 والاستبصار ، المصدر السابق، ص ص 211- 222.

(5) – أبو العباس أحمد بن سعيد بن عبد الواحد الشماخي ، كتاب السير ، ص407.

(6) – ابن حوقل ، المصدر السابق، ص 87.

ينبت في الصحراء، وله ورق شبيه بالنخيل أصوله التبر»[1].

وهناك نوع آخر من التبر يجمع بعد سقوط الأمطار، وهو ذهب جزيرة ونقارة التي تغمرهما المياه في وقت الفيضان، وعند انحدار الماء يأتي المواطنون للبحث عن الذهب، الذي يكون قد انجرف مع انحدار المياه على التلال التي مر بها، ثم يتسرب على أرض الجزيرة[2].

والـذهـب الذي يجلـب من أرض الفـرويين، يستخـرج عن طريق صهر المـواد التي يوجد فيها[3]. وكـانت هنـالك مناجم «على ضفاف مجـاري النيل [نهـرالنيجر]، وتحفر هناك حفائر يوجد فيها الذهب كالحجارة، والحصى»[4] كما يجلب من أسبن في الجنوب[5].

وقد ذكرت المصادر العربية أن الملوك كانوا يحتكرون الذهب، فهو ملك للسلطان، تجمعه الرعية، ولا يسمح لهم بأخذ شيء منه إلا بإشرافه[6].

والملك يختار الندرة من الذهب، وهو ما بين أوقية إلى رطل ، ويمنع خروجها من أرضه لئلا يكثر الذهب بأيدي الناس فتقل قيمته[7] وكان مع الملك منسا موسى، ملك مالي، ثلاثة آلاف شاباً، كل واحد منهم يحمل منقاراً من الذهب في رحلته للحج[1]، وهو الذي أنزل سعر الذهب في القاهرة بما حمله معه من

---

(1) - العمري ، المصدر السابق، ص 68.

(2) - القلقشندي ، المصدر السابق، ج5، ص 290.

(3) - الاستبصار ، المصدر السابق، ص 222.

(4) - القلقشندي ، المصدر السابق، ج 5، ص 298.

(5) - موسى بن أحمد السعدي، مخطوط، ورقة 160 .

Valentin Fernandes, Description de la cote Occidentale d'Afrique Senegal au . cap de Mont , Archipels, Societe industriel de Topographie Lisbone 1951 P :7

(6) - العمري ، المصدر السابق، ص ص 74 - 75 ، والقلقشندي المصدر السابق، ج5، ص 290.

(7) - الاستبصار ، المصدر السابق، ص 221.

ذهب وما أهدى منه[2]. ولذلك كان السلاطين يحاولون التحكم في الكميات، التي ترد إلى الأسواق حتى يحافظوا على السعر.

وقد أدى احتكار الملوك للذهب إلى ظهورهم بمظهر الثراء العريض؛ حيث إن ملك غانا كان يطلق عليه كيمع، ومعناها ملك الذهب[3].

يعد سقوط مملكة مالي الإسلامية، سيطرت سنغاي على مراكز الطرق، وتولت الإشراف على مناطق الذهب الجنوبية، ولكن إشراف سنغاي على تجارة الذهب لم يدم طويلاً، فتولى بعد ذلك المغاربة الإشراف على الذهب وتأمين طرقه، وازدهرت تجارته من جديد، الشيء الذي أكده عدد من مؤرخي السودان الغربي. وقد أورد أحمد بلعراف قائلاً «والرماة من يوم دخولهم هم أهل السيطرة والقوة في هذا البلد الى الآن، وكان الواردون عليها من التجار من كل ينزلون ضيوفاً عندهم . . . وكان التجار يجلبون السلع إلى تنبكت من فاس ومراكش وسوس وتفلالت ودرعة واتوات وغدامس وطرابلس وغير ذلك فيبيعونها بالذهب والرقيق . . . »[4].

وهنا يورد محمد محمد المفتي (مرحبا) بأن الحركة التجارية في منطقة السودان الغربي سنة 1110هـ / 1689م ، كانت نشطة ومحكمة[5].

هاتان الرسالتان اللتان نوردهما برهانًا على نشاط حركة تجارة الذهب، في عام 1106هـ/ 1694 م/ 1126هـ / 1714م، وهذه فقرات منها، **نص الرسالة الأولى** «استنتاب من يضع اسمه عقب . . . أشريف حامد بذمة أشريف . . . وهي إحدى عشر مثقال ذهب وعدله ملح . . . وعلى غيره أشريف عين أحد عشر

(1) - الحاج محمد مرحباً ، التاريخ الخاص بالتواتر، مخطوط ورقة 110.

(2) – موسى بن أحمد السعدي ، مخطوط، ورقة 1.360.

(3) – محمود كعت ، المصدر السابق، ص 41 ، ومحمد عبد الفتاح إبراهيم ، المرجع السابق، ص 90.

(4) - أحمد بلعراف ، أهمية التاريخ ، مخطوط، ورقة 19.

(5) - الحاج محمد مرحباً ، التاريخ الخاص بالتواتر ، ورقة 110.

وهي إحدى عشر مثقال ذهب وعدله ملح . . . وعلى غيره أشريف عين أحد عشر مثقالاً توكل مفوض . . . بتاريخ أواخر شهر الله المعظم رمضان عام ستة ومائة وألف عبيد الله حمدو [بياض] حمد الشأن الفاسي كان الله له أمين»[1].

نص الرسالة الثانية :

«. . . هذا امن عند أحمد بن إبراهيم المطاع إلى من أيَّده الله برضاه الرضوان وختم لنا وله بالسعادة والغفران . . . سيدي الوافي عبد الله . . . إذا أتاكم على بن الحاج اقبض لنا مثقلين وسدس يخلصها لك . . . وتسلم عليك فاطمة وامها كثير السلام ونحن على خير وعافية وسلم عليكم كاتبها محمد ابن الحاج محمود العزاوي . . . أوائل شهر الله جماد الآخر يوم الخميس، مضت منه سبعة أيام، عام ستة وعشرين ومائة وألف»[2] 1126 هـ/ 1714م .

من هنا ندرك مدى أهمية التعامل بالذهب في السودان الغربي، والجدير بالملاحظة أن الذهب العين، كان يحمل في أكياس تصنع من رقبة النعامة[3].

بعد هذا العرض نستنتج أن الذهب كان أهم سلعة تجارية، درت على السودان الغـربي أموالاً طائلة، وعملت على رفع اقتصاده، وكذلك ربطه مع الشمال الأفريقي برباط اقتصادي متين.

الجلـود :

من السلع ذات التاريخ التجاري القديم في السودان الغربي، تجارة الجلود، والتي كانت تستورد من غدامس، وتُـصنع منـها الأحـذية والـقرب وأكـياس حفـــظ الحبوب ونحوها[4].

(1) – حمد والشان الفاسي يبعث برسالة تجارية إلى وكيله بالسودان الغربي، أشرف، حامد مخطوط، ورقة واحدة .

(2) – أحمد بن إبراهيم المضاع، يبعث برسالة تجارية إلى سيدي الوافي عبد الله ، مركز أحمد بابا التنبكتي رقم 1700 تاريخها 1714/1126، مخطوط، ورقة واحدة .

(3) – موسى بن أحمد السعدي ، مخطوط، ورقة 282.

(4) – أحمد بلعراف، أهمية التاريخ، مخطوط ورقة 24، ومحمد سليمان أيوب «جرحة في عصر ازدهارها»، مقال المرجع السابق ص 198 ،حسن سليم ، مصر القديمة ما قبل الأسرات ، القاهرة، دون تاريخ، ج1، ص 281.

العاج :

لقد دخلت تجارة العاج عبر قوافل السودان الغربي، منذ عصر الجرمانيين والفينيقيين. وكان العاج متوفرًا بكميات كبيرة، جعلت المواطنين يصنعون منه أواني الشرب ويزينون به الخيل، وكان من الكماليات المرغوب فيها بالشمال الأفريقي. ويتم تصديرها للمغرب الأقصى، ومنه إلى أوروبا، فهي من البضائع التي يرغب في شرائها، وبذلك يُعتبر أهم صادرات السودان الغربي زمن دولة سنغاي[1].

مواد مختلفة :

السياط من السلع التي يصدرها تجار السودان الغربي، إلى الشمال الأفريقي، وتعرف باسم السربافات· تصنع في بلاد التكرور، من جلد حيوان يصطادونه من النهر يسمى قفو. وقد وجدت هذه السلعة سوقاً رائجاً، إذ يحتاج إليها في ركوب الإبل. كما كان السودان يصدر الأبنوس والعسل والصمغ وحبوب الكولا وريش النعام وبيضه الذي يستخدم في تركيب بعض الأدوية وأدوات الزينة، كما كانت الشب من السلع التي صدرها السودان الغربي، وقد اشتهرت به كوار أكثر من غيرها وحول تلملة[2] وانكلاص «وقصر أم عيسى»[3][4].

السلع المستوردة إلى بلاد السودان الغربي :

جلبت إلى السودان أنواع متعددة من السلع، أتى جزء منها من حوض البحر المتوسط، وأتى جزء آخر من داخل الصحراء، وعلى رأس السلع الصحراوية التي دخلت السودان الملح·

(1) محمود كعت، المصدر السابق ص 149 وعبد القادر زبادية، مملكة سنغاى، المرجع السابق، ص 225 - 226

Law- R.C.C. "The Gamanties and Trous" Saharan Enter Prise In ciasical Times" J.A.H Vol. 8 (No 2: 1967) P: 169.

Humray: Historical Account of disconeries and Travel In Africa vol. P 22.

(2) - تقع إلى الشرق من كوكو بأربعة عشرة مرحلة. الإدريسي ص ص 12 - 19 .

(3) - تقع شمال كوار على رأس الطريق الممتد جنوباً على وادي كوار لمسافة أربعين ميلاً، وهي ليست مدينة كبيرة، إلا أن موقعها أكسبها أهمية تجارية، الإدريسي ، المصدر السابق، ص 79.

(4) – محمود بن عب يبعث برسالة إلى بكار بن ضيل بخصوص تجارة بينهم، مخطوط مكتبة الباحث، دون تصنيف، ورقة واحدة .

الملــح :

كان الملح يمثل سلعة مهمة في تجارة الصحراء منذ فترة طويلة، قبل الفتح الإسلامي لشمال أفريقيا[1]؛ وذلك لعدم توفره بكميات كبيرة تكفى لسد متطلبات السكان داخل أرض السودان. ويكاد الملح ينعدم جنوب الصحراء، إلا في بعض مناطق شرق النيجر، حول حوض البنوي؛ حيث يستخرجه أهالي البلد من المستنقعات في فترة الجفاف، وترافق عملية استخراجه بعض الطقوس الدينية إشارة لأهميته البالغة[2].

وكانت جزيرة أوليل على المحيط الأطلسى، المصدر المهم لتزويد السودان الغـربي بالملـح، وبسبب وقوعهـا في آخـر غـرب السودان، فقد كان من الصعوبة بمكـان وصـول ملحهـا إلى أطـراف السـودان النائيـة جنـوبـاً وشـرقاً، لعدم توفر المواصلات التي تسير ذلك؛ وكان التكرور يتاجرون في ملح أوليل على نهر السنغال[3].

كما كان للتجار الليبيين دور كبير في تجارة الملح مع مناطق السودان الغربي، فهذه الرسالة تبرز ذلك الدور، حيث جاء فيها مانصه : «الحمد لله وحده وصلى الله على محمد وسلم زمام ماعلمنا في غارب عزم... ماذكره الحاج محمد ابن أحمد ومحمد مغوراً الغدامسيان أربعمائة حجرة مائتان حجرة من الحاج محمد ابن با أحمد، ثم مائتا حجرة من محمد مغوراً متاعك... عشرين حجرة... معه ليشترى أحدهما بالملاحف الحرير، والأخرى بما ينفعنى»[4].

---

(1) - كان الملح من بين المواد التي تاجر فيها الرومانيون مع أهالي السودان الغربي، وحصلوا على أرباح هائلة، للمزيد، انظر محمد سليمان ايوب ، المرجع السابق ص 189.

(2) - مجهول، تاريخ باغرام ، مخطوط، ورقة 26.

(3) - موسى بن أحمد السعدي ، مخطوط، ورقة 50 ، محمود بن عب يبعث برسالة إلى بكار ابن ضيل بخصوص تجارة بينهم ، مخطوط، ورقة واحدة .

(4) - مجهول، رسالة تجارية لأحد تجار تنبكت يبعث بها إلى الحاج محمد بن أحمد ومحمد مغوراً الغدامسيان، مكتبة الباحث دون تصنيف، ورقة واحدة.

نستخلص من هذه الرسالة عدة نقاط، منها :

1 - دور التجار الليبيين ومساهمتهم في حركة الاقتصاد بالسودان الغربي.

2 - ازدهار حركة تجارة الملح بين شمال الصحراء وجنوبها.

ولذلك.. فإن ندرة معدن الملح، وصعوبة وصول الموجود منه، إلى الداخل جعل منه سلعة مهمة، يحرص عليها التجار لضمان أكبر قدر من الذهب.

ولأهميته كان له نظام معين في التعامل به، وهذه الرسالة التي نوردها الآن، على الرغم من أنها مبتورة في بدايتها، إلا إنها تميط اللثام عن جوانب مهمة، وهذه فقرات منها تقول : "وكان سيرة ملوك سنغى أن يجعلوا عليه أميناً، أي أمين يتحرونه فيخلوا بينه وبين الناس، ونفقة أعوانه ثابتة من [البحر][1] يحملها إليه من لايحمل الملح، ويأخذ الثلث من كل ماقطع من الملح، ثم لايباع شيء من الملح، حتى يباع ملح السلطان، فيأخذ السلطان خراجه ثلاثون ألفا، ومابقى يتولاه أمينه يعطى منه قيم الزرع المحمولة إليه، وكراء الدواب الحاملة، ثم شأنه بما بقي يفعل فيه كيف يشاء، إلا أن [الثلث][2] ألفاً لاينقص منها شيء غير أن الملح حينئذ غال لعمارة التكرور، وكثرت أهله وكمال عدله وأمن سبله وكثرة الغنا في أهله، فلما ذهبت دولة السودان انعكس الأمر، وتسلطت الاعراب وكثر الخراب، وكسد الملح، وبذهاب دولة الرمات، قلت فائدته، وأما سيرت فأنت أعلم بها فإن أردت أن تعمرها بعد الدثور، فابعث لها أمياً فإن الأمانة تصلح الديانة وتبسط الرزق، قال الرسول صلى الله عليه وسلم إذا أراد الله بقوم [عا][3] فتح عليهم باب أمانة، وإذا أراد بقوم اقتطافاً فتح عليهم باب خيانة، ومن ائتمن خائناً فقد ظلمه، قال الشاعر :

لقد ظلموك حين سموك سيداً كما ظلم الناس الغراب

(1) - يقصد به نهر النيجر .

(2) - خير .

(3) - ثلاثين .

... واعلم أيها الأمير أن الملح لايحل تحجيره عن أحد لقوله صلى الله عليه وسلـم ثلاثـة النـاس فيهـم سـواء الماء والملـح والنار، فمن منعهم منعه الله فضله يوم لافضل إلا فضله"، ولكنه من المنافع العامة، التي ينبغي أن يكون لبيوت المال فيها حظ وافر لقيامها بمنافع عامة الأمة، قال عمر بن الخطاب... يا أمير سوسبي اقسموها بينكم تجدوني دانيا ولابخيلاً ولاخائناً ولاكذوبا، وأعيذك بالله أن تحمل كتابي هذا على غير ماهو عليه، وذلك محبتك في الله وفي رسوله وأهل بيته، وطلب النصح الواجب على الله ولرسوله ولائحة المسلمين، وأنت واحد منهم، وأن أخذ العهد على العلماء، بالبيان كما أخذه على الرسل بالتبليغ وعدم الكتمان... ولاتكتمونه والسلام على حضرتكم المحفوفة بالبركات، المنوطة بالتحف والخيرات، مادام السكون والحركات، ومن نور الله بصيرته فالإشارة تكفيه، والسلام صلى الله على سيدنا محمد وآله"[1].

نستخلص من النص السابق عدة أمور، وهي :

1 - أن الباعث من كبار تجار السودان الغربي.

2 - أن المرسل إليه أمير مغربي سوسي.

3 - أن الملح يمثل عند جُلِّ حكام السودان الغربي قيمة، وأن جزءاً منه يتحكم فيه الحكام بل يملكونه.

4 - اهتمام تاجر المغرب باقتصاد السودان الغربي.

5 - قيمة الخراج التي يحصل عليها سلاطين سنغاي من الملح، وكيف تقسم الأموال بين السلطان وأصحاب القوافل الحاملة له.

6 - ذكر الدول التي قامت وانتهت بالسودان الغربي في عرض مقتضب، بين فيه أن تسلط الأعراب على المنطقة عمل على اختلال الامن؛ الأمر الذي

(1) - مجهول يبعث برسالة (ويبدو أنه تاجر من السودان الغربي) إلى أمير سوسي (من بلاد السوسي بالمغرب) حول بعض المسائل التجارية مخطوط، مكتبة عادل محمود الأرواني بتنبكت، دون تصنيف .

ترتب عليه كساد تجارة الملح في المنطقة.

7 - طلب صاحب الرسالة من صاحبه أمير سوسي ـ الذي يبدو من خلال الرسالة أنه على علاقة وطيدة به ـ أنه إذا أراد استئناف تجارته لمعدن الملح، فعليه أن يجعل عليه أميناً.

8 - لجأ صاحب الرسالة في حواره مع صديقه إلى التأسي بأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم حيناً، وإلى الأسلوب الأدبي حيناً آخر، وكأنه يحفزُه على مواصلة التجارة مع السودان من جديد.

9 - طلب صاحب الرسالة من صاحبه ألا يفسرُ رسالته تفسيراً آخر، وذكَّره في نهاية الرسالة بأنه أمير المسلمين.

10 - ختم رسالته بوصف صاحبه بأنه فطن بعبارته، تكفيه الإشارة ثم دعاء له.

لقد كانت الصحراء المصدر الرئيسي للملح، وأشهر المناطق التي ساهمت في إنتاجه: ملاحات تغازه التي وصفها البكرى[1] في القرن الخامس الهجري الحادى عشر الميلادي، ولكنه لم يشر إلى اسمها. وربما دل عدم إشارة البكرى لاسمها، إلى أنها كانت في تلك الفترة حديثة عهد باستخراج هذا المعدن، لأن قيمة الملح كسلعة تجارية، لابد أن تعطيها شهرة تجعلها على ألسنة التجار، وبذلك تتوفر عنها المعلومات.

وقد عرفت تغازه عند كتاب القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي، فذكر ابن سعيد استخراج الملح منها والذهاب به إلى السودان[2]. كما أفاد القزويني عن قيمة الملح في أرض السودان، حينما قال: "والملح بأرض السودان عزيز جداً، والتجار يجلبونه من تغازه إلى سائر بلادهم"[3].

(1) - مجهول، خبر السوق، مخطوط، ورقة 10 - 11، البكري، المصدر السابق، ص171.
AHMED BOUCHARB, OP. Cit P : 8

(2) - ابن سعيد، بسط الأرض، المصدر السابق، ص47.

(3) - القزويني، المصدر السابق، 26.

وقد اشار ابن بطوطه إلى منطقة تغازه، وكيف أن قبيلة مسوفه الصنهاجية تسيطر عليه، ويتم التنقيب عنه بواسطة عبيدها[1].

وإلى جانب تغازه، وجد الملح في بعض الأماكن في الصحراء الكبرى، لم تصل إلى شهرة تغازه مثل منجم تاودني[2].

لقد كانت قيمة الملح الشرائية مرتفعة جدًا، ولاتخلو من بعض المبالغات، إذ أوردت بعض المصادر أنه يباع بـوزنه ذهبًا، وربما باعـوه بوزنين أو أكثر حسب كثرة التجار وقلتهم[3].

وكانت مدينة جاو عاصمة مملكة سنغاي، من أهم المراكز للإتجار بالملح، ومع أن هذه المدينة، كانت محطة لأهم أنواع السلع التي تنقل إليها من الشمال الإفريقي والبحر المتوسط، إلا أن أغلى أنواع السلع فيها هو الملح[4]. وكانت قوافل غدامس من آهم القوافل بالشمال الأفريقي، التي لعبت دورًا في ازدهار تجارة الملح؛ فهذه الرسالة تكشف النقاب عن ذلك، نورد فقرات منها "الحمد لله وحده وصلى الله على من لانبي بعده بهذا باع البركة الرشيد بركة غلام الحاج يحي... الأول يحي بعث مع الحاج صالح الغدامسي أيضا سبعة جمال ملح... وأيضا جملين قل رأس ملح مع بيد سيد الوافي..."[5].

لقد حافظ الملح على قيمته الشرائية، فقد كان حمل الملح في القرن الثالث

---

(1) - ابن بطوطه ، المصدر السابق ، ص674 .

(2) - أحمد بلغراف ، مخطوط، ورقة 23 .

(3) – موسى بن احمد السعدي ، مخطوط، ورقة 220.

Danidson Basilm *Africa in History*, Mac Millan publishing New York 1974 p:75.

(4) - حسن الوزان ، المصدر السابق ، ص544 .

(5) – مجهول ، صالح الغدامسي والمختار بن حمد ، يبعث برسالة تجارية إلى سيد الوافي، مخطوط، مكتبة الباحث، دون تصنيف، ورقة واحدة .

الهجرى، التاسع الميلادي، يباع داخل السودان مابين مائة إلى ثلاث مائة دينار[1] وفي القرن السابع الهجرى، الثالث عشر الميلادي، يساوي مائة دينار[2] وفي عهد ابن بطوطة، كان حمل الملح يباع في ابولاتن من ثمانية إلى عشرة مثاقيل، وربما انتهى إلى أربعين مثقالا[3].

أما في القرن الحادى عشر الهجرى السابع عشر الميلادي.. فكان ثمن الملح في تنبكت يساوى ثلاثة مثاقيل، وهذا ما أورده محمد بن عب في رسالة بعث بها إلى بكار بن حيد بخصوص تجارة بينهم، قال: "... من عند البركة المكرم الأكرم محمد بن عب إلى البركة المكرم الاكرام بكار بن حيد ألف الآف، سلام عليه ورحمة الله تعالى وبركاته، ومثل ذلك على من تحب ويحبك وبعد...

إن سئلت عن خبر الساحل قدم منها جكاني، وقال: بأن العلل بثلاثين مثقالاً... وإن سئلت عن خبر الملح في تنبكت بثلاثة مثاقيل ونصف... وصلحا على بكار كثير السلام كذلك محمد الأمين"[4].

وأورد محمود كعت أن أسعار الملح انخفضت في تنبكت، بعد سقوط سنغاي فبيعت الكمية بخمس مثاقيل وثلاثين[5].

وما أورده كعت لايدل على كساد التجار بقدر مايدل على ازدهار التجارة في عهد الحكم المغربي في السودان الغربي، فكثرة القوافل المغربية الحاملة للملح قللت من سعره.

الكتب :

مثلت الكتب نوعاً من أنواع التجارة، وكانت مناطق تصديرها الأساسية المغرب، ومصر، والحجاز؛ حيث كانت أثمانها مرتفعة، وخاصة في عهد دولة

(1) - ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص101 .

(2) - القزويني ، المصدر السابق ، ص26 .

(3) - ابن بطوطه ، المصدر السابق ، ص674 ، وموسى بن أحمد السعدي ، مخطوط ، ورقة 112 .

(4) - محمد عب يبعث برسالة إلى بكار بن حميد ، بخصوص تجارة بينهم ،،، مخطوط ورقة.

(5) - محمود كعت ، المصدر السابق ، ص181 .

سنغاي. وكانت مدينة تنبكت سوقاً رائجاً لها، فقد طلب الفع كعت من السلطان أسكيا داوود، أن يشترى له نسخة القاموس بثمانين مثقالاً. وكانت تجارة المخطوطات أيضاً من السلع المهمة؛ الشيء الذي يدل على قيمة الكتب والرفعة العلمية، التي كان عليها حكام وعلماء السودان الغربي.

لقد عرفت سنغاي في فترة الأسكيا الحاج محمد الكبير حرفة الوراقين، وتأليف الكتب، وذلك على نمط ماكان في مصر، والمغرب الأقصى. ونتيجة لإقبال حكام وعلماء السودان الغربي على اقتناء الكتب، تمكن التجار من الحصول على أموال ضخمة في بيع هذه السلعة، التي كان لها رواج ملحوظ في المنطقة؛ نظراً لانتشار العلم والعلماء، ووجود منارات للعلم[1] وقد عثرت على فتوى لمحمود بغيغ موجهة إليه من أحد أبناء السودان، يقول لصاحبها : "من مات وخلف كُتباً هل يجبر ورثته على بيعها إن يكن فيهم من يصلح لطلب العلم أم لا"؟.

الجواب "لايجبرون على ذلك"[2].

وهذا يدل على أن الكتب من بين السلع المهم، التي كان لها رواج في السودان الغربي.

الأحجار الكريمة وأدوات الزينة

عرفت منطقة فزان، منذ أقدم العصور كمصدر من مصادر الأحجار الكريمة، فقد تاجر فيها الجرمانيون مع الفينيقيين والرومان[3]، وقد كانت الصحراء

(1) - أحمد بلعراف ، أهمية التاريخ، مخطوط ، ورقة 13 - 14 ، وحسن أحمد محمود «دور العرب في نشر الحضارة في غرب أفريقيا»، مجلة كلية الآداب، القاهرة : 1959 ع 15 ، ص89.

(2) - مجهول فتوي ، حول بيع الكتب ، مخطوط ، مكتبة الباحث بدون تصنيف، ضمن مجموعة فتاوي .

(3) - عرفت هذه الأحجار منذ فترة الفراعنة، وكانت تسمى حجر التمحو، والتمحو هم أجداد قبائل التبو، وقد كانت قيمة هذه الأحجار تعادل قيمة الماس اليوم، وقد وصل هذا الحجر إلى الفينيقيين عن طريق الجرمانتيين، واشتهر في أوروبا باسم الحجر القرطاجني، وعرف في العالم الروماني باسم الكاربونكل، للمزيد انظر محمد سليمان أيوب، المرجع السابق ص188.

الفاصلة، بين غدامس وتادمكة مصدر الأحجار الملونة، المختلفة الأحجام والألوان، وكانت تباع في السودان الغربي، منذ زمن إمبراطورية غانه بأغلى الأثمان[1]، فالطبقات الثرية في المنطقة هي التي تقتني هذه الأحجار، كما كانت تجلب إلى منطقة السودان الغربي الأطداف والخرز، والأسورة، تصنع من النحاس، والفضة المذهبة، أو من الذهب الخالص، وتزين هذه الحلى بالخرز الملون، وتعمل على شكل: قلائد، وأقراط، وعقود وغيرها[2].

أما الروائح والعطور.. فكان قسم منها يجلب إلى المغرب من أوربا، وتحمل إلى سنغاي، وقد جنى التجار من وراء هذه التجارة الأموال الطائلة، نظراً لما وجدوه من إقبال كبير عليها[3].

والجدير بالملاحظة أن التجار المغاربة، كانوا هم الوسطاء الرئيسين لهذه التجارة.

التمر :

من السلع التي كانت ترد على السودان الغربي، وخاصة مدينة جني من الشمال الأفريقي، فقد كانت تصدر من ورجلان، وسجلماسة وغدامس، وايولاتن[4].

المصنوعات الحديدية والجلدية :

كانت القوافل تنقل بعض الأدوات الحديدية، والجلدية من مراكز الصحراء جنوب المغرب، وأهم هذه الأدوات الدروق التي تنسب إلى لمطه، وتصنع في بلدة نول، وكانت هذه الدروق على درجة كبيرة من حيث الجودة، والخفة،

(1) - البكري ، المصدر السابق ص182 ، الاستبصار ، المصدر السابق، ص ص224 - 225 .

(2) - عبدالقادر زباديه ، مملكة سنغاي ، المرجع السابق ، ص ص220 - 224 .

(3) - نفسه والصفحة .

(4) - محمود الأرواني، الترجمان في تاريخ الصحراء والسودان، مخطوط ورقة 94، ابن سعيد، بسط الأرض، المصدر السابق ص60، والإدريسي، المصدر السابق، ص4، وحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص163

وطريقة صناعتها، فهي من جلد حيوان يسمى اللمط، وقد أفاد القزويني أن جلد هذا الحيوان بعد دباغته إذا أصابه خدش أو بلل بالماء، إذا مسح يزول عنه[1].

أما الأدوات الحديدية، فتتمثل في السيوف، والمناجل، وحلق الأبواب، وكانت هذه المصنوعات، تجلب عن طريق التجار المغاربة[2].

النحاس :

تعرض عدد من الجغرافيين العرب[3]، حتى القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، لتصدير النحاس إلى السودان، فكانت قوافل التجارة تنقله إلى غانه، والتكرور، وأودغست من المغرب الأقصى - ولم يرد له ذكر بعد القرن السادس الهجرى، كسلعة تنقلها القوافل التجارية عبر الصحراء. بل تمت الإشارة إلى تصدير تكدا للنحاس إلى مناطق السودان الغربي[4]؛ مما يساند احتمال اكتشاف معدنه، في تكدا بعد القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي. ومن بعد.. فقد غطت الكميات المنتجه منه حاجة أهالي السودان الغربي.

واستخدم أهل السودان النحاس كعملة وكأداة للزينة[5].

الـودع :

هو نوع من الصدف كان يجلب إلى سنغاي، من قبل التجار المغاربة، وعندما احتل الأوروبيون سواحل أفريقيا الغربية، جلبوه من الهند؛ مما ترتب عليه منافسة للتجار المغاربة على هذه السلعة.

وقد استخدم في الأسواق كعملة بيع وشراء[6]، وسيرد الحديث عنه.

---

(1) القزويني، آثار البلاد، المصدر السابق ، ص58 .

(2) محمود الأرواني، الترجمان، مخطوط، ورقة 94، الشيخ الأمين عوض الله، المرجع السابق، ص ص153 - 154، وعبد القادر زباديه، مملكة سنغاي، المرجع السابق، ص219.

(3) - البكري، المصدر السابق، ص159 - 179، والإدريسي، المصدر السابق، ص2.

(4) ابن بطوطه، المصدر السابق، ص689 .

(5) - مجهول، حديقة البستان على تواريخ أهل أروان ، مخطوط، ورقة 24 .

(6) - محمود كعت ، المصدر السابق، ص122، وعبدالرحمن السعدي، المصدر السابق، 312 . والشيخ الامين عوض الله، المرجع السابق، ص149 .

الخيـول :

لاتتوفر في منطقة السودان الغربي الخيول الأصيلة، بل لديهم خيول قصيرة وصغيرة، يستخدمها أفراد حاشية الملك في تجولهم بالمدينة، والتجار في أسفارهم. أما الجياد الأصيلة فكانت تستورد من الشمال الأفريقي، وخاصة من المغرب الأقصى، ولاتباع تلك الجياد إلا بعد أن تعرض على الملك، فيأخذ منها حاجته، ويدفع لصاحب الخيول قيمتها[1]. وامتلاك الخيل ينم عن مظهر من مظاهر الثراء، فابن بطوطة لم يستطع شراء حصان لترحاله من مالي، إذ عليه أن يسدد مبلغاً قدره مائة مثقال من الذهب ثمناً للحصان، بينما استطاع ان يشتري من تكدا جملين بثلاثة وثلاثين مثقالا[2]. وكانت جاو سوقاً رائجاً لتجارة الخيول الأصيلة مع سروجها[3]، وهي مرتفعة الثمن، والحصان يساوي في مدينة جاو من أربعين إلى خمسين مثقالا[4].

إذاً كان تجار الخيل يحصلون على أرباح وفيرة من جراء هذه التجارة .

المنسوجـات :

كان معظم لباس أهالى السودان الغربي، من المنسوجات القطنية والصوفية والحريـرية التي كـان يأتي بهـا تجـار المغرب الأقصى، إلى منطقة التكرور عبر أغمات، وكان القميص السوسي الأخضر اللون، يأتي به تجار المغرب من بلاد السوسي، ولايلبسه إلا الملوك؛ نظراً لأنه غالي الثمن .

وهذه المراسلة تكشف النقاب عن دور المغرب الأقصى في تجارة السودان الغربي، وهذا أحمد زرق الفاسي العالم والتاجر يبعث له صديقه الهادي ابن

---

(1) – الحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص ص166 - 167، ومحمود كعت، المصدر السابق، ص175، وعبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص97 .

(2) - ابن بطوطه، المصدر السابق، ص ص691 - 699 .

(3) – مارمول، المصدر السابق، ج3، ص ص204 - 205 .

(4) – الحسن الوزان، المصدر السابق، ج2 ، ص170 .

الشيخ بن الإمام إسحاق، بالسودان الغربي رسالة تجارية حول عدد من السلع، من بينها: القماش، نورد فقرات منها تقول: «هذا زمام بعث الهادي بن الشيخ ابن الإمام إسحاق إلى سيدي أحمد زرُّوق، أمانة خادمة وخمسة فردات الزرع والمانغ، قد باع الجميع وأرسلها إليه حيث تبعد باثني عشر ألف في كلفتها، أمره بأن يقضيها له مع مابيده، من أماناته أرسل له عشرة رؤوس وخمس (بيضات)[1] مع عزب زوج أم ولد عبد الرحيم بن الحاج محمد المعلم، وثمانية عشر رأسًا مع معطل على يد علي بن بنغ ميغ، وأرسلت له براءتها وزمام أمانته... بتاريخ شهر جمادى الأولى عام 1046هـ»[2].

وكان ملوك سنغاي، يفضلونه عن غيره من الأقمشة، فلقد كان القميص السوسي دائمًا لباس السلطان أسكيا داوود نظراً للمعانه[3].

أما الأقمشة القطنية فكانت تأتي إليها من أوروبا، عبر قوافل تجار شمال أفريقيا[4]. كما يصدر إلى السودان الغربي الأزر، التي يطلق عليها الشكيات إلى قلنبوا وغيره، وتستورد القطن الذي يصنع منه الأزر[5]، وفي مدينة جاو تواجدت تجارة الأقمشة الحريرية ذات الألوان الزرقاء والحمراء؛ حيث يبلغ ثمن الذراع الواحد منها عشرين مثقالاً، في حين أن غيرها من الثياب لايتجاوز ثمن الذراع الواحد منها ستة مثاقيل[6].

من خلال العرض السابق للسلع المتبادلة، بين السودان الغربي والشمال

---

(1) بيضات يطلق أهل السودان الغربي على نوع من القماش بيضات، وهو نوع من القماش السوسي.

(2) الهادي بن الشيخ الإمام إسحاق يبعث برسالة تجارية إلى سيدي أحمد زروق، مركز أحمد بابا التنبكتي، رقم 7576، ورقة واحد.

(3) محمود كعت، المصدر السابق، ص ص115 - 130.

(4) الحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص163.

(5) الاستبصار، المصدر السابق، ص218.

(6) مارمول، المصدر السابق، ج3، ص ص204 - 205.

الأفريقي، ندرك أن هناك حركة تجارية جد مهمة في المنطقة، وأن روح التواصل كان قويًا للغاية، بين شمال الصحراء وجنوبها، وأن هذه السلع تترجم الرخاء الاقتصادي الذي شهدته منطقة السودان الغربي، والذي أثر بشكل ملحوظ على الشمال الأفريقي، وأوربا، وجعلها تتسابق لتوصيل بضائعها لمنطقة السودان الغربي.

وسائل نقل البضائع إلى مناطق السوادن الغربي :

كانت التجارة الداخلية في بلاد السودان، تنقل بواسطة القوارب، والسفن منذ زمن إمبراطورية غانه الوثنية، فقد استخدمت الملاحة النهرية عبر نهر النيجر، لنقل البضائع والناس[1]. وكذلك في عهد مملكة مالي الإسلامية، استخدمت القوارب للغرض نفسه، حيث استخدمها الملك منسا موسى، عند عودته من رحلة الحج، فعندما وصل إلى مدينة تنبكت، جمع القوارب وحملها بعياله وأمتعته[2]. وفي عهد دولة سنغاي، استخدمت القوارب في نقل البضائع، والناس؛ على السواء، واستخدمها بعض سلاطين سنغاي في تنقلاتهم، فقد ركب أسكيا إسحاق قاربًا من ميناء كبرى إلى مدينة كاغ[3].

وكانت الملاحة النهرية في الشتاء أسهل من الصيف، وذلك لكثرة مياه نهر النيجر، فتستطيع السفن المحملة بالبضائع السير بهدوء ويسر في النهر، في شهر دجنبر ويعتبر أفضل أشهر السنة للملاحة. وقد أفاد عبد الرحمن السعدي أنه في سنة 1063هـ/ 1652م وصل ماء النهر إلى منطقة معدك[4]، مما يدل على كثرة الأمطار في المنطقة.

وكانت لهذه السفن والقوارب موانئ بحرية، في المدن الكبرى؛ ففي مدينة

---

(1) – الشماخي ، المصدر السابق ، ص457 .

(2) – محمود كعت ، المصدر السابق ، ص37 .

(3) – عبدالرحمن السعدي ، المصدر السابق ، ص97 ، ومحمود كعت ، المصدر السابق ، ص57 - 92 - 95

(4) - نفسه، ص315 .

تنبكت، كان هناك ميناء كبر ترسو فيه السفن الداخلة والخارجة. ويشكل الميناء مورداً مهماً، بما يحصل عليه من ضرائب على البضائع والركاب. وكان رئيسه (كبر فرم) يعين من طرف السلطان، لأن الميناء تابع مباشرة للسلطان، ففي عهد السلطان محمد بان كان ميناء كبر تابعًا له.

وللميناء رئيس آخر، وهو الذي يسمح للسفن بمغادرته، ويمتلك الأكياس التي توضع فيها الحبوب. وقد بعث السلطان أسكيا داوود إلى رئيس المرسى كيمكى أن يعطيه عشرة سفن، وألفاً من جلود صنون؛ لكي يرسلها إلى مسن كل الله وكيله؛ ليضع له فيها ماطلب[1]. وقد تعاقب على رئاسة المرسى عدد من المسؤلين، كان من بينهم، منذ الفع ولد زرك ومرسى كرنزمي وغيرهم[2].

أما التجارة الخارجية فكان الجمل رائد النقل فيها، فبدخوله حدثت ثورة في وسائل النقل عبر الصحراء، فلم تعد القفار، والرمال الزاحفة حواجز عائقة، ولقد حطم استخدام الجمل كل الحواجز، وتحولت الصحراء إلى معبر للقوافل، وقامت في مناطق متعددة عدد من المحطات التجارية، ازدهرت عبر العصور، وكانت القوافل تسير في أعداد كبيرة، وكان لها حراس وأدلاء، ومترجم، ووكلاء، ونزل، يأوون فيها بضائعهم وحظائر لجمالهم[3].

الأوزان والمكاييل والمقاييس :

لقد كانت للسودان الغربي مقاييس، ومكاييل، وموازين ثابتة، يتم التبادل والتعامل بها، في جميع أنحاء البلاد وخارجها، ويبدو أنها انتقلت إليهم عن طريق المغرب الأقصى.

(1) محمود كعت، المصدر السابق، ص ص96 - 126 .

(2) عبدالرحمن السعدي، المصدر السابق، ص ص157 - 178 .

(3) ابن بطوطه المصدر السابق، ص675، والخليل النحوي، المرجع السابق، ص94 .

وحدة الوزن :

يستخدم المثقال، لوزن المعادن ويساوي وزن اثنتين وسبعين حبة من حبات القمح المتوسطة الحجم، ويقدر وزن المثقال بحوالي أربعة جرامات من الذهب[1]، ويقابل المثقال الذهبي الواحد ثلاثة ألف ودعة[2]. والدرهم عندهم يساوي سبعة أعشار المثقال، أما الدينار فكان يساوي أربعين درهمًا[3]، ويعادل سعر الدينار ستة أوقيات من الذهب[4]، وتزن الأوقية الواحدة حوالي سبعة وعشرين ونصف جرام[5].

وحدة الكيل :

استعملت عدة وحدات لتقييم الحبوب، من بينها :

المد ويساوي أربعة أمداد بجمع اليدين، والصاع يساوي أربعة اضعاف المد؛ أي مايعادل ثلاثة كيلو جرامات. والمرطة وهي تساوي أربع صيعان، أما القنطار فقدر بحوالي بمئة رطل. ومن وحدات تقييم الحبوب الصنية، وكان أسكيا داوود يزن بها الحبوب التي يجنيها[6]، أما المودي فهو مايحمله العبد أو الرجل من حبوب أو نحوه في كيس من الجلد، ويوزن الملح باللمكية والتمر بالحمل، ويقاس وزن الزرع، قبل حصده بالقبضة والفته[7].

(1) - موسى بن أحمد السعدي، مخطوط، ورقة 113، ومحمد الغربي، المرجع السابق، ص434.

(2) - محمود كعت ، المصدر السابق ، ص183 .

(3) - زبادية ، مملكة سنغاي ، المرجع السابق ، ص200 .

(4) - موسى بن أحمد السعدي ، مخطوط ورقة 256 .

(5) - موسى بن أحمد السعدي ، مخطوط ورقة 114، وزباديه مملكة سنغاي ، المرجع السابق، ص200 .

(6) - لامن بن أحمد بكدا ، تاريخ أقدز ، مخطوط ورقة 11 ، ومحمود كعت ، المصدر السابق، ص94 .

(7) - موسى بن أحمد السعدي ، مخطوط ورقة 11 ، ومحمود كعت ، المصدر السابق ، ص56-68-96-106 ، وزباديه ، مملكة سنغاي ، المرجع السابق ، ص19 .

معيار القياس :

واستخدم القياس في عدة أغراض : طول الأرض والأقمشة منها الشبر، وهو يساوي الامتداد بين الخنصر والإبهام، وقد قدر بحوالي 21 سم تقريباً، أما الذراع فهو الامتداد، بين عقد المرفق ونهاية الوسطى، ويساوي حوالي 50 سم تقريباً، وكذلك القدم والخطوة والقامة، والحبل هي وحدة قياس المساحة، واستخدم في قياس المسافات الميل، وقدر بحوالي المتر. والفرسخ تُقاس به المسافات الطويلة، ويساوي ثلاثة أميال. واستعمل البريد الذي يعادل سير سرعة الحصان[1]. كما استخدم الرمح لقياس طول ماء النهر[2]، فهذه المعايير نقلت من المغرب، واحتفظت بأسمائها، واستعملت في جميع أنحاء السودان الغربي، بكيفية موحدة.

معيار قياس الأغنام والحيتان :

أما معيار قياس الأغنام فقدر بالدوسة، وفي عهد أسكيا الأمين بن أسكيا داوود في عام المجاعة، كان يذبح للفقراء ثمانية دواس، أربعة في الصباح وأربعة في المساء[3].

وتقدر داوس الواحدة بعشرين رأس من الغنم[4]. أما وحدة قياس وزن السمك المجفف فهي الحزمة[5].

(1) - محمود كعت ، المصدر، ص35 - 38 - 56 - 68 ، وعبدالرحمن السعدي ، المصدر السابق، ص129 ، ومحمد الغربي ، المرجع السابق ، ص ص442 - 243 ، وزباديه ، مملكة سنغاي، المرجع السابق ، ص198 .

(2) - موسى بن أحمد السعدي ، مخطوط ورقة 220 .

(3) - عبدالرحمن السعدي ، المصدر السابق ، ص312 .

(4) - إلى يومنا هذا متعارف عليها الدواس بعشرين رأس من الغنم في مناطق مالي والنيجر .

(5) - محمود كعت، المصدر السابق ص 57 .

نظم التعامل التجاري فى السودان الغربي :

المقايضة :

كانت المقايضة إحدى الوسائل، التي تعامل بها تجار السودان الغربي، مع تجار الشمال الأفريقي، منذ أقدم العصور. وهي تعتمد على الاتفاق بين الطرفين، فيما يعرضونه من سلع؛ فالتاجر السوداني يعرض الذهب كسلعة رئيسية، إلى جانب بعض السلع الأخرى، مثل: الريش، والتوابل، ويعرض التاجر الوافد الملح إلى جانب المنسوجات، وكل واحد يضع تجارته، ويختفى عنها إلى أن يتفقوا، ويسمى هذا النوع من التجارة بالتجارة الصامتة[1].

فالمقايضة كانت معروفة، ومتعاملاً بها في كل مراكز السودان التجارية، وهذه الفتوى تؤكد على وجود هذا النوع من التجارة. فقد أفتى الشيخ سيدي المختار ابن أحمد بن أبي بكر في جواز بيع الملح بالطعام. وفيما يلي فقرات منها: "...وسيدي شيخنا سيدي المختار بن أحمد بن أبي بكرا... أفتى جواز بيع الملح بالطعام إلى أجل وهل القول عام..."[2].

لم تقتصر المبادلة على مادة الملح فقط؛ ففي المناطق التي يقل فيها الملح، أو ينعدم، يتم التبادل بالمواد المحلية، فأهل ملي تعاملوا بالذرة والقمح والنحاس[3]. وكان ابن بطوطة أثناء تجواله في السودان، يحمل قطع الملح، وحلي الزجاج، وبعض السلع العطرية ليستبدل بها الدجاج والدقيق[4].

وعندما نشطت حركة التجارة، وتضاعفت أحجامها، لم تعد هذه الطريقة في

---

(1) ابن سعيد ، بسط الأرض ، المصدر السابق ، ص24 ، والبكري ، المصدر السابق، ص172، والاستبصار ، المصدر السابق ، ص217 .

(2) - سيدي المختار بن أحمد بن أبي بكر فتوى ، في جواز بيع الملح بالطعام ، مخطوط مكتبة الباحث بدون تصنيف، ورقتين.

(3) - البكري، المصدر السابق ، ص172 ، والاستبصار ، المصدر السابق ، ص217 .

(4) - ابن بطوطه ، المصدر السابق ، ص ص679 - 694 .

التبادل التجارى تلقى رواجاً، فبدأ ظهور العملات الذهبية، والنحاسية، إلى جانب بعض السلع الأخرى، التي صارت لها قوة النقد.

المنسوجات القطنية :

من السلع التي صارت لها قوة النقد، المنتوجات القطنية، ويطلق عليها أهل التكرور الشكيات، وكانت تدخل في معاملات عديدة في السودان[1].

وهنالك نسيج آخر يتعامل به، في بلاد كانم، يطلق عليه اسم دندي ينسج محلياً، طول كل ثوب عشرة إذرع، يشترون منه ربع ذراع؛ لأن قيمته كانت جد غالية[2].

الـودع :

كان التعامل بالودع كثيراً، في منطقة السودان الغربي، وقد ذكره الجغرافيون والرحالة على أنه من العملات الكثيرة التداول في مراكز السودان الغربي التجارية، مثل غانه، وكوغة، ومالي، وكوكو، وتنبكت، وكان التجار يحضرونه بكميات كبيرة - لقوته الشرائية الجيدة- من الأندلس والمغرب الأقصى[3].

وكان يصل عن طريق التجار العرب من سواحل المحيط الهندي[4].

وكان الودع يستعمل في المبايعات الصغيرة[5].

وقد أفاد سيدي علي بن سيدي علي بن سيدي محمد بن بك في رسالة، بعث بها إلى منيضـا بن أحمد الغـدامسي في شـأن التعامل بالودع، قال : «الحمد

(1) - البكري، المصدر السابق، ص172، والاستبصار، المصدر السابق ، ص127 .

(2) العمـري، المصـدر السـابق، ص54، والمقـريزي، الخطـوط ، المصـدر السابق، ج1، ص214.

(3) - البكري، المصدر السابق، ص179، وأبوالفداء، المختصر من أخبار البشر، المصدر السابق، ج1، ص96، والعمري، المصدر السابق، ص54 .

(4) - مجهول، تاريخ مينو ، مخطوط، مكتبة الباحث، دون تصنيف، ورقة 29 .

(5) - المقريزي، الخطط، المصدر السابق، ج1، ص214 .

لله وحده وصلى الله على من لانبي بعده تبليغ السلام الأسنى والتحية الحسنى من سيدي علي بن سيد محمد بن بك إلى من أكرمه الكريم. . . وأعز الناس الدنيا منيضا بن أحمد الغدامسي موجبه إليك. . . واشترى لنا ألف ودعة وصرفها. . . »[1].

وأورد كعت أن أهل سنغاي كانوا يتعاملون بالودع في مبادلاتهم التجارية؛ فقد منح بلمع إلى القراء مائة الف ودعة، عند وفاة أخيه كنفار صالح[2] واستمر التعامل بالودع حتى فترة حكم المغاربة للمنطقة؛ فقد أخذ القائد مامي من أهل الزغرانيين، من مائتين إلى أربعمائة ودعة[3] وقد أفاد كعت أن المثقال من الذهب في تنبكت كان يصرف بثلاثة الآف ودعة في القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي، عندما دخلت تنبكت، تحت حكم باشوات مراكش. كما أفاد أن عشر ثمرات بخمسة ودعات[4]، وقد أورد هذه الأمثلة كدلالة على توفر السلع وانخفاض أسعارها.

وهذه وثيقة تؤكد أن أهالي تنبكت كانوا يتعاملون بالودع، فقد بعث الحاج محمد البليلي برسالة إلى عثمان بن يوشع قائلاً :«. . . هذا وأنه من الحاج محمد بن الحاج محمد بن أحمد بن أبي بكر البليلي إلى عثمان بن الحاج محمد ابن أعلى بن يوشع السلام عليك ورحمة الله وبركاته. . . وموجبه إليك منذ أتاني جوابك في شأن بيع دار الأمة. . . وأما الدار الصغيرة جعلتها في السوق، وست مائة وثلاثين ألفًا ودعاً. . . »[5].

---

(1) سيدي علي بن سيدي محمد بن بك يبعث برسالة إلى منيضا بن أحمد الغدامسي، مخطوط، مركز أحمد بابا التنبكتي، رقم 5486، ورقة .

(2) محمود كعت ، المصدر السابق ، ص130 - 122 ، وعبدالرحمن السعدي ، المصدر السابق، 130 .

(3) عبدالرحمن السعدي ، المصدر السابق، ص158 .

(4) محمود كعت، المصدر السابق، ص ص101 - 182 .

(5) - الحاج محمد بن الحاج محمد بن أحمد بن ابي بكر البليلي، يبعث برسالة تجارية إلى عثمان ابن الحاج محمد بن علي ، مخطوط مكتبة الباحث، دون تصنيف، ورقة واحدة .

النقود الذهبية :

تستعمل النقود الذهبية كعملة تعامل في الحياة اليومية عند أهالي السودان الغربي، فأهل تادمكة كانت عملتهم عبارة عن دنانير، تسمى الصلع، وهي من الذهب الخالص وغير مختومة[1]، وفي عهد دولة أولاد امحمد بفزان كان التعامل بالدينار الأقديزى بين أقدز وأولاد امحمد بفزان[2].

أما عن العملة في فترة دولة سنغاي، والحكم المغربي للسودان، فكانت عبارة عن دنانير ذهبية من الذهب الخالص ومطبوعة[3].

وافأد السيوطي في سؤال ورد عليه من أحد علماء التكرور بخصوص الدرهم الشرعي، فأورد قائلاً :«أما بعد فإنى تصفحت سؤالك أيها النحرير الهمام فابتدرت بالجواب ... أما قولك ماحقيقة الدرهم الشرعي في النكاح والنصاب والسرقة قلت حقيقة في النصاب وزن خمسين حبة وخمس حبة وخمس حبة من مطلق الشعير... وفي مائتى درهم شرعي أو عشرين ديناراً فأكثر»[4].

وقد أورد نعيم قداح أن عملات المغرب ومصر كانت متداولة في السودان الغربي، فقد تم العثور على دنانير مغربية، ومصرية في جاو[5]، وهي تدل على التبادل التجاري، بين هذه الدول، ومنطقة السودان الغربي، كما كان النحاس من بين العملات التي تعامل بها أهل السودان الغربي، فقد كان يصنع على هيئة قضبان، طول القضيب شبر ونصف، منها الغلاظ والرقاق. فأربعمائة قضيب

---

(1) - البكري ، المصدر السابق ، ص181 ، والاستبصار ، المصدر السابق ، ص223 .

(2) - عثمان بن علي الحضيري ، احباس مساجد أقدز، مخطوط مكتبة أبوبكر عثمان الحضيري، بسبها، دون تصنيف، ورقتين .

(3) - عبدالرحمن السعدي ، المصدر السابق ، ص155 ومارمول ، المصدر السابق ، ج3 ، ص203 .

(4) محمد بن عبدالرحمن السيوطي ، يبعث بفتوى لأحد علماء التكرور ، مركز أحمد بابا، رقم 5948 .

(5) - نعيم قداح ، أفريقيا الغربية في ظل الإسلام ، المرجع السابق ، ص128 .

غليط يساوي مثقال ذهب، أما ستمائة قضيب رقيق فمثقال ذهب، واستعملت هذه القضبان لشراء اللحم والحطب والعبيد والذرة والسمن[1].

ويبدو أن التعامل بالنحاس، لم يكن منتشرًا في المنطقة، فقد كان مقتصراً على بلدان تكدا ونواحيها، وكان سعر النحاس مرتفعًا، خارج تكدا إذ تُباع كل مائة مثقال من النحاس بستة وستين مثقالا وثلثي مثقال ذهب[2].

هذا عن البنية الاقتصادية الذي نهض بها مجتمع سوداني بأكمله بمختلف فروعه.

❁ ❁ ❁

(1) - ابن بطوطه، المصدر السابق، ص697 .

(2) - القلقشندي، المصدر السابق، ج5، ص291 .

خاتمة

ختامًا لهذه الدراسة . . فإن الباحث قد توصل إلى عدد من النتائج فى الجانب السياسى والاقتصادى.

1- الجانب السياسى :

1- إن مملكة سنغاى لم تكن القوة الوحيدة فى المنطقة، بل كانت هناك قوى أخرى، هى قبائل الفلان والطوارق والبرابيش.

2- إن أصول عدد من حكام وسكان افريقيا فيما وراء الصحراء، ترجع إلى أصول عربية من اليمن والشمال الأفريقى. وخاصه من ليبيا.

3- إن الملك سنى على هو أقوى شخصية حكمت المنطقة على الإطلاق، من خلال فتوحاته، وتنظيماته الإدارية، وشخصيته القوية، وأن ما نعت به من نعوت ذميمة، مردها إلى أنه لم يلتفت - فى كثير من الأمور - لآراء بعض شيوخ الدين.

4 - إن موت الملك سنى على كان نتيجة مؤامرة، دبرها قائده محمد تورى (أسكيا الحاج محمد).

5 - إن شخصية أسكيا الحاج محمد لم تكن الشخصية المتميزة من بين الشخصيات، التي حكمت المنظقة، وإنما لمع شخصه بفضل عدد من المؤرخين كمحمود كعت محمد بن وعبدالكريم المغيلي، ففي سبيل حصوله على لقب أمير المؤمنين، وظف أتباعه، ليبلغ هدفه، وفى الوقت نفسه قام بإصلاحات متميزة، جعلته أفضل شخصية عمن جاء بعده.

6 - أثبتت الدراسة أن أسكيا الحاج محمد كان على درجة من الحنكة والدهاء، بتقريبه للعلماء، وإشراكهم فى رسم سياسة الحكم؛ للاستفادة من تجربة من سبقه.

7 - إن لقب أمير المؤمنين الذي منح لأسكيا الحاج محمد فى رحلة الحج، لايخرج عن كونه مجرد اعتراف من خليفة القاهرة، أو أمير مكة بولايته على سنغاي.

8 - أظهر البحث أن هناك أحكاماً، اتخذها حكام السودان الغربى، في فترة سنغاى، لاتمت للشريعة الإسلامية بصلة، وهى خرم الأذن، ثم قطعها وعقاب من يمشى بالنميمة.

9 - أبانت الدراسة أن الدية من بين الأحكام التى كان يقضى بها قضاة المنطقة.

10 - أفصحت الدراسة على أن عدداً من حكام سنغاى وعمالهم، كانوا على درجة من الثراء والبذخ الزائد، على حساب الرعية.

11 - توافر لسنغاى جيش قوى استطاع تأديب الخارجين عن طاعته، وله وسائل تمويل بعكس ما ذهب إليه جل المؤرخين، الذين يقولون أن القبائل هى الممول الوحيد للجيش.

12 - إن حركة التوسع التى قام بها أسكيا الحاج محمد، لم تكن كلها تهدف إلى نشر الإسلام، بقدر ماهو مخطط سياسى.

13 - أفادت الدراسة أن لدى ملوك سنغاى سجوناً يمارسون فيها التعذيب.

14 - بينت الدراسة أن هناك انحطاطاً أخلاقياً وسلوكياً فى البيت الحاكم، متمثلة فى أسرة أسكيا الحاج محمد، وإقصائه عن الحكم بطريقة سيئة.

15 - أفصحت الدراسة أن ملوك سنغاى، ابتداءً من أسكيا موسى إلى أسكيا إسماعيل، كانوا ضعافاً.

16 - كشفت الدراسة أن الحضور المغربي قديم بقدم الزمن فى المنطقة.

17 - أماطت الدراسة اللثام على أن نهاية سنغاى لم تكن على يد المغاربة، ولكن مما كانت تعانيه المنطقة من حالة الفوضى والتناحر داخل الأسرة الحاكمة، الذى انعكس بدوره على المحيط الخارجى.

18 - اتضح بجلاء أن التدخل المغربى فى السودان الغربى، كان أحد أسبابه حالة الفوضى التى شهدتها المنطقة، وليس لملاحة تغاز، ولا ذهب ونقارة وبنبوك، فالملح والذهب معروفان لدى المغاربة قبل الدولة السعدية بكثير.

19 - أفادت الدراسة أن ما أقدم عليه السلطان المنصور الذهبى بسرعة التدخل فى السودان الغربى، ينم عن أفق سياسى واسع لأنه لو لم يتدخل لتم الإطباق عليه، من الركن الجنوبى، بعد أن كان الركن الشرقى والغربى شبه مطبق، وبذلك فوت الفرصة على الأعداء، وجعل منهجه وتكتيكه العسكرى منهجاً استفاد منه من جاء بعده.

20 - أظهرت الدراسة أن جلّ آراء السودانيين التى تمكنت من الإطلاع عليها، من خلال المخطوطات القديمة، تعتبر أن الحملة أنقدتهم مما أصابهم من فساد وانحطاط من جراء حكم الأسكيين، بل هناك من اعتبرها جهاداً.

21 - كشفت الدراسة الميدانية للمنطقة أن هناك كثيراً من المغالطات التاريخية، وقعت فيها بعض المصادر السودانية المهمة حول الحملة المغربية على السودان الغربى، مثل محمود كعت.

22 - أثبتت الدراسة أن أحمد بابا التنبكتى كان على علاقة بالبلاط المغربى، قبل مجيئه للمغرب.

23 - أفصحت الدراسة على أن الرسائل السياسية المهمة كانت تكتب فى أوراق صغيرة، حتى يتمكن حاملها من إخفائها.

24 - أظهرت الدراسة الميدانية أن المغاربة شيدوا مقراً لحكمهم فى مدينة تنبكت.

25 - أبانت الدراسة أن هناك ممارسات خاطئة لبعض قادة وجنود الحملة، إلا أن هذه الممارسات لم تكن على علم من السلطان المنصور الذهبى، والدليل على ذلك عزله لمرتكبيها.

26 - توصلت الدراسة إلى أن وفاة عدد من قادة الحملة المغربية فى السودان الغربى، كانت نتيجة لمؤامرات القائد جودر باشا.

27 - أظهرت الدراسة أن وجود المغاربة تركز فى أهم مدن المنطقة تنبكت وجاو واقدز، وسكنوا فى أحياء مازالت أثرها إلى اليوم.

28 - أثبتت الدراسة أن المغاربة عملوا على تطوير المنطقة حضارياً واقتصادياً، وأدخلوا دماء جديدة، اندمجت مع السكان الأصليين، وتقلدوا أرفع المناصب، ومازالوا كذلك بالمنطقة الى يومنا هذا.

29 - أفصحت المعطيات أن قبائل الطوارق من بين الموجات البشرية الأولى، التى قدمت من اليمن، وأن استقرارها فى المنطقة جعلها تختط لنفسها تنظيمات وتقسيمات سياسية واجتماعية محكمة.

30 - كشفت الدراسة أن قبائل الطوارق مثلت ثقلاً سياسياً واقتصادياً واجتماعياً يحسب حسابه، وأن أى مملكة أو إمبراطورية فى المنطقة لاتقوم لها قائمة مالم تكسب ود الطوارق.

31 - أفادت الدراسة من خلال المعطيات أن قبائل الفلان ترجع جذورها إلى جيش القائد العربى عقبة بن نافع الفهرى، الذى وصل إلى نهر النيجر.

32 - أثبتت الدراسة أن لقبائل الفلان تنظيمات سياسية، مكنتها من الاستمرار، وممارسة دورها السياسى فى المنطقة بكثرة غزواتها، حتى أن هناك ممراً فى نهر غمبيا يعرف بممر الفلان، وأن جزءاً من المنطقة يقع تحت رحمتها.

33 - كشفت الدراسة أن قبائل البرابيش لها ثقلٌ سياسىٌ واقتصادىٌ واجتماعىٌ، مكنها فى الاستمرار فى منطقة السودان الغربى بجدارة، وأن عدداً من حكام سنغاى كانوا يبرمون مع زعمائها اتفاقيات حسن الجوار.

34 - أفصحت الدراسة على أن قبائل البرابيش لها تنظيمات وتقسيمات سياسية

واقتصادية وحضارية، داخل أفخاذها، على درجة من الدقة.

35 - ظهر من خلال الدراسة أن ائتلاف أفخاذ البرابيش ائتلاف عرقى، ولم يكن سياسياً، كما يورد عدد من المؤرخين.

36 - بينت الدراسة أن عدداً من أفخاذ البرابيش، لها امتدادات فى المغرب وليبيا.

2 - الجانب الاقتصادى:

37 - أثبت الدراسة خصوبة الراضى وعذوبة المياه فى السودان الغربى، الأمر الذى جعلها تشهد نهضة زراعية ملحوظة بكثرة المزارع الخاصة والعامة، وتنوع منتوجاتها من حبوب وفواكه، ولذلك أسهم المغاربة فى الأخذ بها، وهذ ما أثبتته الوثائق.

38 - اهتمام أهالى المنطقة بالزراعة نلمسه من خلال رسائلهم.

39 - كانت زراعة الكروم موجودة فى المنطقة وخاصة فى مدينة أقدز، وكان قد تم دخولها كانت عن طريق ليبيا.

40 - أوضحت الدراسة انتشار غرس شجرة الزيتون فى المنطقة، وخاصة فى مدينة سهل، وأنها دخلت عن طريق الأندلس.

41 - أفادت الدراسة أن منطقة السودان الغربى كانت تحتوى عل ثروة حيوانية برية ومستأنسة، كان مردها إلى خصوبة المنطقة وكثافة أشجارها.

42 - بيَّن البحث تربع أهالى السودان الغربى على ثروة معدنية متنوعة، فى مقدمتها الذهب والملح.

43 - أثبتت الدراسة ازدهار الصناعة فى المنطقة، وخاصة صناعة النسيج والسفن.

44 - أفادت الدراسة عمق العلاقات الاقتصادية بين السودان الغربى، وأهم المراكز

التجارية بالشمال الأفريقى - المغرب وليبيا.

45 - أبانت الدراسة تنوع السلع المتبادلة بين السودان الغربى والمغرب وليبيا.

46 - توصلت الدراسة إلى كثرة المراكز التجارية على جانبى الصحراء الشمالى والجنوبى.

47 - خلصت الدراسة إلى ازدهار حركة التجارة فى فترة الحضور المغربى بالسودان الغربى، وما أحدثه المغاربة من تشجيع للتجار بضيافتهم فى بيوتهن وتأمين الحماية لهم.

48 - أثبتت الدراسة وجود عملة فى عهد الأسكيين، مكتوب على وجهها الأول عبيد الله، وعلى الوجه الثانى توكلنا على الله.

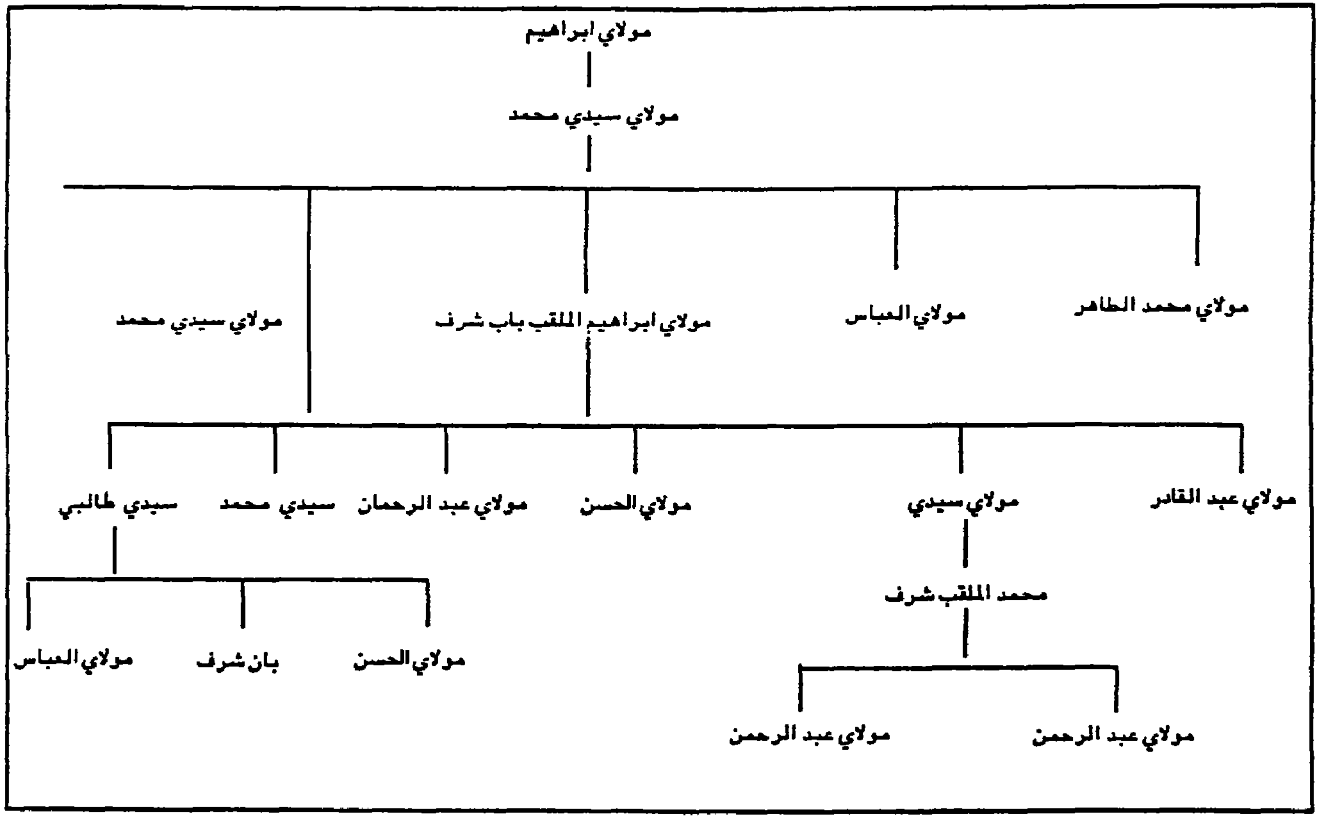
49 - أفادت الدراسة أن العملة المغربية فى عهد السعديين، كانت من ضمن العملات التى يتعامل بها أهالى السودان الغربى.

50 - توصلت الدراسة الى أن وحدة الوزن والطول، التى كانت يتعامل بها أهالى السودان الغربى مغربية الأصل.

وفى الختام نكرر الدعوة إلى إعادة كتاب تاريخ أفريقيا برؤية جديدة وبمنهج تحليلى نقدى استنباطى بعيدًا عن المنهج السردى الذى أخرنا وجعلنا لانستفيد من دراسة التاريخ.

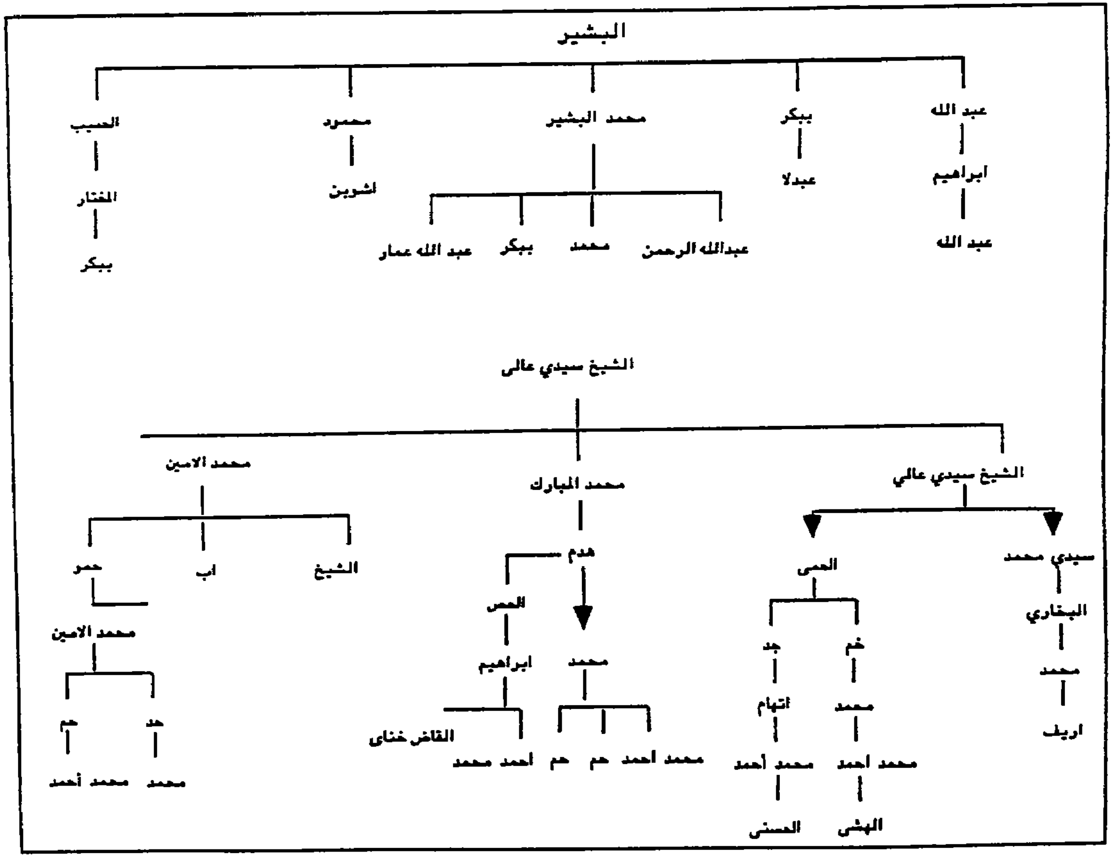
▫ الخرائط والأشكال ▫

شجرة نسب بعض الأمراء الذين تولوا حكم البرابيش



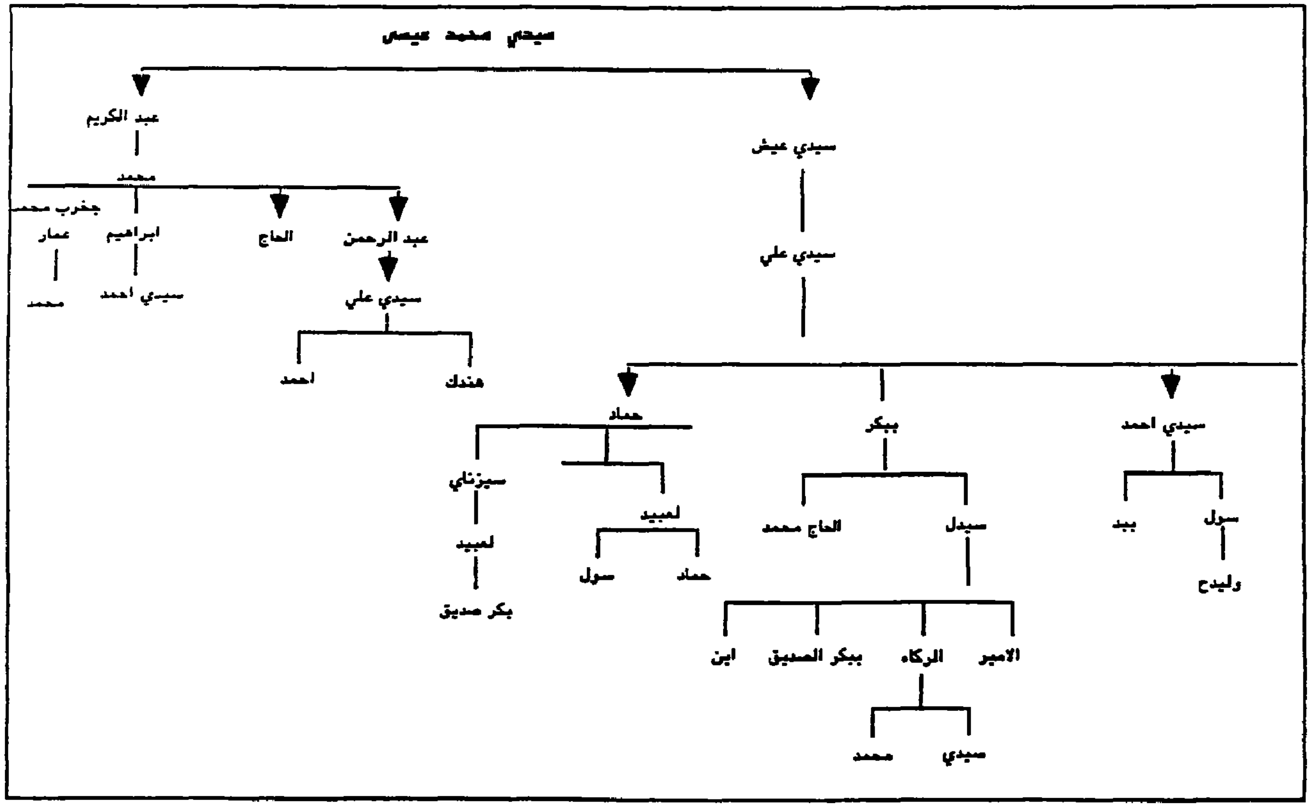
الترجمان ورقة 76

تابع إلى شجرات نسب أمراء البرابيش



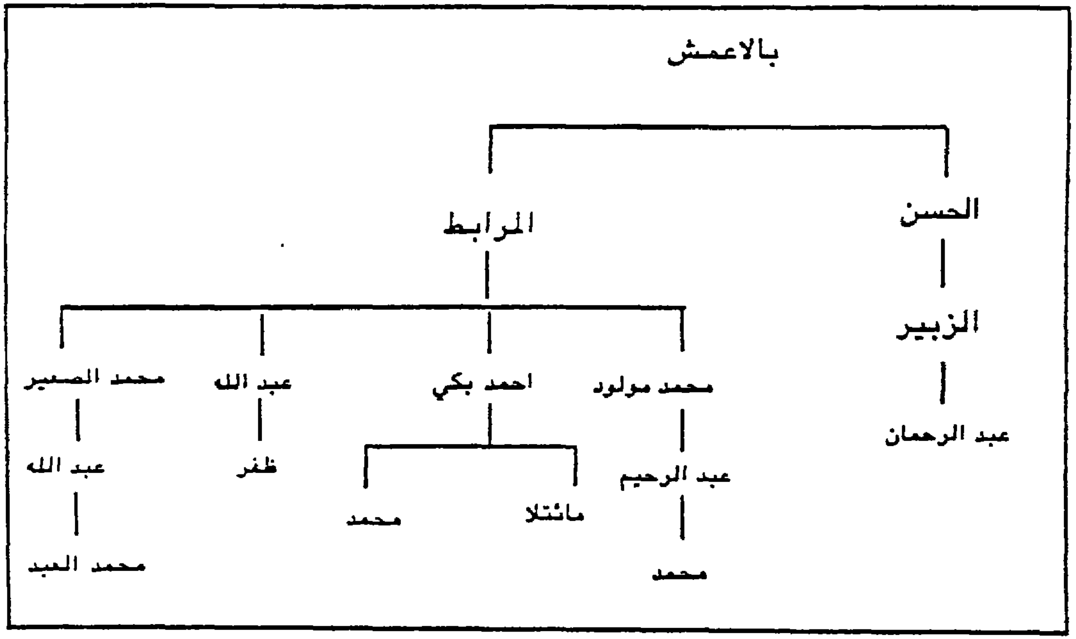
محمود الارواني، الترجمان، مخطوط، ورقة 77

تابع الى شجرات نسب امراء البرابيش   الاحيان



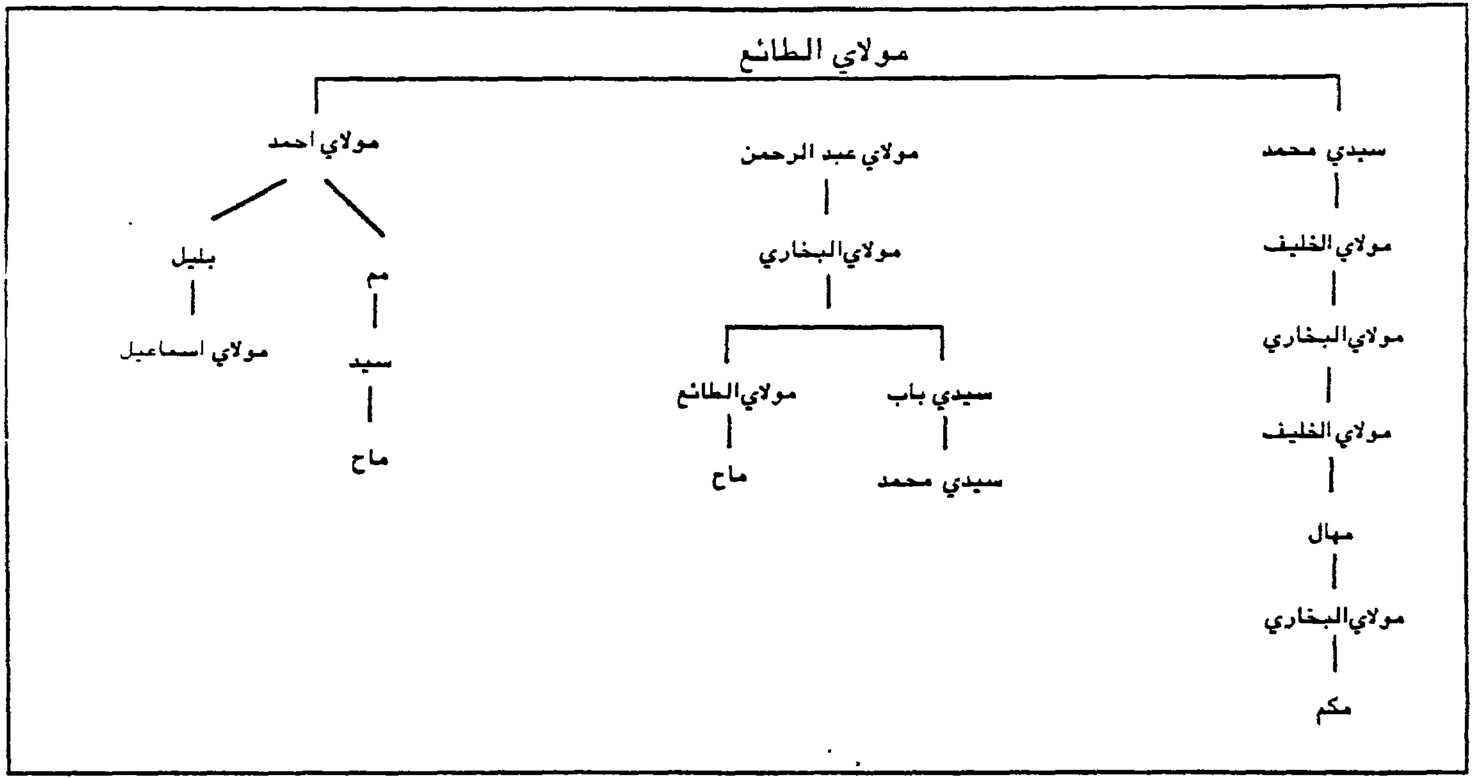
محمود الارواني، الترجمان، مخطوط، ورقة 77

تابع الى لشجرات نسب امراء البرابيش



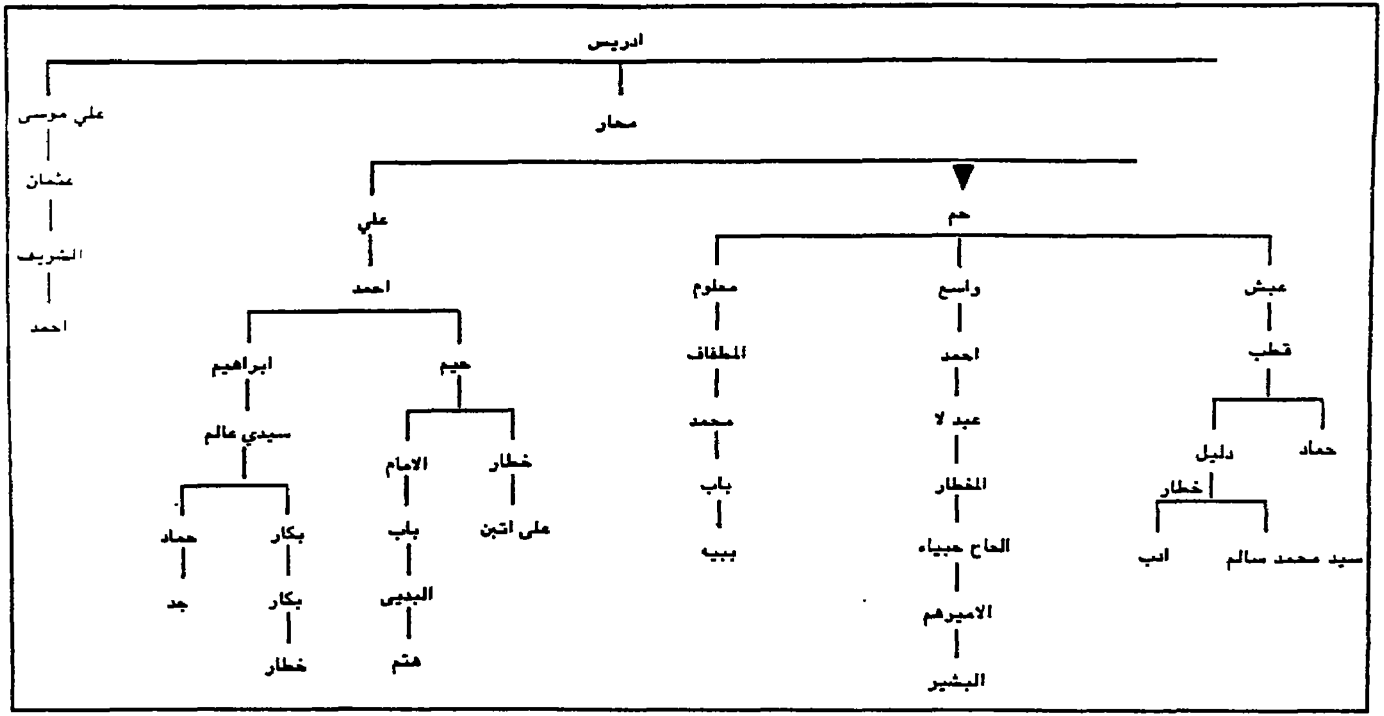
محمود الارواني، الترجمان، مخطوط، ورقة 78

تابع إلى شجرات نسب امراء البرابيش

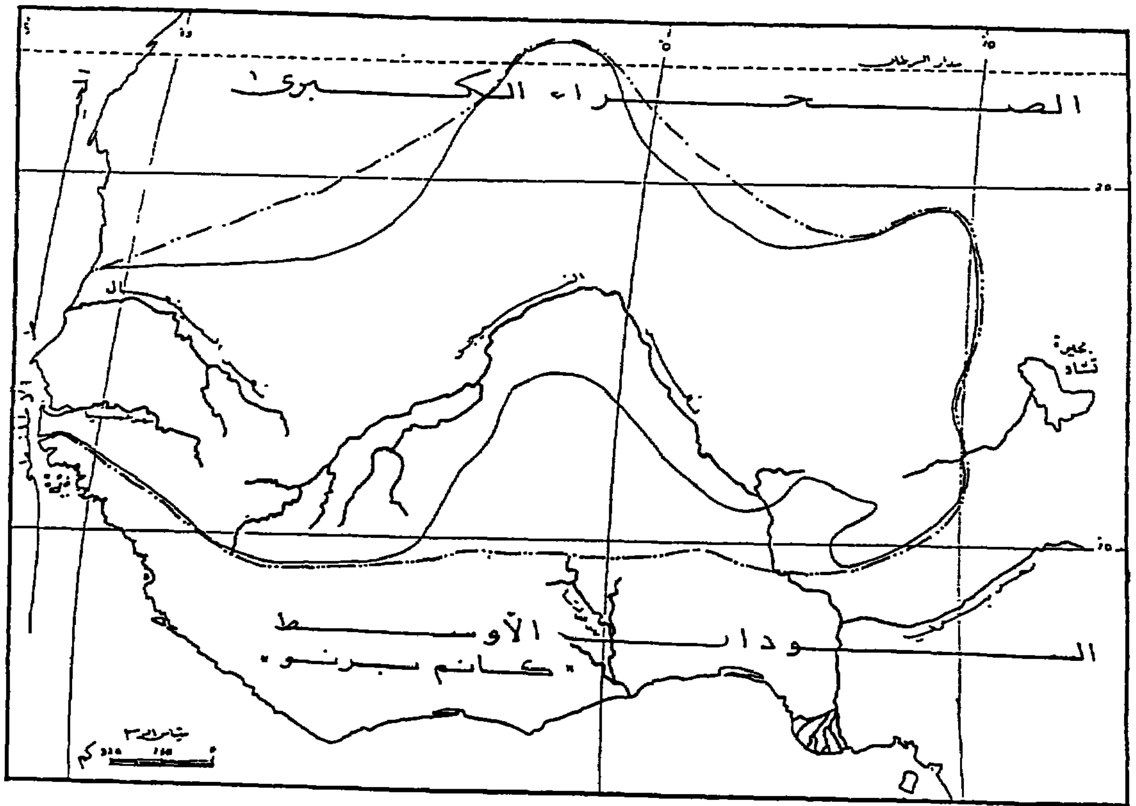


محمود الارواني، الترجمان، مخطوط، ورقة 78

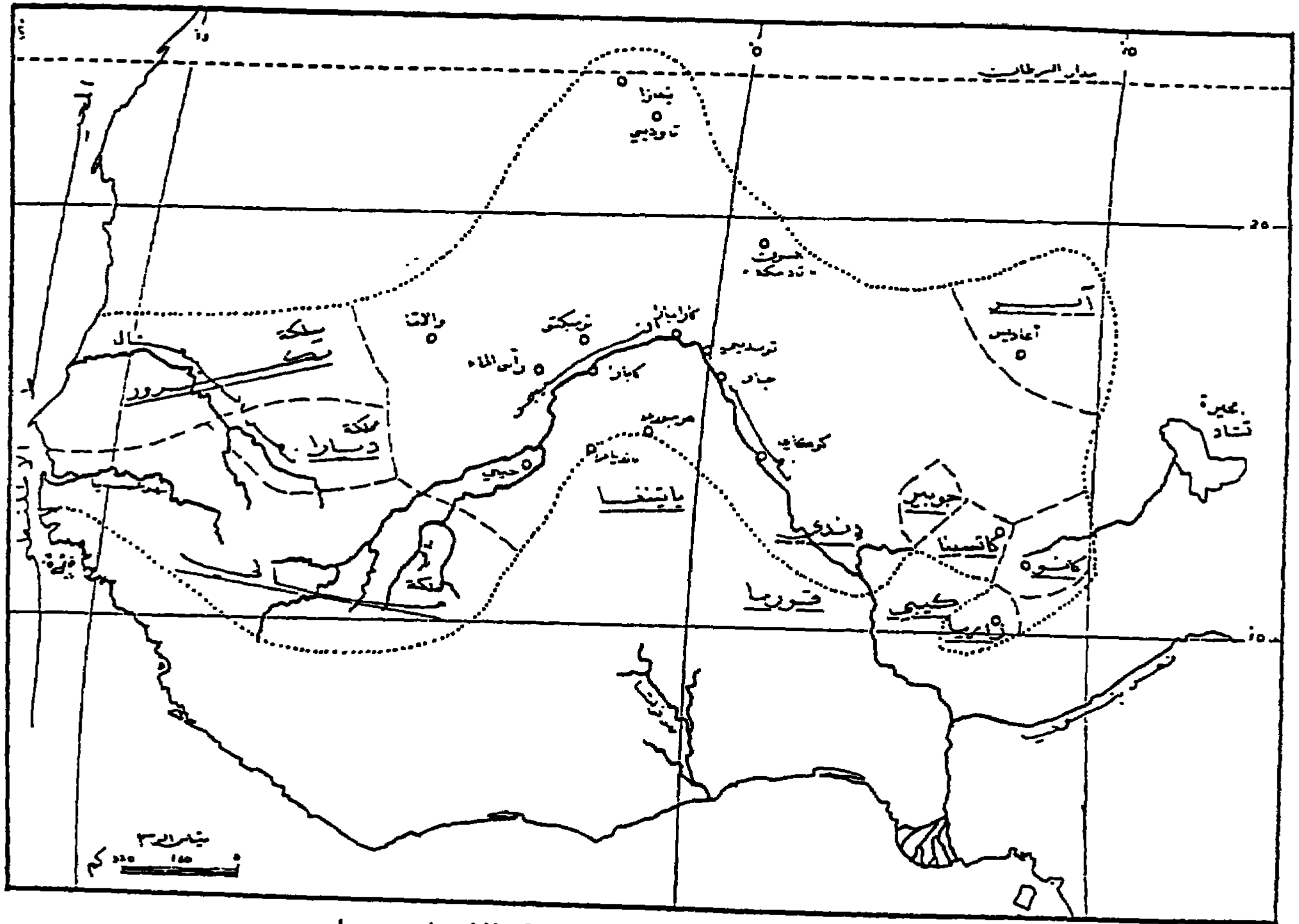
شجرة نسب فخذ اولاد ادريس وهبى فرع من البرابيش



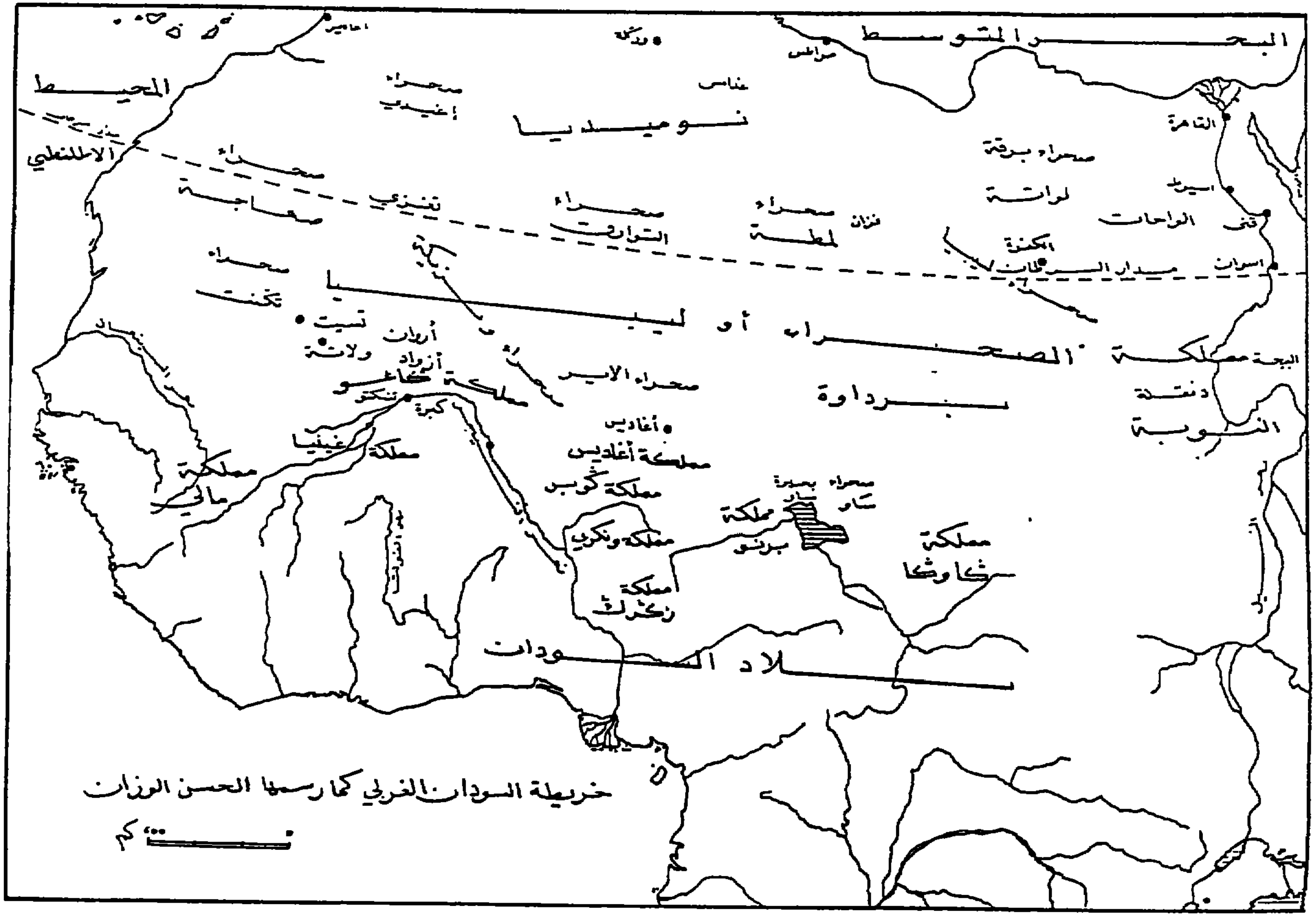
محمود الارواني، الترجمان، مخطوط، ورقة 78



تحديد منطقة السودان الغربي .



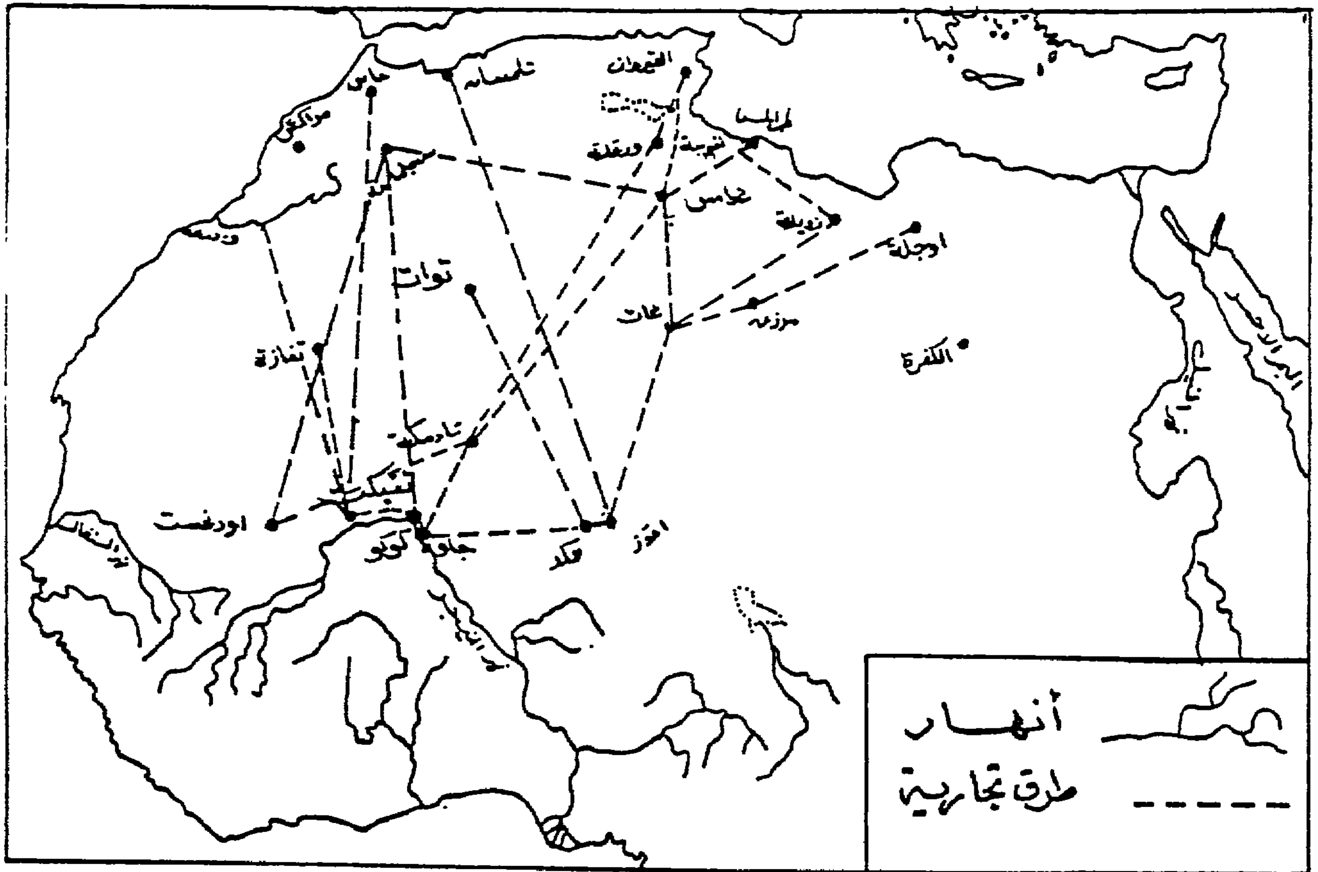
خريطة المنطقة كما حددها Joseph Ki-Zerbo.



خريطة السودان الغربي كما رسمها الحسن الوزان

عن كتاب وصف إفريقيا، الحسن الوزان، الجزء الأول، صفحة 283.

خريطة رقم



الطرق التجارية بين السودان الغربي وشمال افريقيا

▫ المخطوطات ▫

1 - ابن أبى بكر أحمد

رسالة إلى جماعة أبناء محمد بن يوسف **بابطال قطع الأذن.**
مكتبة مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

2 - ابن أبى بكر الشيخ سيدى المختار بن أحمد

فتوى فى جواز بيع، الملح بالطعام مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

3 - ابن أحمد، أحمد البكاى بن محمد المختار

يبعث برسالة إلى قبائل الفلان، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

4 - ابن أحمد عائشة محمد الكشاط بن الحسن بن محمد

وثيقة عقد زواج بنتها، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

5 - ابن أحمد المختار بن محمد بن المختار

نبذة منقولة عن الشيخ الكبير المختار الكنتى حول الطلسم، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

6 - ابن أحمد المختار بن محمد بن المختار

يبعث برسالة إلى أمير المؤمنين الشيخ أحمد ابن أبى بكر ابن سعيد، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

7 - ابن أد عبيد ربه طالبن بن الوافى

اسئلة فقهية، مخطوط، مكتبة الباحث، دون تصنيف.

8 - ابن أيداه المختار

قصيدة فى حق أحمد بابا التنبكتى، عند سفره إلى مدينة مراكش، مكتبة الباحث، دون تصنيف.

9 - ابن بك، سيدى على بن سيدى محمد

الى متيضا بن احمد الغدامسى، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

10 - ابن بوغنو امن

محموعة تواريخ ، مخطوط، مكتبة الباحث، دون تصنيف

11 - ابن الحسن إبراهيم بن مالك

فقهاء تنبكت، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

12 - ابن الحسن محمد بن محمد

جامع فروع العلم، مخطوط مكتبة الباحث دون تصنيف.

13 - ابن حسونة عبدالله

يبعث برسالة تجارية إلى محمد سالم بن عمار، بأرض السودان، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

14 - ابن سهل، أبو زيد

صور الإقليم، مخطوط مصور على مايكرو فيلم بمعهد المخطوطات بالقاهرة، غير مفهرس.

15 - ابن الشيخ محمد بن أحمد

إجازة علمية فى صحيح البخارى صادرة عنه إلى محمد أحمد، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

16 - ابن الصالح عثمان بن محمد بن عثمان المعروف بابن فودى

المسائل العشرة فيما به العمل، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

17 - ابن الطاهر محمد تقى الله بن الشيخ سيدى أحمد

إجازة على قراءة ورش وقالون، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف. .

18 - ابن عب، محمد

يبعث برسالة إلى بن حميد، **بخصوص تجارة بينهم،** مخطوط مكتبة الباحث دون تصنيف.

19 - ابن عب محمود

يبعث برسالة إلى بكار بن ضيل، بخصوص تجارة بينهم، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

20 - ابن عبدالهادى محمد

قصيدة فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، مخطوط مكتبة الباحث دون تصنيف.

21 - ابن العبيد محمد بشير

يبعث برسالة إلى سيدى أحمد بابا بن العباس التنبكتى، **تتناول أحداثاً فى المغرب،** مخطوط مكتبة الباحث دون تصنيف.

22 - ابن فودى عثمان

تنبيه الإخوان على أحوال بلاد السودان، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف. .

23 - ابو فودى عثمان

ضياء الحكام فيما لهم وعليهم من الأذكار، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

24 - ابن فودى عثمان

نور الألباب، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

25 - ابن فودى عثمان

مهمة تحتاج إلى معرفتها أهل السودان مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

26 - ابن فودى محمد بن عثمان

نسب الفلان، مخطوط مكتبة الباحث، دون تصنيف.

27 - ابن لانحاف، أبو القاسم بن محمد بن أبى القاسم،

قصيدة فى التوسل، مكتبة، الباحث دون تصنيف.

28 - ابن ليم جنيد بن محمد البخارى بن أحمد بن غداد

رحلته لأقدز، مكتبة الباحث دون تصنيف.

29 - ابن محمد أحمد

يبعث برسالة إلى الشيخ سيدى المختار بن سيدى محمد، **فى شأن خلاف بين الفلان والتوارك**، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

30 - ابن المختار البكاى بن محمد

رسالة فى فضل التقوى ومضرة الفجور، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

31 - ابن موسى، نوح بن الطاهر أبى بكر،

يبعث برسالة يتحدث عن تاريخ أسقيا، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

32 - ابن مولاى الشريف اسماعيل

الأنيس المطرب فيمن لقيته من أدباء المغرب، مخطوط مكتبة الباحث دون تصنيف.

33 - ابن مولود، محمد

فتوى فى شأن عادة أهل ولاته فى الزواج، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

34 - ابن يوسف أحمد بن أحمد بن عبدالعزيز بن الحسن

الأنوار الحسنية فى نسب من سجلماسة من الأشرف المحمدية، مخطوط مكتبة الباحث دون تصنيف.

35 - أبو حامد محمد بن عبدالرحمن

عجائب البلدان، مخطوط مصور على مايكروفيلم بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة، رقم 36، جغرافيا.

36 - الأروانى، أبو الخير بن عبدالله،

نبذة من تاريخ أروان، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

37 - الأروانى أحمد بابير

الجواهر الحسان فى أخبار السودان، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

38 - **الأرواني أحمد بابير**

الجواهر الحسان في عقائد الإيمان، مخطوط مكتبة الباحث دون تصنيف.

39 - **الأرواني أحمد بابير**

السعادة الأبدية في التعريف بعلماء تنبكت البهية، مكتبة الباحث دون تصنيف. .

40 - **الأرواني محمود،**

مسألة بيع الأحرار الذي شاع في البلدان، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

41 - **الأرواني ، محمد محمود**

الترجمان في تاريخ الصحراء وأروان، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

42 - **الهادي بن الشيخ بن الأمام إسحاق،**

يبعث برسالة تجارية إلى سيدي أحمد زروق، مكتبة الباحث دون تصنيف.

43 - **أقيت محمد بن عمر**

حاشية القومية على شرح الأجرومية، مخطوط الخزانة الحسنية، رقم 7536.

44 - **أندغ محمد المختار بن القاضي**

قصيدة يمدح فيها السوقيين، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

45 - **الأوجلى، محمد الصالح عبدالرحمن بن سليم**

المزيد العائد على النظم المسمى دليل القائد، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

46 - **الأيسي، عبدالله بن يوسف بن إبراهيم بن عمر**

يسأل أحمد بابا التنبكتى مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

47 - **بابا أحمد**

اللالى السندسية فى الفضائل السنوسية، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، ضمن مجموع مجلد، رقم 108.984م 1326 ب.

48 - **باغو إبراهيم**

مسائل فقهية، مخطوط، مكتبة الباحث، دون تصنيف.

49 - **البر كوى محمد**

تاريخ مينو مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

50 - **البرمونى، كريم الدين**

مناقب عبد السلام الأسمر، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

51 - **البغطورى مقرين بن محمد**

سيرة أهل نفوسه، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

52 - **بغيغ محمود**

جواهر الإحسان فى دعوة الإخوان، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

53 - **بغيغ محمد محمود**

فتوى بخصوص الإفطار فى شهر رمضان، مخطوط مكتبة الباحث دون تصنيف.

54 - **بكدا، لامن بن أحمد**

تاريخ أقدز، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

55 - **البلبلى الحاج محمد بن أحمد بن أبى بكر**

رسالة تجارية يبعث بها إلى عثمان بن الحاج محمد بن أعلى، مخطوطة، مكتبة الباحث دون تصنيف.

56 - **التكرورى مود سالم سوار**

قصيدة فى مدح عدالقادر الجيلانى، مخطوط مكتبة الباحث دون تصنيف.

57 - **التكنى أحمد بلعراف**

أهمية التاريخ وإزالة الريب والتفريط فى ذكر المؤلفين من التكرور، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

58 - **التنبكتى ابن القاسم**

يبعث برسالة تجارية، يتحدث فيها عن **معادن السودان الغربى، مخطوط**، مكتبة الباحث دون تصنيف.

59 - **التنبكتى ابو سالم عبدالله بن محمد بن أبى بكر**

رحلته للأراضى المقدسة، مكتبة الباحث دون تصنيف.

60 - **التنبكتى، أبو عبدالله أحمد بابا الأمين**

المنح الحميدة فى شرح الفريدة، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

61 - التنبكتي أحمد بابا

الكشف والبيان لأصناف مجلوب السودان، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

62 - التنبكتي عبدالله بن سيدى فال

قصيدة فى مدح المنصور الذهبي، عند مقدم جيشه للسودان، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

63 - التنبكتي محمد بن محمد بن الحسن

كتاب في الإمامة والمعاملات اليومية، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف..

64 - التنواجيوى، محمد السالك بن خي

فؤاد من غابر الأخبار فى تاريخ الدول وأصول الأنساب، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

65 - التواتى، عبدالرحمن عمر

فهرسة لأشياخه، مخطوط، مكتبة الباحث.

66 - الجكنى الشيخ عبدالقادر

سلاطين برنو، مخطوط، مكتبة الباحث.

67 - الحضيرى، عثمان بن على،

مساجد أقدز، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

68 - الحيونى أحمد بن القائد عبدالمالك

يبعث برسالة إلى سيدى الوافى ابن طالبن فى **حكم معدن تودني**، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

69 - الذهبى أحمد المنصور

يبعث برسالة إلى عامله على السودان، إلى السلطان منصور الذهبى (أعتقد أنه عبدالرحمن على امبارك الدرعى) مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

70 - رقية، بنت

تبعث برسالة إلى زوجها الحاج عبدالله بن الحاج الصالح الوغلانى، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

71 - السعدى، موسى بن أحمد

زهور البساتين فى تاريخ السوادين، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

72 - سعيد، الأمير حامد بن الشيخ أمير المؤمين الإمام أحمد بن محمد أبن بكر

يبعث برسالة إلى سيدى بن هنون أمير أولاد علوش، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

73 - السوقى عبيد الله عبدالكريم بن الصالح بن ابا محمد بن أحمد

الزهد، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

74 - السيوطى محمد بن عدالرحمن

يبعث برسالة لأحد علماء التكرور، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

75 - الشماخى، أبو العباس أحمد بن سعيد بن عبدالواحد

كتاب السير، طبعة حجرية، القاهرة: المطبعة البارونية 1889.

76 - الطرابسلى بوجمعة

يبعث برسالة إلى أحمد بابا التنبكتى، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

77 - عبداللطيف محمد عبدالرحمن

أمراء دولة الملثمين، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

78 - عمر بن محمد بن أبى بكر بن محمد

شهادة على دفع دية، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

79 - عمر، عائشة بنت محمد الشطاخى ابنت مسعودة

وثيقة عقد زواجها، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

80 - علي، عبدالله بن الحسن

تحفة الأصحاب والرفقة ببيع مسائل بيع الصفقة، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

81 - الغدامسى. صالح، والمختار بن حمد

يبعث برسالة تجارية إلى سيدي الوافي، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

82 - الغدامسي، عين بن أحمد

يبعث إلى السيد جعفر فى السودان، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

83 - الغلاوى، أبو عبدالله المصطفى بن أحماد بن عثمان بن مولود

النوازل، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

84 - الفاسى حمد والشان

يبعث برسالة تجارية إلى وكيله بالسودان أشرف حامد، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

85 - الفاسى عبدالقادر بن على يوسف

اجازة علمية صادرة عنه إلى أبى بكر بن محمد بن محمد الشهير بثات التنبكتى، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف

86 - الفاسى محمد

إجازة علمية، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

87 - الفزاني عثمان بن علي بن أبى بكر الحضري

مخطوط، مكتبة محمد الحضيرى بأقدز.

88 - الفلانى سعيد بن سعيد بن الحاج عبدالرحمن إسماعيل بن محمد كورد

يبعث برسالة إلى الإمام أحمد بن محمد بن أبي بكر بخصوص أحباس مساجد تنبكت، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

89 - الفلانى محمد عبدالرحمن عبداللطيف

الطوارق شعب الصحراء، مخطوط، .مكتبة محمد سعيد القشاط بطرابلس، دون تصنيف.

90 - فودي، عبدالله بن محمد

ضياء التاويل فى معانى التنزيل، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم 1976.

91 - الكنتى محمد المختار بن أحمد

الطرائف والتلائد فى كرامات الشيخين الوالد والوالدة، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

92 - لامة بن أحمد،

تاريخ أقدز - مخطوط ، مكتبة الباحث دون تصنيف.

93 - مجهول

أصل سلطنة برنوح، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

94 - مجهول

تاريخ ازواد فى خبر البرابيش، وحروبهم مع هكار واندنان، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

95 - مجهول

تاريخ أكدز، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

96 - مجهول

تاريخ أكدز والطوارق، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

97 - مجهول

تذكرة النسيان، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

98 - مجهول

تراجم علماء باغرام، دار معمر القذافى لجمع التراث العربي الإفريقي، عربية دون تصنيف.

99 - مجهول

جوامع التواريخ، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

100 - مجهول

حديقة البستان على تواريخ أروان، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

101 - مجهول

جواهر الحسان، فى أخبار السودان، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

102 - **مجهول**

جواهر الحسان في تاريخ أروان، مخطوط مكتبة الباحث دون تصنيف.

103 - **مجهول**

خبر السوق، مكتبة مكتبة الباحث دون تصنيف.

104 - **مجهول**

درر الحسان في أخبار السودان، مكتبة الباحث دون تصنيف.

105 - **مجهول**

رسالة إلى نوح بن الطاهر بن أبي بكر بن موسى، مخطوط **يتحدث عن تاريخ أسكيا،** مكتبة عبدالقادر التبين بأقدز، دون تصنيف.

106 - **مجهول**

رسائل تتناول أسعار العبيد لعدة اشخاص، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

107 - **مجهول**

رسائل إلى أمير سوسى بالمغرب **حول بعض المسائل التجارية،** مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

108 - **مجهول**

رسالة إلى محمد بن أحمد بابا التنبكتى، **نصح وإرشاد،** مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

109 - **مجهول**

رسالة فى فضل التقوى ومضرة الفجور، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

110 - **مجهول**

رسالة من أعيان تنبكت من بيضان وسودان إلى أمير المؤمنين أحمد بن الشيخ، لرسالة، عبارة عن شكوى، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

111 - **مجهول**

رسالة من جماعة تنبكت البيضان والسودان إلى أمير المؤمنين الإمام أحمد بن الشيخ بن أحمد بن الفلانى، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

112 - **مجهول**

رسالة من جماعة الفلان الذين في تنبكت، وخصوصاً الأمير كاوور إلى جماعة تنكير بكيف عموماً، وخصوصاً أواب وقندام، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

113 - **مجهول**

رسالة لأسكيا محمد، مخطوط بخصوص قوافل الملح، مكتبة الباحث دون تصنيف.

114 - **مجهول**

سلسلة القادرية، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

115 - **مجهول**

سؤال من أحد علماء السودان الغربى، موجهاً إلى طالبين ابن سيدى الوافى بن محمد بن أحمد بن آد بخصوص بعض الممارسات المشينة، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

116 - **مجهول**

فتاوى فقهاء السودان، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

117 - **فقهاء تنبكت**، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

118 - **مجهول**

غرر المسائل أسئلة علماء جازولة، أخذت من باب الجعل والاجازات والأكرية والموزعة والمغارسة، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف، وهناك نسخة بالخزانة العامة بالرباط، رقم 725.

119 - **مجهول**

فتوى حول بيع الكتب، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

120 - **مجهول**

مخطوط **في الطب**، مكتبة الباحث دون تصنيف.

121 - **مجهول**

ملح السلطان، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

122 - **مجهول**

نبدة من تاريخ جنى المكتبة الوطنية بنيجيريا.

123 - **مجهول**

نوازل علماء السودان، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

124 - **المحجوبي، أبو بكر بن أحمد المصطفى**

منح الرب الغفور في ذكر ما أهمل صاحب فتح الشكور، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

125 - **المراكشى أبو العباس أحمد بن البناء الأزوي**

مكتبة فى شهور السنة على حساب العجم، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

126 - **مرحبا، محمد محمد المفتي**

فتح الحنان المنان بجمع تاريخ بلاد السودان، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

127 - **مرحبا محمد محمد المفتى**

التاريخ الخاص بالتوتر، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

128 - **المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسن:**

أخبار الزمان ومن أباده الحدثان وعجائب البلدان، مخطوط، فى مجلد 879 بالهيئة العامة للكتاب.

129 - **المضاع أحمد بن إبراهيم**

يبعث برسالة تجارية إلى سيدى الوافي عبدالله مخطوط، مركز أحمد بابا التنبكتى، إلى سيدى الوافي عبدالله مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

130 - **المغربى إسماعيل إبراهيم وسيدى محمد بن امهد**

رسالة مشتركة إلى احمد بابا بن ابي العباسى التنبكتى مخطوط، دار معمر القذافى لجمع التراث العربى الأفريقى بجاور، دون تصنيف.

131 - **المغيلي**

محمد عبدالكريم، **منح الوهاب فى رد الفكر** دار معمر القذافى لجمع التراث العربى الإفريقى بجاور، دون تصنيف.

132 - **المغيلي**

محمد عبدالكريم، **قصيدة بشراك ياقلبى**، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

133 - **المقدس عبدالرحمن**

السعادة لمن أراد ا لحسنة والزيادة، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

134 - **المنساوي، سيدي محمد بن أحمد**

الفتاوي، مخطوط. معهد الدراسات الإفريقية بالرباط، دون تصنيف.

135 - **منصور الباشا**

يبعث برسالة إلى عامله على السودان (أعتقد أنه عبدالرحمن على الدرعي) مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

136 - **النهروالي محمد قطب الدين بن أحمد علاء الدين بن أبى محمد شمس الدين بن حميد الدين قاضي كان بن بهاء الدين محمد بن يعقوب ابن حسن بن علي.**

إجازة في اسانيد أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، صادرة عنه إلى الحاج إبراهيم بن عبد الرحمن التكرورى الجنوبي، منحت فى الأراضى المقدسة عام 988 هـ / 1580 م مكتبة الباحث، دون تصنيف.

137 - **الهادي، سيدى مولاي محمد الهما**

الحقوق الاجتماعية للعبيد، **مخطوط**، مكتبة الباحث، دون تصنيف مكتبة الباحث.

138 - **الهماد جلال الدين محمد بن**

كتاب نصيحة الأمة في إثبات حكم الرخصة، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

139 - **الودادي أحمد بن عبدالله**

يبعث برسالة إلى البكاي، **يذكره بأمر ريال جش الى تنبكت،** مخطوط، المكتبة الوطنية بالجزائر، رقم 660.

140 - **الودلوى أحمد بن عبدالله**

يبعث برسالة إلى البكاي، يذكره بأمر إرسال جيش إلى تنبكت، مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف.

141 - **الورجلاني**

أبو زركيا يحي ابن ابي بكر، **السير وأخبار الأئمة**، مخطوط دار الكتب المصرية، رقم 9020، ج1

142 - **الولاتي انبوي عبدالرحمن بن محمد بن الطالب عبدالرحمن ابن محمد بن أحمد الولى المحجوبي**

نوازل انبوى، مخطوط، معهد الدراسات الإفريقية بالرباط، دون تصنيف.

المصادر

القرآن الكريم - مصحف الجماهيرية - رواية قالون عن نافع المدنى.

1 - ابن الأبار محمد بن عبدالله بن أبى بكر القضائي.

المعجم فى اصحاب القاضي الإمام أبي على الصدفي، مجريد: مطبعة، وخسن 1885م.

2 - ابن بطوطة، أبو عبدالله محمد بن إبراهيم اللواتي

رحلة ابن بطوطة، بيروت دار صادر، دون تاريخ.

3 - ابن حوقل، أبو القاسم النصيبى

كتاب صورة الأرض، بيروت، دار مكتبة الحياة 1979 م.

4 - ابن خرداذبة ابو القاسم عبد بن أحمد

المساك والممالك، ليدن 1976.

5 - ابن خلدون عبدالرحمن

العبر وديوان المبتدأ والخبر، بيروت، مؤسسة جمال الدين للطباعة والنشر 1979.

6 - ابن عبدالحكم

فتوح البلدان والأندلس، نشر النص العربي والترجمة الفرنسية، البرت جانو 1948 م.

7 - ابن عبدالكريم، عبدالرحمن بن عبدالله

فتوح مصر والمغرب، تحقيق عبدالمنعم عامر، طبعة البيان 1961 م.

8 - ابن عمر، عماد الدين إسماعيل محمد

تقويم البلدان، باريس دار الطباعة السلطانية 1850 م.

9 - ابن عمر، عمر بن مظفر

فريدة العجائب وفريدة الغرائب، لندن، 1822

10 - ابن غليون أبو عبدالله محمد

التذكار فيمن ملك طرابلس وماكان بها من الأخبار، ط : 2 تحقيق وتعليق الطاهر الزاوى، مكتبة النور 1967.

11 - ابن كثير، أبو الفداء الحافظ

البداية والنهاية، بيروت: مكتبة المعارف 1966م.

12 - ابن فرحون، برهان الدين إبراهيم بن على بن محمد

كتاب الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب، بيروت: دار الكتب العلمية دون تاريخ.

13 - ابن فُرْطُو، احمد

كتاب غزوات السلطان إدريس الوما فى برنو (1564 - 1576)، حققه وعلق عليه وترجمه إلى الإنجليزية ديريك لانجى، الناشر فرانز شتينر شتوتغارت 1984.

14 - ابن فودي، عبدالله بن محمد

ضيا السياسات وفتاوى **النوازل**، تحقيق أحمد محمد كانى، الزهراء للإعلام العربى 1988 م.

15 - ابن فودى محمد

إنفاق الميسور فى تاريخ بلاد التكرور مكتو: الناشر الحاج طن اغى طايير يرو 1964 م.

16 - ابن موسى، أبو الحسن على

كتاب بسط الأرض في الطول والعرض التحقيق حفرات قرنيط خينيس، تطوان 1958.

17 - ابن موسى، أبو الحسن علي

كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربى، بيروت 1970.

18 - أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن على بن جمال الدين بن محمد ابن محمد

المختصر فى تاريخ البشر، مصر 1325.

19 - الأتابكى، جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية 1935، الجزء الخامس.

20 - الأسمر، عبدالسلام

الوصية الكبرى، طرابلس: مكتبة النجاح دون تاريخ.

21 - الأصطخرى أبو إسحاق الفارسى،

المسالك والممالك، ليدن 1906.

22 - الأصطخري ، الشيخ ابي أسحاق الفارسى

كتاب الأقاليم، ط مولد 1829م.

23 - **الأنصارى أحمد بك النائب.**

كتاب المنهل العذب في تاريخ طرابلس المغرب، طرابلس، مكتبة الفرحاني.

24 - **الباروني، سليمان**

كتاب الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الأباضية، تونس أبو سلامة للطباعة والنشر والتوزيع 1986.

25 - **البرتلى، أبو عبيد الله الطالب محمد بن أبي بكر الصديق الولاتي**

فتح الشكور فى فى معرفة أعيان علماء التكرور، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني ومحمد حجى، بيروت: دار الغرب الإسلامى 1981.

26 - **البكري أبو عبيد**

كتاب المسالك والممالك، حققه وقدم له أدريان فإن اليؤفن وأندري فيرى، تونس: الدار العربية للكتاب 1992.

27 - **التنبكتي، أبو العباس سيدي بن عمر بن محمد بن اقيت بابا**

نيل الابتهاج بتطريز الديباج، إشراف وتقديم عبدالحميد الهرامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، دون دار نشر 1989.

28 - **التونسي – محمد بن عمر**

تشحيد الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان، تحقيق خليل عساكر، ومصطفى محمد سعيد، مراجعة مصطفى زيادة، الدار المصرية للتأليف والنشر 1965.

29 - **الجاحظ ، عمر بن بحر**

كتاب فخر السـودان على البيضـان، رسائل الجاحظ، القاهرة: 1906م.

30 - الجزريى شمس الدين أبو الخير محمد بن محمد

غاية النهاية في طبقات القراء بعناية ج. برجشتراسر. القاهرة: مكتبة الخانجى 1933 م.

31 - الجزنائي ، علي

جنى، زهرة في بناء مدينة فاس الرباط: المطبعة العلمية، دون تاريخ.

32 - الحسني، أبو عبيد الله بن محمد بن عبدالله بن إدريس الحموى المعروف بالشريف الإدريسي،

كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، بور سعيد: مكتبة الثقافة الدينية، دون تاريخ.

33 - الحكيم، الحسن على يوسف

الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة، تحقيق حسين مؤنس، مدريد: 1960 م.

34 - الحموى، شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت.

معجم البلدان، بيروت دار صادر 1979.

35 - الحميرى، محمد عبدالمنعم

بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، ط ك 2 القاهرة: 1963.

36 - الحنفي، محمد بن أحمد،

الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة 1963.

37 - الحنبلي، أبي الفلاح عبدالحى بن العماد

شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت: المكتب التجارى للطباعة والنشر والتوزيع، دون تاريخ.

38 - الخطيب، لسان الدين

اعمال الإعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، وما يجر ذلك فى مجموع الكلام.

39 - الخطيب، لسان الدين

معيار الاختيار فى ذكر المعاهد والديار، نشر وتحقيق أحمد مختار العبادى، جامعة الإسكندرية 1958 م.

40 - السعدي، عبدالرحمن

تاريخ السودان، باريس: نشر هوادس وبنوه 1964 م

41 - السخاوي، شمس الدين محمد عبدالرحمن

الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، دون تاريخ.

42 - السيوطى، عبدالرحمن بن أبي بكر

الحاوي للفتاوي، القاهرة: مكتبة القدسى 1351 هـ.

43 - السيوطى، عبدالرحمن جلال الدين،

الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير، بيروت: دار الفكر، دون تاريخ.

44 - الشفشاوني، محمد بن عسكر الحسيني،

دوحة الناشر، تحقيق محمد حجي، الرباط: دار الغرب للتأليف والترجمة والنشر، 1976.

45 - **الشنقيطي، أحمد بن امين**

الوسيط في تراجم أدباء شنقيط ط : 2 بعناية فؤاد سيد، القاهرة: مطبعة السنة المحمدية 1958 م.

46 - **العسقلانى، شهاب الدين أحمد بن حجر**

الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، حققه وقدم له ووضع فهارسه محمد سيد جاد الحق ط : 2 القاهرة: دار الكتب الحديثة 1966 م.

47 - **العمري، أحمد بن يحيى بن فضل الله**

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق وتعليق مصطفى أبو ضيف أحمد، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة 1988م.

48 - **الفاسى، على أبي زرع**

الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك وتاريخ مدينة فاس، الرباط: مطبعة دار المنصور للطباعة والوراقة 1973م.

49 - **الفاسي، محمد المهدي**،

ممتع الأسماع في الجزولي العمري وعبدالكريم مراد، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة 1994.

50 - **الفجيجي، أبى القاسم محمد بن عبدالجبار**

الفريد في تقييد الشريد وتوصيد الوبيد، تقديم وتحقيق عبدالهادي التازي، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة 1983م.

51 - **الفشتالى، أبو فارس عبدالعزيز**

مناهل الصفاء في مآثر موالينا والشرفاء، دراسة وتحقيق عبدالكريم كريم، الرباط: وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية 1972م.

52 - القزويني، زكريا بن محمد بن محمود

آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت: دار صادر، دون تاريخ.

53 - القلقشندي أبو العباس، أحمد بن على

صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، القاهرة:

54 - القيرواني، محمد بن أحمد نقيم

طبقات علماء أفريقية وتونس، تقديم وتحقيق على الشابي ونعيم حسن اليافى، تونس: الدار التونسية للنشر 1968.

55 - ريشارد هن، جيمس،

ترحال فى الصحراء من 1845- 1846، ترجمة الهادي مصطفى أبو لقمة، منشورات جامعة قاريونس 1993.

56 - كرنجال، مارمول

أفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد ونيبر وآخرون، الرباط: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع 1984.

57 - كعت، محمود

تاريخ الفتاش في اخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس، باريس: نشر هوداس وبنوه 1964م.

58 - مجهول

الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول الدار البيضاء: دار النشر المغربية 1985.

59 - مجهول

الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار وعبدالقادر زمامة، الدار البيضاء: مطبعة الرشاد الحديثة 1979 م.

60 - **مجهول**

تذكرة النسيان، باريس: نشرة هوادس 1966.

61 - **المراكشى ابن عذارى**

البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة ج س كولان، اليفي بروفناس ن، ط: 3 الدار البيضاء: الدار العربية للكتاب 1983 م.

62 - **المراكشى، عبدالواحد**

المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، القاهرة: 1963 م.

63 - **المغربي، أبو الحسن علي بن سعيد**

كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل المغربي، بيروت، مطبعة المكتب التجارى للطباعة والنشر 1970 م.

64 - **المغيلي، محمد بن عبدالكريم**

أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي، تحقيق عبدالقادر زباديه، الجزائر، 1974.

65 - **المغيلي، محمد بن عبدالكريم**

مصباح الأرواح في أصول الفلاح، تقديم وتحقيق رابح بونار، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتزيع 1968م.

66 - **المقدسي، شمس الدين أبى عبد الله محمد بن عبد الله أحمد ابن أبى بكر**

أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، ص: 2 لندن 1906م.

67 - المقريزي، تقي الدين أحمد على

الذهب المسبوك فى ذكر من جح من الخلفاء والملوك، تحقيق جمال الدين الشيبال، القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر 1955م.

69 - المقريى، أحمد بن محمد

روض الأس العاطر في ذكر من لقيه من أعلام الحضرتين مراكش وفارس، ط: 2 1983م. تحقيق عبدالقادر زباديه، الجزائر، 1974.

70 - الملكي، أبو محمد عبدالله ابن أسعد على بن سليمان عفيف الدين اليافعي اليمني

مرآة الجنان وعبر اليقضان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، حيدر أباد، الداكن، 1331.

71 - الناصري ، أبو العباس أحمد بن خالد

الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق جعفر الناصرى ومحمد الناصرى، الدار البيضاء: دار الكتاب 1955 ج5.

72 - الوزان ، الحسن

وصف أفريقيا، ط. 2 ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، بيروت: الرباط: دار الغرب الإسلامى والشركة المغربية للناشرين المتحدين 1983.

73 - الوفراني ، محمد الصغير

نزهة الحادى بأخبار ملوك القرن الحادي، الرباط ط 2، دون تاريخ.

74 - البرموني، كريم الدين،

كتاب تنقيح روضة الأزهار ومنية السادات الأبرار في مناقب سيدي عبدالسلام الأسمر، بيروت، المكتبة الثقافية، دون تاريخ.

75 - **اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب**

تاريخ اليعقوبي، حققه محمد صادق، 3 أجزاء، بيروت: دار العراق 1955 .

76- **اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب، كتاب البلدان، ملحق بكتاب ابن رسنة الأعلاق النفسية، ليدن: 1891 م.**

المراجع

المراجع العربية :

1 - إبراهيم محمد عبدالفتاح

الثقافات الإفريقية، القاهرة .1965

2 - إبراهيم محمد عبدالفتاح

افريقيا من السنغال الى نهر جوبا، القاهرة؛ مكتبة الأنجلو المصرية، 1961م.

3 - بن عبدالله عبدالعزيز

الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية معلمة لصحراء ملحق : الرباط : مطبعة فضالة، 1976.

4 - أرنولد، توماس،

الدعوة إلى الإسلام، ط : 3، ترجمة حسن إبراهيم حسن وعبد المجيد عابدين، القاهرة: دار مكتبة النهضة المصرية، 1970.

5 - أسير، أمين،

إفريقيا والعرب، بيروت: دار الحقائق 1980.

6 - الألورى آدم عبدالله

الإسلام في نيجيريا، ط، 3، 1978م.

7 - الألورى آدم عبدالله

موجز تاريخ نيجيريا، بيروت دار مكتبة الحياة، 1965م.

8 - أوليفر دولاند وجون فيج

موجز تاريخ إفريقيا، ترجمة دولت وأحمد صادق، مراجعة: محمد السيد غلاب، مطابع كوستالوسي ومشاركاه ، 1965م.

9 - بوفيل

تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير، ط 2 جامعة قاريونس، 1988 م.

10 - التازى عبدالهادى

الموجز في تاريخ العلاقات الدولية للملكة المغربية، الرباط: مطبعة المعارف الجديدة، 1973 م.

11 - التازى عبدالهادى

التاريخ الدبلوماسى للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم، المحمدية: مطابع فضالة، 1988، المجلد السابع.

12 - جامى عبدالقادر

من طرابلس الغرب إلى الصحراء الكبرى، ترجمة محمد الواسطى، قدمه على مصطفى المصراتى، طرابلس: دار المصراتى للطباعة والنشر والتوزيع، 1974.

13 - الجراري عباس،

ثقافة الصحراء، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 1978.

14 - حجي محمد

الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، المغرب: مطبعة فضالة، 1977م.

15 - حركات إبراهيم

المغرب عبر التاريخ، الدار البيضاء: دار الرشد الحديثة 1984م.

16 - حسن، حسن إبراهيم

الإسلام في القارة الإفريقية، ط : 3 القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 1984.

17 - حسين أحمد الياس

سلع التجارة الصحراوية، الصحراء طرابلس: مركز الليبيين للدراسات التاريخية. 1979.

18 - حشيمة عبدالله

فى إفريقيا السوداء، بيروت: المطبعة الكاثوليكية، 1962 م.

19 - الخشاب وفيق حسن وإبراهيم عبدالجبار المشهداني

إفريقيا جنوب الصحراء، بغداد، 1978م.

20 - دافدسن، بازل

إفريقيا تحت أضواء جديدة، ترجمة جمال أحمد، بيروت: دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، دون تاريخ.

21 - الدالى الهادى المبروك

العلاقات بين مملكة مالي الإسلامية، وأهم المراكز بالشمال الإفريقى من منشورات مركز دراسات أبحاث شئون الصحراء، بيروت، دار المحيط، 1990م.

22 - الدالي الهادي المبروك

مملكة مالي الإسلامية، وعلاقاتها مع المغرب وليبيا، اللجنة العلمية لدراسةجنوب الوطن العربي، بيروت: دار صنين للطباعة والنشر، 1996.

23- الدالي الهادي المبروك وعمار هلال
الإسلام واللغة العربية في مواجهة التحديات الاستعمارية بغرب إفريقيا 1850- 1914، اللجنة العلمية لدراسة جنوب الوطن العربي، بيروت: دار صنين للطباعة والنشر للطباعة والنشر، 1996 م.

24- الدالي الهادي المبروك
من روائع أدباء إفريقيا فيما وراء الصحراء، اللجنة العلمية لدراسةجنوب الوطن العربي، بيروت، دار صنين للطباعة والنشر، 1996 م.

25- الدالي الهادي المبروك
تاريخ إفريقيا فيما وراء الصحراء من خلال الرواية الشفوية، مرقون تحت الطبع.

26- دندش عصمت عبداللطيف
دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا 1103 - 1121 . بيروت: دار الغرب الإسلامى، 1988

27- دى فيج جي
تاريخ غرب إفريقيا، ترجمة وتقديم وتعليق السيد يوسف نصر، مراجعة بهجت رياضى صليب، القاهرة: دار المعارف، 1982.

28- ديور محمد علي
تاريخ المغرب الكبير، القاهرة: 1963 م.

29- روكز يوسف
إفريقيا السوداء سياسية وحضارة، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1986 م.

30 - زبادية عبدالقادر

مملكة سنغاى في عهد الأسقيين، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، 1977.

31 - زكي، إبراهيم، وخور رشيد وآخرون،

دائرة المعارف الإسلامية، مادة تنبكت ط : القاهرة: دار الشعب 1969، المجلد العاشر.

32 - زكى عبدالرحمن

تاريخ الدول الإسلامية السودانية بإفريقيا الغربية، القاهرة: المؤسسة العربية الحديثة، 1964 م.

33 - زكى عبدالرحمن

الإسلام وا لمسلمون في غرب إفريقيا، دمشق، مطبعة يوسف، دون تاريخ.

34 - زناتي، محمود سلام

الإسلام والتقاليد القبلية في إفريقيا، بيروت: دار النهضة العربية، 1969م.

35 - زيادة نقولاى

المغرب والسودان الغربي في أمام المنصور الذهبي، بيروت، 1967م.

36 - زيادة نقولا

إفريقيا دراسات في المغرب العربي والسودان الغربي، رياض الريس للكتب والنشر، 1991.

37 - سعودي محمد عبدالغني

الاقتصاد الإفريقى والتجارة الدولية، القاهرة مكتبة الأنجلو المصرية، 1973.

38- سليم، حسن
مصر القديمة عصر ماقبل الإسرات، القاهرة دون تاريخ.
39- شعيرة محمد عبدالهادي
المرابطون تاريخهم السياسى، القاهرة: مكتبة القاهرة الحديثة، 1969م.
40- شلبى أحمد
موسوعة التاريخ الإسلامى، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1963 م.
41- الشيخ عبدالرحمن عبدالله
دول الإسلام وحضارته فى إفريقيا، الرياض : دار اللواء، 1983.
42- طرخان إبراهيم على
إمبراطورية غانة الإسلامية، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1970.
43- طرخان إبراهيم على
دولة مالي الإسلامية، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1973.
44- طرخان إبراهيم علي
إمبراطورية البرنو الإسلامية. القاهرة، المكتبة العربية، 1975.
45- الطيبى أمين توفيق
دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، ليبيا - تونس : الدار العربية للكتاب، 1984 م.
46- عبدالقادر سيلا محمد
المسلمون في السنغال، كتاب الأمة، قطر، 1986 م.

47 - عبدالوهاب، حسن حسني
ورقات من الحضارة العربية في إفريقيا، تونس، 1965.
48 - العربى إسماعيل
الصحراء الكبرى وشواطئها، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1983 م.
49 - العمرى أحمد سويلم
الإفريقيون والعرب، والقاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، 1967 م.
50 - علي فاي منصور
دولة مالي الإسلامية في عصرها الذهبي علي عهد السلطان منسا موسى، رسالة ماجستير، جامعة القاهرة، كلية اللغة العربية، 1984، لم تنشر.
51 - عوض الله الشيخ الأمين
العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي، جدة، دار المجمع العلمي، 1979.
52 - غانم، عماد، ومايكل محرز وحمد الأسطى وآخرون.
الصحراء الكبرى طرابلس: مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 1979م.
53 - الغربي محمد
بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، بغداد: دار الرشيد للنشر، 1982.
54 - فرج، فرج محمد
إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1977م.

55- قاسم جمال زكريا
الأسول التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية، مطبعة الجبلاوى، 1975.

56- قداح نعيم
إفريقيا الغربية في ظل الإسلام، مراجعة عمر الحكم كوناكرى، 1969.

57- قداح نعيم
حضارة الإسلام وحضارة أوروبا في إفريقيا الغربية، الجزائر: 1975م.

58- القشاط محمد سعيد
التوارك عرب الصحراء الكبري، ط: 2، مركز دراسات وأبحاث شؤون الصحراء، إيطاليا: كاليارى، مطابع اديتار، 1989.

59- القنص الحسن
التطور التاريخي لمالي، بحث مقدم للمركز الثقافي الليبي باماكو 1985م، لم ينشر.

60- كريم عبدالكريم
المغرب في عهد الدولة السعدية، الرباط: شركة الطبع والنشر، 1977.

61- محمد علي كرد
الإسلام والحضارة العربية، القاهرة، 1354.

62- لوت هنرى
الصحراء الكبرى كمجال حيوى للإنسان، تعريب عماد غام، طرابلس: مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية.

63- الماحى عبدالرحمن عمر
الدعوة الإسلامية في افريقيا الواقع والمستقبل، ط: 5 الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1989.

64 - مارتي بول

البرابيش بنوحسان، عربه وعلق عليه محمود ولد ودادى، دمشق: مطبعة زيد بن ثابت 1985م.

65 - مارتي بول

كنته الشرقيون، تعريب محمد محمود ولد ودادى دمشق: مطبعة زيد ثابت، 1985.

66 - مايكوربما زكارى ويوبي كابو ويودى هادو وآخرون

الحضارة الإسلامية في النيجر، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة - إيسيسكو الرباط: مطبعة اليت، 1994.

67 - محمود حسن أحمد

الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا، القاهرة، 1962 م.

68 - مقلد محمد يوسف

موريتانيا الحديثة غابرها وحاضرها، بيروت، دار الكتاب اللبنانى، 1960 م.

69 - مؤنس حسين

اطلس تاريخ الإسلام، القاهرة، الزهراء للإعلام العربي، 1987.

70 - النحوى الخليل

بلاد شنقيط المنارة والرباط وتونس: 1987 م.

71 - نياني جبريل

مالي والتوسع الثاني للماند، تاريخ إفريقيا العام اليونسكو، بيروت: المطبعة الكاثوليكية، 1982.

72 - وايدنر دونالد

تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء، ترجمة على فخرى وشوقى عطا الله الجمل، القاهرة، مؤسسة سجل العرب، 1976.

73 - هلال عمار

الطرق الصوفية ونشر الإسلام والثقافة العربية في غرب إفريقيا السمراء، الجزائر: مطبعة المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، 1988م.

74 - يوشع، بشير قاسم

غدامس، ملامح وصور، بيروت: دار لبنان للطباعة والنشر، 1973 م.

الدوريات:

1 - **أيوب محمد سليمان**

جرمة من عصر ازدهارها، بحث مقوم للمؤتمر التاريخى بكلية الاداب الليبية، 1968. منشور.

2 - **بليغ، أحمد فؤاد**

عبدالرحمن السعدى عصره وكتابه «المجلة التاريخية المصرية»، منشورات الجمعية المصرية للدراسات التاريخية القاهرة، 1973، ع20.

3- **التازي، عبدالهادي**

المغرب فى خدمة التقارب الإفريقى الغربى مجلة دعوة الحق، تصدر عن وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، المحمدية: مطبعة فضالة، إبريل ماي، العدد 269.

4 - **الجنحانى، محمد**

ابن سعيد الدرجينى، حوليات الجامعة التونسية، تونس: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1977، ع 15.

5 - **حركات، ابراهيم**

دور الصحراء الإفريقية فى التبادل والتسويق خلال العصر الوسيط، مجلة البحوث التاريخية، طرابلس: مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، س 3، ع يناير، 1981م.

6- حركات، إبراهيم

طبعة العلاقات المغربية مع إفريقيا الغربية في العصر الوسيط
مجلة دعوة الحق، تصدر عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، أبريل ماي 1988، العدد 269.

7 - حسين، أحمد الياس

سلع التجارة الصحراوية الكبرى، مجلة البحوث التاريخية، طرابلس: مركز الليبيين للدراسات التاريخية، سنة 2 ، مارس 1979 م.

8 - رزوق محمد

قضية الرق في تاريخ المغرب. مجلة البحوث التاريخية، السنة 8، العدد 2 ، منشورات مركز جهاد اليبيين للدراسات التاريخية طرابلس، 1986.

9 - زبادية عبدالقادر

محمد بن عبدالكريم المغيلى مجلة الأصالة: الجزائر: 1975، السنة 4، ع 26.

10 - زبادية عبدالقادر

القرن 16 وحركة التعليم فى تنبكت مركز التبادل الثقافى الأول مغ المغرب، مجلة المؤرخ العربي، 1980م، ع 14.

11 - فخار، إبراهيم

تجارة القوافل فى العصر الوسيط ودور التجار الليبيين فى حضارة الصحراء الكبرى، مجلة البحوث التاريخية، طرابلس: مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ع 19.

12 - قاسم جمال زكريا

كتاب وصف إفريقيا، حوليات كلية الآداب، جامعة عين شمس، القاهرة: 1968، مجلد 11.

13 - كامل عبدالعزيز

العروبة والحضارات الإفريقية في منظور جديد، مجلة معهد البحوث والدراسات العربية، تقدرها جامعة الدول العربية، مارس 1972، ج 3.

14 - مجهول

إمبراطوريات السودان الغربى، مجلة الدراسات الإفريقية جامعة القاهرة: معهد البحوث والدراسات الإفريقية، 1972، ع الأول.

15 - محمود حسن احمد

دور العرب في نشر الحضارة في غرب إفريقيا، مجلة كلية الآداب بالقاهرة. 1959، ع 15.

16 - ناعمي مصطفى

أهمية التجارة بالنسبة للبنية الاقتصادية والاجتماعية لعرب الصحراء بلدة تكنة، مجلة البحث العلمى، الرباط: المعهد الجامعي للبحث العلمى، دون تاريخ.

17 - إبراهيم محمد عبدالفتاح

الثقافات الإفريقية، القاهرة: 1965.

18 - إبراهيم محمد عبدالفتاح

إفريقيا من السنغال إلى نهر جوبا، القاهرة؛ مكتبة الأنجلو المصرية، 1961م.

19 - بن عبدالله عبدالعزيز

الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية معلمة لصحراء ملحق:
الرباط: مطبعة فضالة، 1976.

المراجع الأجنبية

1 - Abitbol Michel, **Tombouctou et les Arma,** G. P Maisonneuve et larose, Paris 1979.

2 - Barth Henri, **voyages et Decouvertes dans I,Afriquc Septentrionae et central,** Vol I Paris 1860.

3 - Basil Davidson, **Africa in History,** Macmillan, New York 1974.

4 - Blyden, E.W, Christiantiy, **Islam and the Negro Race,** London 1881.

5 - Bonchars Ahmed, **le Maroc et I'Afrique dans le contexte des Grandes** Decouvertes, Institu dis Etudws Africanie Rabat, Imprimerie Najah El Jadida Casablanca 1992.

6 - Cardot, Vera, **Belles Page di I'histoire Africanie.** Paris 1961.

7 - Caillie Rene; **voyage a Tombouctou;** Paris 1982.

8 - Clerici Assio, **Histoire des Peuples Noires,** Paris 1921.

9 - Cuop Joseph, **Recueil des Sources Arabes Concernant occidentale de XIII au XVI siecle,** ed du C.N.R.S Paris 1975.

10 - Cuop Josep, **Histoire de I'Islamisation di I'Afriquede I'ouest Libraire Oriental.** Paul Genther S.A. Paris 1984.

11 - Conale, J.S. **Africa Noire,** Paris 1954.

12 - Damman, E, **les Religions de I'Afrique,** Traduit de I'allemend par Jospin. L Payot. Paris 1978.

13 - Dekeyer P.L et Drivot: **les oiseaux de I'ouest Africain.** Dakar 1966.

14 - Delafosse' **Hante senegal - Nigev**; Paris 1912.

15 - Champs des H. **I'Afriaue Pre - Coloniale,** Paris 1962.

16 - Dialo Abdoulaziz, **Serie de conferences relatives aux relations entre le Mali et le Monde Arabo Islamique. a Partir du Mpuem age. le centre culturel Islamique.** Bamako - Mali premiere partie I'Empire du Mali Septembre 1988.

17 - Dipo H.A. **L'Afrique Noire Pre - colonial,** Paris 1956.

18 - Dubois F, **Timbucto the Mysterions.** London sans date.

19 - Dupuis Y, **Industries Principales Professions des Habitants de la Region** de Tombouctor, Paris, 1992.

20 - Fage. J. **Atlas of African. R. History.** London 1958.

21 - Feanandes Valentim, **Description de la cote occidentale d'Afrique au cap de Monte,** Archipels, Societe Industuiel de topographie Lisbone 1951.

22 - Gouilly, A, **L'Islam dans I' Afrique Occidentale Francaise,** Paris, 1952.

23 - Goiten. **Studies In Islamic History and Institutions I,M lemis. Islam in Tropical Africa,** Oxford 1966.

24 - Grand larorsse Incyclopidi, 1962.

25 - Hamani Djibo, **Au carrefour du Soudan et ka Berberie: li Sultanat Touarez de l'ayar,** Institue de recherches en sience Humaines, Niamey 1989.

26 - Hunwick, J.D. **Transactions of the Historical Journal of Ghana Vol VII** 1964.

27 - Hunwick. J.D. **Songhay, Borno and Hausa Land in Sixteen Centruy History of Africa ed Ajayi,** J.F.A. Vol I Great Britain 1976.

28 - Issifou Draman zakari, **I'Afrique Noire dans les relation Interna-**

tiolnales au XVi Siecle, Edition Karthalo, Paris 1982.

29 - luneau R.et L.V. thomas, **les Religions d'Afrique Noire textes et traditions sacres.** Edition stock 1981.

30 - Keyser et A. Villers **les Animaux Proteges de l'Afrique Noire,** Dakar 1961.

31 - Ki - Zerbo Joseph, **Histoire de I'Afrique Noire.** Paris 1978.

32 - Law, R.C.C **The Garamanties and Thans - Saharan Enterprise in classical times** J.A.H. Vol 8 N2 1967.

33 - Levis, I.M **Islam In Tropical Africa,** Oxford, 1969.

34 - Levtzion, N. **The Early states of the Western Sudan to 1500 History of West Africa,** ed Ajayi J.F.A. vol I Great Britain, 1967.

35 - Lhote Henri; **les touaregs du Hoggar. Armand colin Éditeur;** Paris 1984.

36 - Mauny, **Tableau beographique de I'ouest Africain au moyen Age,** Dakar 1961.

37 - Masto ca Da, **Relation de voyages a la cote Occidentale de I'Afrique,** Paris 1995.

38 - Mody Cisoko Shene et Dione. D, **Histoire de I'Afrique.** Paris 1973.

39 - Mody Cisoko Shene, **Tomboncton I'Empire Sonnghai,** Dakar les Nouvelles Editions 1975.

40 - Moneil Charles, **une cite Sondanaise Djenne Metropole du Delta central du Niger,** paris 1931.

41 - Moulaye Zeine, les relation du Mali avec les Etats Nord Africains de 1960 a 1980 These de Doctorat de 3 cycle en science Politique universit de Paris Departement de science Politique de Isorbonne 1982.

42 - Murray, Historical account of Discoveries and travel in Africa Edenburgh 1981.

43 - Naine Tamsir Djibril, **Recherches sur I'Empire du Mali au Moyen Age,** Presence Africanie Paris 1975.

44 - Prefontan lient, **Histoire de To, buchucto de sa fondation a I'occupation franciae,** Paris 1942.

45 - Rouch, J. **les Songha,** Paris 1954.

46 - Saad N. Elias, **Social History of Timbuktu:** The Role of Muslim Scholars and Notables, Cambridge 1983.

47 - Paul Tomassey et Mauny. R. Compagne de fouilles a Kombi Salah, Bull de I'institue Francaise d'Afrique Noire IXIII 1951.

48 - Trimingham J.S., History of Isla; in West Africa, Oxford 1967.

49 - Zouber A. Mahmoud, **Ahmed Baba de Tombouctou 1556 - 1626 Sa vie et son Oeuvre Maisonneure et Larose** Paris 1977.

50 - Zouber A. Mahmoud, **Abdoullah boularaf Sonkore Ahmed baba 1993.** N4.

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية

المحتويات

المقدمة ———— 9

الفصل الأول :

التطور التاريخي لمنطقة السودان الغربي ———— 15

الفصل الثانى :

الوضع السياسي في منطقة السودان الغربي ———— 87

الفصل الثالث :

البنية الأقتصادية للسودان الغربي ———— 265

الخرائط والأشكال ———— 351

المخطوطات ———— 365

المصادر ———— 385

المراجع :

المراجع العربية ———— 397

الدوريات ———— 407

المراجع الأجنبية ———— 411

التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا
فيما وراء الصحراء

إن أبرز ما يميز هذا المؤلفَ هو ذلك الكشف والاستبصار الذي يقوم به المؤلف لسد أغوار تلك المنطقة السياسية المهمة بعرض تاريخي شيق يجمع بين الجدة والأصالة من جهة والقيمة العلمية والإنسانية من جهة أخرى .. إذ تمكن المؤلف من أن يسلط أضواء البحث والاستقصاء على منطقة طالما أغفلتها الجهود البحثية الأخرى أو كادت أن تندر فيها ، دون تأثر بميل ذاتي أو دفاع عن آراء مسبقة قد يفرضها انتماء الباحث إلى أحد شعوب هذه المنطقة ، فجاءت أبحاثه مفعمة بالقيمة العلمية الذاخرة وبالملامح الإنسانية الكثيفة التي لا يخفى على أحد أنها الهدف الأساسي للتاريخ وكتّابه ، باعتبار أن التاريخ هو الذى يفسر الإنسان للإنسان....

يقع الكتاب في ثلاثة فصول ، يتناول أولها التطور التاريخي للمنطقة ، وفيه تتبع المؤلف بكل دقة تلك الخطوط المتداخلة والمتكاثفة التي حددت معالم هذه المنطقة جغرافيا ، ثم تناول الفصل الثاني الوضع السياسي في منطقة سنغاى باعتبارها المنطقة المحورية المؤثرة - بشكل غير يسير - في تشكيل القوى والانتماءات السياسية.

ثم يتعرض المؤلف في الفصل الثالث والأخير للبنية الاقتصادية للمنطقة ، ويتبعها بخاتمة يسجل فيها المؤلف أهم ما توصل إليه من نتائج ، آملاً أن يلقي عمله هذا الضوء على منطقة كانت في أمس الحاجة إلى هذا الضوء .

إن الكتاب بما له من سلاسة العرض وغزارة المجموعات ، يلفت انتباه القارىء - المتخصص وغير المتخصص - بما يحتويه من عرض تاريخي مكثف وجديد ، ويفتح الباب - على مصراعيه - أمام مؤلفات أخرى تسير على الدرب نفسه .

الناشــر

Bibliotheca Alexandrina
0261107

الدار المصرية اللبنانية
16 عبد الخالق ثروت - تليفون: 3923525 - 3936743
فاكس: 3909618 - ص . ب 2022 برقيا: دارشادو - القاهرة.